

C.1

ابوالنصره عمر .

الحضارة الاموية في دمشق .

956.91

A16H

C.1

JAFET LIB.

1 FEB 1955

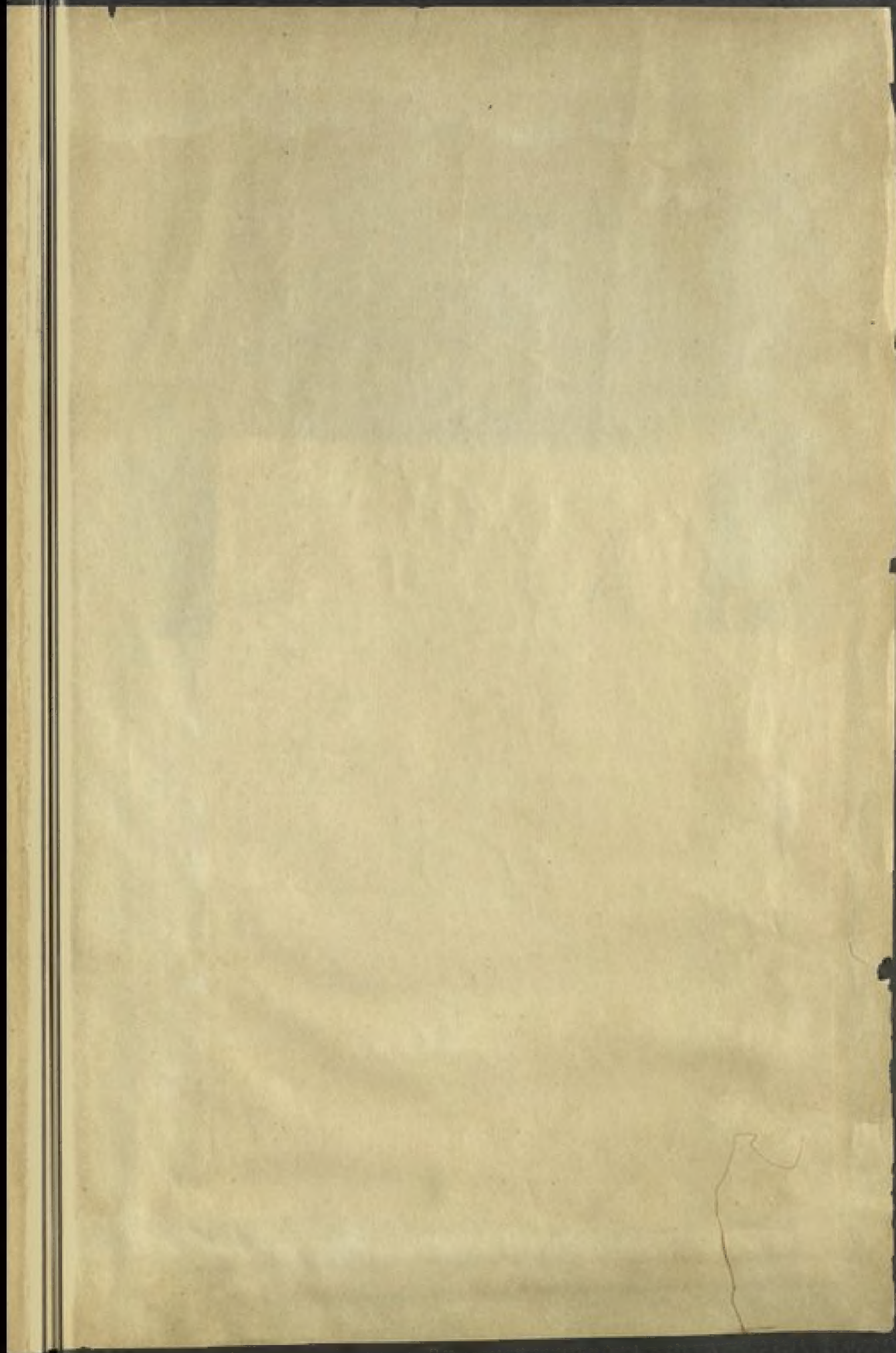
J. Lib.

29 JAN 1959

2 NOV 64

21 Mar 65

FEB 1974





الحضارة الاموية العربية

في دمشق



اهداء الكتاب

الى صاحب الفخامة السيد شكري القوتلي

رئيس الجمهورية السورية

يا صاحب الفخامة

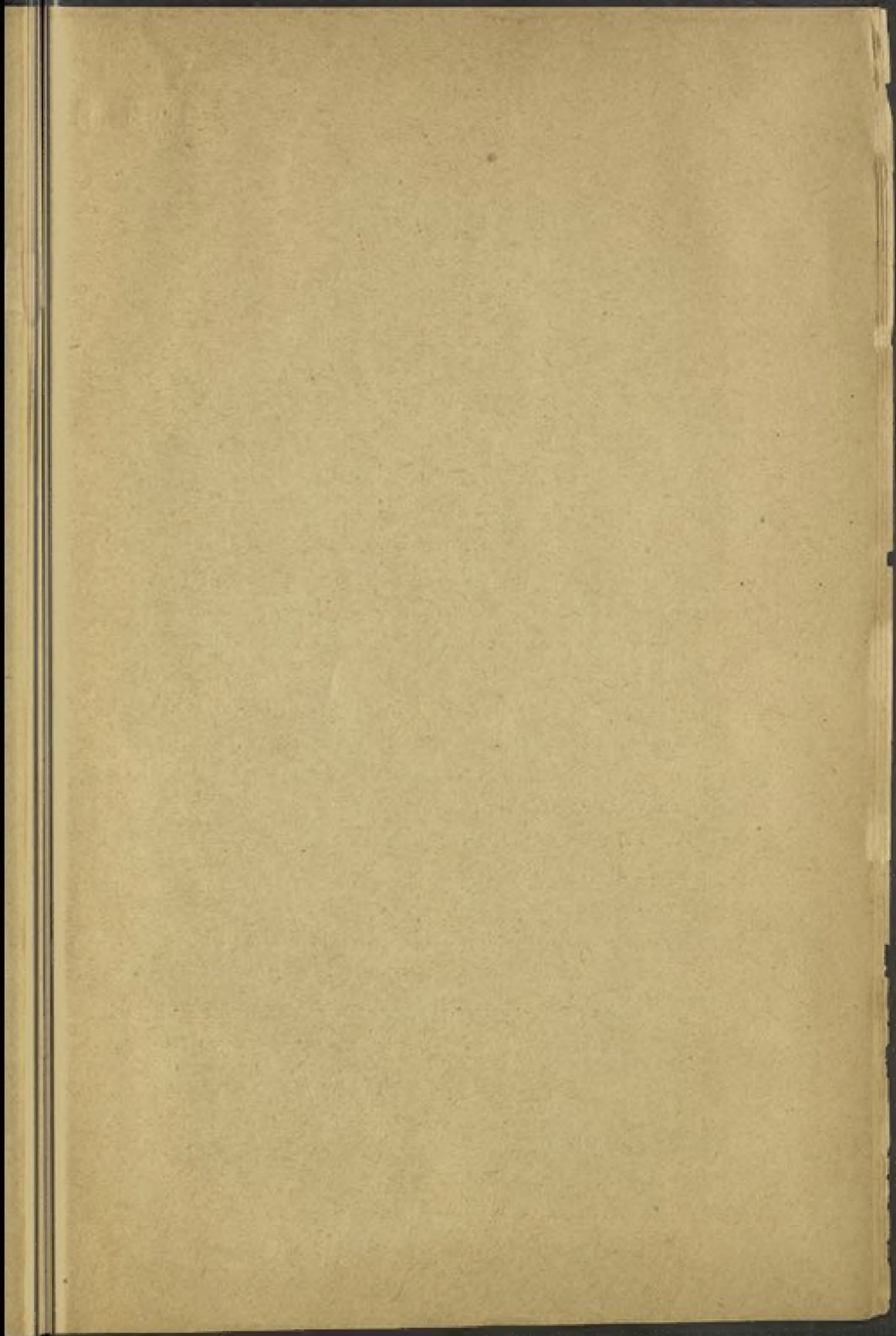
ليس احق منك ، يا صاحب الفخامة في تقبل هذا الكتاب الذي يصف الحضارة في دمشق ، بلدك ومنازل الغر الميامين من اهلك وقومك وعشيرتك ، وعاصمة الجمهورية السورية العربية اليوم ، وعاصمة الخلفاء معاوية والوليد وهشام لأجيال خلت ، هؤلاء الملوك الذين سبقوك على عرشها ، ففتحوا الفتوح ، وحشدوا الحشود ، وبعثوا براياتهم تطل على سواحل المحيط الاطلسيكي ، كما لوحوا بها مخضبة بالانتصارات فوق قلاع الهند ، ومجامل الصين ... وكانوا الى ذلك في عهدهم ملء السمع ملء البصر ، وكانت امهم اقوى امة في العالم ، وكانت دمشق عاصمة الارض ومن عليها ...

حتى اذا انتهت من اثر الملوك والخلفاء في الحضارة والعمران والاحسان عمدت الى آثار العلماء والفقهاء والادباء والشعراء والمؤلفين والفنانين ، الذين انشأوا هذه الحضارة ، واقاموا هذه الدنيا الزاخرة بالعلوم والمعارف المعروفة في عهدهم ، والتي حاول كثير من المؤلفين التهمين من فضل دمشق فيها ، والاضفاف من عبقرية دمشق وسورية في خلقها وزرعها والعناية بها ، فان وقتت الى اعادة هذا الحق الى اصحابه ، اكون قد وفيت ديناً علي كمؤلف عربي لهؤلاء الخلفاء والملوك والعلماء والادباء والشعراء ، واكون قد قت بالواجب نحوكم كزعيم عربي تتمثل في روحه عبقرية سورية العربية ، وعبقرية هذا الشباب المتحفز من اهلها ، الذي يعمل جاهداً لياخذ مكانه في صدر الوجود ...

وكل املي ان تقبل مني هذا الكتاب المتواضع الذي سيصبح عظيماً بالانتساب اليك ، كبيراً عند رضائك عنه وقبولك له ..

بيروت في ٢٥ / ٧ / ١٩٤٨

عمر ابو النصر



مقدمة الكتاب

لعل هذا الكتاب الاول من نوعه في العربية ، فما اعلم ان مؤلفاً طرقت هذا البحث واجراه على النحو العلمي الذي اجرته ، ولا كاتباً عرض له على هذا الشكل الواسع الحدود المبيد المسالك ، ذلك انه ليس من السهولة بالقدر الذي يظن بعضهم ، ولا هو من الموضوعات التي يستطيع اخضاعها للقواعد المألوفة في دراسة التاريخ ، فاريخ الحضارة الاموية من الموضوعات الشائكة ، ومن البحوث التي لم يطورها مؤلف سابق ، لضعت مصادرها ونشبت الوانها ، واختلط اخبارها وامتزاجها بعضها ببعض . بحيث كان من السهل على المؤرخ ان يدرس الحضارة العربية جملة واحدة ، خصوصاً وان هذه الحضارة اذا كانت قد نشأت في العصر الاموي ، فقد ابنت وانت اكملها في العصر العباسي ، فتقسم البحث والحالة هذه بحمل تاريخ الحضارة بين النقص ، ظاهر القلق ، محدود الاطراف ...

ولكنني خلصت من هذا كله الى ضرورة انصاف هذه الدولة التي فتحت الفتوح ، فوصلت ما بين المشرق والمغرب ، ووسعت رقعة الخلافة ، وكانت عربية خالصة ، وتأكدت من انه مما قبل في سياستها وادارتها ، فانه يصح انصافها ، والاشادة بحاسن اعمالها وآثارها ، فكان ان قررت المضي في التأليف لحضارتها ، كما فعلت لالعوام سبقت في التأليف لتاريخ بعض رجالاتها ، فكان من اثر ذلك هذا الكتاب الجديد الذي يبيد سيرة دمشق يوم كانت منازل الملوك ومواطن الخلفاء ، ودورة الفلك ، واعظم عواصم العالم القديم حضارة وثقافة وادارة وسعة امصار ، وكثرة جيوش ، ويوم كانت تجمع على شواطئ انهارها الصغيرة الشعر والادب والفن ، وقادة الفكر والعلم والحرب والادارة ، ويوم كانت دمشق الدنيا ، وكانت الدنيا دمشق ...

ولست الى هذا بجدع فضلاً فيما اكتب وانشر ، ولا اقصد بما كتبت قديماً وبما سأمدره من جديد جزاء ولا شكوراً ، وانما انا كاتب جاشت في صدره خواطر فلم ير من اظهارها بداً ، وخطرت له آراء فلم يجد من اذاعتها منصرفاً ، واراد غاية مثلي فهو

يسعى اليها ويعمل جاهداً على اقرارها ...
ولقد يكون بين الادباء من يفقد الاخفاق عليه امره ، ويكون بينهم من يتاح له
النقد في ذلك فلا يعطره الفوز ، ولا يضعفه الاخفاق ، وانما يسلك بين ذلك
سبيلاً وسطاً .. ملتصقاً لذته ومتمتعاً في فنه وآثاره ، اكثر مما يلتصق ذلك في رأي
الناس واعجابهم به ، وتهالكهم في الثناء عليه ...
وفي مرجوي ان يجد كتابي هذا عند جبهة القراء من شباب العرب التقدير الذي
يستحقه ، واذا استطاع ان يؤدي رسالته ، وان يثير في شبابنا حب الاعمصار
والاحسان ، وان يدفعهم الى كثير من العمل وقليل من القول ، فيمضون قدماً
لبناء دنيا العرب الجديدة على غرار ما فعل اجدادهم ، واقر آباؤهم ، يوم كانت
تتضاءل تحت اقدامهم مدن واقاليم ، ويوم كانوا امراء القرائع ، وسادة الادارة ،
وملوك العمران والحضارة ، اكون قد وصلت الى الغاية التي اريدها ، والرسالة التي
احاول تحقيقها ...

بيروت ٢٥ / ٧ / ١٩٤٨

المؤلف

العرب والحضارات الاولى

امول الحضارة العربية

« من الحقائق التاريخية ان لغة الامة عنوان سمو مداركها ، كما انها نموذج لما سميت اليه في درجات الحضارة والرقى ، ويسجل على امة متأخرة في المدارك غير متقدمة في الحضارة ان يكون لها لغة راقية ، ولسان بليغ ، وادب وشعر وقنون ناضجة . »

حيث ان هذه الحقيقة التاريخية المستدرك كالبنيان^١ لما تناول في كتابه الضخم عن تاريخ الاسلام ، تاريخ العرب في الجاهلية ، فاذا هو امام شعب عربي ضعيف ، ومجتمع فاسد قلق ، لا يتناسب مع اللغة الراقية التي ينعم بها ، ولا اللسان البليغ الذي ينطق به ، ولا هذه الآداب والحكم ومختلف الفنون التي تجري على لسانه في شعره ، ووجد ايضاً انه ليست هناك ملائمة ولا قياس يجمعان بين ما هي عليه اللغة العربية من نمو وتقدم وجدة وفرة ، وبين هذه الحالة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الضعيفة التي كان يجيها العرب عند وضع المعلقات ونزول القرآن ، خصوصاً وان قوة اللغة هي عنوان قوة المجتمع في شتى نواحيه ، وليس هناك امة في العالم تنعم بلغة قوية عقواً وارتجالاً ، دون ان يستبق ذلك حضارة سابقة ونمو عام يساعدان على نمو اللغة وتقدمها ..

(1) Leon Caetani, Annali dell islam -- Milan (1905 -- 8 vol.)

واذن فاللغة العربية التي صدرت عنها المملقات ، ونزل فيها القرآن الكريم ليست من نتاج المجتمع العربي الضعيف في العصر الجاهلي وعند ظهور الاسلام ، وانما هي نتاج مجتمع عربي قوي جبار ، غني في مادته ، غني في ادبياته ، لا يقل غناء وقوة وتفكيراً وعبقريّة عن المجتمعات الراقية في القرون الثامن عشر مثلاً ، ولولا ذلك ما تمكن هذا المجتمع من اقرار هذه اللغة التي تلابس في تراثها لغة هذه المجتمعات الاوروبية في العصر الحاضر .

وكما ان امرات مصر وقبروها ، وبقايا مدن الرومان واليونان وما فيها من الآثار الفنية والصناعية الراقية ، يؤيدان المركز السامي الذي كان لهذه الامة في سابقات الايام في مبادئ العلم والفنون والحضارة ، فكذلك اللغة وما فيها من ثروة ادبية وعقلية وجدة ، يوهان فاثم على ما وصلت اليه الامة التي تسكلمها من عمران وعبقريّة وحضارة .

المصادر والآثار

ولما اخذ المستشرق كايثافي بنصمدي في عصور التاريخ العربي ، وجد من المستندات الاثرية والحفائق العلمية الرواناً واشكالاً ، ذكر تفاصيلها في كتابه وهي تؤيد ان الجزيرة العربية منذ ثيف وعشرة آلاف سنة لم تكن صحراء مجدية ولا بلداً فاحلاً ، ولكنها كانت ذات انهار وبحيرات وغابات وبساتين ومدن وفري تبيع بالناس ، وتنعم بطرق تجارية حسنة وحقول رائعة خصبة ، وايد هذه الحفائق المستشرق فيلبي في رحلته الاخيرة الى الربع الخالي من جزيرة العرب ، لما عثر فيه على مدن وسواجل لبحيرات عظيمة جافة ، وآثار لطرق معبدة سالفة ، وبقايا لحيوانات بالية ، وعظام حيوانات وغيرها مما لا يعيش إلا في الماء او على السواحل

وتحت ظلال اشجار باسقة وغابات وبساتين وارقة ، قد طمرتها الرمال
ودفنتها بين طياتها منذ آلاف السنين .

ومن المؤكد ان غناء اللغة العربية حين نزول القرآن وناليف
المعلقات لا يمكن ان يولد من ففر المجتمع العربي في ذلك الحين ، وقد
تحسن صنعاً اذا رددنا هذه الثروة في اللغة الى تلك الثروة في المدنية التي
تؤكد لنا المستندات التاريخية والعلمية وجودها في جزيرة العرب قبل
نيف وعشرة آلاف سنة ، خصوصاً وان علم طبقات الارض ، يؤكد من
الجهة الثانية ان الكرة الارضية قد مرت باربعة ادوار جليدية آخرها
انتهى دوره قبل عشرة آلاف سنة ، كما ان هذا العلم نفسه يقول : ان
الجليد كان يغطي اكثر اقسام اوروبيا الشمالية والوسطى ، وما كان
يذوب منه كان ينحدر سيولا وانهاراً نحو آسيا الصغرى والهند
الحضيب ، ومنه الى جزيرة العرب ، وكان الجو في ذلك العهد شديد البرد
في كافة اوروبيا ، ولكنه بارد معتدل في الجزيرة العربية ، قليل الحرارة في
مناطق خط الاستواء ، بحيث ان الجو في الجزيرة كان يساق جو جنوبي
اوروبيا والبلقان في الوقت الحاضر ، وكانت الجزيرة الى هذا تؤخر بالانهار
والينابيع المتدفقة وكثرة الامطار بطبيعة الحال ، وللفلكيين في هذا
تعليلات لا مجال الى سردها هنا ، واذا كان هذا حقاً فمن المفروض انه
عندما انتهى الدور الجليدي الرابع وجفت انهار وبحيرات الجزيرة العربية
صارت الامواج العربية تصعد شمالاً نحو الهلال الحضيبي نخلصاً من
الجفاف وارتداداً للكلاء والمراعي ، فتكونت تدريجياً دول الهلال الحضيبي
وشمال افريقيا السامية من آشورية وكلدانية وفينيقية وفرعونية وبنو
العصور الطويلة انخرقت لغات هذه الامواج عن لغتها الاصلية ،
فتكونت لغات هذه الامبراطوريات الجديدة التي هي عربية في الاصل ،

أما اللغة العربية نفسها فظلت سليمة في جنوبي الجزيرة العربية حيث كانت لغة اليمن ونجد، والحداد وسائر القبائل العربية في قلب الجزيرة وصارت تتداولها ألسن الشعراء والفصحاء والأدباء رغم ضياع ثروة البلاد على أثر الجفاف وزوال المدن العامرة والقرى الغنية ... وإذا كان هذا رأي المؤرخين المعاصرين في الحضارة العربية القديمة ، فإن كتاباً يبحث الحضارة الإسلامية حتى أواخر العهد الأموي لا يكون كاملاً إلا إذا عرض للحضارة العربية قبل الإسلام .

بلاد العرب وطبيعة الأرض

وتبلغ بلاد العرب ، أو الجزيرة العربية ، ربع أوروبا وثلاث الولايات المتحدة الأميركية ، وهي باجتماع المؤرخين موطن الأمم السامية ، ومنها هاجرت الجماعات التي أنشأت الحضارات في آشور وبابل وفينيقيا ، وفلسطين وغيرها .

وإذا كان هناك أرض في العالم تلزم سكانها حياة معينة محدودة ، فهذه الأرض هي الجزيرة العربية ، ولذلك وأيضاً أن أكثر سكان كانوا يجبرين على الجري على حياة بدوية ، لأن الأرض التي تصلح للزراعة قليلة جداً ، ولأن المطر الذي ينزل من السماء ، إنما ينزل على امكنة معينة ، بحيث يكون الكلاء مرة هنا ومرة هناك ، ويكون دائماً وابتداءً لوقت قصير جداً ...

الحياة في الجزيرة

أما حياة البدوي في الجزيرة ، فكانت تتكيف وفقاً لهذه الحياة الصحراوية القاسية التي يجيها ، مع ما يتبعها من التواحم مع القبائل

الآخري على ضروريات الحياة ، ومع ما يستدعي ذلك من عراك وعناء
للحصول على مقومات هذه الحياة .

وكان سكان الواحات الخصبة في الجزيرة ، يحرون على حياة مختلف
قليلاً عن الحياة التي يجيها البدوي ، لان المفروض في هذه الجماعات ان
تقيم في هذه الارض الخصبة ، وان تزرعها وترعها ، ولكنهم مع ذلك
كانوا يتفقون مع البدوي في طريقة عيشه وتفكيره ، وكانوا ما في ذلك
شك ولا ريب متأثرين بالحياة البدوية التي حولهم ، متأثرين الى حد بعيد
بالتفكير البدوي نفسه ، في الشعر وغير الشعر من الفنون الادبية التي
كانت تجد ارضاً خصبة في هذه الصحراء الملتفة بالحياة ...

وفي هذه الارض الواسعة كانت الحياة تسير سبيلها متحركة ابدأ ،
مختلفة دائماً ، ولكنها تظل مطبوعة بطابع البداوة والصحراء ، فاذا
هلكت قبيلة ، او هاجرت قبيلة الى مكان آخر ، اتت غيرها فحلت
محلها ، وراحت تحيا حياتها وتعيش على غرارها .

والتاريخ الى ذلك يدلنا على انه كانت هناك عوامل فكرية تتمحور
في هذه الجزيرة ، بينما لم يكن مثل هذه العوامل ظاهراً في غيرها من
الصحاري كصحراء البربر في افريقيا وهي تسارق الصحراء العربية محلاً
وجدياً .

وطبيعة الجزيرة العربية تختلف باختلاف بعدها وقربها من البحر
والانخفاض وارتفاعها عنه ، فجبالها ليست كسهولها واواسطها تختلف عن
اطرافها ، فليست الجزيرة نسقاً واحداً بخصبها واعتدالها ، وفيها واحات
فيها نخيل واعشاب وبقول وحبوب ، وفي جنوبها (اليمن) بلاد عالية
ومنخفضة ، حارة في بعضها باردة في البعض الآخر ، وفيها المياه وان
قل الجاري منها ، تكثر امطارها في مكان ، ونقل في غيره ، فيقل الحطب

في الحجاز قليلاً ، وبكثير في الطائف . واليمن اعمر الاقاليم العربية
ولذلك دعت (بالعربية السعيدة) فقامت فيها مدينة فديّة ، وقامت فيها
دول عظيمة لحصنها وإمراجها ، ولما فيها من الحاصلات مما لا يوجد في
غيرها ، كالطيب والورس ، والكندر ، والعصب واللبان والعقيق
والحشب والمعرق من الجزع وغير ذلك ^١

كما ان مزروعاتها كانت من الضخامة والعظمة بقدر عظيم جداً ،
وفي جبال بلاد العرب التي تكاد لا تنقطع سلسلتها من شمالها في ارض
الشام حتى الطائف وصنعاء وما وراءها من الاعتدال ولطف الهواء ما
يستغرب وجوده ، فالطائف تعلو ١٦٠٠ متر عن سطح البحر ، و (الها)
وهي في اليمن ٢٢٧٥ ، وصنعاء ٢٣٤٢ وكوكبان ٢٠٠١ وفي اليمن
والحجاز معادن كثيرة كالحديد والفضة والذهب ومثل هذا يقال عن
عمان وحضرموت والبحرين واليمامة والاحساء ، وما ظهور البترول
مؤخراً في جزيرة العرب دليل جديد على ما تنعم به هذه الارض من
خيرات وثروات ...

العرب قديماً وحديثاً

وليس لدينا من المعلومات ما يجري مجرى النقة في الصلات التي
تربط العرب الذين نسمع بهم في فجر التاريخ ، والعهد القديم ، مع عرب
اليوم ، ولكن الواقع انهم بشاهدينهم وبلايسونهم كثيراً ، فالحياة التي
كان يحياها العربي في ماخبات الايام ما تبهر تجري على نفس الوجه عند
عرب اليوم وعرب الامس القريب ، واول ما نسمع عن العرب في فجر
التاريخ نزوحهم الى ما حولهم من المواطن المتحضرة ، فتقدموا نحو

^١ الورس نبات كالسمسم ، والعصب شجر البلاب .

العراق ، ونفذوا الى فلسطين ، ففشلوا في بعض الحالات ، ونجحوا في بعض الحالات الاخرى ، وذلك قبل المسيح ، وفي التوراة القليل من اخبار العرب ، فقد تقدموا نحو فلسطين كما يظهر ، وتمكنوا من الاستيلاء على بعض المزارع والاراضي الحصبة الواقعة على اطرافها ، ثم ارندوا عنها في عهد القضاة وعهد دارد ...

واما العرب الذين كانوا يقيمون في الجزيرة فان حياتهم الزراعية ، ورغبتهم في الاتصال بالعالم حولهم ، كانا يفرضان عليهم موالات العرب البدو ، وعقد المعاهدات معهم لتأمين سلامة المواصلات وحماية القوافل ، وكان العرب دائماً يحافظون على هذه العهود تعقد فيها بينهم ، وبحترمون ما ابرموا وما عقدوا .

اسم العرب

ويذهب بعض المؤرخين فيما يذهبون ، الى ان اسم (العرب) نفسه يعني الصحراء^١ واول ما تقع على هذا الاسم في التاريخ القديم في الآثار الاشورية ، واما في التوراة فيصعب التأكد من هذا الاسم قبل عهد (ارميا) ، ويظهر من الآثار الفارسية خصوصاً في عهد الملك داريوس ان اسم (بلاد العرب) كانت يطلق على العراق وسورية وصحراء سيناء ، وتقع على اسم العرب عند اليونان في كتابات (اسيلوس) ، واما هيرودس المؤرخ اليوناني فانه يذكر العرب كشعب له اثره وخطره ، فيذكر مثلاً العرب الذين يسكنون المنطقة الواقعة بين فلسطين ومصر ، وكيف انهم يسيطرون على طرق التجارة بين القطرين ، وهو طريق كان له خطره عند الفرس وغير الفرس ، ويذكر اسم العرب في مؤلفات المؤرخين في عهده وبعده عهده ، كنهجها

١ نولدكه : فصل من تاريخ العالم الذي طبعته شركة دائرة المعارف البريطانية.

وكسنوفان ، وهذا الأخير يطلق اسم العرب على صحراء العراق .
ومن هذا التاريخ - الذي يمتد الى ما قبل المسيح - بدأ اسم
العرب يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجزيرة وسكانها ، واخذ يعني اللغة
والقومية معاً .

الحضارات السامية

واكثر المؤرخين اليوم على ان الحضارات السامية ترجع في اصولها
واهلها الى الجزيرة العربية نفسها ، وانها قامت على اكثاف العرب
البدو الساميين الذين هاجروا من الجزيرة الى المواطن الحصة في العراق
وفلسطين وسورية ، ومن المؤكد اليوم ان اللغتين اليهودية والارامية
يحملان في مفرداتهما ما يدل على ان اليهود والاراميين هم من اصل
بدوي سامي ، ويمكننا ان نتصور اليوم كيف تحدثت الموجات العربية
على وجه التقريب ، اذا اخذنا بعين الاعتبار حالة البدو وفقهم وجذب
الجزيرة وإيحائها ، وانتقالهم من مكان الى آخر طلباً للكلاء والماء ، حتى
اذا وصل بهم المطاف الى اطراف الجزيرة - فلسطين ، العراق ،
سورية - وابصروا فيها الماء الجاري ، والزراعة المثمرة ، وما ينعم به
سكانها من حياة راحة وعيش هنيء ، اغواهم الطمع فاكسجوا الارض
امامهم ، واستولوا عليها بالقوة ، وطردوا سكانها منها او نزلوا بالقرب
منهم ، ثم يتتابع قدوم العرب مع الالام ، حتى يصبحوا وهم الاكثرية
الساحقة في المكان الذي نزلوه اول مرة جماعات قليلة مستضعفة .

الساميون

وفي منتصف الالف الرابعة قبل المسيح (٣٥٠٠) كان البابليون

الأكاديون كما كانوا يسمون قبلاً نسبة الى عاصمتهم (أكاد) (Akkado) والاشوريون ، والكلدانيون بعدم ، يسكنون ما بين النهرين (الدجلة والفرات) ، وفي سنة ٢٥٠٠ ق.م كان الاموريون والكنعانيون والفينيقيون يسكنون سوريا وسواحلها ..^١ وفي سنة ١٥٠٠ ق.م سكن الاراميون سورية ، ونزل اليهود فلسطين ، عند خروجهم من مصر وقد اثبتت الحفريات الاخيرة ، ودراسة اللغات الخاصة بكل من هذه الشعوب انهم يتكلمون كثيراً ، ويتصلون بعضهم ببعض اتصالاً قوياً ، بحيث نستطيع القول ان الساميين ، والاشوريين ، والاموريين ، والاراميين ، والفينيقيين ، واليهود ، والعرب ، والحبيش ، قبل نفوذهم واختلافهم كانوا يسكنون مكاناً واحداً كشعب واحد .

ويجمع المؤرخون اليوم على ان هذه الشعوب كلها من اصل سامي ، ويكادون يجمعون على ان مهد السامية جزيرة العرب ، وان كان هناك من يذهب الى ان مهد السامية هو افريقيا ، ومنها نزل الساميون الى جزيرة العرب ، ويقول آخرون ان بلاد ما بين النهرين هي مهد السامية ، ولكن كثيراً من الصعوبات تعترض هذه المزاعم ، والاجماع يتعمد اليوم على ان مهد السامية جزيرة العرب ما في ذلك شك ولا ريب .

الموجات السامية

ولقد اشرنا قبلاً الى الاسباب التي دعت سكان الجزيرة العربية على مغادرتها الى غيرها ، واول هذه الموجات السامية قد اندفعت نحو

١ تاريخ العرب - فيايب حتى - الصفحة ٩ الطبعة الثالثة ١٩٤٣ (لندن) وهو غير الكتاب الصغير الذي نشر بالعربية في بيروت والذي كتب الاميركيين بصورة خاصة...

مصر كما يظهر سنة ٣٥٠٠ ق م ، حيث الحصب والماء والكلاء ، وسكنت
الجماعات السامية الجديدة مع السكان الحاليين سكان مصر الاولين ، ومن
هذا التزاوج بين الشعبين خرج الشعب المصري المعروف في التاريخ .
وفي الوقت نفسه على الأرجح خرجت موجة سامية اخرى من
الجزيرة ، ومشت الى ما بين النهرين ، حيث كان يسكن السومريون ،
ومن المؤكد ان الساميين من سكان الجزيرة العربية دخلوا ارض ما
بين النهرين وهم يجهلون كل شيء ، ولكنهم تعلموا من السومريين الكثير
، كانوا يجهلون ، تعلموا كيف يزرعون ، ويقيمون المنازل ، وكيف
يكتبون ، ويعيشون عيشة القبائل المقيمة .

ومن التزاوج بين العنصرين خرج العنصر البابلي ، الذي يعود اليه
فخر الحضارات الاولى مع المصريين .

وفي منتصف الالف الثالثة قبل المسيح ، خرجت موجة سامية الى
سورية ، وهم الاموريون ، ومنهم الكنعانيون والفينيقيون ، والفينيقيون
اول من اخترع حروف الهجاء في العالم .

وبين سنة ١٥٠٠ - ١٢٠٠ قبل المسيح يظهر اليهود في جنوبي
سورية (فلسطين) ، والاراميون في شمالي سورية .

وحوالى سنة ٥٠٠ ق م يظهر النبطيون في سيناء ، وكانت عاصمتهم
(بقرا) وقد بلغوا مرتبة حسنة من الحضارة والعمران .

وفي القرن السابع المسيحي اصدت جزيرة العرب موجة سامية جديدة
بزعامة محمد بن عبد الله نبي العرب وزعيم الوحدة السامية والدينية ...
وهذه الموجة الاخيرة من الساميين كانت ابعد الموجات اثراً واعظمها
خطراً في تاريخ العالم .

الحضارة العربية

ذلك ان العرب الذين خرجوا برعاية محمد بن عبدالله وانتصاره من بعده من الصحراء ، لم ينشئوا امبراطورية لا مثيل لها في تاريخ العالم فحسب ، وانما انشأوا ثقافة وحضارة وفناً لا تزال اوروبا الحديثة مدبونة لها حتى اليوم ، وذلك بما حفظته من آثار الحضارات السابقة ، وما زادته في هذه الحضارات من حياة وخصب وجدة ، ولولا الحضارة العربية لاندثرت جميع الحضارات السابقة ، ولكان العالم الحديث ، غير ما هو عليه اليوم . وكذلك لا تزال اللغة العربية لغة الملايين العديدة من البشر ، كما انها لا تزال لغة ثلاثائة مليون مسلم بما تفرضه عليهم من قراءة القرآن بالعربية .

واذا كانت اللغة العربية ، ليست اليوم في الصف الاول من اللغات الحية ، فقد كانت في القرون الوسطى لغة حضارة والثقافة العالمية ، وبين القرن التاسع والقرن الثاني عشر ، كانت العربية انشط لغات العالم في التأليف ، واوسع اللغات الحية انتشاراً ، بها وضعت اكثر المؤلفات التاريخية والفلسفية والرياضية والطبية والجغرافية وغيرها ، ومنها ترجمت الى اللغات الحية الاخرى ، وهي لا تزال حتى اليوم بعد اللاتينية تستعمل حروفها الهجائية اكثر من سواها وغيرها في لغات العالم .

والعربي السامي الى ذلك بخلاف غيره من الشعوب الاخرى من اسرع الناس الى التكيف وفاقاً لحيطه وبيئته الجديدين ، كما انه اسرع الناس الى تلقف المعارف والعلوم والحضارات واساغها على الوجه الاكمل والاحسن ، فقد اظهرت قريش القبيلة العربية اول الفتح

العربية الاسلامية ، انها تنعم بعين لا ينضب من الخلفاء والقواد والامراء والحكام ، وقد ظهر قبل الاسلام حمورابي في بابل ، وانشأ للناس في عهده ، نظاماً اجتماعياً ما يزال حتى عصرنا الحاضر مدار اعجاب العالم ، وكذلك ظهر موسى النبي ، ودعا في صحراء سيناء قومه الى دين جديد ، كما ظهرت زينب في تدمر ، وهي القائدة البارعة ، والاميرة النابغة ، واما فيليب العربي فقد اصبح امبراطوراً لرومة ، ولا تزال آثار (بقرا) و (تدمر) مثلاً السائحين والمستشرقين اعجاباً واجلالاً ، مما يدل على ان العربي يارح في البناء والاعمار ، والقيادة وانشاء الحضارات والثقافات ومختلف الفنون الرائعة البديعة .

جزيرة العرب

والجزيرة العربية اقليم في الجنوب الغربي من آسيا ، تحده شمالاً بادية الشام ، وشرقاً الخليج العربي وبحر عمان ، وجنوباً المحيط الهندي ، وغرباً البحر الاحمر ، فهي والحالة هذه شبه جزيرة يحيط بها الماء من ثلاث جهات .

وتنقسم بلاد العرب وفقاً لطبيعتها الى خمسة اقسام :

١ - نهامة ، وهي الارض الواقعة بمحاذاة ساحل البحر الاحمر الشرقي ، وسميت بهذا الاسم لشدة حرها وركود ريجها ، وسميت كذلك الغور لانخفاض ارضها .

٢ - والحجاز : وتقع شمالي بلاد اليمن اي شرقي نهامة ، وتمتد الى فلسطين ، وسميت حجازاً لانها تعجز بين نهامة ونجد ، وتحتوي على المدينتين المقدستين مكة والمدينة .

٣ - ونجد : وتمتد بين اليمن جنوباً وبادية السماوة شمالاً والعروض

واطراف العراق ، وسميت نجداً لارتفاع ارضها .

٤ - واليمن : وتمتد من نجد الى المحيط الهندي ، وتحيط بها حضرموت والشحر وعمان في الشرق .

٥ - والعروض : وتشمل البهامة والبحرين ، وسميت عروضاً لاعتراضها بين اليمن ونجد والعراق .

وفي الجزيرة العربية مواطن خصبة ، خصوصاً في اليمن ، وفي حضرموت موطن البخور ، وفي الاحساء الواقعة على الخليج الفارسي ، واما الساحل العربي فارضه وعرة تتخللها التلال والكثبان ولكنها تمتاز بمراعيتها ، وكانت في سالفات الايام احسن حالاً مما هي عليه اليوم .

واما ارض بلاد العرب الوعطة المرتفعة - وهي نجد - وما يتخللها من الجبال المرتفعة هنا وهناك ، ووديانها الطويلة وسهولها التي يوعى فيها احسن الحبوب العربية ، والجماعة الواقعة الى الجنوب الشرقي فقد كانتا تسدان حاجة العرب من القمح - كما كانتا في القرنين السادس والسابع لا يقلان عن ارض اوروبا اليوم خصباً وانتاجاً .

وبلاذ العرب كثيرة الجبال الجرداء المختلفة اللون ، وفيها الصعاري الرملية المتوازية الاطراف ، ويتخلل هذه الجبال الوديان التي هيأها السهول ، والاراضي القريبة منها خصبة الثوبة صالحة لافامة الناس الذين يعتمدون على ما تلبث ارضهم ، وما يجذونه فيها من ماء يشربون منه ويسومون انعامهم .

واما ما بعد عن هذه الوديان فقفر غير صالح للسكنى ، واعظم واد في بلاد العرب « وادي الدغناء » وهو كثير الخير اذا اخصب . . . ولكن الماء في الجزيرة لا يسد حاجتها ، واكثره يفيض في الارض ، فلا يمكن الانتفاع به الا بالوسائل الهندسية الحديثة ، اللهم الا

في بلاد اليمن التي استطاع أهلها أن يحولوا بحاري الوديان ، فبنوا سدّاً
محكماً يحجز الماء خلفه في أرض صلبة للانتفاع به عند الحاجة .
وبلاد العرب وإن كانت صحراء ، إلا أنها تختلف عن غيرها من
الصحاري في طبيعة سطحها ، فهي مختلفة الأجزاء ، بعضها مغطى بالشكبان
الرملي ، والبعض الآخر بالأحجار ، وبعضها منخفض ، والبعض الآخر
مرتفع ، مما جعل الكتاب القدمين إلى تقسيم بلاد العرب إلى ثلاثة
أقسام ، الأرض العربية الواقعة جنوبي غربي بادية الشام وعاصمتها بئرا ،
والأرض الغربية الصحراوية ، وبادية الشام ، وقد أطلق هذا الاسم
بعض الكتاب على شبه جزيرة العرب لجلبها بوجه عام . وأخيراً العربية
السعيدة ، وهي بلاد اليمن التي تسمى الأرض الخضراء حيث قامت
حضارة سبأ وحضارة حمير وغيرها من دول الجنوب .

الصحراء

وفي الجزيرة جزآن صحراو بان ، الاول في شمالي هضبة نجد واسمه
(النفود) ، ويبتدئ من شمالي هضبة نجد حتى جنوب فلسطين ، وهو
عبارة عن كثبان رملية يتخللها وديان عميقة لا يصل إليها الماء ، ومن
الممكن اختراق النفود من الشرق إلى الغرب في نحو أربعين ساعة مع
صعوبة وعناء .

والصحراء الأخرى تقع في الجنوب الشرقي من جزيرة العرب ،
وتقع شمال حضرموت وهي « الدهناء » أو الصحراء الحمراء ، وهي أشق
بكثير واجدب من صحراء الشمال ، وما عدا ذلك فإن في بلاد العرب
أرضاً زراعية وواحات يمكن السكن فيها ، وقد اكتسبت طبيعة هذه
الأرض الشاقة أهلها النشاط والخفة ، خصوصاً البدو منهم الذين لا

يعتمدون كثيراً على الزراعة ، وإنما جيل اعتمادهم على انعامهم ، بأكلون
لحومها ويشربون البانها ويكتسبون اوبارها ، وهي التي تحملهم وتحمل
امتعتهم الي حيث يتنقلون من مكان الى آخر طلباً للكلأ والماء ...

هذه الجزيرة العربية ، نزلها الساميون من العرب اول عهدهما في
التاريخ ، فلما كثروا عددهم نفروا عنها الى سواها من المدن القريبة
المتحضرة القائمة على اطرافها ، كآشور وبابل وسوريا ويحسون ارضها ،
ويستهلكون معاقليها ، وينزلون فيها نزول الفاتح في ارضه ، ويمشون فيها
مشية المليك في بستانه ، وبطبعون هذه الاسم الجديدة بطابعهم السامي
ويظل هذا حالهم آجالاً وعصوراً حتى عصر الجاهلية قبل الاسلام ، واذا
العرب فيه مثلهم قبله ، واذا هم لا يزالون ، تغلب عليهم البداوة ،
ويعيش اكثرهم عيشة القبائل الرحلى ، فلا ينصلون بالارض اتصال
المزارع الفلاح ، ولا يمشون في البلد مكوث المقيم العامل ، بل تراهم
يتربصون مواسم الغيث فيمشون اليها رجالاً ونساء وشباباً وعلماً
وابلاً ، وهذه حياة علي ما فيها من جهد ومشقة قل ان تسمح بقيام
الجماعات المتحضرة ، وقل ان تمكن اصحابها من تأسيس حضارة وثقافة
مستفيضة متينة .

وبعض ربك الجزيرة . فلا يكاد يبطها غاصب او فاتح الا غراراً ، ثم
ما شأن الفاتح في ارض ليس فيها من الخير ما يمكن لسكانها في الحياة ،
وما شأنه في بلاد كلها قبائل وعشائر ، فلوهم اسبابهم ومنازلهم وراجلهم ،
فان هو حاول ان يحوس ارضهم نفروا عنه ، واستقروا في مكان آخر
من الجزيرة معجق .

ثم يسكرون عليه ، فما يبرحون به كراً وفرأ حتى يضيق معهم صبراً
فينصرف عنهم ، وقد اضناه التعب ، ورتج به طول الشقة وعطش الجوع ،

ولوحته الشمس ، فلا تعجب بعد ذلك ان لا يقتحم الجزيرة الروم
والقرس ابان سلطنتهم ، ويوم كانوا مسلم السمع ملء البصر ، وقد
دوخوا في عهدهم بلاداً ابعد منها ، وجماعات اكثر من العرب عدداً
وعصبة ، واهضى سلاحاً .

وهي بعد بلاد قاحلة ما ينجمه نظر احد للاستيلاء عليها ، وقياسل
وعشائر بدوية تعتمد في قوامها الاقتصادي على التجارة وبعض الثمرات
والماشية وما تنضج به الماشية من البان وغيرها ، وهي بموقعها الجغرافي
البيدع بين آسيا وافريقيا طريق التجارة بين الامم المحيطة بها من اقصى
البحر المتوسط . ثم لما كانت الثمرات والبان الماشية لا تكاد تسد من
جوع ابنائها ، فقد كان من واجب البدوي ان يضرب الارض طلباً
للرزق وان يطلبه في المدن العربية القائمة في الجزيرة ، والتي كانت وفيرة
الحضارة بأسقة العمران ، فكان ينزلها إما حامياً لقوافلها من غزو امثاله
لها ، او صاحب رواحل تنقل المتاجر من مصدرها الى موردتها . او
تاجراً ينقل للشام وغير الشام ماشية الجزيرة على ان يعاض عنها بما هو
في اشد الحاجة اليه من مأكلا ومشرب وملبس .

وكذلك كانوا يعيشون على ما تنتجه لهم ماشيتهم من لحوم والبان ،
اما اصوافها فكانوا يلبسونها ويتخذونها مساكن لهم ، وكانوا يعتمدون
في تغذية هذه الماشية على الطبيعة يخرجون في مواسم المطر الى منابت
الكلاء لترعى ، حتى اذا انتهى الموسم كروا راجعين الى منازلهم
ينتظرون الموسم التالي ربثاً بحول الحول ويتنزل الغيث وقد لا يكفيهم
هذا الغذاء فيعمدون الى الضب وغير الضب من حيوان البادية يزدردون
لحمه ، وقد كان شياً كما يقولون .

ثم انهم اذا احتاجوا الى اكثر مما تنتجه ماشيتهم ورأوا ان لا

مندوحة لهم عن طلب الغذاء او يهلكون جوعاً ، عمدوا الى ماشيتهم
 - كما قدمنا - يستبدلونها بالتمر والملابس وغيرها ، هذا الى ما يكسبونه
 في الغزو من ماشية ومناخ ومال ، وهذا مركب صعب ، لان القبيلة
 المسلوية تعود تتربص الفرص للاخذ بثأرها ، فاذا كان لها ما تريد عمدت
 الى الخصم ، فاستردت ماشيتها منه ، واجتاحت ماشيته ، ومثل هذه
 الحالات كانت اكثر ما تكون وقوعاً في الجاهلية وقبل الاسلام .

وهذه الحياة القاسية الجديدة التي اخذ ينكلفها العرب ، بعد ان
 تبدلت الارض غير الارض في بلادهم ، لم يكن بطورها ان تفشي حضارة
 ثابتة الاركان باقية الاثر ، لان الحضارة ثمرة من ثمرات الاجتهاد في
 الحاضر ، وهي فيض جديد متواصل من عمل الانسانية عن حاجاتها المادية
 والمعنوية .

ولعل امتع فصول التاريخ العربي قبل الاسلام هذا العراك الذي
 كان يدور بين العربي وبين الطبيعة وبين الحياة ، طبيعة قاسية ، قليلة
 الماء ، شديدة الحر ، كثيرة الرمال بعيدة الغور ، حياة لا ترحم الضعيف
 ولا تستكين للفقير وابن السبيل ، ظالمة لا تجود على ابنائها بشيء ،
 وتطلب منهم كل شيء ، وبينما كان غير العربي يمشي بين الانهار والجنان
 والوان الترف والخصب والامراع ، كان على العربي ان يركب
 الصحراء من اقصاها الى اقصاها ليتبلغ الاقل من المشرب والاقل من
 الغذاء ، ثم ان حياته كانت نهياً مقسماً للقوي ايان اراد ، ولذلك عودته
 هذه الحياة القاسية ، ان يكون غنياً في خياله وحياته المعنوية ، وانت
 فيما ترجع اليه من اشعار العرب قبل الاسلام لا تجد إلا حديث الشاعر
 عن نفسه ، وحربه وغزواته وكرمه واجاده ونسبه ، واما غير ذلك من
 من الوان الفلسفة ونظم الحياة فقد تجدها عند الرومان وغير الرومان

من الامم الغابرة ، واما عند العرب في جاهليتهم فانك لا تجد شيئاً من هذا ، ولن نجدها الا عند افراد ارتبطت مصايرهم بمصاير بعض الامم المتحضرة فتعرفوا عندها على بعض الوان حياتها وما فيها من جمال وجدة وعمق .

ثم ان هذه الجماعات البدوية كانت تؤلف في عهد الجاهلية وبعد الجاهلية قبائل تنازع بعضها الرئاسة والزعامة والحياة ، وقد انقسمت هذه القبائل بدورها الى جماعات خلفت لنفسها انساباً ، وسواء اصبحت هذه الانساب ام لم تصح ، فان مما لا شك فيه ان العرب كانوا يتناجزون لاجلها ، حتى اصبحوا ولكل قبيلة منهم عصبية خاصة لها ...
والثابت اليوم انه لما جاء الاسلام كان العرب يرجعون بانسابهم الى اصول ثلاثة :

مضر ، وربيعة واليمن وقد اخذ شعراء هذه القبائل وكل يفخر بنسبه واجداد قبيلته ، يستغلون هذه الظاهرة السياسية والحزبية فنواها قرية الاثر بليفة الشأن في عهد بني امية والعباسيين والاندلسيين .
ولقد كان افراد القبيلة يتضامنون اشد ما كان التضامن ، ينصرون اخاهم ظالماً او مظلوماً ، يسعى بذمتهم ادقاهم وهم يد على من سواهم .
هذه حالة العربي مع اهل وابنه واخيه وابن عمه وافراد قبيلته فذا تشعبت بطون القبيلة الواحدة تنافس افراد كل بطن في الشرف والثروة ووقفوا لبعضهم بعضاً بالمرصاد ، وقد يبلغ العداء اشد وتراق الدماء بسبب هذه المنافسة . والبدوي شجاع كريم وشجاعته تتجلى في تاريخه الماضي وفي كثرة من نازلهم وقائلهم من الناس ، واما كومه فيتجلى في نحر الجزور للضيف واعانة البائس الفقير وان يعطي اكثر مما يأخذ ، وان يغشى الوغي ويعف عند المنعم .

ولقد دعاهم الكرم ان يأكلوا كثيراً وشربوا كثيراً وبلادهم
مجدبة قليلة الانتاج فكان حقاً عليهم ان ينصلوا بأهل الشام والعراق
واليمن وهم أهل حضارة وزراعة ورخاء يستعينون بهم على جذب ارضهم
وفسوة اقليمهم .

اما المرأة البدوية فكانت تشارك الرجل في كل شؤون الحياة
تخضب وتجلب الماء ، وتجلب الماشية ، وتندج المسكن والملبس ، ولما
كانت ضعيفة وكانت اذا سبها قبيلة خصيمة اتزلت العار بقيبتها ،
سقط مقامها وانحطت منزلتها ، وكانت بعض القبائل تذكره النساء فاذا
بشروا احدهم بالانثى ، ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، وبعضهم كانت
بدونها وهي حبة .

تلك كانت حياة العرب قبل الاسلام عزلة وشقاء وفاقة ومحافظة
على النسب والجوار ، وانث لن تجد في شعر الجاهلية معنى اسمى من هذه
الحبة وبذل النفس والنفيس في سبيلها ، واستعداد من يعتدي عليها ، كما
انك لن تجد عند الجاهليين من دوافع الطبيعة غير الغزل والنسب
الرفيق ، الى ان صار فناً يفكر معه الاعرابي في محبته على انها اصل
يتخبله وشعلة تنير ما امامه .

ولقد استقامت للعرب حضارة سالفه ، فشا امرها في اليمن وغير
اليمن ، وحدثنا عنها هيروودنس المؤرخ اليوناني بشيء كثير من الدهشة
والاعجاب ، وامكن هؤلاء القوم الذين كانوا تجاراً ينقلون متاجر
المجاورين وغير المجاورين من الامم الى اقطار العالم حتى الهند ، والذين
كانوا حماة للتجارة من غزو المعتدين ، ان يلموا بطرف من حضارات
الجماعات التي كانت تقوم حولهم فيما بين النهرين وفينيقيا ومصر والشام
وغيرها من الامصار التي استقامت فيها حضارة سالفه بعيدة المدى في

العمارة رائعة المظاهر في سالفات الأزمان .

وبما لا جدال فيه ان الأرض في الجزيرة العربية اليوم غير هـا في ماضيات الأيام ، وانها في الماضي كانت أكثر خصباً ثم تناولتها التوازل الجغرافية بكثير من الجفاف حتى أصبحت جرداء قاحلة ، والعمارة انما بقوم في الأرض الخصبة وعلى الماء وخفاف الأنهر والبحار ، فلا يعجب القارئ بعد ذلك اذا تبدلت الأرض غير الأرض ، واذا تدهنت الحضارة وانهار العمران فان هذه كلها من لوازم المواطن الخصبة والمياه الوفيرة .

اما اثر الحضارة في الادب العربي من نظم ونثر قبل الاسلام ، فمن الثابت اليوم ان العرب كانوا ينعمون بحياة شعرية ادبية رائعة ، وليس ادل على ذلك من شعر الشعراء الذين ما تزال حتى اليوم تردد شعرهم وتحفظ قصيدهم ، وتنفى بمدائحهم ووصفهم . والشعر العربي في هذا العصر الجاهلي ينعم بصفة خاصة لا مثيل لها ، وهي هذا الصدق والاخلاص في تصوير الوان الحياة تصويراً اقل ما يقال فيه انه ما يزال حتى اليوم اساساً لدراسة التاريخ العربي في الجاهلية ...

الشمال والجنوب

والجزيرة العربية الى ذلك تقسم الى قسمين ، جنوبي وشمال ، فالشمال اكثره بدو ، يسكن الحجاز ونجد ، ويتكلم لغة القراآت الفصحى ، والجنوبي سكان اليمن وحضرموت والسواحل ، واكثرهم حضر وهم اول من تحضر في الجزيرة ، وانشأوا حضارة لا تزال آثارها قائمة حتى اليوم ، وسبب ذلك قربهم من البحر ، وخصب بلادهم ، ووقوعها في نقطة الوصل بين الشرق والغرب .

واما عرب الشمال فلم يظهروا ظهوراً بارزاً في التاريخ الا بظهور الاسلام في ربوعهم .

ويقسم العرب انفسهم الى ثلاثة اقسام : عرب بائدة ، وعاربة ، ومستعربة ، فالبائدة كعاد وعود ، وقد ذهب الدهر بهم ، وذكرت عود في الآثار المتحددة البنا عن سرغون الثاني ، واما (عاد) فقد ظهرت في حضرموت وفشا امرها فيها ، واما العرب الذين بقوا بعد اندثار عاد وعود ، فيقسمون الى قسيتين ، عاربة ومستعربة ، والاولون عرب اليمن ، من ولد قحطان والمستعربة اولاد اسماعيل سكان الحجاز ، وقد سبق القحطانيون العدنانيون في الحضارة كما قدمنا .

العرب والحضارات المجاورة

وكذلك نرى ان الجزيرة العربية كانت تقع جغرافياً بين حضارتين : الحضارة المصرية والحضارة البابلية ، ولا يجب استثناء الحضارة الهندية بسبب اتصال جنوبي الجزيرة بالهند عن طريق البنجاب والبحر ، واما اتصال جنوبي الجزيرة او اليمن بمصر واقربها فكان عن طريق صحراء سينا والبحر ، ما كان البحر هادئاً ، وكان سكان سينا على اتصال دائم مع مصر ، يصدرون اليها النحاس الاحمر الذي يستخرج من ارضهم (١) كما ان مصر كانت على اتصال تجاري مع اليمن لما فيها من الثروة الطبيعية ، خصوصاً اللبان ، والجلود والعاج والبخور وغيرها ، وزاد هذا الاتصال في عهد ثوتموت الثالث سنة ١٤٧٩ ق م . واشتهرت حضرموت في هذا العهد بتجارة اللبان ، ولا تزال هذه التجارة راثية فيها حتى الآن .

(١) كان النحاس يستخرج من مكان بالقرب من مدينة الطور الجديدة .

وكذلك اتصل الآشوريون وقبلهم البابليون بالبلاد العربية في فترات مختلفة قبل المسيح ، وفي الآثار الآشورية ما يدل على الزخوف التي كان يبعثها ملوكها لافتحام بعض اطراف الجزيرة خصوصاً سورية ، وذلك في أيام تيغلت بيلىر الثالث ٧٤٥ - ٧٢٧ ق م . ، الذي هاجم سورية غير مرة ليحافظ على الطريق التجاري بين آشور والعراق وبين البحر المتوسط ، وفي عهد سرغون الثالث ٧٢٤ - ٧٠٥ ، الذي فتح كركميش والسامرة من اعمال فلسطين ، نجد أثراً يؤيد اخضاعه لقبيلة عمود التي ورد ذكرها في القرآن ، وكيف انه نقل البقية الباقية من هذه القبيلة العربية الى السامرة .

وفي عهد سنحاريب ٦٨٨ ق م ، نجد أثراً آشورياً يدل على انه اخضع سكان (ادوم) دومة الجندل اليوم ، وحمل معه الى نينوى عاصمة آشور ، الاصنام والتحف والملكة نفسها .

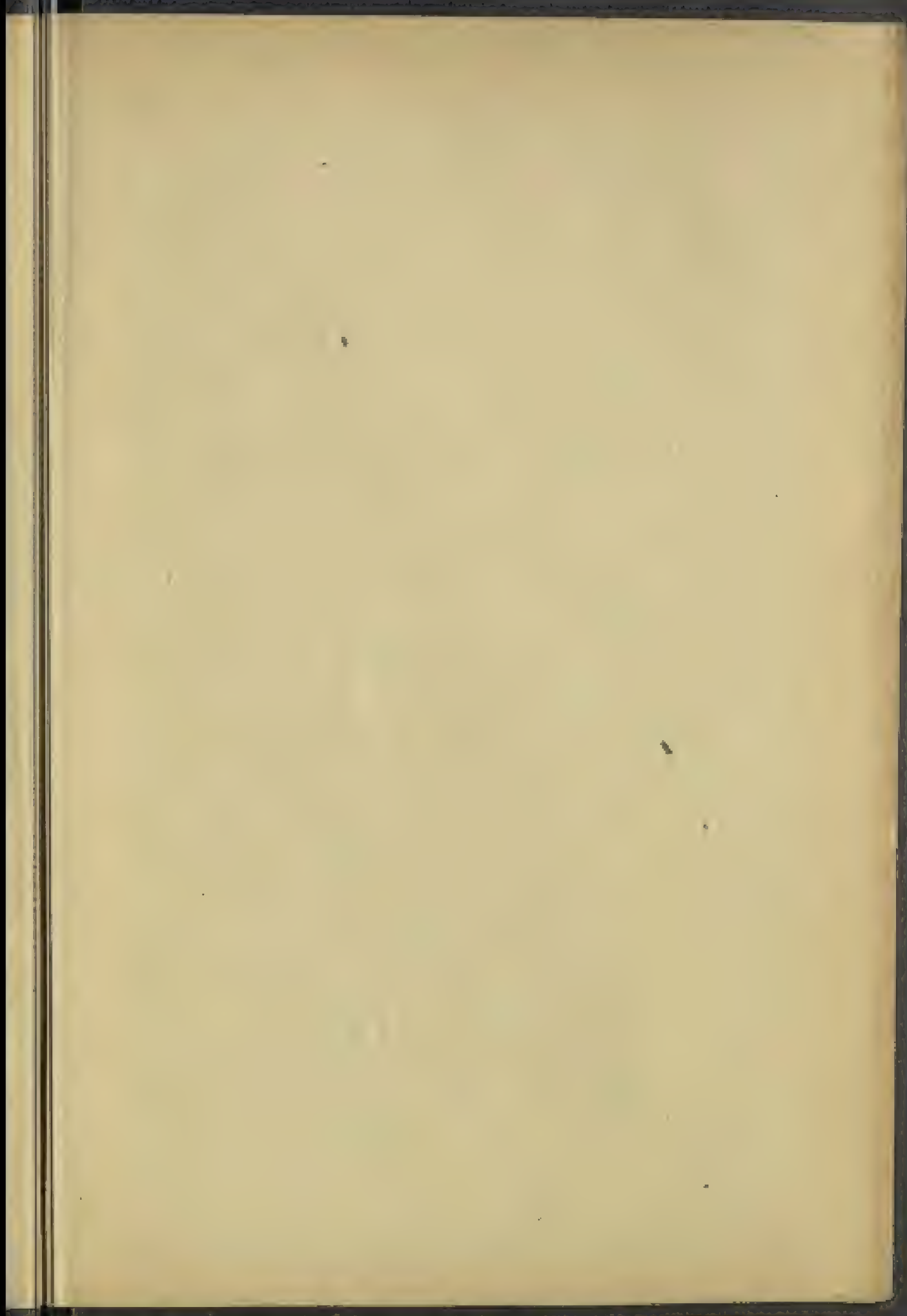
وتذكر الآثار الآشورية كثيراً من امراء العرب الذين صاروا خضاعهم ، وهذا يدل على ان القبائل العربية كانت تخاضع للحاميات الآشورية في سورية بعد احتلال آشور لها ، مما كان يضطر ملوك آشور الى تجهيز الحملات العسكرية لاختضاع التوار العرب ..

وفي عهد الفرس نرى قبيز كسرى فارس (٥٢٥ ق م) يتفق مع امراء العرب ويختلف القبائل ويهادنهم في طريقه الى مصر لاختضاعها ، خصوصاً وانه كان مجبراً على المرور في ارض عربية للوصول الى وادي النيل ، ويقول هيرودوتس ان ملوك الفرس لم يوقفوا الى اخضاع العرب ابداً ، واما اليهود القدماء فاحلهم سامي من الجزيرة ، على هذا يجمع اكثر المؤرخين وفي طريقهم الى فلسطين من مصر ، حوالي سنة (١٢٢٥ ق م) صرفوا اربعين سنة في صحراء سيناء والنفود ، وفيها دعا موسى قومه الى عبادة

الله ، وتزوج امرأة عربية من اهل مدين ، ودخل اليهود فلسطين كجماعة
من البدو ، وفيها بدأ انصالحهم بالكنعانيين سكانها السابقين ، ولما تمكن
اليهود من فلسطين وفشا امرهم ، وامتد نفوذهم الى شبه جزيرة سيناء ،
كان لسليمان النبي اسطول في العقبة ، وفي التوراة ما يدل على خلاقات
عسكرية انتظمت بين اليهود والعرب ، حاربوا العرب الذين حولهم
وحاربوهم واتصلوا بهم ، حتى اذا ظهر اليوفات ثم الرومان بعدهم ،
وجدنا كتاب هذين الشعبين يتحدثون العرب على استقلالهم وحراباتهم ،
كما يتحدثون عن ثروة بلادهم العظيمة .

ولما حاول الرومان ، وهم في اوج عظمتهم التقدم نحو الجزيرة
بمساعدة انصارهم من عرب النبط ، سنة (٢٤ ق م) فشلت حملتهم
وشتمها العرب ، وكانت غاية هذه الحملة التي خرجت من مصر ، الاستيلاء
على الطريق التجاري الذي يسيطر عليه عرب اليمن .

وفي الآثار الرومانية التي بين ايدينا ما يدل على ان الرومان كانوا
يطمعون بالذهب الموجود في بلاد العرب ، والذي كان يستخرج من
الارض الواقعة بين مدائن صالح واليمن ...



الحضارات العربية الاولى

السيانيون

كان السيانيون او اهل سبأ اول شعب عربي متحضر بعد بلاسكة معين عرفه العالم ، ذكرته المصادر اليونانية حوالي سنة ٢٨٨ ق م ، وكانت مواطنه جنوبي الجزيرة العربية في (اليمن) .

وساعد خصب الارض ، وفيرها من البحر ، وانماها بالهند ، على تحضرها ونموها وازدهارها ، واشتهرت اليمن بالبخور الذي يصدر من ارضها ، وبالجواهر الكريمة التي كانت تصلها من الخليج العربي ، وبالصناعات الهندية خصوصاً السبوف التي كانت ترددها من الهند ، وبريش النعام الذي كان يوردها من الحبشة ، وبالحرير الذي كان يصدر اليها من الصين ، فكانت والحالة هذه محطة تجارية عالمية ، وطريقاً حسناً للمواصلات بينها وبين غيرها من البلاد القريبة والبعيدة ...

وكان اهل سبأ يوقع بلادهم على البحرين الاحمر والهندي بناروت دور الفيليبين في البحر المتوسط ، سيطروا على تجارة البحر ، وركبوا غاربه ، ونقلوا بضائع الامم المختلفة على سفنهم من مكان الى آخر ، وكانوا في الالف الاولى قبل المسيح وحدهم في هذا الميدان لا يراهم احد ، وابس لاحد عليهم سلطان .

وهم الذين اخطوا الطريق التجاري البري بينهم وبين سورية ، لصعوبة الاتصال ببحر آ بين اليمن وسورية ، وذلك بطريق مكة وبثرا ، ومنها الى مصر وسورية والعراق ، كما انشأوا بعض المحطات التجارية

في هذا الطريق البعيد الصحيح .
وكانت لغة السبائيين الحميرية ، وهي قريبة من العربية .

مملكة معين

راول مملكة ظهرت في جنوبي الجزيرة العربية هي مملكة (معين)
التي ازدهرت بين سنة (١٣٠٠ - ٦٥٠ قم) ونشأت هذه المملكة في
الجوف من اعمال اليمن ، بين نجران وحضرموت ، وكان الملك وراثياً ،
ويذكر المؤرخون ٢٦ ملكاً من ملوك معين ، ويظهر ان مملكة
السبائيين نشأت من مملكة معين ، او هي تنمى لها ، وكان اول ظهورها
سنة ٩٦٠ قم ، وامتدت الى سنة ١١٥ قم ، راول ملوك سبأ ، هم
اواخر ملوك معين ، وبعد ثلاثة اجيال تمكن السبائيون من السيطرة
والسلطان ، وورثوا مملكة معين ، والدور الاول لمملكة (سبأ)
ينتهي سنة ٦٥٠ قم ، ولا تزال هذه الدولة آثار بالقرب من (مأرب) ،
ومأرب تعلو عن سطح البحر ٣٩٠٠ قدم ، وكانت مركز التجارة ،
واشتهرت بحجراتها ، التي كانت تحفظ لها كمية وافرة من الماء لحين الحاجة
اليه للري والزراعة ...

ونبتدي الدورة الثانية للمملكة السبائية من سنة ٦٥٠ - ١١٥ قم ،
ويظهر لنا في هذه الدورة انه قد تزعت عن الملك فيها اثواب القدامة ،
فبعد ان كان ملكاً زنبياً ودينياً ، اصبح ملكاً زنبياً فقط يطلق عليه
لقب (ملك سبأ) ، واصبحت مأرب العاصمة في هذه الفترة من الزمن ،
وهي تبعد ستين ميلاً عن صنعاء الحاضرة ، وسبأ اسم المملكة والارض
لا اسم بلد معين ، وكانت هذه الدورة من مملكة سبأ من اروع ما ظهر
في بلاد العرب من حضارة رائعة قبل المسيح .

مملكة حير

ثم ظهرت سنة ١١٥ ق م مملكة حير ، التي عاشت حتى سنة ٣٠٠ ق م ومملكة حير ورثت مملكتي ، معين وسبأ ، وهي فرع منها على الاكثر ، لان اللغة واحدة مع بعض النقاوت ، وكانت عاصمتها (زفر) و (زافار) تقع على طريق صنعاء ، وقد قامت مقام مأرب عاصمة سبأ ، و (كارتو) عاصمة معين ، ولا تزال آثارها ظاهرة حتى اليوم بالقرب من بلدة (بريم) المعاصرة .

ويظهر ان ملوك حير كانوا اقرب الي الملوك الاقطاعيين في اول عهدهم ، يعيشون في الحصون ، ويملكون الارض ، ويضربون الدراهم باسمهم ، وكانوا تجاراً ينقلون محصولات بلادهم ، ومحصولات الهند ، وشرقي افريقية على الجبال من مأرب الى مكة فسورية فصر ، واحياناً كانوا يتقانونها بجزراً اذا كانت الاحوال الجوية ملائمة ، وكانت الرحلة تدوم سبعين يوماً .

والواقع ان جنوبي بلاد العرب ظل يحتفظ بسيطرته وحضارته ، وروحائه ، ما ظل طريق التجارة في البحر الاحمر بيد ابناؤه ، فلما اخذت السيطرة تنتقل الى الرومان الذين بدأوا بالظهور والسيطرة على العالم ، واتخذوا يبنون الاساطيل ، وينشئون المستعمرات ، ويعملون للسيطرة على الطرق التجارية ، خصوصاً بعد ان استولوا على سورية وفلسطين ، اخذت السيطرة العربية بالضعف والانحطاط ، ولما تمكن الرومان من طرق المواصلات البرية بين العراق والهند ، وبين سورية وفلسطين ، تراجع العرب امامهم ، ولكنهم ظلوا يسيطرون على الطريق البحري مدة من الزمن ، وذلك حتى القرن الاول بعد المسيح ...

ولما كثرت الطلب على محصولات اليمن وجنوبي الجزيرة رفع اصحابها اسعارها ، كما رفعوا الجزيرة المفروضة على المحصولات التي تزرع بارضهم ، مما جعل التجار الرومان في عهد المؤرخ (بليني) على الاحتجاج والتأفف من الاسعار الشديدة التي يفرضها العرب على بضائعهم التي كانت رومنة بحاجة اليها ، والتي كانوا يضطرون الى دفع ثمنها نقداً ، لان ما لدى رومنة من المحصولات لم يكن يحتاجه العرب ، فلم يكن والحالة هذه من سبيل الى المقايضة ، ومن هذا الوقت كثرت الاشاعات عن ثروة العرب العظيمة ، وقد استفادت بئرا ، وتدمر ، البلدتين العربيتين في اواخر عهد المملكة الحميرية من هذه السوق التجارية العظيمة التي كانت رائجة في بلاد العرب ، ومن وقوعها على طرق التجارة العالمية ، ولكن ظهور (روما) قلب الموقف رأساً على عقب كما قدمنا ...

ولما قويت مصر في عهد البطالسة ، ورثة الاسكندر الكبير ، اخذت تراحم العرب في طريق التجارة البحرية ، وتوسعت مصر من القضاء على تجارة المملكة الحميرية ، ولما استولت (روما) على مصر ، واخذتها من البطالسة حوالي منتصف القرن الاول قبل المسيح ، اتمت ما سبقت اليه مصر من مزاحمة العرب على تجارة البحر الاحمر ، ولما بدأت البوارج الرومانية تمخر عباب المحيط الهندي ، كان ذلك ايذاناً بانتهاء زعامة العرب في التجارة البحرية ..

وحوالي سنة (٣٠٠) ب م ، نجد اسم ملوك جنوبي الجزيرة يكتب كما يأتي : ملك سبأ ، ورعدان ، وحضرموت ، واليمن ثم ضمت اليها تهامة ، مما يدل على ان كل هذه البلاد كانت تحت سيطرة ملك عربي واحد ...

الحضارة العربية في جنوبي الجزيرة

والواقع ان الآثار التي بين ايدينا تدل على ان مملكتي معين وسبأ قد نعمتا بجانب عظيم من القوة والثروة والحضارة ، وان سكان المملكتين قد اشتهروا بالتجارة ، وسيطروا على طرق المواصلات البحرية والبحرية في عهدهم ، وامتد نفوذ الدولتين التجاري من الهند الى مصر ، ومن جنوبي الجزيرة العربية الى غزة من اعمال فلسطين .

وبنجدت لنا نولدكه المستشرق الالماني ، وفافا لنا شاعده من الحفريات والآثار ، عن الحضارة العربية الرائعة التي قامت في اليمن منذ الالف الثانية قبل المسيح ، واذا كان يصعب علينا وصف هذه الحضارة بالتدقيق ، فان بقايا اثباتي الفخمة والنقوش الكثيرة ، التي لا تزال قائمة الى يومنا هذا تشهد بان الحضارة التي قامت في اليمن حضارة عجيبة .

ولقد اشتهر في اليمن بمملكتان - بعد مملكة معين - سبأ وحير ، وكان سبب حضارة هاتين المملكتين ان اليمن كانت بلاداً زراعية خصبة تصلح للاعمار والانتاج ، وانها كانت واقعة على البحر ، وكانت اليونان والرومان على معرفة بهذه الحضارة ، وشهدوا لها بالثراء والتمدن ، ولكن معلوماتهم كما يظهر كانت قليلة محدودة ، واما التوراة فقد تبسّطت اكثر من الكتاب اليونانيين والرومانيين عند زيارة مملكة سبأ لسليمان النبي ، فان ما ظهرت به هذه المملكة من فخر الشباب وقين الحلي ، وما اهدنه الى سليمان من الهدايا الثمينة يدل على حضارة بمملكة بلغت درجة عظيمة في الترف والرخاء .

ويظهر ان اهل سبأ كانوا اصحاب ثروة كبيرة ، وانهم جمعوا ثروتهم هذه من احكامهم التجارة في الجزيرة في ذلك العهد السحيق ، خصوصاً

المواد العطرية كالبنغور الذي كان كثير الاستعمال في الهياكل والمعابد في مصر والحبشة وغيرهما ، وقد ذكرت التوراة هذه العطور خصوصاً البنغور والذهب والحجارة الثمينة كأنها من الأشياء التي اشتهر بها اهل سبأ . وفي الآثار التي وجدت في الحجاز ما يدل على انه كان لسبأ محطات تجارية خارج بلادهم ، ومن المؤكد انهم انزوا كثيراً بحضارتهم على البلاد العربية القريبة منهم ، والبلاد التي كانت ترقبها قوافلهم . ولكن الثابت اليوم ان هذه الحضارة اليمنية لم تخرج من بلاد العرب ، ولم ينعم بها غير العرب انفسهم .

انهار الحضارة

اما ما يقال من ان سبب انهيار الحضارة اليمنية يرجع الى انهيار سد مأرب ، فرأي فيه كثير من الغلو ، لأنه يصعب علينا الايمان بان انهيار السد كان كافياً لانحلال هذه المملكة المتحضرة .

ثم ما كان يمنع اهل اليمن من اعادة بنائه كما فعلوا قبلاً ، ولكن الرأي الصواب ان اهل اليمن اصبوا بالانحطاط قبل انهيار السد بزمن بعيد ، واخذ عدد كبير من اهلها بالمهاجرة الى الجهات الاخرى من جزيرة العرب ، وكان من اثر ذلك ان خفت العناية بالسد ، واهمل المشوكات بشأنه ، فتصدعت جوانبه ، ولم يعد يحتمل هجمات السيول والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه ، فهوى وتدفقت المياه على ما حوله من القرى والمزارع فأثقلت ، وكان ذلك في عهد احتلال الاحباش لليمن بين سنة ٥٤٢ و ٥٧٠ م .

وقد ساعد سكان اليمن من سبأ وحبر ذلك الحصب الذي امتساز به هذا الجزء الذي كانوا يحتلونه من بلاد العرب على الاستقرار ، كما انه كان

لجاراتهم الواسعة النطاق مع مصر وسورية وبابل والحبشة اثر كبير في تدفق الثروة عليهم ، واما ما بلغته مدن سبا من الخطر والحضارة فتؤيده هذه الاخبار المستفيضة عن اواني الذهب والفضة ، واعمدة الرخام والهيكل العديدة ، مما لم يشهد العالم القديم مثله ، كما ان القنسطاطر التي اقاموها على الاعمدة لا يزال مياه الشرب الى المدن تدل على براعة ومثانة في البناء ، ومهارة في فن العمارة ومعرفة تامة بنظام الري .

بالميس

ومن اشهر ملوك اليمن بلقيس ملكة سبا ، وقد زارت سليمان الحكيم وذكرها القرآن الكريم ، ومن نخوفها من سليمان - وملكة سليمان لم تتجاوز فلسطين - ما يدل على ان ملكة سبا لم تكن واسعة الارحاء عديدة الجنود ، وان اهلها كانوا رجال تجارة وعمارة لا رجال حرب وسلاح . وبين سنة ٣٤٠ - ٣٧٩ ب م استولى الاحباش على اليمن ، ثم عاد بعدها ملوك حمير الى الحكم ، وظلوا يحكم البلاد الى حوالي سنة ٥٢٥ ب م ، ولم تكن هذه المرة الاولى التي غزا فيها الاحباش بلاد العرب ، فقد سبق لهم ان سيطروا مدة من الزمن على بعض انحاء اليمن وسواحله .

وفي اواخر عهد المملكة الحميرية دخلت المسيحية واليهودية اليمن ، وكان السكان يعبدون القمر والنجوم فبئساً ، فلما استقام امر المسيحية فيها انشأوا بعض الكنائس خصوصاً في نجران . وكذلك دخلت اليهودية اليمن ، وانتشرت فيها في عهد ملكة حمير الثانية ، ويظهر ان اليهودية دخلت الى بلاد العرب بعد ان دمر تبطس الروماني القدس سنة ٧٠ ب م ، فهرب بعض اليهود الى شمالي

الجزيرة ، ونزل بعضهم في جنوبها ، ثم أخذوا مع الأيام يسيطرون
سلطانهم ، تجارة أولاً ثم سياسة وحكماً حتى ان آخر ملوك حمير وهو
(ذونواس) اعتنق اليهودية ^١ ، ولما كانت المسيحية تؤيدها الحبشة ،
والحبشة عدو سياسي لليمن ، فقد اضطلع ذونواس المسيحيين واحرقهم
بالنار سنة ٥٢٣ ، فاستنجد المسيحيون بالقسطنطينية ، فطلب جوستينيان
امبراطور الدولة البيزنطية من نجاشي الحبشة غزو اليمن ، فارسل هذا
قوة من جنده بقيادة ارباط القائد ، فشى هذا اليها ، وغلب على اليمن ،
وقتل (ذونواس) وانهارت دولة حمير بعده ، وخضع سلطان اليمن
السياسي ... ^٢

ثم خلف اربعة الحبشي ارباط في حكم اليمن ، وظل الاحباش في
بلاد العرب من سنة ٥٢٥ الى ٥٧٥ بعد المسيح
وفكر اربعة في بناء عيكل في صنعاء بصرف به الحجاج عن مكة ،
ثم غزا مكة فدم الكعبة والقضاء على الوثنية فيها ونشر المسيحية ، فلم
يوفق وارتمى بحوراً ٥٧١ - ٥٧٤ ، وفي عهد الاحتلال الحبشي انهار
سد مأرب وذلك بين سنة ٥٤٢ - ٥٧٠ ق م ، ولقد تصدع السد فيلاً ،
فصار اصلاحه كما يظهر ، ثم تصدع نهائياً ...

ولما تصدع السد في المرة الاولى ، هاجرت قبيلة بني غسان الى
حوران واستوطنت فيها ، كما هاجر بنو لحم الى العراق ، وامسوا دولة
المناذرة اللخمين ، وكانوا انصار الفرس ، كما كان الغساسنة انصار
الرومان البيزنطيين .

(١) لا يزال يعيش حتى اليوم في اليمن عدد من اليهود .

(٢) ولا يزال يوجد حتى اليوم قبيلة من حمير بالغرب من عدن حيث كانت موطن
المنهكة السابقة .

ولكن الروح القومية لم تمت في اليمن باحتلال الاحباش لها ، فما عثم
ان ظهر فيها سيف بن ذي يزن من العائلة المالكة الحيرية ، وبمساعدة
كسرى الفرس تمكن من طرد الاحباش ، وملك اليمن وارضها ،
وفرض كسرى على سيف بن ذي يزن جزية وخراجاً يؤديهما اليه في كل
عام ، وانتهى امر سيف في اليمن بان قتله حبشي فاستقل الفرس بالحكم
بعده في اليمن . وظل امر اليمن على هذا الحال حتى سنة ٦٨٨ حيث
تقبل الاسلام آخر حكام فارسي على اليمن ، وهو (باذان) وبظهور
الاسلام انتقل السلطان السياسي في الجزيرة العربية من الجنوب الى
الشمال او من اليمن الى الحجاز .

الحضارة والعمران في غربي الجزيرة

ولقد ظهرت في شمالي سورية قبل الاسلام ممالك صغيرة لم تزل حطاً
مذكوراً من الخطورة الحربية والاثار السياسي ، ولكنها نالت حظاً من
التجارة والتبسط في العمران ، وانشاء المسكن ، واقامة المباني الفخمة
والآثار العجيبة ، إلا تدمر التي وفقت توفيقاً حسناً في الوفوف بوجه
رومية ، وافتحام بعض املاكها واطرافها ، ولكن هذا لم يدم طويلاً
فما عثمت رومية ان استوجعت ما أخذ منها ، وما عثمت ان قضت على
تدمر ودمرتها ...

فاذا كان القرن الرابع قبل المسيح ، فانتا نجد قبيلة عربية من النبط
في ضواحي فلسطين ، وعاصمتهم (بتر) في وادي موسى من اعمال
شرقي الاردن اليوم ، وفي الآثار التي بين ايدينا ما يدل على ان الانباط
قد استولوا أولاً على ارض الادوميين ، كما استولوا على بتر ايضاً ،
والادوميون قبيلة يهودية ، واما بتر فكانت منذ اواخر القرن الرابع

قبل المسيح مركزاً تجارياً ممتازاً يقع في الطريق التجاري بين مينا والبحر المتوسط .

و اول ما نعرفه عن الانباط انهم كانوا على جانب من القوة والياس حول سنة ٣١٢ ق م ، بحيث استطاعوا مقاومة القوة السورية التي ارسلها عليهم احد قواد الاسكندر الكبير ، الذي استقل بسوريا بعد وفاة الاسكندر ، ويظهر ان الانباط كانوا تحت حكم البطالسة في مصر ، او انهم كانوا يؤيدونهم سياسياً ، ثم اصبحوا انصاراً لرومية ، وساعدوها في الهجوم الفاشل الذي قامت به على الجزيرة العربية ولم توفق كما قدمنا ، وكان الهجوم بقيادة (كالوس) القائد الروماني ، وذلك في سنة ٢٤ ق م .

ووصلت مملكة النبط الى اوجها في عهد الحارث الرابع ٩ ق م - ٤٠ ب م وكانت تمتد في عهده حتى دمشق ، وقد استخلصوها من ايدي اللوقيين ورثة الاسكندر ، سنة ٨٥ ق م تقريباً ، وظلت هذه المملكة العربية حرة مستقلة استقلالاً ذاتياً حتى سنة ١٠٥ ب م ، حين قضى عليها الامبراطور تراجار الروماني ، واصبحت مستعمرة رومانية . والظاهر ان الرومان بعد قضائهم على مملكة الانباط منحوا (بترا) نوعاً من الاستقلال الذاتي ، لتكون سداً في وجه المملكة البارثية التي كانت تحاول السيطرة على الطريق التجاري الممتد من البحر المتوسط ، وكانت بترا كما قدمنا محطة تجارية من الطراز الاول ، فيها تستقر القوافل ، وتبدل الحمول ، كما يصار في اسواقها الى التجارة والمبادلة .

وفي المائة الاولى بعد المسيح نجد اسماء امراء واشراف من العرب في تدمر والرهاء وادسا - اورفه - وغيرها ، والآثار الكثيرة التي وجدت في تدمر تدل على ان اكثرية سكان هذه البلدة التجارية العظيمة كانوا

عرباً ، ويظهر انه في اثناء انحلال المملكة السلوقية اخذ العرب بيسيطرون على هذه المدن التي وجدت فيها آثار عربية كثيرة ، ولا يبعد ان يكون بعض امرائهم قد استقلوا بها ولو ردحاً من الزمن قصير .. ومن المؤكد لدينا اليوم ان كثيراً من القبائل العربية سكنت سوريا في العهد الروماني ، وقد استعمل هؤلاء العرب اللغة الآرامية في كتاباتهم ، لان العربية لم تكن تعتبر في ذلك الوقت لغة صالحة للكتابة والتجارة ..

تدمر

وبتقدم المواصلات ، وازدياد الحاجة الى محطات تجارية في الطرق التجارية الكبرى ، ظهرت مدينة جديدة في مجاء السياسة العربية ، وهي مدينة تدمر ، التي لا تزال آثارها مدعاة للاعجاب والاكبار والاحلال . ولما كانت تدمر واقعة بين الرومان والمملكة البارثية فقد رغبت في حفظ التوازن بين الدولتين ، واتخذت سياسة الجهاد للوصول الى هذه الغاية .

وتدمر هذه مدينة قديمة كما يظهر ، لانها مذكورة في الآثار الاشورية منذ سنة ١١٠٠ ق م ، وبين سنة ٣٨ ق م - ١١٧ ب م ، اصبحت تدمر مملكة تابعة لرومية ، وزارها الامبراطور هدریان سنة ١٣٠ ب م ، وحوالي القرن الثالث الميلادي نرى تدمر مملكة مستقلة استقلالاً ادارياً مع دخولها ضمن النفوذ السياسي الروماني ، وما كان الرومان ليجعلوا اهمية هذه المدينة من الوجهتين السياسية والتجارية ، وقد كانت طريقهم من دمشق الى العراق .

وبين سنة ١٣٠ - ٢٧٠ ب م بلغت تدمر اوج عظمتها ، وآثارها

توجع كلها الى هذا الوقت ، ووصلت تجارتها العالمية الى الصين ، واخذت
مكان يتوا ، واحتلت المكان الارفع في العالم القديم .
ولم يُظهر سكان تدمر شيئاً من المواعب الحربية الا في عهد (اوذينة)
سنة ٢٦٥ ب م ، الذي اخرج شابور الاول امبراطور الفرس من سورية ،
وكان الفرس قد حلوا محل المملكة البارثية على حدود تدمر الشرقية ، وكان
شابور قد اسر الامبراطور فاليريان الروماني واستولى على قسم كبير
من سورية ، وظل اوذينة بنائاً شابور حتى ابواب عاصمته المدائن ، وفي
معركة سابقة ايد اوذينة الرومان ضد الفرس ، فأعطاه الرومان
لقب نائب الامبراطور في الشرق ، ومعنى هذا انه كان حاكماً عسكرياً
على آسيا الصغرى ومصر وسورية وشمال الجزيرة العربية ، وبعض
ارمينيا ، وفي سنة ٢٦٦ - ٢٦٧ ب م ، قتل اوذينة ونجده الاكبر في
حصص ، ويقال ان الرومان هم الذين دفعوا القنلة الى الجربة ، لما اوجسوا
شراً من ازدياد نفوذه ، وتعاضلوا شأنه .

زينب

فقامت مقام اوذينة في حكم البلاد زينب العربية امرأته ، وبرهنت على
انها خير خلف خير سلف ، وحكمت باسم ابنها الصغير ، (وهب اللات)
واسمت نفسها ملكة الشرق ، ووقفت في وجه الرومان في غير معركة ،
ونجست من اخضاع مصر وبعض آسيا الصغرى لسلطانها ، وطاردت
القوات الرومانية حتى انقره ٢٧٠ ب م ، وفي سنة ٢٧١ استولت على
الاسكندرية ، ثاني مدينة في العالم ، وحكم ابنها مصر ، وحك النقود
باسمه ، بعد ان حذف صورة اورليان الامبراطور الروماني منها ،
واخيراً تحرك اورليان ، وفي المعركة التي وقعت قرب حصص ، تمكنت

الجيش الروماني من كسر الجيوش التدمرية، وفي ربيع سنة ٢٧٢ بم
دخل أورليان تدمر، ففرت زينب من وجهه إلى الصحراء، فأدركها
رجالها وأسروها، وبينما أورليان في طريقه إلى عاصمته ثارت تدمر على
رجالها، فعاد إليها وهدم أسوارها ومنازلها، فضمف شأنها، وانهم
سلطانها، وكان ذلك آخر عهد أهلها بالسودد والمجد والسلطان، أما
زينب فأنها أخذت إلى رومية حيث ماتت فيها.

وكانت الحضارة التدمرية مزيجاً من مختلف الحضارات المعروفة في
ذلك العهد لوقوعها على طرق التجارة العالمية كما قدمنا، وكانت أهلها
يعبدون الآوثان ويقدمون الشمس والنجوم كما كان حال أبناء عمهم
من سكان جنوبي الجزيرة.

غان

وسقوط تدمر انتقل طريق التجارة العالمية إلى بصرى، من أعمال
حوران فاستفادت مدن القساسة الواقعة في هذه المنطقة من سقوط
تدمر، كما استفادت تدمر قبلاً من سقوط بترا.

وكذلك نرى كيف أن بلاد العرب كانت طريقاً تجارياً عالمياً يجمع
بين الشرق والغرب، لأن العرب لم يكونوا أمة منعزلة عن العالم كما
يتصور بعض المؤرخين، بل كانوا أمة عملت أكثر من سواها على
تقريب المواصلات بين الهند والعراق وفارس وجزيرة العرب وبين مصر
وسورية والبحر المتوسط.

وكان في بلاد العرب طريقان عظيمان للتجارة بين الشام والمحيط
الهندي، أحدهما يسير شمالاً من حضرموت إلى البحرين على الخليج
الفارسي، ومن ثم إلى صور على البحر المتوسط، والثاني يبدأ من

حضرموت ايضاً ، ويسير محاذياً البحر الاحمر متجنباً صحراء نجد
وعجبرها ، ومتجنباً عذاب الشاطئ ، ووعورتها ، وعلى هذا الطريق
تقع مكة .

ولما انهار سلطان اليمن قبض على ناصية التجارة عرب الحجاز ،
وعرب الشام ، وعرب العراق ، اي ان تجارة اليمن تقطعت بين القبائل
في شمالي الجزيرة ، فكان الحجازيون يشترون السلع من اليمنيين
والحبشيين ثم يبيعونها على حجاجهم في اسواق الشام ومصر ، دون
فارس ، لان اسواق فارس كانت بيد عرب الحيرة من سكان العراق ،
وجعل عرب الحجاز مكة قاعدة لتجاريتهم ، كما جعل عرب الشام بصرى ،
وعرب العراق الحيرة ، ووضع عرب مكة الطريق التجاري تحت حمايتهم
وعلى تجارة مكة كان يعتمد الروم في كثير من شؤونهم ، حتى فيما
يتوفون به كالحبر مثلاً .

وكان التجار يخرجون بتجاريتهم قوافل عظيمة ، وقد تبلغ القافلة
خمسة الف بعير ...

وكان عرب الحيرة ينهضون بحماية قوافل التجارة الفارسية عند
مروها في بلاد العرب مقابل مبلغ من المال يأخذونه من الفرس ،
ويقال ان الفرس استكثروا مرة هذا الجعل فابوا دفعه ، فهاجم
العرب قافلة فارسية وهزموا حمايتها ، وكان من اثر ذلك يوم ذي قار ،
وبه تغنى الشعراء وعدوه نصراً للعرب على الفرس ...

وكانت القوافل التي تذهب من بلاد العرب الى الشام تنزل في
اسواق معينة عيقتها لهم الحكومة الرومانية لتحصيل الضرائب المفروضة
كما يظهر ، وكانت هذه القوافل اول ما تنزل في البلاد الرومانية تنزل
في (ابله) - العقبة - ومنها تذهب الى غزة ، وهناك تتصل بتجار

البحر الأبيض ومن غزه يذهب بعض التجار الى بصرى .
والغساسنة قبيلة من أزد اليمن قدموا الى حوران والبلقاء لما بدأ سد مأرب بالنصدع ، وذلك في اواخر القرن الثالث المسيحي ، ونزلت هذه القبيلة في مواطن قبيلة عربية سبقتها ، وهم الضجاجة ، واخذوا مكانهم في الجنوب الشرقي من دمشق على شمالي الطريق التجاري الذي يربط مأرب بدمشق ، ثم تنصروا مع الابام ، وتعلموا اللغة الارامية السورية ، دون ان يفقدوا لسانهم العربي ، وفي اواخر القرن الحباس المسيحي خضعوا لنفوذ الامبراطورية البيزنطية المباشري ، ووقفوا سداً منيعاً بين الولايات الرومانية والقبائل العربية التي كانت تغزوها من حين الى آخر . وبظهر ان عاصمتهم لم تكن مستقرة في مكان واحد ، ففي الشعر العربي القديم ما يدل على ان الجابية ، وجلق وحلبه بالقرب من دمشق كانت عواصم لهم . ووصلت مملكة الغساسنة الى ازوع ايامها ، واهي سلطانها في القرن السادس المسيحي ، وكذلك كان حال مملكة الحيرة مناظرتها ، ففي هذا القرن سيطر الحارث بن جبلة الغساني ٥٢٩ - ٥٦٩ ، والمندثر الثالث بن ماء السماء العراقي ٥٥٤ م ، على السياسة العربية فكافأ فيها ملء السمع ملء البصر ، ولما تمكن الحارث الغساني من كسر شوكة مناظره اللخمي المندثر سنة ٥٥٤ م ، عينه الامبراطور جوستينيان اميراً على القبائل العربية في سورية واعطاه لقباً هو الثاني بعد لقب الامبراطور نفسه في الامبراطورية البيزنطية . وكانت سبب الحرب بين المملكتين العربيين النزاع على الاراضي الممتدة على جانبي الطريق الحربية من دمشق الى ما بعد تدمر .

وقد صرف الحارث حياته محارب في سبيل الرومان البيزنطيين ، وسافر الى القسطنطينية ، واستصدر من الامبراطور امراً بتعيين المطران

بمقرب وهو من الرعا رئيساً دينياً للعرب السوريين، واليه ينسب اليعقوبيون أصحاب المذهب اليعقوبي، وخلف الحارث ابنه المنذر الذي اختلف مع القسطنطينية على المذهب اليعقوبي، الذي كان يؤيده ونصارى فيه العاصية، وفي سنة ٥٨٠ م زار القسطنطينية مع ولديه في عهد تييريوس الثاني، واستقبل فيها استقبالا خافلا، وفي هذا العيد أيضاً حارب ملوك الحيرة، واحرق عاصمتهم، ولما كان هذا كله لم يمنع القسطنطينية من القبض عليه واساءة الظن به وسجنه، ولما حاول ابنه النعمان الثورة كان مصيره مصر والد.

وبعد المنذر والنعمان بدأت مظاهر الضعف تغمر مملكة الغساسنة، واخذت القبائل العربية التي كانت تحت نفوذها تستقل عنها الواحدة بعد الاخرى، ولما زحف الفرس على البلاد السورية في عهد خسرو امبراطور فارس، واستولوا على دمشق والقدس ٦١٣-٦٣٤ قضا على الغساسنة القضاء التام، ولا يعرف بالتحقيق فيما اذا كان هراقليوس بعد انتصاره على الفرس قد اعاد الى الغساسنة عزم واجادهم، ولكن مؤرخي العرب يقولون ان جبلة بن الايهم كان آخر ملوكهم او امرائهم، وانه حارب مع الروم في معركة اليرموك، سنة ٦٣٦، ويقولون انه اسلم بعد ذلك، ثم ارتد عن الاسلام لما اراد عمر بن الخطاب معاقبته لانه لطم عريسياً وطني، فضل ازاره، وهرب الى قبرص ومات في القسطنطينية سنة ٢٠ للهجرة.

وقد وصل الغساسنة في عهد الرومان الى درجة حنة من العمران والحضارة، وسبقوا ملوك الحيرة في حضارتهم وعمرانهم، وكانت حضارتهم مزيجاً من الثقافات والحضارات المعروفة في عهدهم فهي حضارة رومانية سورية عربية يونانية في وقت واحد، وترك الغساسنة من بعدهم

آثاراً عديدة ، منها القصور المختلفة ، وافواص النصر ، والحمامات العامة ، والدور ، والكنائس والمرايح ، حتى حوران نفسها لا تزال تحوي الى اليوم ما يقرب من بقايا ثلاثمائة مدينة ، ليس فيها اليوم منها إلا اقلها . وكان ملوك الغساسنة من الادياء الذين يتدوفون الشعر ويحيزون الشعراء ، فوفد عليهم ليبيد والنايفة وحسان بن ثابت ، فأحسنوا اليهم ، واجازوهم .

ملوك الحيرة

ولقد عودتنا القبائل العربية ان تترك مواطنها في الجزيرة ما كان الى ذلك سبيل ، خصوصاً اذا خافوا إملاقاً ، او احسوا جدياً وفقرأ ، فلما اخذت بلاد اليمن بالانحطاط اخذ اهلها يهاجرون الى ارجاء البلاد العربية ، فسار ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز ، وانتهى الى المدينة فقلب اهلها وكان اكثرهم من اليهود ، وسار حارثة بن عمرو - وهو من خزاعة - بمن معه فاقتحموا الحرم واجلوا عنه سكانه من جرم وهم من اليمنيين ، وسار عمران بن عمرو نحو عمان واستوطنها ، وهم ازد عمان ، وسار جفنة بن عمرو الى الشام ، وهو ابو الملوك الغساسنة ، ومنهم قبيلة حنم بن عدي الذين منهم نصر بن ربيعة ابو الملوك المناذرة بالهيرة ، ومنهم طي الذين نزلوا الشمال الشرقي من المدينة المنورة ..

وكذلك تفرقت القبائل اليمنية واحلت اخصب بقاع جزيرة العرب . والادرجع انه حوالي القرن الثالث المسيحي نزلت (قبيلة من تنوخ) ادعت انها قدمت من اليمن في ارض العراق ، ونصبت خيامها الى جنوبي الفرات ، ولعل هذا كان حوالي سنة ٢٢٦ ، لما انهارت الامبراطورية البارثية ، وقامت الامبراطورية الفارسية مقامها ، وعاش التنوخيون

اول امرهم في الحميم ، ثم استقروا في مدينة اسموها الحيرة ، وهي تبعد ثلاثة اميال جنوبي الكوفة ، وكانت في ارض خصبة تربيها فروع من نهر الفرات وكان سكان الحيرة بالكثرتهم من المسيحيين النسطوريين ، ويرجع الدروز بانسابهم الى بني تنوخ ، وقد هاجروا الى جبل الدروز ولبنان لاجيال خلت ، لا نستطيع التأكد من تاريخها بالضبط والتحقيق .

وكانت الدولة الفارسية بعد الهزيمة التي منيت بها جيوشها في عهد الاسكندر المقدوني سنة ٣٣٣ ق م ، قد اصبحت دويلات صغيرة يحكمها ملوك يعرفون بملوك الطوائف وقد اتبع الاسكندر سياسة التجزئة هذه في بلاد فارس حتى لا تهدد هذه الدولة بعده الدولة اليونانية الناشئة ، واستمر ملوك الطوائف يتولون حكم بلاد فارس الى سنة ٢٢٦ م حتى نبغ فيهم اردشير بن بابك مؤسس الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفين بآل ساسان او الاكاسرة ، واستمر في الحكم الى سنة ٢٤١ م فوحّد كلمة الفرس في عهده ، كما اعاد الى سلطانه الاراضي العربية المتناخلة لبلاده ومنها الحيرة والانباء ، ومنحها الاستقلال الذاتي واقامها سداً بينه وبين الروم ، واحلافهم من الغساسنة على الحدود الفارسية البيزنطية .

وقد نشأت دولة الحيرة كما قدمنا في القرن الثالث الميلادي ، واستمرت الى ظهور الاسلام ، وكان لاسلمها اثر كبير في الحضارة العربية ، فعزّزوا التجارة في انحاء الجزيرة العربية واشتهروا بتعليم القراءة والكتابة فساعدوا بذلك على نشر العلوم والمعارف ، كما ساعدوا على نشر النصرانية في بلاد العرب لما اعتنق بعض ملوكهم الدين المسيحي ، وكانوا الى ذلك اي اهل الحيرة همزة الوصل بين الحضارة الفارسية والعرب .

واول ملوك الحيرة ، عمر بن عدي بن نصر بن ربيعة بن حُثم ، واخبار

بملكة الحيرة وتطورها من هذا التاريخ الى ظهور الاسلام معروف متوفر ، كما تعرف اسماء خمسة وعشرين ملكاً من ملوك الحيرة ، من أشهرهم النعمان الاول الملقب بالاعور ، وهو الذي بنى الحورنق القصر المشهور على مقربة من الحيرة ، لينزل بهرم غور ابن يزدجرد الاول ٣٩٩-٤٢٠ م الذي اراد ان ينشأ ولده في البادية ، والحورنق قصر مشهور اسبغ عليه الشعراء كثيراً من الاجلال والجمال والروعة ، وظل النعمان طيلة حياته وثنياً ، وفي فترة من الزمن راح يعذب المسيحيين ويقتلهم منهم ، ثم تبدل بعد ذلك واعتدل ، ثم بنى السدير وهو قصر آخر جميل اقامه بين سوربه والحيرة في الصحراء ، وفي ايام النعمان خليفة المنذر الاول ٤١٨-٤٦٢ م لعبت الحيرة دورها السياسي الخطير في التاريخ العربي قبل الاسلام ، واستطاع النعمان ان يحمل كهنة فارس واشرافها على مبايعة بهرام لعرش فارس دون غيره من المنافسين .

وفي سنة (٤٢١) حارب الامبراطورية البيزنطية مع الفرس ، وفي اوائل القرن السادس المسيحي حكم الحيرة المنذر الثالث بن ماء السماء ٥٠٥-٥٥٤ م وكان من رجال الحرب المعدودين ، حارب الروم غير مرة ووصل الى انطاكية حتى رده عنها الحارث الغساني .

واما ابنه وخليفته عمر بن هند ٥٥٤-٥٦٩ فقد كان عاسفاً قاسياً ، وشعراء الجاهلية يذكرونه كثيراً ، وهو صاحب طرفة بن العبد ، والحارث بن حلزة ، وعمرو بن كلثوم ، وقد لقي نهايته على يد عمرو بن كلثوم الشاعر ، لانه اهان والدته ، وحاول تحقيرها .

وانتهت بملكة الحيرة بالنعمان الثالث وابو فابوس ٥٨٠-٦٠٢ م ابن المنذر الرابع ، وهو صاحب الشاعر النابغة الذبياني ، واعتنق المسيحية ، وهو اول من اعتنقها من ملوك الحيرة ، ونقم عليه كسرى فحبسه ومات

في حبسه ، ولم تبلغ الحيرة من العظمة والجلال في العمران ما بلغته بترا
وتدمير ومملكة الفساسة ، وكان سكانها يتكلمون العربية ، ويكتبون
السريانية ، كما كان يفعل الانباط وسكان تدمر قبلهم ، الذين كانوا يتكلمون
العربية ، ويكتبون بالارامية ، ومن المؤكد ان الحيرة كانت ذات اثر
بليغ على العرب الرجل في عهدها ، ويقال ان قريشاً نقلت بعض عباداتها
الوثنية عن الحيرة ، ومنها تعلمت الكتابة ، وكان سكان الحيرة يحبون
الارض للتجارة ، واشتغلوا بتعليم القراءة والكتابة ، وكانت علاقاتهم
مع فارس اقرب الى نظام المحالفات منها الى شي . آخر ، وكانوا ينعمون
باستقلالهم الداخلي ، ولكن كسرى فارس كان ينعم بصلاحيه اختيار
الملك من قبيلة حُم ، واذا مات الملك عين من يختاره من اهل بيته .

وحلّ الضعف بالمناذرة قبل عهد ابي قيس بن روفاه في سبعين
كسرى ، وكان للحروب التي ثالت بين الفرس وقيصرية القسطنطينية
اكبر الاثر في اضعافهم ، لا اضطرارهم الى موالة الفرس في الحروب
المذكورة ، وكانت اول الحوادث التي نزلت بالمناذرة هزيمة المنذر بن ماء
السماء وقتله على يد الحارث بن ابي شمر الغساني في موقعة مرج حلبية ،
سنة ٥٥٤ م ، ثم هزيمة ابنه وقتله على يد المنذر بن الحارث الغساني سنة
٥٧٠ ، ثم نلى ذلك تشايع اولاد المنذر على العرش ، ولما استتب الامر
للنعمان بن المنذر غضب عليه كسرى وقتله كما ذكرنا ، ثم اقام مكانه
ياس بن قبيصة خلفاً للنعمان على بلاد الحيرة ، ولم يكن من اهل بيت
الملك ، واشرك معه رجلاً فارسيّاً في الحكم ، وبذلك ضاع استقلال
المناذرة ، وظل الحال على هذا المنوال حتى زحف العرب على العراق
بقيادة خالد بن الوليد ، واستولوا على الحيرة سنة ٦٣٣ .

وكان من اثر هذا الضعف الذي تولى بمملكة الحيرة ان نشبت حرب

(ذي قار) بين إياس بن قبيصة حاكم الحيرة وتأيب الفرس، وبعض العرب من طيء وجهراء وابلاد وتغلب والنمر، وبين العرب من بني شيبان في جموع مسن بصر، فكان النصر للعرب ودارت الدائرة على الفرس وانصارهم.

وفي يوم ذي قار يقول أبو تمام الشاعر يمدح أبا ذؤيب الشيباني :
إذا افتخرت يوماً نيم بقوسها وزادت على ما وطدت من مناقب
فانتم بذئ ذي قار أمالت سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

ملوك كندة

وهناك مملكة عربية أخرى، وهي مملكة كندة، كانت تقف من اليمن موقف غسان من الروم، والحيرة من الفرس، وكان مواطنها في وسط جزيرة العرب.

ومن المؤكد أن كندة ترجع بانسابها إلى قبائل جنوبي الجزيرة وكانوا يسكنون حضرموت، ولكن هذه القبيلة القوية لا تذكر في الآثار القديمة قبل القرن الرابع المسيحي، وأول من أسسها (حجر أكل المرار) وهو نسيب أحد ملوك حمير - حسن بن نوبة - وقد عينه لزعامه قومه سنة ٤٨٠ ب م وبعض القبائل العربية الأخرى في وسط الجزيرة. وفي فترة من الزمن تولى مملكة كندة هذه تستولي على الحيرة لتفقدوها بعد ذلك بوقت قصير، وذلك سنة ٥٢٩، وقد استعادها المنذر الثالث الذي قتل ملك كندة الحارث مع خمسين من العائلة المالكة.

وعلى أثر ذلك نشب الاختلاف بين أبناء الحارث، فسقطت المملكة، وارتدت كندة إلى حضرموت بعد أن خسرت سيادتها الفعلية على وسط الجزيرة.

ومن أبناء ملوك كندة امرؤ القيس الشاعر الجاهلي المشهور الذي حاول استعادة ملكه ، فذهب الى القسطنطينية يطلب مساعدتها فلم يوفق ، ومات بانقره في طريقه الى بلاده مسوماً ...
ومن أشهر رجالات كندة في الاسلام الاشعث بن قيس الذي اشتهر في حروب سورية والعراق .

وكان تاريخ مملكة كندة عبارة عن محاولة غير ناجحة تقوم بها قبيلة كبيرة ، لتوحيد القبائل العربية المختلفة تحت شعار واحد ومملكة واحدة ، اسوة بالدول التي كانت قائمة حولها في سورية والعراق ، وجنوبي الجزيرة (١) .

— بترا —

(١) يذهب بعض المؤرخين الى ان مدينة (بترا) هي التي ذكرها داود في مزاميره بقوله « من ذا الذي سيؤدي الى المدينة الحصينة » لان بترا مدينة عمورة في الصخور وعمورة بها تقرأ فهي إحدى عجائب الآثار الشرقية ، بل هي اعجب هذه الآثار في نظر العلماء والفنانين ، تقع على الحد الشمالي الغربي لصحراء العرب في منتصف الطريق تقريباً بين خليج العقبة والبحر الميت ، فوق رأس الجبل الذي غطت بأحدي صخوره . اما تاريخها فيقسم الى اربعة عصور :

(١) عصر الجاهلية التاريخية ولهذا العصر فيه وآثاره التي ظهر في الاحافير وما شئت من غطف . (٢) عصر قدماء المصريين يدل عليه ما لهم من آثار باقية الى اليوم ومما به قائمة قبور نقش جدرانها باللغة الهيروغليفية كما ترى على جدران الآثار المصرية سواء بسواء . (٣) العصر اليوناني وقد خلف لنا المسارح العمورة بالجبل حفراً والخزائن المنحوتة تحتها وما على جدران هذه وتلك من الكتابة اليونانية القديمة . (٤) عصر الرومان يدل عليه المقابر والقبور الجميلة المنحوتة على الطراز الروماني القائمة كالكهوف والمنابر وما حولها من قبور رومانية هي آية في جمال الفن .

بقي عهد واحد هو عهد بني حمر وبني سبيع حين سكنوا المدينة ولم يغلقوا بها شيئاً اللهم الا الذكرى التاريخية نصب .

وقد حاول المؤرخون جماً ان يلقوا على اسرار هذه المدينة والعصر الذي انشئت فيه ، فوصلوا من بحثهم هذا الى انها كانت موجودة على رأس جبل هارون الذي تقوم على رأسه

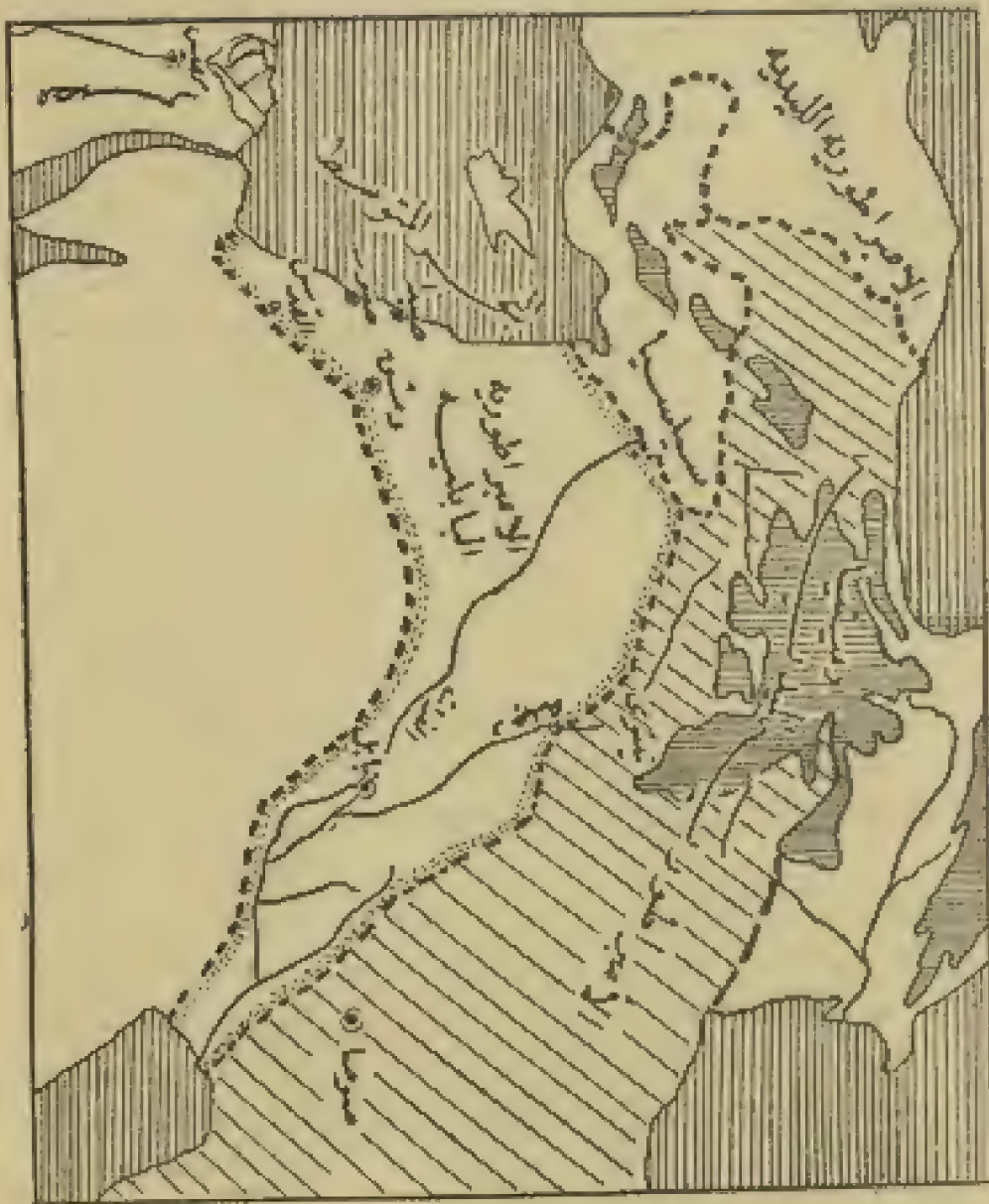
اليوم أيضاً منذ القرن التاسع قبل الميلاد ، وكان عدد سكانها يقارب الستين ألفاً . ويرجعون أنها كانت مملكة أيديم ، وسكنها الأنباط من سلالة اسماعيل عليه السلام عام ٣٠٠ قبل الميلاد ، وقد سماها اليونان « بتر » لأنها مدينة الصخور والمقصور وذكرها (استرابون) المؤرخ اليوناني الذي عاش في بداية القرن الأول الميلادي .

وتلقد ظلت مدينة بتر عامرة إلى أوائل القرن الرابع الميلادي ثم دبح إليها الحراب لما غزت عنها طريق القوافل الآتية من الشمال تقصد البحر الأحمر إلى خليج النعم في بدر كها عام ٣٦ ميلادية إلا وقد هجرها سكانها وأصبحت نياً منسياً . وظلت كذلك إلى أن عثر عليها الاستاذ سينتون الرحالة الشهير عام ١٨٠٧ ميلادية ، ثم زارها الاستاذ « بيركرت » الألماني عام ١٨١٢ متذكراً في زيارته الأعراب .

وآخر من زارها العالم الانكليزي الكسندر كيندي ووصفها قائلاً :
« إذا اشرف الانسان على المدينة ابصر عن كتاب اللعب وخزانة فرعون ذات الأعمدة الجميلة التي يزعم الناس ان احد الفراعنة مدفون بها كما يزعمون ان الامبراطور « ادريان » هو الذي أمر بنقلها في الصخرة حين زار المدينة عام ١٣١ ميلادية وأمر بإغدادها مجدداً لالهة « ايزيس » .

« وترى على يسارك حين تترك تلك الخزانة مسرحاً عظيماً « مدرجاً » يسع الوفاء من الناس خصص للامم اليونانية وما إليها من سراخ الحيوانات المفترسة . وهذا المسرح هلالى الشكل أبدع في نقره الفنانون اليونان يحتوي على ثلاثين درجة متشابهة .
وقد تعب السير الكسندر كيندي في بتر فكشف عن قبور للانباط والرومان وآثار اخرى من بينها قبر مؤلف من ثلاث طبقات بعضها فوق بعض وهذا هو قبر سكتانس فلورتيانس أحد حكام بتر الرومانيين ..

والمدينة آية من آيات الفن والجمال ، كان يصل إليها الماء بواسطة نهر صغير يجري تدنياً بالوادي الواقع بجانبها ، فإذا غلش في الشتاء حولوا مائه إلى نفق منحوت في الجبل عمره ستة عشر قدماً وارتفاعه تسعة عشر وطوله ثلاثمائة وثلاثين قدماً ، فيصرف الماء إلى واد آخر ، ولا يجري في واديهما إلا البير منه الذي يهي حاجتهم . وأصل بتر هم الذين نحتوا هذا النفق كما نحتوا مدينتهم ، فلا عجب إذا ساءم المؤرخون جبابرة العصر ، وسورا بتر مدينة الجبابرة .



الشرق القديم

الجزيرة العربية قبل الاسلام

— الحياة الروحية والعرفية —

تقسيم العهد التاريخي العربي

جاء بعض المؤرخين على تقسيم التاريخ العربي وفقاً للآثار العربية التي صار اكتشافها حديثاً الى ثلاثة اقسام (١)

١ — العهد السبائي الحيري : ويبتدي من القرن الثامن قبل المسيح وينتهي في آخر القرن الخامس بعده .

٢ — العهد الجاهلي : وهذا العهد يطلق على المائة سنة التي سبقت ظهور الاسلام في الجزيرة العربية .

٣ — العهد الاسلامي : ويبتدي من ٦٢٢ بعد المسيح وهي السنة التي هاجر فيها رسول الله من مكة الى المدينة .

والعهد الجاهلي هو الفترة التي كان فيها العرب لا ينعمون بدين ولا ايمان حقيقي وكان اكثرهم وثنية .

شمال الجزيرة

وبختلف شمالي الجزيرة عن جنوبها — وقد عرضنا لتاريخ الجنوب — في ان اكثر سكانه من البدو الرحل وتاريخ هؤلاء البدو ، ليس الا

(١) تاريخ العرب الادبي : هرولد نيكولسن : الطبعة الاخيرة ، لندن ، ١٩٤١

عبارة عن هذه الغزوات التي كانت تقع بين القبائل بعضها مع بعض ،
وتسمى (أيام العرب) ويحصل فيها حروب ومعارك بكثرة فيها السلب
والنهب ، ويقل عدد القتلى والجرحى .

ومصادر هذا العهد ترجع الى ما كتبه المؤرخون المسلمون بعد هذا
التاريخ بثلاثة سنة او اقل او اكثر قليلاً ، اذ ليس هناك مصدر
عن هذه الايام ، وليس هناك مصدر عربي قديم كتب عنها ابان وقوعها ،
ومهما يكن في هذه المصادر من الحقيقة ، فانها على كل حال تقتل لنا لونا
من الوان الحياة العربية في العهد الذي سبق الاسلام ، ولو كان في هذا
التمثيل بعض الاغراق والاسراف .

وكذلك لم يترك عرب الشمال اثرأ يذكر قبل محمد ، وليس هناك من
المصادر المتجددة عنهم البتة ما يستحق الذكر ، او يساعد على تفهم
تاريخهم ، ودراسة حياتهم الاجتماعية على الوجه الاكمل والافضل .

القبائل العربية

ومن الثابت اليوم ان هناك بعض قبائل عربية عاشت في شمالي
الجزيرة ، كما ان بعض سكان الشمال تولوا جنوبها ولكن هؤلاء كانوا
اقلية لا نكاد تذكر .

واذا نظرنا الى تاريخ هذه القبائل التي لعبت دوراً خطيراً في تاريخ
الاسلام وقبل الاسلام ، وفي ماضيات الايام ، فاننا نرى في تطورها الاخير
ما يدهش ويثير العجب .

فقبيلة قريش مثلاً ، التي خرج منها القواد والحكام والابطال في صدر
الاسلام ، اصبحت اليوم ممثلة في بعض افراد من البدو الفقراء في الحجاز
وقد ذهب مجدها السابق ، ودالت سيطرتها السالفة .

وقبيلة (طي) ذات الشهرة في الماضي ، والتي كانت يطلق بعض المؤرخين الأقدمين اسمها على جزيرة العرب كلها ، أصبحت اليوم بطلاً صغيراً من قبيلة شمر .

والواقع ان الحياة في الصحراء قاسية شديدة لا ترحم الضعيف ، ولا تأسو على المعاني البائس ، فكما يذهب الفرد في الصحراء غنيمة باردة للوحش الضاري اذا لم يكن قادراً على الدفاع عن نفسه ، فكذلك تضيق مختلف القبائل اذا لم تدافع عن نفسها ، ويذهب سلطانها وتضطرب للاندماج مع غيرها من القبائل .

وبعض القبائل توجع في اصولها الى رجل واحد ، كان كثير الولد ، وكان اولاده مثله كثرة وولداً ، فامسوا قبيلة جديدة حملت اسمه - اسم الاب طبعاً (١) - واستقلوا عن غيرهم من القبائل ، وانضم اليهم جماعة تركوا قبائلهم ، لاسباب شخصية او لاختلافات محلية ، ومن هنا كانت الاكثار من الاولاد مفيداً للعربي ، لان في ذلك قوة له ، وتعزيزاً لعصبيته ، ونوطيداً لمركزه ..

والمفروض في زعيم القبيلة او شيخها ان يكون قوياً جريئاً باسلاً ذكياً حازماً ، فليس في الصحراء مكان للضعيف الجبان ، وليس ما يمنع قيام الابناء مقام الاب في زعامة القبيلة شرط ان يكونوا مثله حزماء وقوة ، وان يكونوا في عصية فتعهم وتؤبدهم ، ومن الصعب على انسان في الجزيرة فرض سلطانه على غيره اذا لم يكن متحلياً بالصفات التي ذكرناها .

ذلك انه يصعب على العربي قبول حكم المتوسط الذكاء والدهاء ، والبسالة والجراة ، وهذا العناد من العربي ، وانكاره الانقياد لحكم غير (١) قد تحمل القبيلة الجديدة اسم مكان ، او اسم حيوان من حيوانات البادية ايضاً .

العبقري القوي الباسل من زملائه ، كان من نتائج عدم استقرار التاريخ العربي واضطرابه ، لان العباقرة والزعماء الكبار لا يتنزلون على الارض بكثرة ، واشتراط العربي الخضوع وجود زعيم كبير او عبقري نابغة ، لم يمكن الممالك العربية من الاستقرار والتثبيت ، وجعلها ابدأ عرضة للانقلابات والاضطرابات .

وهناك شيء آخر اضر القضية العربية والمملك العربي ، وهو صعوبة اقناع العربي باحترام عبئته غير قبيلته ، ذلك ان العربي لم يكن يحاول ان يعرف ان هناك في الحياة غير القبيلة ، ولم يكن يريد ان يفتن الى ان هناك نظاماً سياسياً غير النظم السياسية الموجودة في الصحراء - والتي كانت معدومة طبعاً - ولذلك كان تقبله للنظم الجديدة صعباً ، وكان اقناعه بانها لمصلحته مستحيلاً ، فالعربي كان يحب قبيلته ولا يعترف بشيء سواها في حياته الاجتماعية والسياسية ...

ولذلك كان يصعب عليه العمل مع جماعة غير جماعته ، ولو كانت هذه الجماعة تعمل لمصلحته ، لانه كان لا يفهم ذلك ولا يعرفه ، واذا فهو ضعيف الوطنية كما نعرفها نحن ، لان الوطنية عنده كانت ممثلة في قبيلته ، بحيث انه لم يكن يجد كبير امر في محاربة القبائل العربية الاخرى حرباً لا هوادة فيها ولا رحمة ...

تقسيم القبائل

ولقد اختلفت قبائل عربية عديدة قبل الاسلام ، او انها ضعفت جداً ، وانضت الى غيرها ، وذهب اسمها والباقي منها كان يقسم الى اقسام هذا تفصيلاً :

قبائل الشمال كانت مؤلفة من ثلاثة اقسام **كبرى** : وكانت تسمى

الاسماعيلية ، ومنها : مضر ، وربيعة ، وايباد ، وهم ابناء نزار ، حفيد
عدنان ، من اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام .

فقبيلة ايباد بعد حياة مضطربة ، اختفت من المسرح العربي ولم تترك
خلفاء يذكرهم .

واشهر قبائل مضر : قيس عيلان وقد لعبوا دوراً خطيراً في بناء
الامبراطورية العربية .

ومن مضر هوازن : وكان منها هلال وكراب في الماضي وعقيل
والمتنك في الحاضر ، وهم يسكنون العراق اليوم .

ومنها : عدوان وسليم وغطفان ، وغطفان تنقسم الى القبيلتين
الشيريين عيسى وذبيان وكان العداء مستحكماً بينهما في الجاهلية ...

ومن مضر : قيس وكانت تسكن بادية البصرة ، وهذيل التي كانت
تسكن جبالاً قريبة من مكة ، واسد وكنانة ، وتسكن جنوبي
الحجاز ، ومن كنانة خرجت قريش ...

واشهر قبائل ربيعة : بكر وعبد القيس سابقاً ، وعنزة اليوم ،
وقد ظهوروا في القرن الثامن عشر ولا يزالون يسقطرون على الصحراء
السورية .

وقد كان بين ربيعة ومضر عداً شديداً ظل فروناً طويلة ، وكانت
ربيعة تتحالف غالباً مع اليمنيين لمقاتلة المضريين :

قبائل جنوبي الجزيرة

وأما اشهر قبائل جنوبي الجزيرة العربية فلخم الذين اسسوا بملكية
العراق في الحيرة ، وهمذان ، وطى ، ومن طى خرجت قبيلة شمر
المعاصرة . والازد الذين كان منهم الغساسنة ملوك الشام ، وخزاعة

الذين سيطروا في السابق على مكة حتى اجلاهم عنها القرشيون ، ثم
الايوس والخزرج الانصار من سكان المدينة .

وهناك فضاة التي كانت تقول انها يمنية ، والتي تزوجت مع القبائل
الشمالية خصوصاً مع مضر ، وبعض الشعراء يزعم انهم من عرب الشمال .
واحدة فضاة ان منها خرجت قبيلة (كلب) التي لعبت دوراً
خطيراً في اول عهد الدولة الاموية ، والتي كانت ام يزيد بن معاوية منها .
وليس هناك شك في ان الحلاف السبامي بين كلب ، وقيس عيلان
كان من الاسباب التي قضت على الدولة الاموية .

ومن فضاة ظهرت صالح ، وقنوخ ، وجبينة .
وهناك غير هذه القبائل الكبيرة ، قبائل صغيرة ، لا تزال حتى
يومنا هذا ، كحطيم ، والشرارات ، وسليب ، ولا شأن سياسي لهذه
القبائل .

وقبيل الاسلام نجد قبائل عربية كثيرة على الحدود السورية
والعراقية وبعضها كان قد تخطى هذه الحدود ، وراح يسكن في الارض
السورية والعراقية ، كقبيلة (بكر) فانهم كانوا ينزلون الارض التي
نسبت اليهم وهي (ديار بكر) وقبيلة (كلب) وكانت تنزل تدمر ،
وتسيطر على الطريق التجاري الذي يمر فيها .

كل شيء هادي .

وكذلك كانت الحالة هادئة في الجزيرة العربية في هذه السنوات
الاولى التي سبقت ظهور الاسلام ، وكان العرب الى ذلك لا يزالون
يصرفون اوقاتهم ، وينقسمون حياتهم على النحر الذي وصفناه ، وذلك
ما بين غزو وخلاف ، وسمي خلف الكلاء ، وشرب للخمرة ، وتشبيب

بالنساء ، وقول للشعر ، وعبادة للاوثان ...

ولم يكن هناك في الواقع ما يدل على الخطر القريب ، والحادوث العظيم المنتظر فقد كان الهدوء يثلا الجزيرة ، ويسير على النحر الذي كان يجري عليه لعشرات خلت من السنين .

وفي الجنوب كان المسيحيون واليهود يعملون للسيطرة الواحد على الآخر . وكانت بعض الامصار الشمالية من الجزيرة العربية تحت حكم الفرس بينما كانت اقسام اخرى في الشمال تحت السيطرة البيزنطية . اما وسط الجزيرة فقد كانت بعيداً عن السيطرة الاجنبية ، وخلافاً من الاختلافات الدينية ، بحيث استطاعت قبائله ان تعيش حرة ، تغزو بعضها بعضاً احياناً ، وتنكش احياناً اخرى ، لا تعرف الاتفاق ، ولا تؤمن بالانحداد والعمل المشترك .

وفي هذا الجو الفادي - من حيث ان الاختلافات بين القبائل العربية بعضها مع بعض كان شيئاً عادياً - كان بعض العرب قد تقبلوا اليهودية او المسيحية ، واما وسط الجزيرة فقد احتفظ بوتنبيه واحكامه . والذي لا شك فيه اليوم ان العرب كانوا يؤمنون بكائن اعلى محيط بالعالم وما يحويه من كائنات هو خالقها ، وانه الذي يرسل عليهم المطر من السماء ، وكانوا يعتقدون الى ذلك انه ليس له كهات ولا هياكل كذلك التي خصوا بها اوثانهم .

وكانوا يعظمون الجن ويعبدونهم ، بسبب صغارهم الواسعة التي كانوا يضلون فيها الاسابيع فيتمثلون فيها الرؤى المختلفة الخيفة المنيعة ، وكانوا يؤمنون بان اجسام الجن تشغل جزءاً من الفضاء وانها مخلوقة من النار او الهواء فلا تراها العين ، وان بطوقهم افشاء الخير او الشر الى الانسان ، فعليهم والحالة هذه تعجدها وتقديسها ، كما واحوا يعتقدون

ان لكل جني موطناً خاصاً به ...

مكة وامانها.

وعبد العرب الاصنام المختلفة ، وكان لبعض القبائل اصنام خاصة بها ، كما عبد البعض الاخر الشمس ، وغيرها القمر ، وبعضهم النجوم . ولكن الحياة الدينية عند العرب كانت ضعيفة جداً ، وكانت هناك بينهم من ينكر عبادة الاصنام ، ويفكر في الحياة الاخرى ، ولكنهم كانوا جماعة قليلة وعدداً محدوداً ، وتفكيرهم الديني كان ضيقاً قاصراً .. وكانت مكة مهد الوثنية ومهد الثقافة في وسط الجزيرة ، وقد بنى قريش في منتصف القرن الخامس الميلادي ، في واد رملي شديد الضيق ، حتى ليبلغ اقصى اتساع فيه نحو سبعمائة خطوة ، واما اضيق مكان فيه فلا يزيد عن مائة خطوة ، تكتنفه جبال غارية مقفرة بتراوح ارتفاعها بين مائتي قدم وخمسمائة .

وفي مكة كانت الكعبة ، وقد صار بناء مكة حول الكعبة ، والكعبة اقدم من مكة بما يعجب تقديره على الوجه الاصدق والاصح ، والكعبة (١) مؤلفة من اربع حوائط مبنية بحجارة لم يذهبها الصقل ، وقد رصف بعضها الى بعض دون ان يتخللها الملاط ، وغطيت بملاط او بقطعة من القماش ، واما ارتفاعها فيزيد عن ارتفاع الرجل ، واما مساحتها فتبلغ مائتي قدم .

وكان لقريش اصنام في جوف الكعبة وحولها ، وكان اعظمها 'هبل' ، وهو الصنم الرئيسي بين اصنامها منذ النصف الاول من القرن الثالث ، وهو تمثال من عقيق احمر على صورة انسان مكسور البدن اليمنى ، وقد ادر كنه

(١) حيث كذلك لانها ترى من بعد على شكل مكعب منظم الاضلاع .

قريش كذلك، فجعلوا له يداً من الذهب، وجلبه من الخارج بعض رؤساء قريش، ويقال ان اول من نصبه خزيم بن مدركة، وكانت يقال له: (هبل خزيم) وكان هبل في ذلك العهد رباً لقبيلة قريش، واما الكعبة نفسها فلم تكن ملكاً لهم بل كانت مشاعاً لأكثر القبائل التي تربطهم بها وشائج المصلحة السياسية والتجارية العامة، بحيث ان الكعبة كان لها صيغة عامة لا خاصة.

ورضعت كل قبيلة من هذه القبائل التي تربطها بالكعبة مصلحة سياسية او دينية او تجارية كما قدمنا، ضمنها الذي نعبد في الكعبة حتى بلغ عدد الارباب ثلاثة وستين رباً، وكان التسامع الديني سائداً كما يظهر عند هؤلاء العرب الوثنيين اذ كنت ترى في الكعبة مع الاصنام صورة ابراهيم الخليل وصور الملائكة، وصورة العذراء مع طفلهما المسيح عيسى بن مريم.

الحجر الاسود

وكان العرب الى ذلك يقدسون الحجر الاسود، وهو قطعة من الحجر البركاني، تلمع في الخواص نقط بلورية، وتبدو في بعض جهاته قطع صغيرة من النوع الذي يطلقون عليه اسم (فيلسبار) لونها قارة احمر باسفله ظلال قائمة، وقارة اسمر يميل الى السواد.

وقد تعاودته ظروف مختلفة، فكسر اكثر من مرة حتى غدا في هذه الايام مؤلفاً من اثنتي عشرة قطعة مضموم بعضها الى بعض، والأكثوبة على انه حجر سقط من السماء.

تقديس الكعبة

والظاهر ان قريشاً مع الايام زادت في تقديس الكعبة ، وزاد
اجلالهم لها ، حتى قدسوا ما جاورها من البقاع ، التي خلعت عليها الكعبة
مسحة القداسة ، ثم اصبح ما يكتنفها الى بعد عدة فرائخ حراماً لا يجوز
لكائن من كان ان يفتك بانسان فيها ، او يصطاد من حيوانها احتراماً لها .
وروى ابن الكلبي في كتابه الاصنام : انه كان لا يظعن من مكة
ظاعن الا احتبل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيماً للكعبة ،
وصبابة بمكة ، فحينئذ حلو وضعوه ، وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمناً
منهم بها ، وصبابة بالحرم وحياً له ، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة
ويحجون ويعتمررون على ارض ابيهم اسماعيل من تعظيم الكعبة والحج
والاعتار .

وكان يؤم الكعبة في كل عام من العرب في الجاهلية جمهور غفير من
الناس لتأدية الشعائر الدينية ، ولحضور الاسواق التجارية التي كانت
تقام حول مكة وقت الحج .

عبادة الاصنام

وتقول المصادر العربية القديمة ان اول من ادخل عبادة الاصنام هو
(عمر بن لحي) وانه اول من بدل دين اسماعيل ونصب الاوثان ، وقد
جاء في كتاب الاصنام : ان السبب في ذلك انه مرض مرضاً شديداً
فقبل له : ان في البلقاء من الشام (حمة) ان اثنتي عشرة براءت ، فاتها فاستنجم
بها فبرأ ، ووجد اهلها يعبدون الاصنام فقال :

— ما هذه ؟

فقالوا : نستسقي بها المطر ، ونستنصر بها على العدد .
 فسأهم ان يعطوه منها ففعلوا ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة .
 ولكن عبادة العرب الاولى فقدت معناها الاول ، وقوتها السالفة في
 القرن السادس من الميلاد ، ودب فيها الفساد ، وتغير جوهرها فاصبحت
 طائفة من الخرافات والالوهام ، كان يعرف ذلك منهم - اي من اهل
 مكة - عدد كبير من الزعماء وغيرهم ، ولكنهم ظلوا يحتفظون بها
 للفائدة التجارية التي كانت تدورها عليهم من وجودها في مكة وحج
 العرب لمكة وطوافهم حول الكعبة واصنامها ، ومتاجرهم مع هؤلاء
 الحجاج من العرب ، وبيعهم ما جلبوه من البضائع المختلفة الى مكة ،
 اذ كانت مكة مركزاً تجارياً عظيماً ، وطريقاً يربط للتجارة العالمية في
 ذلك العهد .

ومن المؤكد لدينا اليوم ان رجالات مكة ، وهم الذين بدل التاريخ
 على انهم كانوا ينعمون بذكاء وعبقريه عظيمتين ، ما كانوا يؤمنون
 بآداب يضعونها بأيديهم من الحجارة والخشب ، لولا هذه المصلحة التجارية .
 كانوا في ظاهر امرهم يعبدون هذه الارباب ، ويحجون الى محرابها
 ويحتفون بواسمها السنوية ، ويزبحون القرابين في هياكلها ، ويريقون
 دماءها على تلك الالهة التي يعبدونها ، سواء اكانت من الحجر ام من
 الخشب ، بل لقد كانوا يلجأون اليها كلها حزمهم امر يلتمسون منها
 البركة ، ويتكشفون بواسطتها مستقبل امرهم الغامض .

ومن المؤكد ان عقيدتهم فيها لم تزد على هذا القدر من المظاهر ، اما
 فيما عدا ذلك ، فقد كانوا لا يترددون في تحطيم آلهتهم اذا لم تتحقق
 نبوءتها ، وقد تنزل باحدهم كارثة فينذر لاحد الاصنام ان يذبح نبيجة
 قرباناً له اذا تكشفت غمته ، فلا يكاد يزول عنه الخطر ، حتى يستبدل

النعجة بفزال لا يكلفه ثمنه أكثر من أن يصطاده بيده ، يفعل ذلك ثقة
منه أن هذا المعبود لا يفرق بين النعجة والفزال ، والنعجة طبعاً أغنى
من الفزال : وكان ذا قيمة عند العرب لأنهم كانوا يقتنعون بلبنيها
وصوفها ولحمها ، وأما الفزال فكان محدود الفائدة ، سهل الصيد ..

ثم إن نبوءات الآلهة أو الأصنام لم يكن لها قيمة عندهم ما لم توافق
رغباتهم ، وفي التاريخ العربي الكثير من قصص الأعراب الذين قتل أبوم
فراحوا يستشيرون الأصنام في الثأر له على طريقتهم ، فلما لم ترخصهم
نتيجة الاقتراع ضربوا وجه الصنم قائلين :

— لو كان أبوك المقتول ما رفضت الثأر له ...

وكان بنو حنيفة وهم قبيلة من العرب أقل الناس احتراماً لأنفسهم ،
إذا كانوا يأكلونها ، لأنهم كانوا يصنعونها من العجوة واللبن والزبد ،
فاذا دفعوا في قحط أو مجاعة أكلوها.

وفي كل ما تقدم برهان على أن العرب لم تكن عظمية الإيمان بأصنامها
التي لم تكن تنفعهم ولا تضرهم ...

عقائد شتى

والعرب إلى ذلك لم يكونوا يجمعهم عبدة أو ثان وانصاب ، فقد
كان هناك بينهم — وهؤلاء أقلية طبعاً — من يؤمن باليهودية ومن يؤمن
بالمسيحية ومن يؤمن بالحنفية ، والحنفية هذه فكرة روحية دينية ، تولاهما
بعض العرب قبل الإسلام ، وكانوا يردون أصلها إلى إبراهيم نفسه ،
ومنهم من كان يؤمن بحياة ثانية بعد هذه الحياة ، ويدين باليوم الآخر ،
ولا يقف عند حد الاعتقاد ببعث الإنسان بل يدين ببعث الحيوان أيضاً
ومن ثم كان يدفن راحته إلى جانبه أو يتركها تموت على قبره ليتركها

يوم البعث ، فلا يتكبد عناء السير على قدميه .
ولكن سوادهم كان يشكر فكرة البعث ويسخر منها ، وكانوا
يلعنون برأي القائل :

حياة ثم موت ثم حشر حديث خرافة يا ام عمرو ..
وهذه الفكرة من تأثير اليهودية طبعاً لأن بعض اليهود وبسموت
بالصدوقيين نسبة الى (صدقيا) وهو من أسرة أرستقراطية ومن احبار
بيت المقدس كانوا لا يعترفون بغير النوراة المكتوبة ، ويرفضون
كل ما عداها مما زيد عليها من الاحاديث الشفوية المروية عن موسى ،
كما كانوا يرفضون كل ما اضيف اليها من التفاسير والشروح التي ادخلها
عليها من جاء بعد موسى من رجال الدين والنساخ ...

ولهذا رفض الصدوقيون الايمان بأهم الاسس التي بُنيت عليها الديانة
اليهودية ، فلم يؤمنوا بالبعث ، ولم يقبلوا فكرة الخلود ، ولا فكرة
الجزاء في الدار الآخرة .

والذي يستغربه المؤرخون هو انه مع ضعف الديانة العريية
وخرافاتها ، فلا المسيحية ولا اليهودية تمكنتا من التأثير على العرب
وحمل هذا الشعب البدوي المشغول الى المعرفة على ترك دينه ، واعتناق
دين جديد .

نعم لقد انتشرت المسيحية في بعض انحاء الجزيرة العربية ، انتشرت
في سوريا ، وغزت مدينة نجران من اعمال اليمن في جنوبي الجزيرة ،
ودانت بها شبه جزيرة سيناء ، ولكن هذا الانتشار كان محدوداً ضعيفاً
واما في اواسط بلاد العرب ، وفي قلب الجزيرة ، فلم تنجح المسيحية في
كثير ولا قليل ...

ويفسر لنا (دوزي) في كتابه عن تاريخ الاندلس فشل

المسيحية (١) ه بانها بما تحويه من معجزات واعاجيب ، وبما فيها من عقيدة التثليث ، لم تكن تنعم بما يساعدنا على التبسط في الجزيرة ، ولا بما يمكنها من التأثير في نفس العربي على الوجه الاكمل والاوسع ... وبضرب لنا درزي مثلاً حديث الاسقف الذي زار في سنة (٥١٣) المئذنة الثالثة ملك الحيرة بحارل اقناعه باعتناق المسيحية فلم يوفق ، وبقص علينا قصة جرت بين الاسقف والملك لا نرى فائدة من سردها فليراجعها القاري في مصادرها ...

اليهودية في الجزيرة

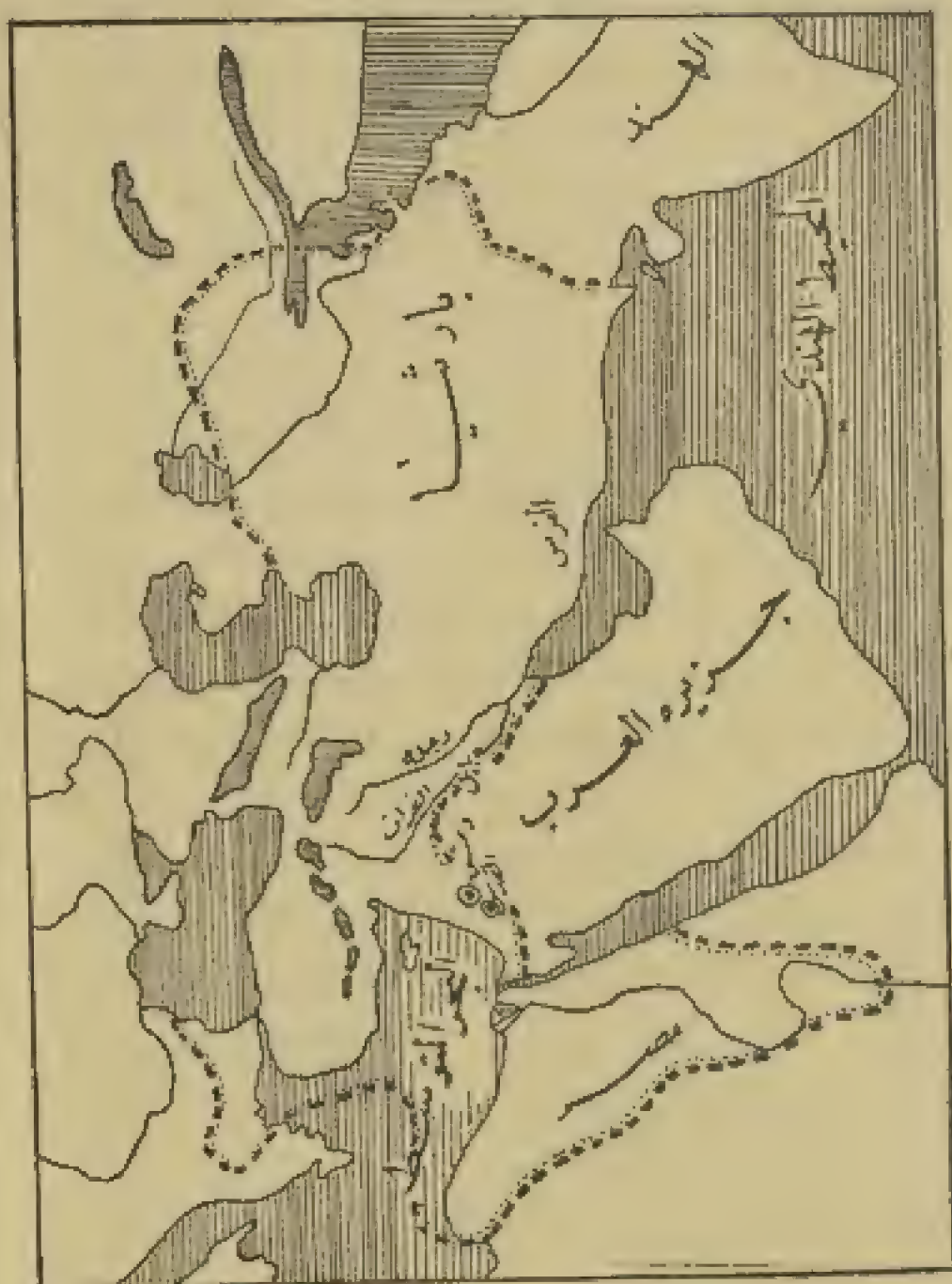
اما اليهودية فكانت اكثر حظاً في الجزيرة الى حين ... نزل عدد كبير من اليهود الجزيرة العربية بعد ان شردهم الامبراطور اورليان الروماني ، وبثوا دعائهم فيها ، فدان باليهودية بعض قبائل الجزيرة ، حتى سيطروا على اليمن فترة من الزمن ... ولكن هذا الدين ايضاً لم يلق تأييداً من العرب ، لانه دين غامض مليء بالشكوى والامال الغامضة ، وليس هذا بما يلائم العقل العربي ، الذي كان قليل الحاسة الدينية كما قدمنا ، والذي كانت حياته نهياً مقسماً بين المرأة والغزو والاختذ بالثأر وذبح الذبائح واقامة الولائم ... والواقع ان العربي رجل عملي مادي ، لا يعني بغير الحقائق حتى في شعره ، فهو لا يسبح في الخيال والوهم ، ولا يميل الى الاختذ بالالغاز والمعجمات الدينية ، التي يعتد الانسان في استيعابها على التخيل اكثر من اعتماده على العقل .

وليس ادل على ذلك من هذا الشعر الذي تركه شعراء الجاهلية

قبل الاسلام لنا ، فاننا - وهؤلاء الشعراء ، يمثلون جبلهم وتفكيرهم منهم
طبعاً - لا نراهم يذكرون في شعرهم ديناً او عقيدة ، ولو عرضنا قصائدهم
لم نر فيها اذا استثنينا اسماء الآفة وبعض الشعائر الخنيفة ، إلا عبارات
مقتضية لا نكاد تفسر لنا شيئاً عن عقائدهم واديانهم ...

ولكن هذا كله لم يمنع جماعة قليلة من العرب من تقبل الوجدانية
الالهية والايان بالله ... وكان لهذا الايمان خطره في القرن السادس بعد
المسيح حين نسمع بعض الشعراء العرب يذكرون الله والوجدانية في
قصائدهم ، كما نشاهد في اشعارهم شعوراً بقطاً بالتبعية المترتبة على ما
تصنعه ايديهم من خير او شر ، وهذه الفئة من الناس كانت تسمى
(الحنفاء) ، وكانوا كما يظهر ، لا يؤلفون جماعة واحدة ، ولا يضمهم
مذهب بعينه كما يفعل الصابئة المنتسبون الى (ابراهيم) والذين كانوا
يسمون انفسهم حنفاء ايضاً ، وكان لهاتين الطائفتين من الحنفاء رأي
واحد في رفض اليهودية والمسيحية معاً ، والاعتراف بدين ابراهيم والد
جدهم اسماعيل مؤسس الكعبة ...

وكانت الحنفية مذهباً ليناً سمحاً ، معتد السبل ، سهل الاساغة هؤلاء
العرب العمليين ، ولكنها لم تكن ثابتة مقررة ، ولا كان هيئة روحية
ذات سيادة دينية ، فكان ذلك سبب ضعفها وعدم تبسطها ، وغيوعها في
مكانها ، وانهارها بعد ظهور الاسلام ...



بابل وبلاد الفرس ومصر والدولة البابلية في الشرق القديم

مكة وتاريخها قبل الاسلام

— الحجة الاجتماعية والادبية في الحجاز —

نجر محمد بن عبدالله

وفي هذه الاثناء ، وبينما كانت الحياة في الجزيرة تير على النحو الذي وصفناه ، وفي الوقت الذي انتهت فيه الحرب العنيفة الطويلة القاسية بين الرومان والفرس ، وذلك في اوائل القرن السابع الميلادي ، ولما ظن الناس ان الحياة ستعود سيرتها الاولى ، وان السلام سيسود الشرق الادنى ، بحيث تنصرف الدولتان الى تعمير ما تهدم من بلادهما وتنظيم ما تصدع من اسبابها ونظمها ، ظهر في مكة شاب عربي لم يقطن احد الى عظيم شأن وكبير خطره ، اخذ يلتفت انظار الناس اليه باخلاقه وهدوئه وعمق نظرائه ، وكان ظهور هذا الشاب الذي ابصر النور في اواخر القرن السادس الميلادي مؤذناً بعهده جديد ، وحدث عظيم .. فما هو شأن مكة في تاريخ العربية ؟ ومن هو محمد بن عبدالله ؟

تاريخ مكة

في تاريخ مكة شيء من الغموض ، واغلب الظن انها ترجع في تاريخها الى مئات تقطعت من الاعوام قبل الاسلام .. وهي الى ذلك تقع في طريق القوافل التي كانت تضرب الارض في

الجزيرة قبل الاسلام وبعده بقليل ..

وكان العمالة اول من سكن مكة ثم خلفتهم قبيلة جرهم اليمنية عليها
وفي عهدهم تزلمها اسماعيل بن ابراهيم وصاهر الجرهميين ، وسكن بينهم ،
فلما زاره ابراهيم بعد ذلك تعاونا على رفع القواعد من البيت الحرام ،
ليتوجه الناس اليه الى الله وحده ..

ولما مات اسماعيل تولى امر البيت بعده ابنه ثابت ، وهو اكبر
اولاده ، ثم نولاه ولادة من جرهم ، واستمرت ولايتهم عليه الى سنة ٢٠٧
بعد المسيح .

وظل امر مكة لجرهم بعد ان غلبوا العماليق عليها الى عهد مضاض بن
عمرو ابن الحارث ، وراحت تجارتها في عهدهم ، كما انصب ماء زمزم واخذ
عرب خزاعة بفكرورن في الرثوب الى مناصب الامر في البلد الحرام .
واغرقت جرهم في ترفيا وهوها ، فاحزن ذلك مضاض بن عمرو ،
وادوك انت الامر زائل عنهم ، فامحق حفر زمزم وعهد الى غزالتين من
ذهب كانتا مع طائفة من الاموال بالكعبة ، فدفعها بقاع البئر واهال
الرمال عليها ، وخرج ومعه بنو اسماعيل عن البلد الحرام ، وولبت خزاعة
الامر فيه ، وظلت تنوارته حتى آل الى قصي بن كلاب الجد الخامس
لنبي ...

رجوع قصي

ولما رجع قصي (١) الى مكة بعد اعوام عديدة سنة (٤٠٠م) كانت
سدانة البيت في خزاعة حليل بن حبشية ، فتزوج قصي ابنته ، ووفقه الله

(١) اجمع المؤرخون على ان قريشا الذين منهم قصي بن كلاب الجد الرابع للرسول
عليه السلام هم من ولد كنانة الذي يرجع نسبه الى عدنان وينتهي الى اسماعيل

في تجارتها فزادت امواله وفشا شأنه ، وعظم شرفه ، حتى آلت اليه
سدانة البيت ومفتاح الكعبة ، وحتى تمكن من اجلاء خزاعة عن البيت
الحرام بعمونة قريش وبعض القبائل الاخرى .

ولما تم لقضي امر مكة جمع قريشاً وامرهم ان يبنوا بها ، وابتدأ هو
ببنى دار الندوة يجتمع فيها كهواء اهل مكة تحت امرته لينشأروا في
امورهم ، ولم يكن يتم امر الا بموافقتهم ، فلم تكن تنكح امرأة ولا
يتزوج رجل الا في هذه الدار ، وبنت قريش بالمرقضي حول الكعبة
دورها وتركوا مكاناً كافياً للطواف بالبيت ، وتركوا بين كل بيتين
طريقاً يتقدم منه المطاف .

وكان عبد الدار اكبر ابناء قصي ، لكن اخاه عبد مناف كان قد
تقدم عليه امام الناس وقد شرف فيهم ، فلما كبر قصي وضعف بدنه
وعجز عن تولي امور مكة جعل الحجابة لعبد الدار ، وسلم اليه مفتاح
البيت كما اعطاه السقاية واللواء والرفادة ، وكانت الرفادة قسماً يخرج به
قريش كل عام من اموالها فتدفعه الى قصي يصنع منه في موسم الحج
طعاماً ينال منه من الحجاج من لم يكن ذا سعة ولا زاد .

وتولى عبد الدار مناصب الكعبة كأمر ابيه وتولاها ابناؤه من
بعده . ولكن ابناء عبد مناف كانوا اشرف في قومهم واعظم مكانة ،
لذلك اجتمع هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل بنو عبد مناف على ان
يأخذوا ما بأيدي ابناء عمومهم ، وتفرق رأي قريش تنصر طائفة عؤلاً ،
واخرى اولئك ، وعقد بنو مناف حلف المطيبين لانهم غمسوا ايديهم في
طيب جاؤوا به الى الكعبة ، وانقسموا الا ينقضوا حلفهم ، وعقد بنو
عبد الدار حلف الاحلاف ، وكان عؤلاً واولئك يوشكون ان يقتتلوا
في حرب تذيب قريشاً ، لما تداعى الناس الى الصلح على ان يعطوا بني

عبد مناف السقاية والرفادة ، وان تبقى الحجابة واللواء والندوة لبني
عبد الدار ، ورضي الفريقان بذلك ، وظل الامر على هذا الحال الى ان
جاء الاسلام .

اجداد محمد

وكان هاشم كبير قومه وكان ذا بسار قوي السقاية والرفادة ودعا
قومه الى مثل ما دعاهم اليه فصي جده ، دعاهم الى ان يخرج كل منهم من
ماله ما ينفق في اطعام الحاج اثناء الموسم ، وانصل بره وكرمه باهل مكة
انفسهم ، فلما اجديت مواسمهم ، برهم في ايام الجذب والقحط ، وهاشم
هو الذي من رحلتي الشتاء والصيف ، رحلة الشتاء الى اليمن
ورحلة الصيف الى الشام . وهذه المظاهر كلها ازدهرت مكة وسمت
مكانتها في النحاء شبه الجزيرة ، واعتبرت العاصمة المعترف بها ، وسهل
هذا الازدهار لابناء عبد مناف ان يعقدوا معاهدات امن وسلام . وقد
عقد هاشم بنفسه مع الامبراطورية الرومانية ومع امير غسان معاهدة
حسن جوار ومودة ، وحصل من الامبراطورية على الاذن لتقريب بان
تجرب الشام في امن وطمانينة ، وعقد عبد شمس معاهدة تجارية مع
النجاشي كما عقد نوفل والمطلب حلفاً مع فارس ومعاهدة تجارية مع
الخيريين في اليمن . وكذلك ازدادت مكة منعة جاء كل ازدادت يساراً ،
وبلغ اهلها من المهارة في التجارة حتى أصبحوا ولا يدانيهم فيها مدان
من اهل عصرهم ، كانت القوافل تجيء اليها من كل صوب وتصد عنها
في رحلتي الشتاء والصيف ، وكانت الاسواق تنصب فيها حولها لتصرف
هذه التجارة فيها او لتصرفها عنها ، ولذلك مهر اهلها في النسيئة والربا
وفي كل ما يتصل بالتجارة من اصحاب المعاملات .

وظل هاشم يتقدم به السن وهو في مكانه على رئاسة مكة لا يفكر
احد في منافسته حتى خيل لابن اخيه امية بن عبد شمس انه قد بلغ
مكاناً يسول له هذه المنافسة ، ففعل فلم يوفق (١).

المطلب

ومات هاشم فخلفه اخوه المطلب في مناصبه ، وكان المطلب اصغر
من اخيه عبد شمس ، ولكنه كان ذا شرف وفضل وكانت قريش
تسميه القبط لسماحته وفضله .

وفكر المطلب يوماً بان اخيه هاشم فذهب الى المدينة وطلب الى
امه ان تدفع اليه الفتي وقد بلغ اشده ، واردف المطلب الفتي على
بعيره ودخل مكة فظنته قريش عبداً له جاء به فتصاحت : عبداً
المطلب ...

فقال المطلب : وبكم انما هو ابن اخي فدمت به من المدينة .
على ان هذا اللقب غلب على الفتي فدعي به ونسي الناس اسم شبيه
التي تسمى به منذ ولد .

واراد المطلب ان يرد على ابن اخيه اموال هاشم ، لكن نوفل ابى
ورضع يده عليها ، فلما اشتد ساعد عبد المطلب استدعى اخواله بالمدينة
على عمه كي يردوا عليه حقه ، واقبل ثمانون فارساً من خزرج يثوب
لنصرته ، فاضطر نوفل الى رد ماله اليه ، وقام عبد المطلب في مناصب
هاشم ، له السقاية والوفادة من بعد عمه المطلب ، وقد لقي في القيام
بهذين المنصبين ، وبالسقاية بنوع خاص ، شيئاً غير قليل من المشقة ،
فقد كان الى يومئذ وليس له من الابناء الا ولده الحارث ، وكانت

(١) عمه : الحين هيكل باشا... ابن الامير والطبري ...

سقاية الحاج يؤتى بها منذ نظمت زمزم ، من آبار عديدة مبعثرة حول مكة فتوضع في أحواض الى جوار الكعبة ، وقد كانت كثرة الولد عوناً على تسخير هذا العمل والإشراف عليه ، فأما ولم يكن لعبد المطلب من ولد حين ولي السقاية والرفادة الا الحارث فقد عناء الامر وطال فيه تفكيره .

حضر زمزم

وكانت العرب ما تزال تذكر زمزم منذ طهرها مضاض بن عمرو لثلاثمائة سنة خلت من السنين ، وتسمى لو انها كانت باقية ما تزال ، وكان عبد المطلب بطبيعة مركزه اكثرهم تفكيراً في هذا الامر واشدهم غمياً ان يكون ، والح هو باحثاً عن زمزم حتى اهدى اليها بين الوثنيين اطاف وناثلة ، وجعل يحضر مستعيباً بابنه الحارث حتى تبع الماء وظهرت غزالتا الذهب والسياف مضاض الجرهمي ، وادارت قريش ان تشارك عبد المطلب في البئر وفي ما وجد بها فقال لهم :

— لا . ولكن علموا الى امر نصف بيني وبينكم ، لضرب عليها بالقداح ، فتجعل للكعبة قدحين ، فمن خرج قدحاه على شيء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له .

فارتأوا رأيه ثم اعطوا القداح صاحب القداح الذي يضرب بها عند هبل في جوف الكعبة ، فتخلف قدحاً قريش وخرجت الاسياف لعبد المطلب والغزالتان للكعبة ، فضرب عبد المطلب الاسياف باباً للكعبة ، وضرب في الباب غزالتا الذهب حلية للبيت الحرام ، واقام عبد المطلب على سقاية الحاج بعد ان يسرنها زمزم له .

واحس عبد المطلب قلة حوله في قومه لقلة اولاده فنذر ان يولد له

عشرة بنين ثم بلغوا معه حتى يمنعوه من مثل ما لقي حين حفر زمزم
 لينحرن احدهم لله عند الكعبة . ونوافي بنو عشرة انفس فيهم المقدرة
 ان يمنعوه ، فدعاهم الى الوفاء بنفوسهم فاطاعوا ...
 ثم قتلت لقومه الحيلة فقضى نفوسهم بمائة من الابل ، فنحرت كلها
 وبركت مكانها لا يصد عنها انسان ولا حيوان ولا يمنع .

الكعبة ومكة وقريش

والكعبة بيت صغير مربع الشكل يحيط به بناء مكشوف ، وهي
 الى ذلك رمز لجدة القبائل العربية ، فقد كان لكل قبيلة فيها صنمها ،
 ومثال « هبل » صنم قريش وهو من العقبيق ، كانوا له اكثر احتراماً
 وتقديراً من جميع الاصنام الاخرى .

وقد استقر قريش في مكة وحول الكعبة حكومة جمهورية
 مصغرة ، ولما كانت قريش قبيلة تجارية فقد رأت من حسن
 السياسة ولباقة الحيلة ان تتخذ جزءاً من الارض المجاورة توليه احترامها
 وتعتبره مقدساً وتجعله حراماً لا يحل فيه القتال ، واخذوا على عاتقهم
 حمايته فاحلأناؤا عندئذ الى انهم في امن وسلام من اعتداء القبائل عليهم
 ونشوب المعارك في جوارهم ، وقد زاد في مجد قريش انها في مكة ،
 وان الكعبة في مكة .

واما نظام الحكم في قريش فلا يذكر التاريخ عنه شيئاً مذكوراً
 قبل عهد قحفي الذي انشأ دار الندوة بمكة ، وكان له من مظاهر الرئاسة
 اربعة امور :

١ - رئاسة الندوة حيث تتشاور قريش في مهام الامور ، ويصار
 فيها الى الزواج وكان لا يسمح بدخولها الا لمن بلغ الاربعين من عمره .

٢ - كان امير اللوا فلا تعقد زابة لحرب الا بامره .
 ٣ - حامية الكعبة وسداتها ، فلا يفتح باب الكعبة الا هو ، وهو
 الذي يتولى خدمتها ايضاً .

٤ - سقاية الحاج ورفادته ، وكانوا يملأون للحجاج اخواضاً من
 الماء يحاونها بشيء من التمر والزبيب ، واما الرفادة فهي طعام كان يصنع
 للحجاج على سبيل الضيافة ، وقد قام بهذه الضيافة بعد قصي ابنه عبد
 مناف ، فابنه هاشم ، فابنه عبد المطلب ، ثم ابنه ابو طالب ، ثم اخوه
 العباس عم النبي .

وكانت اشهر الحج عندهم اشهراً حراماً بمقدون فيها اسواقهم
 التجارية حول الحرم فلا يجوز احد على الاخلال بحرمة البيت ، واثارة
 الشقاق والخلاف والحرب حوله .

واما حلف الفضول فقد كان عاملاً كبيراً من عوامل الامن والسلام
 والعدل في الجزيرة ، وخبره ان فريشاً اخذت على نفسها ان تود كل
 مظلمة لاهلها لا فرق في ذلك بين قرشي وغيره .

والواقع ان كل هذه العوامل التجارية والدينية والاجتماعية ساعدت
 على اعلاء منزلة فريش ، بحيث توحدت العرب في عهدها ، وزاد خطرهما
 شأناً ، وامرها عزة ، لما مشى ابرهة الحبشي الى الكعبة يريد هدمها
 فلم يوفق .

ابرة والكعبة

ولقد كان سبب هذا الزحف الحبشي على مكة وكميتها ان ما
 بلغته مكة في بلاد العرب من مقام عظيم لبيتها الحرام وحج الناس له ،
 ونقاطر التجار اليه ، مما كان يزيد في ثروة القرشيين ويوفر لهم الخير

والثراء ، ان اخذت بعض الامم تفكر في انشاء بيت على غرار البيت في مكة لعلها تصرف العرب عنه ، فاقام الفساسنة بيتاً في موطنهم ، واقام ابرهة الحبشي بيتاً باليمن ، فلم يغن ذلك العرب عن بيت مكة ، ولا هو صرفهم عنه ، فاغضب ذلك ابرهة واحقده وفرر الزحف على مكة وعدم بيتها ... ونهياً للحرب في جيش من الحبشة تقدمه هو على فيل عظيم ركبه .

واسقط في يد العرب وعظم عليها ان يقدم رجل حبشي على هدم بيت حبيبهم ومقام اصنامهم ، وهب رجل كان من اشراف اهل اليمن ومثروكهم يدعى ذا نقر ، فدعا قومه ومن اجاب من غيرهم من العرب لمقاتلة ابرهة وصدده عما يريد من هدم بيت الله ، لكنه لم يستطع ان يصمد لابرهة بل هزم واخذ اسيراً ، وهزم كذلك نفيل بن حبيب الحنمعي واخذ هو الآخر اسيراً فاقام نفسه دليلاً لابرهة وجيشه .

فلما نزل ابرهة الطائف كلمه اهلها بان يبنيهم لبس هو البيت الذي يريد ، انما هو بيت اللات ، وبعثوا معه من يذله على مكة ، فلما اقترب من مكة ، بعث رجلاً من الحبشة على فرسان له فساق اليه اموال اهل نهماء من قريش وغيرهم وبينهم مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم ، ومث قريش ومن معهم من اهل مكة بقتاله فرأوا ان لا طاقة لهم به ، وبعث ابرهة رجلاً من رجاله يدعى حناطة فسأل عن سيد مكة .

فذهبوا به الى عبد المطلب بن هاشم فابلقه رسالة ابرهة اليه : انه لم يأت الحرب وانما جاء لهدم البيت فان لم تحارب به مكة فلا حاجة له بدماء اهلها .

فلما ذكر عبد المطلب انهم لا يريدون حرباً ، سار به حناطة ومع عبد المطلب بعض ابنائه وبعض كبار مكة حتى بلغوا معسكر الجيش

فاكرم ابرهة وفادة عبد المطلب واجابه الى رد ابله اليه ، ولكنه رفض
 رفضاً باناً كل حديث في امر الكعبة ورجوعه عن هدمها برغم ما عرض
 عليه اهل مكة من النزول له عن ثلث ثروة نمامة ، وعاد عبد المطلب
 وقومه الى مكة ، فنصح الى اهلها ان يخرجوا منها الى شعاب الجبل
 خيفة من ابرهة وجيشه ، حين يدخلون البلد الحرام لهدم البيت العتيق .
 وذهب عبد المطلب ومعه نفر من قريش فاخذ حلقة باب الكعبة
 واخذ يدعو ويدعون ، يستنصرون آلهتهم على هذا المعتدي على بيت
 الله ، فلما انصرفوا وخلت مكة منهم وآن لابرهة ان يوجه جيشه ليتم له
 ما اعتزم فيهدم البيت ويعود ادراجة الى اليمن ، كان وباء الجدري قد
 نقشى في الجيش واخذ يفتك به ، وكان فتكاً ذريعاً لم يعهد من قبل
 قط ، ولعل جراثيم الوباء جاءت من الريح من ناحية البحر واصابت
 العدوى ابرهة نفسه فاخذ الرزع وامر قومه بالعودة الى اليمن ، وفر
 الذين كانوا يذلون على الطريق ، ومات منهم من مات ، وكانت الوباء
 (الجدري) يزداد كل يوم شدة ، ورجال الجيش يموت منهم كل يوم
 بغير حساب ، وبلغ ابرهة صنعاء وقد نأثر جسده من المرض ، فلم يقم
 الا قليلاً حتى لحق بمن مات من جيشه وبذلك ارجع اهل مكة عام الفيل
 هذا وقدسه القرآن بذكره له ، وفي هذا العام ولد محمد بن عبد الله صلى
 الله عليه وسلم .

تأثير عام الفيل

اما اثر هذا الحادث العظيم في اكبار مقام مكة الدينية والتجارية
 فكان عظيماً حقاً ، زاد مكة رفعة ، وزاد الكعبة ايجاداً وتقديساً ،
 وزاد اهل مكة مرحاً وفخراً ، واكثاراً من المهاجرة ، واغراقاً في

الرخاء والترف ، والاستمتاع بالاشربة خصوصاً النبيذ ، واطلاقاً لعنان شهواتهم ، كما زادهم حرصاً على حريتهم وحرية مدينتهم ، والذود عن هذه الحرية ما كان الى ذلك سبيل .

وعادت الحياة الفاتنة الوادعة الى مكة بعد هذا الحادث ، فاختارها يجلسون في كل صباح ومساء الى جانب نيف وثلاثمائة صم ، يقص بعضهم على بعض اخبار البادية واطراف البادية ، وما يقع في الحيرة وعند الغساسنة ، مما ترويه القوافل ، او يتناقله اهل البادية .

ولم يكن بمكة من اليهود والنصارى الا عدداً قليلاً ، وكانت مكة وكميتها مركز الوثنية في الجزيرة كلها ، وكانت منازل اهل مكة تحيط بدار الكعبة وتقرب منها او تباعد عنها ، وفاقاً لما تنعم به كل اسرة او فخذ من جلال الخطر ، وجليل المقام ، فكان القرشيون اقربهم اليها داراً ، واكثرهم بها اتصالاً ، كما كانت لهم سدانتها وسقاية زمزم ، وكل القاب الشرف الدينية الوثنية ، التي فاضت من اجلها حروب ، وعقدت من اجلها احواف ، ووضعت بينها وبين القبائل معاهدات صلح حفظت في الكعبة وبين اصنامها تسجيلاً لها ، وليجل غضب الاصنام عن تحلل بتمهدها ، وفيها وراء منازل قريش كانت نجية منازل القبائل التي تنزل في الخطر ، ثم تلي هذه منازل من درتهم حتى تكون منازل العميد ، وكانت منازل اليهود والنصارى بمكة بعيدة عن الكعبة المتاخمة للصحرى .

الحجاز

وكانت مكة واقعة في الحجاز ، والحجاز مؤلف من ثلاث مدن مكة والمدينة والطائف ، وكانت الطائف تعاو سنة الالف قدم عن سطح البحر ، وهي مصيف الاشراف من قريش ، ولا تزال كذلك الى اليوم

وهي تشبه جبال لبنان في جماعها وكثرة اشجارها ، يستخرج منها العسل
والموز ، والتين والعنب ، والزيتون ، والطبيب من بعض الزهور .
واما المدينة فكانت تبعد ثلاثمائة ميل شمالا عن مكة ، يكثر فيها
التخيل ، وكانت مدينة زراعية عامرة .

ومهما يكن من ضعف الحجاز في الثقافة والحضارة قبل الاسلام
وبعده ، وعدم تمكنه من انشاء دولة ونظام سياسي مستقر ، فان سكانه لم
يكونوا يعبدون عن الثقافة والحضارة المعروفتين في عهدهم ، اذ كانت
اكثر نجاحات الامم المتحضرة تمر بارضهم ، فتجارة اليمن والحبشة في
طريقها الى سورية والعراق وغيرها من الامصار ، كانت تمر بمكة ،
وبواسطة الحيرة عاصمة العراق كانت تدخل الثقافات الفارسية والارامية
والنسطورية الى الحجاز ، كما ان الحجاز كان على اتصال دائم بالعاصمة
والسوريين المتحضرين بسبب القوافل التجارية التي كانت تسير بين
سورية ومكة .

الحياة البدوية

والعرب من حيث حالتهم الاجتماعية ينقسمون الى قسمين : البدو
وهم اغلب سكان الجزيرة ، والحضر وهم سكان المدن وما يقوم على
اطرافها من مزارع وغيرها ، وهؤلاء كانوا يكثرون في اليمن وبقولون
في الحجاز ، اذا استثنينا مكة والمدينة والطائف .

وقد وصفنا في فصول سابقة كيف كان البدو يعيشون ، وكيف
وكيف كان سكان المدن يقيمون في مدنها ، وينعمون بهذه الحضارة
والرفاهية التي كانت تسوقها المدنية اليهم .

ونحن حين ندرس الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية لابد لنا ان

نعرض لحيام البدو التي هاجم في وصفها الشعراء ، كما كثر بكادهم على
اطلاقها والاثار الباقية بعد رحيل اصحابها عنها .. كما نجيب الاشارة الى
الابل التي كانت عماد الحياة في الجزيرة بأكلون من لحومها ويشربون من
البانها ، ويكتفون من اوبارها ، ويحملون عليها اثقالهم وبقايتهم عليها
في المقايضات ، كما يقوّمون بها ثروتهم ، ويفقدون بها اسرارهم ، ويؤدون
منها دية القتلى ، ويمهرون بها في الزواج ، فكل هذه الاسباب دعتهم الى
العناية بتربيتها ودعتهم الى ان يكيفوا حياتهم وفقاً لحياتها ، يرحلون
من مكان الى آخر لاجلها ، ويتطلبون اماكن الدفء لتوليدها ، كما بنوا
كثيراً من لغتهم عليها ، وضربوا فيها الامثال الكثيرة ، ونغنى الشعراء
في وصفها ، ونغنىوا بشعارهم في حداتها ...

وكانت لديهم الحيل يعنون بها ، ولكنها كانت متاع المترفين ، واما
الابل فهي متاع العرب جميعهم .

واما العلاقات بين القبائل العربية فكانت علاقات عداء غالباً ، ومن
اجل هذا شغلت حياة القبائل والافراد الحروب والغزوات ، بتغنى بها
الشعراء في قصيدهم ، ويتحدث بها الاعراب في منادهم ، وكانت ظاهرة
الاتخذ بالتأثر والانتقام شديدة عندهم ، طغت على كل ما عداها في حياتهم
الاجتماعية ، بحيث مليء الشعر الجاهلي بوصف الوفائع والحروب والتمدح
بالاخذ بالتأثر ، والفخر بالانتصار ، والانفة من المذلة ، والاعتزاز بالقوة ،
والحرص على الشرف دون الحياة والمال ، كما مليء بوصف الات الحروب
من رماح واسنة وسهام ومجاني ودروع وسيوف ، فسادت الاخلاق
الحربية حياتهم ، وغمرتهم الواث الشجاعة والكرم والوفاء ، فاطلبوا
في مدحها وعدوها غاية الغايات .

وكما كان الصيد من منع الحياة عندهم ، كانت الحرة فاشية بينهم ،

ولا ترى شاعراً جاهلياً يتحدث عن حياته من غير ان يتحدث عن الحر
وكرمه اذا شرب .

الحضريون

اما الحضريون وهم اهل الامصار والمدن فقد كانوا اقل شجاعة واكثر
حباً للعالم ، واسكنوا نوفاً على اسباب الترف والنعيم ، وقد نبغوا في
التجارة ، وجابت قوافل القرشين البلاد طولاً وعرضاً كما فعل اهل اليمن
قبلهم ، فوصلوا الى غزة وبيت المقدس ودمشق وعبروا البحر الاحمر الى
الحبشة ، وكانت ميناء جدة وتبعد عن مكة اربعين ميلاً واسطة عقد
التجارة بين الحجاز والحبشة ، فكانت تحمل كنوزها الى القطيف في اقليم
البحرين حيث تنقل في القوارب مسع اللؤلؤ الذي كان يستخرج من
سواحل الخليج الفارسي الى مصب الفرات .

ومن المؤكد ان هذه الصلات بين فريش والامم المتحضرة حولها ،
قد افضى اليها بكثير من الفوائد الاجتماعية ، وزادها معرفة بالجماعات التي
تعيش على اطرافها ، فارتقت مداركهم ، وحسنت ادارتهم لشؤون
الكعبة وشؤونهم الخاصة واترى بعضهم اثراء عظيماً .

ايام العرب

رايام العرب في الواقع ليست إلا معارك صغيرة ، لاسباب تافهة
تحصل بين القبائل المتفرقة ، من اختلاف حول الكلاء والمرعى والماء ،
وجهل ظل ، وناقة ضاعت ، فاحذتها قبيلة ثانية ، وهذه الايام تقتل لنا
المرئي في صحرائه احسن وصف ، فنصف لنا تمكه بالاعنف بالنار ،
واجارة المظلوم ، واكرام الضيف ، كما نصف لنا بطولة الافراد ،

ورغبة القبائل في الغزو ، واحراز الجسد عن طريق السلاح والبطولة والافدام والبأس والشجاعة ، وتبدأ هذه المعارك او الايام عادة باختلافات او اختلاف يقع بين الافراد ، ثم يتعداه الى جماعة افراد القبيلة الذين يتضامنون مع نسيبهم ظانين ان كان ام مظلوماً .

كذلك كان يوم « بوات » بين الاوس والخزرج في المدينة ، وحرب « الفجار » بين غريبش وكنانة وبين هوازن ، وكان محمد صغيراً يومئذ ، ولكنه اشترك مع عشيرته في هذه الحرب .

واهم هذه الايام حرب البسوس التي وقعت في اواخر القرن الخامس المسيحي بين بني بكر وبني تغلب ، وكانت سبب الحرب تعرض كبير من بني تغلب لبقرة تخص امرأة من بني بكر وجرحه لهما ، فنشبت الحرب بين القبيلتين ، وظلت مستعرة اربعين سنة ، وانتهت اخيراً بالصلح سنة ٥٢٥ بتوسط المذخر الثالث ملك الحيرة ، بعد ان انهكت الحرب القبيلتين وافنت رجالهما ، وكان يتزعّم بني بكر وشيخان الحوث بن مرة ، ويتزعّم تغلب المهلب الشاعر .

وهناك ايام داحس والغبراء التي وقعت بين عيس وذبيان في وسط بلاد العرب ، ونشبت الحرب بين القبيلتين حول سباق خيل ، بين داحس والغبراء ، وابتدأت سنة ٥٢٥ - ٦١٥ اي بعد انتهاء حرب البسوس ، واشتهر فيها اسم عنزة العبسي البطل العربي والشاعر المشهور .

مركز الحجاز ومكة

وكان الحجاز عامة ، ومكة خاصة مركز الحركة الدينية والتجارية والاجتماعية عند العرب ، لانه متىكثر اقبال الناس على بلد من البلاد ، زادت تجارته انتشاراً ، وامره تبسطاً ، واذاً فقد كان حج العرب الى

مكة وكتبها يحدث حركة تجارية عظيمة ، وحركة ادبية كبيرة ، وكان امتناع الناس في هذه الاشهر الحرم عن ابداء بعضهم بعضاً ، يساعد على اقبال العرب على هذه المواسم ، التي كانت تحدث نشاطاً فكرياً وتجارباً ودينياً عظيماً ، لا سبيل الى انكاره ، رددت آثاره الاخبار والقصاصد والمنادير الادبية التي حملها لنا التاريخ عن شعراء الجاهلية وخطباء الجاهلية ، في هذه الاسواق التجارية الادبية التي كانت تقام في عكاظ والمريد ، وغيرهما من اسواق العرب ...

وكانت عكاظ تقع في الجنوب الشرقي من مكة ، وعلى بعد عشرة اميال من الطائف ونحو ثلاثين ميلاً من مكة في مكان منبسط وواد فسيح فيه نخيل واعشاب وماء .

وسبب اهمية سوق عكاظ كما يقول المؤرخون : ان موعد انعقادها كان قبل الحجة ، وهي قريبة من مكة ، فمن اراد الحج من جميع قبائل العرب ، سهل عليه ان يجمع بين الغرض التجاري والاجتماعي بغشيان سوق عكاظ قبل تأدية الحج ، وبين الغرض الديني بالحج . وان موسم السوق كان في شهر من الاشهر الحرم على قول اكثر المؤرخين ، والعرب كانت في (الشهر الحرام) لا تفرع الاستة ، فيلقى الرجل قاتل ابيه او اخيه فيه فلا يهبجه تعظيماً له ، وفي انعقاد السوق في الشهر الحرام منزلة واضحة ، وهي ان يأمن التجار فيه على ارواحهم واموالهم ، وان كانوا احبائاً قد انتهكوا حرمة الشهر الحرام فاقتتلوا كالذي روي في الاخبار عن حروب الفجار ، ولكن هذا كان نادراً والقتل في هذا الشهر كان عملاً فيجاً مستهجناً .

السوق المعينة

« وكان يأتي عكاظ ، قريش وعوازن وغطفان والاحباش وطوائف من افناء العرب ، وكانت كل قبيلة تنزل في مكان خاص من السوق ، وفي التاريخ ان رسول الله ذهب مع عمه العباس الى عكاظ ليريه العباس منازل الاحياء فيها ، ويروي كذلك ان رسول الله جاء كنده في منازلهم بعكاظ .

بل كان يشتوك في سوق عكاظ اليمينيون والخيبريون ، ويقول الازرقى : (١)

« كان في عكاظ اشياء ليست في اسواق العرب ، كان الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيد والحلة الحسنة والمرصوب الفاره ، فيقف بها وينادي عليه لباخذة اعز العرب ، يراد بذلك معرفة الشريف والسيد ، فيأمره بالوفادة عليه ويحسن صلته وجارثته ، ويروي ابن الاثير عن ابي عبيدة « ان النعمان بن المنذر لما ملكه كسرى ابرويز على الحيرة كان النعمان يجهز كل عام لطبيعة - وهي القافلة من التجارة - لتباع بعكاظ . فتري من هذا ان بلاد العرب جميعها كانت تشتوك في هذه السوق . واختلفت الافوال في موعد انعقادها ، واكثرها على انه كان في ذي القعدة من اوله الى عشرين منه ، او من نصفه الى آخره ، وقال الازرقى في تاريخ مكة :

« فاذا كان الحج ... خرج الناس الى مواسمهم فيصبحون بعكاظ يوم هلال ذي القعدة فيقيمون به عشرين ليلة تقوم فيها اسواقهم بعكاظ ، والناس على مراتبهم وزياباتهم منحاذين في المنازل تضبط كل قبيلة

(١) تاريخ مكة... الازرقى.

اشرافها وقاعتها ، ويدخل بعضهم في بعض للبيع والشراء ، ويجمعون في بطن السوق ، فاذا مضت العشرون انصرفوا الى محنة فاقاموا بها عشراً ، واسواقهم قائمة ، فاذا رآوا هلال ذي الحجة انصرفوا الى ذي الحجاز ثم الى عرفة ، وكانت قريش وغيرها من العرب تقول لا تحضروا سوق عكاظ والمجنة وذا الحجاز الا محرمين بالحج ، وكانوا يعظمون ان يأتوا شيئاً من المحارم او بعدد بعضهم على بعض في الاشهر الحرم وفي الحرم .

في سوق عكاظ

وكانت سوق عكاظ تقوم بوظائف شتى فهي متجر تعرض فيه السلع على اختلاف انواعها ، يعرض فيه الادم والحرير والوكاء والحذاء والبهود من العصب والوش وغيرها ، ويباع به الرقيق ويعرض فيه كل سلعة عزيزة وغير عزيزة ، فما تهدي به الملوك يباع بسوق عكاظ ، وينتقل ابن الحنيس مع الحارث بن ظالم فيقتله ابن الحنيس ويأخذ سيف الحارث يعرضه للبيع في عكاظ ، وعيلة بنت عبيد بن خالد يبعثها زوجها بالسمن تبعه له بعكاظ .

ولم تكن العروض التي تعرض في سوق عكاظ قاصرة على منتجات جزيرة العرب ، فالنعمان يبعث الى سوق عكاظ بقافلة من حاصلات الحيرة وفارس لتباع بها ، ويشتري بثمنها حاصلات اخرى ، بل كان يباع في عكاظ سلع من مصر والشام والعراق ، فيروى انه قيل البعث بخمسين سنة حضر السوق من نزار واليمن ما لم يروا انه حضر مثله في سائر السنين ، فباع الناس ما كان معهم من ابل وبقرة ونقده وابتاعوا امثلة مصر والشام والعراق .

وكانت السوق تقوم باعمال مختلفة اجتماعية ، فمن كانت له خصومة عظيمة انظر موسم عكاظ ، وكانوا اذا غدر الرجل او جنى جناية عظيمة انطلق احدهم حتى يرفع له راية غدر بعكاظ فيقوم رجل فيخطب بذلك الغدر فيقول : الا ان فلان ابن فلان غدر فاعرفوا وجهه ، ولا تصاهروه ولا تجالسوه ، ولا تسمعوا منه قولاً ، فان اعتب ، وإلا جعل له مثل مثاله في رمح فنصب بعكاظ قلعن ورجم .
ومن كان له دين على آخر انظر الى عكاظ .

ومن كان له حاجة المنصرخ القبائل بعكاظ كالذين حكي الاصهباني ان رجلاً من هوازن أسر فاستغاث اخوه بقرم فلم يغيبوه فركب الى موسم عكاظ واتي منازل قبيلة مذحج يستصرخهم .

وكثيراً ما تتخذ السوق وسيلة للخطبة والزواج فيروى الاغاني انه اجتمع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطفيل بموسم عكاظ ، وقدم امية بن الاسكر الكناني وتبعته ابنة له من اهل اهل زمانها فخطبها يزيد وعامر . فتردد ابو هاشم ، ففخر كل منهما بقومه وعداد فعالها في قصائد ذكرها . (١)

ومن كان صعلوكاً فاجراً خلعه قبيله - ان شئت - بسوق عكاظ وتبوات منه ومن فعله ، كالذي فعلت خزاعة :

« فقد خلعت قيس بن منقر بسوق عكاظ ، واشهدت على نفسها بخلها اياه ، وانها لا تحمل له جريرة ، ولا تطالب بجريرة يجرها احد عليه » .
ومن كان داعياً الى اصلاح اجتماعي او انقلاب ديني كان يرى ان خير فرصة له سوق عكاظ ، والقبائل من انحاء الجزيرة مجتمع ، وكثيراً ما كانوا يرون قس بن ساعدة يقف بسوق عكاظ يدعو دعونه ، ويخطب

(١) الاغاني لأبي الفرج الاسهباني .

فيها خطبته المشهورة على جمل له ، فيرغب ويذهب ويحذر وينذر .

محمد في عكاظ

ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم اتجه الى دعوة الناس بعكاظ لانها مجمع القبائل ، وروى الواقدي : ان رسول الله اقام ثلاث سنين من نبوته مستخفياً ، ثم اعلن في الرابعة فدعا عشر سنين ، وبوافي الموسم ، يتبع الحاج في منازلهم بعكاظ والجنة وذوي الحجاز ، يدعوهم الى ان ينعوه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة ، فلا يجحد احد ينصره حتى انه يسأل عن القبائل ومنازلهم قبيلة قبيلة ، حتى انتهى الى بني عامر بن صعصعة فلم يلق من احد من الاذى ما لقي منهم ، وفي خبر آخر انه انى كندة في منازلهم بعكاظ فلم يأت حياً من العرب كان ألين منهم ، وعن علي بن ابي طالب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج في الموسم فيدعو القبائل فما احد من الناس يستجيب له ندائه . ويقبل منه دعاءه ، فقد كان يأتي القبائل بجنة وعكاظ ومني ، ثم يعود اليهم سنة بعد سنة ، حتى كان من القبائل من قال له :

— اما آن لك ان نياأس منا ؟ ... من طول ما يعرض نفسه عليهم .
وروى البعقوني : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قام بسوق عكاظ عليه جبة حمراء فقال :

— يا ايها الناس قولوا لا اله الا الله ، تفلحوا وتنجحوا ، وكان يتبعه رجل يكذبه وهو عمه ابو لهب بن عبد المطلب .

وكان لعكاظ اثر كبير لغري وادي ، فقد رأينا قبائل العرب على اختلافها من فحطانيين وعدنانيين تنزل بها ، وملك الحيرة يبعث تجارته اليها ، ويأتي التجار من مصر والشام والعراق ، فكان ذلك وسيلة من

وسائل تفاهم القبائل ، وتقارب اللهجات ، واختيار القبائل بعضها من بعض ما ترى انه اللىق بها وانسب لها ، كما ان التجار من البلدان المتعددة كالشام ومصر والعراق كانوا يطلعون العرب على اشياء مما رأوا من احوال تلك الامم الاجتماعية ، وفوق هذا كانت عكاظ معرضاً للبلاغة ومدرسة بدوية يلقي فيها الشعر والخطب وينشد ذلك كله ويهذب قال ابو المنذر : « كانت بعكاظ منابر في الجاهلية يقوم عليها الخطيب بخطبته وفعاله وعد مأثوره وايام قومه من عام الى عام . »

نظام سوق عكاظ

وكانت القبائل - كما اسلفنا - تنزل كل قبيلة منها في مكان خاص بها ، ثم تتلافى افراد القبائل عند البيع والشراء او في الحلقات المختلفة . كالذي حكى ان الاعشى رأى الناس يجتمعون على سرحة ، او حول الخطيب يخطب على منبر ، او في قباب من ادم تقام هنا وهناك ، ويختلط الرجال بالنساء في المجامع ، وقد يكون ذلك سبباً في خطبة او زواج او توادد وكانت فحضر الاسواق - وخاصة سوق عكاظ - اشراف القبائل « وكان اشراف القبائل يتوافون بتلك الاسواق مع التجار لان الملوكة كانت تخص كل شريف يسهم من الارباح ، فكان شريف كل بلد يحضر سوق بلده ، إلا عكاظ فانهم يتوافون بها من كل اوب » .

والظاهر ان المراد بالملوك هم الامراء ورؤساء القبائل الذين يرسلون بضائعهم لبيعها في اسواق العرب كمكة الحيرة والفساسنة وامراء اليمن ونحوهم ، وكانت القبائل تدفع لروسائها اثارة في نظير اقامتهم بالسوق ، فقد ذكر اليعقوبي في تاريخه اخبار اسواق كثيرة كان

يعشرها اشرافها - اي بأخذون العشر ، وفي عكاظ كانت القبائل
تدفع لاشرافها هذه الأتاوة ، فهو اذن كانت تدفع لزهير بن جنيمة
الأتاوة كل سنة بعكاظ ، وهو يسومها الحسف وفي نفسها منه غبط
وحقد ، وكانت الأتاوة سبباً وغنىً وغيرهما ، وكان عبد الله بن جعدة
سيداً مطاعاً وكانت له اتاوة بعكاظ يأخذها ، ويدفعها له هذا الحبي من
الأزد وغيرهم ، ومن هذه الأتاوة ثياب .

وكان الاشراف يشون في هذه الاسواق مثلثين ، ولا يوافقها
(عكاظ) شريف إلا وعلى وجهه برقع مخافة ان يؤسر يوماً فيصعب
فداؤه .

وكان على سوق عكاظ كاهن رئيس اليه امر الموسم واليه القضاء بين
المتخاصمين ، حتى جاء الاسلام فكان يقضي بعكاظ محمد بن سفيان
بن بجاشع .

تاريخ عكاظ

ومن العسير جداً ان نحدد بدء عكاظ ، فلما نجد في ذلك خبراً يصح
التعويل عليه ولكنها على كل حال ليست قديمة جداً وقد لا تمتد الى اكثر
من مائة سنة قبل الاسلام .

واستمرت عكاظ في الاسلام ، وكان يعين فيها من يقضي بين الناس ،
فعين محمد بن سفيان بن بجاشع فاضياً لعكاظ ، وكان ابوه يقضي بينهم في
الجاهلية وصار ذلك ميروناً لهم .

وضعت شأن هذه الاسواق بعد الفتوح فاصبحت البلاد المفتوحة
اسواقاً للعرب خيراً من سوق عكاظ ، وصار العرب يغشون
المدن الكبيرة لقضاء اغراضهم ، فضعفت اسواق العرب ومنها

عكاظ ، ومع ذلك ظلت قائمة وكان آخر العهد بها قيل سقوط الدولة الاموية . قال الكلابي : « وكانت هذه الاسواق بعكاظ ومجاعة وذوي المجاز قائمة في الاسلام حتى كان حديثاً من الدهر ، فأما عكاظ فانما تركت عام خرجت الحرورية بمكة مع ابي حمزة المختار بن عوف الازدي الاباضي في سنة تسع وعشرين ومائة ، خاف الناس ان ينهبوا وخافوا الفتنة فتركوها ، ثم تركت مجاعة وذو المجاز بعد ذلك واستغنوا بالاسواق بمكة وبني وبعرفة ... »

فعكاظ عاصرت العصر الجاهلي الذي كان فيه ما وصل اليه من شعر وادب ، وجرت فيها احداث تتصل بحياة النبي صلى الله عليه وسلم قيل مبعثه ، ومهدت السبيل قيل الاسلام لتوحيد اللغة والادب ، وعملت على ازالة الفوارق بين عقليات القبائل ، وفصدها النبي صلى الله عليه وسلم بيث فيها دعوته ، وعاصرت الاسلام في عهد الخلفاء الراشدين والعهد الاموي ولكن حياتها في الاسلام كانت اضمف من حياتها قبله ، وبدأ ضعفها من وقت الهجرة لما كان من غزوات وحروب بين مكة والمدينة او بين المؤمنين والمشركين ، فلما فتحت الفتوح رأى العرب في اسواق المدن المنحضرة في فارس والشام والعراق ومصر عوضاً عنها ، ثم كانت ثورة ابي حمزة الخارجي بمكة فلم يأمن الناس على اموالهم فخربت السوق ، وخضت صحيفة حياة حافلة ذات اثر سياسي واجتماعي وادبي في تاريخ العرب .

المربد

اما (المربد) فضاحية من ضواحي البصرة في الجهة الغربية منها مما يلي البادية ، بينه وبين البصرة نحو ثلاثة اميال وكان سرقاً الابل ، وهو

واقسع على طريق من ورد البصرة من البادية ومن خرج من البصرة اليها ، وبظهر انه نشأ سوقاً للابل ، انشاء العرب على طرف البادية بقضون فيه شؤونهم قبل ان يدخلوا الحضر او يخرجوا منه . وكان هذا السوق اقل خطورة من عكاظ ، وكان سوقاً للدعوات السياسية ، وعاشت هذه السوق الى العصر العباسي ، فكانت اطول عمراً من عكاظ ، وان كانت اقل منها شأنًا واهمية .

الحالة الادبية

اما حالتهم الادبية فليس من شك انها كانت تساق حبانهم التجارية تقدماً وتبسطاً وازدهاراً ، واذا كان التعليم في الجاهلية لم يكن منتشرًا بين العرب كل الانتشار ، فان مغامراتهم التجارية ، وتجوّاهم من منطقة الى اخرى قد افادهم كثيراً ، وجعلهم يتصلون بالامم المجاورة لهم والتي كانت اكثر منهم علماً ومعرفة وثقافة ، فخرج من هذا الاختلاط هذه الحركة الادبية التي فشت قبل الاسلام في الشعر خصوصاً ، والتي بلغت درجة سامية من الرقي ، مما يدل على انها ليست وليدة هذه السنوات القليلة التي سبقت الاسلام ، وانما هي قديمة تضرب في الجاهلية لا اقل من مائتي سنة .. على الأرجح .

وسبب ذلك ان ما وصلنا من الشعر الجاهلي كامل في تعبيره ، راق في معانيه ، وهذا يستحيل ان يحصل ارتجالاً وعفواً ، فلا بد ان يكون قد سبقه شعر اقل منه اثراناً ، وادنى تعبيراً .

وكان الشاعر الى ذلك ضروري لكل قبيلة عربية ، فهو الذي يرد بشعره ككبد اعدائها ، ويحميها في الحرب ، ويصف مناقبها ، ويتبسط في تاريخها ومفاخرها ، فالشاعر اذن كان داعية سيارة لقبيلته ، وصحيفة

تدافع عنها ، وتزد جور الخصوم وتبني لها المجد الذي تستحقه والذكرى
التي هي خليفة بها ، وكان الشعراء الجاهليون من ارقى الطبقات عقلاً ،
وارفعهم شعوراً ، سبقوا قومهم الى ادراك كثير من حقائق الحياة
فصاغوها في شعرهم ، كما وصفوا الحياة في زمنهم وصفاً نعتقد بحق انه
اصدق وصف للحياة في العصر الجاهلي ، واذا كانت غلبة الادب ان
يصف الكاتب الحياة في عصره ، فشعراء الجاهلية قد وفقوا في ذلك توفيقاً
يدعو الى الاعجاب والاكبار .

وليس في العالم كما يظهر للباحثين لغة كانت تؤثر على اهلها كاللغة
العربية ، فتثير عواطفهم ، وتنسجهم انفسهم ، وتحفرهم للقتال ، والافدام
والاستبسال والتضحية ، وتخلق حولهم جواً جديداً لا عهد لهم به من
قبل ، ولذلك لم يظن العربي لغته من الوان الحضارة والثقافة ،
فعنى بها اكثر من غنايته بأي شيء آخر ، وصرف حياته في تشذيبها ،
ووضع قصيدها ، ووصف عباراتها ، واختيار مفرداتها ، في اسلوب رائع ،
وكلمات مختارة ، ما تزال حتى يومنا هذا مدار اعجاب الباحثين
والحقيقيين ، فالشاعر الذي يتبع عندهم كان حقيقاً بالنسب والاكبار ،
وهو الى ذلك ياتل الخطيب السياسي اليوم ، او الجريدة المعاصرة ،
بقصيده تفسح القبيلة عن اغراضها ، وباشعاره تعلن عن رأيها ، وتبسط
في غاياتها وامالها واجدادها ومفاخرها ، والقصيدة الرائعة كانت تعلق على
الكعبة ، اعظماً لها واكباراً لبلاغتها وجمالها الفني .

والواقع ان العربي لم يظن لغته ، وكانت ضعيف الايمان بكل
شيء حتى باوثانه ، ولذلك لم يخلق حولها الشعائر الدينية المفروضة ،
والموجودة عند غيره من الامم الوثنية ، فعبادته كان عليها مسحة عربية
من البداوة والبساطة .

السهم الاخير

وليس من شك في ان من اراد ان يخلق لنفسه اسماً في الجزيرة العربية كان عليه ان يخلق هذا الاسم في سوق عكاظ او في مكة ، وفي ايام المواسم التي ذكرناها ووصفناها ، وليس بعجيب بعد كل هذا ان تصبح مكة مركزاً عظيماً دينياً وتجارياً ، خصوصاً بعد سقوط سلطان حمير في جنوبي الجزيرة ، فقد أصبحت مكة اعظم مدينة في العربية ، وليس مرد سلطانها هذا الى وجود الكعبة فيها فحسب ، بل ان شيئاً كثيراً من هذا السلطان يعود الى ذكاء القرشيين وتقدمهم الثقافي بالنسبة لغيرهم من القبائل العربية الاخرى ، كما وان مركز مكة التجاري ووقوعها على طرق المواصلات العالمية كما قدمنا قد ساعد على حمل ثقافات الامم المتحضرة والمجاورة الى مكة وسكان مكة ، ولا ادل نشاط فريش وتقدمها الثقافي والتجاري من قيام نساها بالتجارة مستقلة عن الرجال ، كما كان حال خديجة زوج رسول الله ، مما يدل طبعاً على حرية اجتماعية رائعة ، وحياة اجتماعية رفيعة ، وثروة عريضة ، والثقافة والحضارة يتبعات الثروة دائماً وابدأ ، اذ يصبح الانسان في رفاه من العيش يحمله على التفكير في العوالم التي حصوله والتفكير اول الحضارة والتقدم .

ثم ان مكة الى ذلك كانت تنعم بحياة ونظم سياسية مقررة ، كدار الندوة التي كانت تقام فيها فريش في مهام الامور ، ويصار فيها الى الزواج ، والى اقرار الحرب وغير ذلك من المسائل الخطيرة ، مما يدل على وجود نظام ثابت مقرر تقبلته فريش ، ورضيت بالنزول تحت سلطانه .

واذا فتحنا في مكة وفي اول القرن السابع الميلادي امام نظام
اجتماعي وسياسي يمثل ما كانت عليه العرب في ذلك العهد ، مع غزوها
وانقسامها الى قبائل مختلفة ، لا يعرف فيها العربي غير قبيلته ولا يعمل
لغير قبيلته ، واما الوطنية العربية والوحدة العربية فكانت شيئاً بعيداً
عن فهم وعقله .

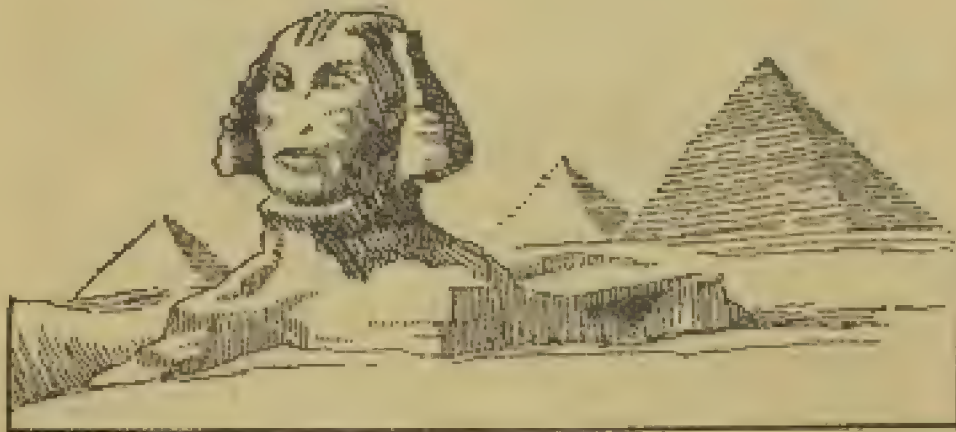
وكذلك كان ينقص العربي شيئاً آخر ، هو الطاعة ، كان هناك في
البادية زعماء وشيوخ ، ولكن احداً من هؤلاء لم يكن يستطيع فرض
سلطانه على العربي فرضاً تاماً ، ولكي يصبح العربي امة موحدة كان لا بد
له من اعجوبة او معجزة ، وهذه المعجزة خلقها محمد وحده ، محمد بن عبدالله
الطفل الفقير اليتيم الذي ولد عام الفيل في مكة بالقرب من الكعبة .



نماذج من الصناعة الكويتية القديمة



تاذج من فن الصناعة الدرية



ابو الهول والاهرام تاذج من فن المهارة المصري

محمد بن عبد الله

— صلى الله عليه وسلم —

المعجزة

ليس من ينكر تأثير الأديان الجديدة والأنبياء على الإنسانية والحضارات القائمة والماضية ، ولكن اهدأ في العالم وتاريخ الإنسانية ، سواء أكان نبياً مرسلًا ، أم عبقرية بارزة ، لم يبدل نظام العالم ، ويفرض سلطانه على الشعوب والأمم مثل السرعة التي فرضها محمد ودينه ، على شعوب العالم وحضارته .

وإذا فمن الصعب تفهم الجماعات التي قامت بواسطة الإسلام وتفسر دينه وحضارته الجديدة في مختلف امصار العالم قبل دوس صاحب الدين الجديد ، ويبحث تعاليمه ، والوسائل التي استعملها للوصول الى زعامته المطلقة العجيبة .

والواقع ان هناك فروقاً عظيمة بين زعماء اليوم والماضي ، وبين زعامته محمد ، فان الزعماء الذين يذكروهم التاريخ على هامشه انما بلغوا زعامتهم عن طريق الحزبية او الثورة او القوة ، وهي زعامه افريقية لا قيمة لها الا في ارضها ، ولا سلطان لها في غير موطنها ، واما محمد فقد بلغ الزعامه العالميه عن طريق الالم ، والفقر ، والغريسة والجهاد ، وفي سبيل المثل العليا والمصلحة العالميه ، ثم جعل في عشر سنين من الرعاية

المشتتين على رسال القفر ، امة متعاسة الاجزاء متحدة الالهواء ،
مساندة القوى ، منجاسة الطباع ، بلغت رسالة الله ، وحكمت عامر
الارض ، ومدنت اكثر العالم .

وزعماء اليوم يكونون قبل الزعامة ناساً كالناس ، ثم يصبحون
بعدها آفة كالأفة ، ينقضون ما وعدوا ، ويستعملون ما حرموا ، ولا
يرون كبير امر في الاحتفاظ بهذه الزعامة ، ولو تنكبوا عن الكرامة ،
واستبدروا كل سرورة وخلق كريم .

اما محمد فقد ملك الحجاز واليمن وهي الجزيرة كلها وما دلتها من
العراق والشام ، وظل ينام على فراش من ادم حشوه ليف ، ويبيت هو
واهلك على الطوى ، لا يتبلغون إلا الاقل من الغذاء ، وكان عبارة عن
التمر والماء ، ويكثون الشهر لا يشوقدون ناراً ، وبليس الكسا الحشن ،
ويقسم على الناس اقبية الديباج المذهب ، حتى اذا اقبل على اصحابه
فقاموا اجلالاً له قال لهم :

« لا تقوموا كما تقوم الاعاجم بعظم بعضهم بعضاً ، انما انا عبد آكل
كما يأكل العبد ، واجلس كما يجلس العبد »

وزعماء اليوم يسرون الجنود الى الخنادق ، ويبيتون على حشايا
الديباج ورساوي العمال الى المسالك ، ويظنون هم في ابراج العاج .
اما هو فكان يقاتل مع الجندي حتى يدمي ، ويعمل مع العامل حتى
ينصب ، وكان صعبه اذا احتدم اليأس واحمرت الخدق انقوا به فما
يكون احد اقرب الى العدو منه .

واما القول انه الوحي ، فما كانت اعمال الرسول كلها وحياً ، ولكنها
الرجولة الكاملة والخلق العظيم والبقرية الفذة والشخصية القوية التي
جعلت من هذا الفتى شخصية عجيبة ما رأى العالم لها مثيلاً ، وحدثت

الصفوف ، وآخت بين الناس ، وقضت على النقاليد ، وهدمت الجسور ،
ومحت فاسد الاخلاق ، وجعلت هؤلاء العرب الذين كانوا ابدأً بأنفوس
الحكم و يرفضون السلطان ، يجمعون على حبه اجماعاً لا يحرفه
إلا الكفر بالله . فاقواله سنن تتبع ، واعماله عهد تحفظ ، واراؤه اوامر
تطاع ، واحكامه افضية تنفذ ، وكذلك نرى ان محمداً خلق من اخلاقه
هذه الامة التي عملت المعجزات ، فارحت هذه الانتصارات العظيمة
التي امتدت من المشرق الى المغرب ، والتي ما تزال تثير اهتمام المستشرقين
حتى اليوم ، يحاولون الوصول الى اصولها واساسها الحقيقية ، والتي كان
ابوبكر وعمر وغيرهما من الابطال المغاوير مثلاً صارخاً لها ..

حسن المعاملة

وكان محمد ذات مرة في سفر فامر اصحابه باصلاح شاة ، فقال رجل :

- عليّ ذبحها .

وقال ثان : عليّ سلقها .

وقال ثالث : عليّ طبخها .

فقال الرسول : وعليّ جمع الحطب .

فقالوا : يا رسول الله تكفيك العمل .

فقال : علمت انكم تكفونني اياه ، ولكنني اكره ان اتقير عليكم .

وزعماء اليوم اذا ترعموا لا يفظنون لغير منوبة الصديق وعقوبة

العدو ، فلا تخرج اعمالهم وآمالهم عن دائرة الحزبية الصغيرة الحفيرة ، اما

محمد فكان يعادي في الله ومثله العليا ، ويصادق في الله ومثله العليا ، ثم

كانت سياسته كنور الارض لا تعرف الحدود ولا المقاييس ولا الزمن ،

كانت نعم القريب والبعيد ، والصديق والعدو .

محمد في طفولته

ولد محمد بن عبدالله يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع
الاول عام الفيل سنة ٥٧٠ ميلادية ، وذلك بعد شهرين من وفاة والده
عبدالله ، فخرج الى الدنيا يتيماً فقيراً ، لم يتروك له والده غير خمسة من
الابل وقطيعاً من الغنم وجارية هي ام ايمن حاضنة محمد .

وكانت مكة هادئة الهواء ، شديدة الحر ، هادئة النفس ، ما احس
اهلها شيئاً ، ولا ألقي في روعهم امر ، واذا هم ينصرفون في صباح
(الميلاد) الى امورهم ومعاشهم ، واذا عبد المطلب قائم مقامه وحوله
ابنتوه وجماعته من فريش ، فيمشي اليه البشير مسرعاً ، حتى اذا انتهى
اليه بشره بالمولود الجديد ، فيهب جذلان فرحاً ، ويمضي الى بيت آمنه ،
فينظر الى المولود وتحدثه امه بما رأت وسمعت وشاهدت ، فلا يعجب
شيء ، ولا ينكر امراً ، ثم يحمل الصبي على ذراعيه الى الكعبة فيطوف
فيها ، ثم يقوم داعياً لله شاكراً له ما اعطاه ، ذلك ان عبد المطلب كان
محباً لعبدالله والده ، ولوعاً به ، فلما توفاه الله ملائكة النكد ، وغلبه
الحزن ، فاذا ما رأى المولود الجديد جلا الله الحزن عن قلبه ، وحبيب
الصبي الى جده ، فكان من اكثر الناس غطفاً عليه ورواً به ، ورعاية له .
ثم يخرج الشيخ بحفيده فيدفعه الى امه وهو يقول :
لقد احبته محمداً .

وهو اسم جديد في العربية ، ليس يقع علمنا حتى الآن على ان
العرب كانت تسمي مواليدها بهذا الاسم قبلاً .
ولمنا نعلم شيئاً كثيراً عن حياة محمد في طفولته ، إلا ما كانت من
ارساله الى البادية للرعاية فيها ، كعادة العرب في ذلك العهد ، ويظهر

لنا من تنكر المرضعات لمحمد ودو في طفولته ، وما تذكره لنا السيرة
من انه لما عرض على المرضعات ايضاً لما قبل لمن انه يتيم ، ذلك انهن انما
كن يرجون المعروف من والد الصبي ، فان تولى هذا الموت ، فلا
امل لمن بشي من النعمة او حظ من البر ، كل هذا يدل على ان ما
تركه له والده من ابل وغنم لم يكن بعد شيئاً مذكوراً ، كما يتعقد
الاجماع على ان عائلة محمد مع شرفها وعظيم مركزها كانت عائلة فقيرة .
فاذا كان محمد في السادسة من عمره توفيت امه ، فكيف جده عبد
المطلب .

موت عبد المطلب

وبصبح الشيخ ذات يوم مريضاً منقلاً فيعلم انه زائل وانه مفارق
مكة فرافاً لا رجوع بعسده ، ويقف محمد امام فراش جده ، يشاهد
انتقال وليه الى العالم الآخر ، وبضطرب قلبه ، فتنهال من عينيه دموع ،
ويحرق في قلبه اشفاق كثير .

لله من دموع اليتيم ما احمرها واشدها ، هذا الفتي اليتيم ما يعرف
اباه وما اكتنعت عيناها برأى امه الا قليلاً ، فاذا ما كفله جده ، وراح
يبر به ويعطف عليه ، وراح بأخذه الموت من بين يديه ، كأنما الاقدار
تريد هذا الفتي ان يكون يتيماً حقاً ، ما تضطرب حوله عاطفة ولا تبسم
امامه بشرة راضية ، وهو في ذلك ضعيف ما يملك للافساد رداً ، ولا
يستطيع لما هو فعلاً .

وكذلك يموت عبد المطلب ، فيكفل اليتيم عمه ابو طالب وقد غلب
الصبي الحزن والالم ، فيمضي كثيراً من يومه وبعض ليله يذكر فيه اباه
الذي لم ير له وجهاً ، ويذكر امه التي لم تتوفر لها العناية به إلا بتقدير ،

ويذكر جده الذي فارقته منذ امد قصير ، ثم يطلق بصره الى السماء يطلب
منها ملجأً وحامياً وهو اليتيم الغريب الفريد .

حاضنة محمد

لم يبق لمحمد بعد ابويه وجده غير حاضنته ام ايمن جارية ابيه عبدالله
التي شهدت ليلة الوضع ، والتي ما كادت ترى الطفل يسقط على الارض
ساجداً حتى يلتقي الله حبه في قلبها ، وحتى يتلى قلبها عطفاً عليه وشغفاً
به ، واذا هي تحضن الطفل وتحنو عليه ، واذا هي تغمره بصنوف من
الحنان والمحبة والبر ، وما تحويها غير قلوب النساء ، فاذا ما اخذته
المرضع الى البادية ، اسقط في يدها وتولاها من الحزن شيء كثير .

فاذا ما عاد الطفل الى مكة ، وتوفيت امه بعد ذلك ، خلص اليتيم
الى الحاضنة من دون الناس ، فتقف نفسها عليه ، وتختصه بحبها
وحمايتها كله ، وهي امة حبشية هذه الحاضنة ما عرفت الحنان والحب
والعطف إلا في هذا الطفل ، ولا تفهم ما فيها من المعاني الرائعة الا
حين رأت اليتيم واخضعت به .

ومن المؤكد ان محمداً لما توفي جده عبد المطلب كان في الثامنة او
التاسعة من العمر ، ولاندي على وجه التحقيق شأنه في هذه السنوات
التي تقطعت بعد وفاة جده ، ولكننا نؤكد انصرافه فيها الى رعي الابل
والغنى للحصول على بعض معاشه او لاعالة نفسه ، لان عمه (ابا طالب)
الذي كفله بعد وفاة جده كان رجلاً فقيراً كثير العيال ، فكان لا بد
والحالة لمحمد من القيام بعمل يكفيه بعض الكفاية حتى لا يكون
عالة على عمه .

ومن المؤكد اليوم ان رعي الابل والغنى في ذلك العهد ، وفي مكة

خاصة لم يكن من الاعمال التي يقبل عليها اشراف الناس واغنياؤهم، وانما كان عملاً خاصاً بالفقراء والايتام من اهل مكة، من الذين لم يكن مقدورهم القيام بتجارة، خصوصاً وان التجارة في مكة كانت نافقة رابحة في ذلك العهد، فكان كل اهلها من التجار، حتى نساؤها كن يتعاطين التجارة، كما هو حال خديجة زوج محمد فبدان تعرفت به، وانفقت معه على الذهاب بتجارة خاصة الى دمشق.

ومن المفروض في قوم يشتغل نساؤهم في التجارة، ان يكون رجالهم اكثر اقبالاً عليها، ونفاذاً بها، ويقدر بعض المستشرقين مقدار الاموال التي كانت قريش تضعها في تجارتها وترسلها الى دمشق في السنة الواحدة بما لا يقل عن مائة الف دينار ذهباً.

السفر الى دمشق

اما سفر محمد الى الشام مع عمه ابي طالب وتعلقه به، وسؤاله له في الحاح الصبي واغرائه ان يحمله معه في سفره، وهو الى ذلك ما يزال يضطرب في التاسعة من عمره، فامر لا يزال موضع اخذ ورد عند كثير من المستشرقين ..

ذلك ان بعضهم يرى في القصة المشهورة عن السفر الى دمشق او الى الشام واجتماعه الى بحيرا الراهب المسيحي، وتحذير بحيرا لعمه من خطر اليهود على الينيم، قصة تجعلها قريبة الى الاختراع منها الى الامر الواقع. والمستشرقون تناولوا حديث هذه السفارة كما تناولوا سواها وغيرها من الاحداث التي ارتبطت بتاريخ الرسول، وذهبوا في تأويلها المذاهب فانكروها بعضهم، وأشار الآخرون الى اهميتها وخطورتها، وكيف ان الينيم قد وفق فيها الى استماع حديث بعض الرهبان من الذين حبسوا

انفسهم في الصوامع ، فما تولى عنهم الا بعلم وفيه وخير كثير يتصل بالحياة الدينية في عهده ، وعبادة الاصنام في بلده ، وان الدين الحق لا يستقيم الا بعبادة الله وحده ، اما نحن فما نعلم ان حبيباً منها بلغ ذكائه واستطارت عبقريته ، يتوفر على تفهم هذه الاسرار المتعلقة بالحياة والدين وهو ما يزال في التاسعة من عمره ، ونعتقد بحق ان حديث هذا الاتصال مع بحيرا وغيره اقرب الى الخيال منه الى الحقيقة ، وانما يختل الرواية مضطرب الاسباب ، واذا كانت قد توفر لمحمد في سفرته هذه بعض المعرفة بعقائد النصرانية واليهودية في زمنه ، فان هذه المعرفة ليست تعدو الصور الخارجية يطلق المرء بصره عليها ، فيرى فيها لونا جديداً ليس يفهمه ويعهده ولكنه لا يوفق الى تفهم ما فيها من اسرار ، هي دون ما شك عسيرة كل العسر على من كان مثله وفي سنه ، وقد انكر كارليل وغير كارليل من مشاهير الكتاب هذا الزعم وقالوا انه تغريب ، وانه بعيد عن الحقيقة ، لان محمداً في رأي هؤلاء لا يستطيع ان يفهم هذه الاسرار في مثل هذه السن .

ولست انكر ما قد يتوفر للفن النابه بضرب الارض في تجارة مع جماعة من الناس ، وقد تبسط احوالهم في مواطن الحضارة في ذلك العهد ، واستقامت لهم معرفة ببعض الوان الحياة في ذلك الزمن ، فيروح يتحدث بها وبما شاهده في سفرائه السابقة من الوان واحداث حين يجن الليل ، وتسكن الطبيعة وبأوي رجال القافلة الى شيء من الراحة هم بأشد الحاجة اليه ، بعد نهار قضوه في قطيع المفاوز تحت تلك الشمس المحرقة وفي تلك الصحراء المقفرة .

والواقع ان حياة محمد قبل الخامسة والعشرين من عمره لا تزال حتى اليوم مخططة بكثير من الغموض والابهام .

وأما بعد الخامسة والعشرين فإن محمداً يدخل في الزاوية ، فلا يخرج منه بعد ذلك أبداً .

حرب الفجار

فاذا كان محمد في الخامسة عشر من عمره كانت حرب الفجار بين قريش وكنانة وبين قيس ، وكان قائد قيس جميعاً حرب بن أمية لمكانته فيهم سناً وشرفاً ، وكان رئيس بني عبد المطلب الزبير بن عبد المطلب ، وقد حضرها محمد فكان يجهز لعمومته النيل الرمي .

ثم ندعت قريش (لحلف الفضول) والمنحالفون هم : بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وبنو اسد بن عبد العزى ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو نعيم بن مرة ، وقد تحالفوا وتعاهدوا ان لا يحدوا بمكة مظنوناً من أهلها او من غيرهم من سائر الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه ، حتى ترد اليه مظلمته ، وتم ذلك الحلف في دار عبدالله بن جدعان النخعي ، وشهده محمد بن عبدالله ، وقال فيه بعد الرسالة .

- لقد شهدت مع عمومي حلفاً في دار عبدالله بن جدعان ما احب ان لي به حمر النعم ... ولو دعيت به في الاسلام لاجبت (١)

(١) وسبب حرب الفجار ان النعمان بن المنذر كان يبعث كل سنة غزالة من الحيرة الى عكاظ يحمل المك وثأق بدلاً منه بالجود والخيال والسجة اليمن المزركشة ، فعرض البراض الكناني نفسه ليقود الغزالة في حيازة قبيلة كنانة ، وعرض عروة الهوازني نفسه كذلك على ان ينحطى الى الحجاز لمطريق محمد ، واختار النعمان عروة ، فاحفظ ذلك البراض قبضه وغاله واخذ غزالته ، فهدت هوازن للاخذ بالثار وحلفت بقريش قبل ان يدخلوا الحرم فافتلوا وتراجعت قريش حتى لافقت من المتصدين بالحرم ، فانذرتهم هوازن الحرب بمكافاة المكيل ، وقد ظلت هذه الحرب تنشب بين الفريقين اربع سنوات متتابعة انتهت بعدها بالصلح .

اتصاله بخديجه

اما اتصاله بخديجه فلا يزال الى يومنا هذا سرّاً من الاسرار .

كيف عرفت به خديجة ؟

ولماذا اختارته وفضلته على غيره من شباب بلدها وهو الفقير

البائس ؟

ثم ما هذه الشوائع التي كانت تروج عن امانته وصدقه ، وما هو سببها ؟ لان المفروض في مثلها ان ترتبط بحوادث وقعت ، واختيار واعمال صدرت عن محمد وانتشرت بين الناس ، وذاع امرها في مكة ، حتى اطلقوا على صاحبها لقب الامين !!

والنتيجة المنطقية لكل هذا ، هو ان خديجة تعرفت على محمد او استمعت الى اخباره ، وصدقه واخلاصه وامانه ، من اشخاص اتصل بهم محمد ، وعرفوا فيه الامانة والاخلاص والصدق ، ولما كانت امرأة تاجرة قليلة الثقة باهلها كما يظهر ، فقد كان من مصلحتها الاعتماد على شخص تؤمن باخلاصه وصدقه ، وكان الشخص الذي وقع اختيارها عليه محمد بن عبدالله ، فقررت اليها واستدعته الى بيتها وكلفتها السفر بشجارة لها الى الشام ، ففعل وعاد موفقاً ناجحاً ، فاعتزمت الزواج به ، وعرضت الامر عليه فلم يرفض .

والظاهر ان محمداً ذهب يتحدث الى اعمامه بالامر ، فخرج معه عم حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على خويلد بن اسد والد خديجه ، فخطب ابنته لابن اخيه ...

وفي بعض المصادر ان عائلة محمد جميعها كانت موافقة على الزواج ، وكذلك كان محمد وخديجه ، واما الشخص الوحيد الذي عارض اول

الامر ، فهو والد خديجة ، الذي كره كما يظهر ان يشاركه شخص آخر
في ثروة ابنته وما لها .

تجديد بناء الكعبة

فاذا استقام محمد في الخامسة والثلاثين من عمره ، كان هدم فريش
للكعبة وتجديد بنائها ، وقد فسوا العمل فيها على قبائل فريش ، حتى
اذا وصلوا الى مكان الحجر الاسود اختصموا فيما بينهم يتنازعون بشرف وضعه
في مكانه ، واشتد النزاع بينهم ، ثم انفقوا على تحكيم محمد بن عبدالله ، لم
يختلف عليه احد ، فبسط رداءه ووضع عليه الحجر الاسود ، وطلب من
الرؤساء ان يسلك كل رئيس بشرف منه ، وامرهم ان يرفعوه ، حتى
اذا حاذى موضعه اخذه بيده فوضعه مكانه .

ثلاثون سنة من حياة النبي

ويقال من يحاول التأريخ لمحمد بن عبدالله - وذلك بعد عودته
من زيارة الشام ومشاهدته ما كانت تنعم به من آثار الروم والفساسنة -
عن اثر هذا الانصال الاول بالحضارة الرومانية والمسيحية في هذا الشاب
الناعم الرقيق !!

تري ما كان من اثرها في نفسه ؟ وما كان من تأثيرها عليه ، لقد
اطلق الشيم بصره حقاً في بيعها ومعابدها وقصورها وقبائنها ، وانكشفت
له ارضها عن جمال بارع وطلعة جديدة لم يكن له بها بعد عهد في
صحراوات الحجاز ، فهل اشجته هذه الروعة الجديدة ، وهل فتحت
قلبه هذه الرياض المانعة ، ام ظلت مشاعره صحراوات الحجاز
وضواحي مكة وما لها ، فكانت عنده اشد انساً ، واكثر استساقعة من

هذه الجنة على الأرض وهذه الحضارة المليئة بالكاذب والادعاب !!
ثم ترى يعرف كيف مضى اليتيم سنواته الأولى وطفولته العذبة ؟
وعمل كان له اصدقاء يحالطونه ويخالطهم ويخالسونه ويخالسهم
ويأتسون اليه ويأتس اليهم ؟

ثم ما كان شأن اليتيم بين السنة التاسعة والخامسة والعشرين من
عمره ؟ وكيف راح يصرف هذه الاعوام العديدة من فتيوته الجميلة ؟
ثم ما هذه الشوائع - حين استوى اليتيم في الخامسة والثلاثين من
عمره - قلاً مكة ، وشعاب مكة ، وتحدث عن استقامته وجميل
خلقه ، وصدق حديثه ؟؟

مثل هذه الشوائع لا تخلق انجلاً ولا تسير بين الناس عقراً ، اذا لم
تسبقها اعمال وفضائل ومكارم صالحات ، معروف امرها ملموس شأنها
مصداق اخبارها ...

واذا كان اليتيم قد ذهب يوعى الغم في ماضيات ايامه قبل البعثة ،
فكيف كان باستطاعته ان يتصل بالناس هذا الاتصال الوثيق ، بحيث
تظن لامره خديجة بنت خويلد ، فتسكفه الانجار لها ، وتستأجره املياً ؟
ان كتب السيرة لا تتولاك بشي . من اخباره الاولى ، وكل ما
يمكننا قوله هو ان اليتيم كان راعياً في نشأته وتاجراً في شبابه ، واثق
صدقه وامانته ، اشتهر بين الناس فدعته خديجة الى العمل لها ، حتى اذا
وفق في عمله ، وارضاها في تجارته ، ورأت في معاملته مصداق ما
حدثها الناس عنه ، عرضت عليه الزواج بها ، فاستقر عندئذ لليتيم حياة
جديدة ، فيها شيء كثير من الرفق ورغد العيش .

فاذا انتهينا من تصوير حياة اليتيم بين السنة العاشرة والخامسة
والعشرين ، فنحن امام خمسة عشر عاماً اخرى تبتدى بزواجه وتنتهي

بيعته ، فهذه ايضاً لا يعرض لها المؤرخون ، الا ما كان من شأنه وهو
في الخامسة والثلاثين من عمره لما اعاد الحجر الاسود الى مكانه في
الكعبة ...

من المؤكد ان محمداً اخذ يفكر في هذه الفتوة ، اي بين السنة
الخامسة والعشرين والاربعين من عمره - وبعد ان اطمأن الى معاشه
ومشربه - تفكيراً جديداً في العوالم التي حوله ، والاسرار التي تغيب
هذه الارض ومن عليها . واداه تفكيره هذا الى التعمد في غار حراء
يبحث عن الحقيقة ويفكر في اسرار الكون .

وبودي لو اوفق الى تصوير هذه الايام بقضيتها سيد العرب في هذا
الغار ، ولكن احداً من المؤرخين لم يعرض لها ، ولا حاول تفسيرها
وتصويرها .

ولذلك فلا يزال غار حراء سرّاً من الاسرار ، ولا يزال تعبد
الرسول فيه لغزاً من الغايز الحياء ، ونحن اذا وجهنا الفكر الى هذا
الجبيل وحاولنا تصوير هذه الحياة المحمدية ، فقد لا نكون بعيدين عن
الحقيقة اذا ذهبنا نقول ان الرسول كان يؤدي الى الغار ما بين حاشيتي
النهار ، فائماً جنباً ، مفكراً جنباً آخر ، وان تعبدته وهجوده وتقليب
بصره في السموات ، انما كان في الليل ، والقمر مشرق ، والهواء
رطب عليل ، والسماء غارقة في انوارها ، ومن المؤكد انه كان يفادو
الغار ما بين حاشيتي الليل متمشياً على سفح الجبيل مولباً وجهه شطر
السماء ، كأنما هو يحاول الاتصال بها ، والنحدث اليها ، وما يزال هذا
شأنه حتى تلمس اشعة الشمس شعوره المرسلة على جبينه وكتفيه .

معلومات محمد

وكان محمد امياً ما نعلم انه قرأ او كتب على وجه التحقيق ، واذا كانت مكة قد تأثرت ببعض الآراء والافكار الفلسفية التي حملت اليها من العراق وغير العراق ، فانه لم تقم فيها نهضة علمية ، ولا كانت في جزيرة العرب كلها من المعارف غير فرض الشعر ، ودرس الانساب ، ومع ان رسول الله كان ينعم بموسيقية لفظية وطرافة جذابة في حديثه وافواله ، فانه كان قليل الميل للشعر ، ولعل سبب ذلك ما كان يتعلق به الشعراء من الكذب والافراق والمبالغات ، وهو ما كانت ينكره ويحتقره ويزدرجه ، كما ان الشعر الجاهلي في نظره كان يمثل الوثنية وعادات الجاهلية ، وكلها كانت مكروهة بغضه اليه .

اما فن الكتابة فقد كان ضعيفاً وقلبلاً في مكة ، ومن المؤكد ان محمداً لم يكن يحسن الكتابة ولا يعرف القراءة .

ويظهر لنا ان الكتابة لم تكن ضرورية للتجارة والنجارة ، وان المعاملات في ذلك العهد كانت من البساطة بحيث يستطيعها المرء دون ما حاجة الى دفتر للحسابات ، وكتاب للمعاملات ، ولولا ذلك لصعب على خديجة تكليف محمد بتجاريتها ، وهو الشاب الامي ، إلا ان يكون في ارتحالها خادماً مبصرة معه ما يدل على انه كان يقوم بهذه المعاملات عن محمد .

محمد في غار حراء

تزوج محمد خديجة وهو في الخامسة والعشرين من العمر ، وكما مضى سنوات الطفولة والشباب في جو يكاد يكون مجهولاً جهلاً تاماً

عندنا ، فكذلك قضى محمد خمس عشر سنة أخرى بعد زواجه في جو
اقل ما يقال فيه اننا لا نعرف عنه فيه شيئاً يذكر ...

ولكن هناك شيئاً واحداً يستلفت النظر ، وهو انه ما كادت الحياة
العائلية العذبة تنساق الى محمد بعد زواجه بخديجة ، حتى اخذ الموت
يرتعه بينه الواحد بعد الآخر ، لقد غمرت السعادة الزوجين لما ولد لها
القاسم وعبدالله ، ثم زينب ورقية وام كلثوم وفاطمة من البنات فلما
تناول الموت القاسم وعبدالله ، حزن الزوجان ، ورعش قلب خديجة
النبيبة التي جرحت امومتها في فترة من الزمن كانت العرب فيها لا
تفضل بالولد الذكر شيئاً ، بينما كانوا ينظرون الى الانثى نظرة فيها
كثير من الاحتقار والاشفاق .

اما ما كان من تأثير ذلك على محمد نفسه ، فهذا ما لا يحدثنا عنه
التاريخ في قليل ولا كثير ، ولكننا نستطيع ان نفطن للوعته وحزنه
وحبه للولد من حزنه على موت ابنه ابراهيم ، فقد ادمى هذا الفراق
قلبه ما في ذلك شك ولا ريب ...

والواقع ان الحياة ما اشقت على محمد في كثير ولا قليل ، فقد
تكلته بامه وابيه ، ثم بجده فبولده ، وكانت غداية الانسان في الجاهلية
ان يكون له من الولد ما يحفظ اسمه ، ويعزز عصبته ، ويدافع عنه ،
كأننا اراد القدر ان يظل محمد بيتياً حتى آخر يوم من حياته ، وان لا
يكون له من الولد الا البنات ، والبنات في الجاهلية والاسلام شيء
ضعيف لا يرفع شأنه ولا يؤيد سلطانه .

هذا الالم الذي كان يجرّ صدره ، ولا يظهر على وجهه ، جعله يصرف
حياته في هذه السنوات التي استبقت النبوة والوحي ، إما في نجارة
لزوج ، او في استمتاع بوحده التي كان يحن اليها ويفضلها على سواها

من الوان الحياة الاخرى ، وهي وحدة كانت تساق رغباته وتصل الى
فرادة نفسه ، كما كان يجد فيها راحة وطأنينة لا عهد له بها في حياته
المريرة القاسية .

ويضي فتيان مكة وشبابها الى نعيمهم وملاذمهم ويشي محمد الى نفسه
بفكر في هذه الحياة وشأنها ومصيرها ، وينظر الى الاصنام فاذا هي لا
تفني عنه من الله شيئا ، واذا هي حجارة لا تضر ولا تنفع ، واذا هو
كلما حاول نفهم ما حوله من الاسرار باحثاً عن الحقيقة طالباً الهدى
والحق لم يوفق في بحثه ولا تفكيره .

وانقطع محمد قبيل الاربعين من عمره الى العبادة - كما كانت من
عادة مفكري العرب ان يفعلوا - وطلب الوحدة فالفها في غار حراء ،
وهو غار يقرب من ثلاثة امتار في مترين في قمة جبل على يسار السالك
من مكة الى عرفة .

كان محمد في هذه الايام على نحو ما نقول ككتب السيوة ، يألف
العزلة ، ولم يكن احب شيء اليه من ان يتخلو وحده .

وكان يقضي شهراً مجاوراً في غار حراء .

فيم كان يفكر ؟ وما الذي كان يطلب ؟ وما هذا التحول الجديد
الذي طرأ عليه ؟ وما الذي جعله يتهرب من الناس ، وينفر منهم ؟
هذا ما لا يزال حتى اليوم سرّاً من الاسرار .

ولكن الشيء الذي لا شك فيه ان محمداً كان في هذه الفترة ، وعلى
الاخص في غار حراء في حيرة عظيمة عبّر القرآن عنها بقوله ووجدك
ضالاً فهدى ، لم يعجبه دين قومه ولا نوع حياتهم ولا كفرهم ولا ايمانهم
ولا اخلاقهم ، ثم ادهاه ذلك الى الايمان بانه لا بد ان يكون في الحياة
شيء اشرف من هذا واكمل ، وان هذا الشرف والكمال بوجودان في

السماء التي فوق رأسه والتي حيره نظامها ونجومها ..
 لقد ذهب محمد الى غار حراء بشراً حائراً ، وانساناً مرتبكاً مضطرباً ،
 وغادره انساناً نبياً ، ورسولاً كريماً ...

العبادات الاسلامية الممثلة ومكة

دعا محمد قومه الى عبادة لا اله الا الله ، وان محمد عبده ورسوله ،
 وترك الاوثان ، وعدم الاشراف بالله ، ولما كانت الاوثان في نظر سكان
 مكة من العوامل التجارية الفعالة في حياتهم ، ومن الاسباب التي تدعو
 العرب من مختلف انحاء الجزيرة الى زيارة مكة لما فيها من اوثان ، ولما
 لكعبتها من مقام ، فقد كانت دعوة محمد ، ضربة شديدة عليهم ، وتقريباً
 لما الفوه من عادات ، واقاموه من مصالح ، وانشأوه من تجارات بعيدة
 المدى بين مكة وغير مكة .

كانت مكة كما قدمنا مركز الوثنية في جزيرة العرب لوجود الكعبة
 فيها ، وكان تدفق عرب الجزيرة على مكة واوثانها مورداً عظيماً من موارد
 العيش عند سكان مكة ، وكان زعماء مكة من قريش يسيطرون طبعاً
 على غيرهم من القبائل في الاشهر الحرم التي ينزلون مكة في اياها ، وكانوا
 يستفيدون تجارياً وادبياً واجتماعياً من قدوم الحجاج الى مدينتهم وقبام
 الاسواق التجارية حولهم .

فجماعة هذه حالتها الاقتصادية والاجتماعية ، وارتباط هذه الحالة
 الاجتماعية والاقتصادية بالمدينة نفسها ومركز الكعبة والاوثان فيها ، كان
 من المفروض فيها طبعاً ان تحارب كل تبدل وتعديل في نظمها الدينية
 والاجتماعية هذه النظم المرتبطة الى حد وثيق وعظيم بحياتها الاقتصادية ،
 سواء كان محمد صاحبها ام غير محمد ...

ولا عجب والحالة هذه اذا حارب اهل مكة ونجارها محمداً ودينه
لان دعوته كانت كفيلة - في نظرهم - بالقضاء على مصالحهم الاقتصادية
والسياسية والاجتماعية .

ثم ان العرب كما قدمنا كانوا لا يعرفون شيئاً اكبر من القبيلة في حياتهم
الاجتماعية ، ولا يحاولون النزول تحت سلطان غير سلطان القبيلة ، ودعوة
محمد كانت تدعو الى المساواة بين جميع المسلمين ، وكان من نتائجها
تمزيق عرى الوحدة القبلية بين العرب ، وهذا ما كان يرفضه العرب في
مكة وخارج مكة ، كما ان فكرة المساواة نفسها كانت بعيدة عن زعماء
مكة لا تفهمها عقولهم ولا تقبلها تقاليدهم .

محمد ومكة

وقف سكان مكة في اول الامر من دعوة محمد موقفاً وسطاً فيه
كثير من عدم الاعتماد والقلق ، وسبب ذلك انهم لم يفتنوا اول الامر
لخطر الدعوة ، وظنوها من هذه الدعوات التي ما تلبث حتى تموت في
مهددها ، ثم انهم في الوقت نفسه كانوا ضعيفي الايمان بمقائدهم الدينية ،
والوثنية ، فلم يدخل في روع احدهم ان من الضرورة الدفاع عن هذه
العقائد والادوات ، ولذلك تركوا محمداً وشأنه ، في اول امره ، فلما
وجدوه اخذ ينتقد اوائلهم ، وينكر ادبائهم ، ويستخف بتقاليدهم ،
وادركوا ان مثل هذا الاستخفاف والنكر والتفاد قد يؤثر على
تجارهم ، ونجارهم انما تقوم على بقاء هذه الاصنام الذي يدعوا محمد الى
هدمها وازالتها ، تنكروا له ، وقاموا بحاربونه وبجاربون انتصاره ...
وطبعاً اخذ اهل مكة في اول الامر ينتقمون من ضعفاء المسلمين ،
ومن لا عصية قوية تمنعه في مكة ، واما محمد ، فلم يتعرضوا له اول الامر ،

لان بني هاشم عائلته منعته ووقفت تدافع عنه ، لا ابائاً بدينه ، وقبولا لتعاليمه ، وانما عصبية منها ، ووفافاً لمعادات العرب في الجاهلية ، من ضرورة الدفاع عن ابن البيت ظالماً كان ام مظلوماً .

ولكن دعوة محمد ظلت نجد انصاراً واعواناً برغم اضطهاد قريش للمسلمين ، وكان اكثر المسلمين في هذه الفترة من الزمن من ابناء الطبقة المتوسطة الاربعة افراداً قليل عددهم فانهم كانوا من الطبقة الارستوقراطية . وعندئذ رأت قريش ان تقاطع محمداً وعائلته من بني هاشم وانصاره من المسلمين فلا تعاملهم ولا تتجر معهم ولا تخاطبهم ، وتمنع احداً من معاملتهم والاتجار معهم حتى يموتوا جوعاً ، وكذلك حيزت قريش محمداً وعشيرته من بني هاشم والمطلب في بعض شعاب مكة ، وقضى بنو هاشم والمطلب في الشعب نحو ثلاث سنين ، قاسوا فيها جهداً وضائقة عظيمين حتى لقد كان يسمع صوت صفارهم وهم يتضورون جوعاً ، وحتى قام من قريش من حر كبتهم عاحلقة الرحم والقرابة فسمعوا الى اخراجهم من الشعب فخرجوا .

وكان بعض المسلمين قبل هذه الفترة وقبل هذا الحصار قد ذهبوا الى الحبشة هرباً من اذى قريش وعدوا بها ...

والظاهر ان محمداً بعد خروجه من هذا الحصار الذي فرضته مكة واهلها عليه ، قد ايقن ان الامل ضعيف بالجنذاب قريش وعظائرها اليه والى دينه ، ففكر في الذهاب الى الطائف على يحد فيها قوماً يؤيدونه وينصرونه على عدوان مكة عليه ...

وذهب محمد الى الطائف فلم يوفق ، فعاد الى مكة حزيناً مضطرباً ، وكانت قبل ذهابه الى الطائف قد مات عمه ابي طالب ، وفقد بعد عمه زوجته خديجة ، وكانا يحنوان عليه ، ويقويانه ، ويساعدانه ، فاصبحت

الحالة سيئة جداً امامه ، واصبح الموقف مظلماً ...
وفي هذه الاثناء لاحت في الافق بارقة من النور ، فقد تعرف محمد
على بعض اهل المدينة ، ووعده عزلاً ، بتأييده والدفاع عنه ...
ولكن قريشاً عرفت بهذا الاتفاق ، وادركت ان الموقف اصبح
يستدعي شيئاً من الخزم والسرعة ..

الاجتماع الخطير

ففي يوم من ايام شهر صفر من عام الفجرة ، اتفق عظماء قريش على
الاجتماع في (دار الندوة) للبحث في (القضية الحمدية) ...
وكانت (دار الندوة) عبارة عن برخان قريش ، ولم يكن للدار نظام
مكتوب ولا دستور مخطوط ، وانما كان لها دستور او قانون متعارف ،
خلقته الاوضاع والتقاليد ، وامسا اعضاء الدار ، فكانوا من رجالات
قريش الذين اظهروا شخصيته وقاموا بافعال مكنتهم من توهم قبيلتهم ،
على ان يكون واحدهم قد بلغ الاربعين من عمره .
وكانت دار الندوة في دار قصي بن كلاب ، نوارتها اعقابها بعده ،
وخصوصها للتشاور في عظام امورهم ، وكانوا لا يقضون امراً الا فيها ،
وكانت تقع في الجانب الشمالي من الكعبة ، وهو الان جزء من المسجد
الحرام ..

وكان الاجتماع ، وقد حضرته قريش كلها ، وتشاوروا فيما بينهم حتى
استقام رأيهم على ان يأخذوا من كل قبيلة قتي شاباً جليداً نسياً فيهم ،
ثم يعطوا كل قتي سيفاً حارماً فيعمدوا الى محمد بن عبدالله فيضربوه
بها ضربة رجل واحد فيقتلوه ، ويذهب دمه في القبائل فلا يقدر بنو
هاشم على حرب قومهم جميعهم ..

وكذلك ارادت قريش ، و اراد الله غير ذلك ، ولما علم محمد صلى الله عليه وسلم بما اجمع القوم عليه من ايذانه قرر الهجرة الى المدينة ، في اول ربيع الاول سنة ٦٢٢ ميلادية ، وبانتقال رسول الله من مكة الى المدينة انتقل الاسلام الى طور جديد ووضع حديث ... حتى اذا وصل رسول الله الى مقره الجديد اقبل اهل المدينة يدخلون في الاسلام افواجا ، فيؤاخي الرسول بينهم وبين المهاجرين من القرشيين الذين هاجروا معه ، ويكون بينهم وحدة متواصلة لضخام الاعمال وجلبل الافعال ، وبواجه رسول الله بقوته الجديدة وابانه الراسخ خصومه في طول الجزيرة وعرضها ..

محمد في المدينة

اصبح محمد في المدينة شخصاً جديداً ، فقد كان في مكة يعمل على نشر دينه واما في المدينة فقد كان عليه ان يؤسس حكومة ، ويخلق نظاماً سياسياً واذاًرياً وعسكرياً لانتصاره واعوانه من المهاجرين ، وسكان المدينة الذين ايدوه وتقبلوه فيها بينهم .

وكانت اول اعمال محمد ان ألف بين المهاجرين والانصار ، بين المسلمين الذين هاجروا معه من مكة الى المدينة وبين الانصار من سكان المدينة الذين نصروه ، ثم رتب مسألة الصلاة ، التي يقول فيها المستشرقون : « انها نوع من التدريب العسكري ما في ذلك شك ولا ريب ... »

والواقع ان الصلاة الاسلامية فيها نوع من الرياضة البدنية التي يقول اليوم الاوروبيون بضرورتها ولزومها لكل امة تريد ان تحيا وتعيش ، ثم ان فيها من التدريب العسكري شيئاً كثيراً ، من الوقوف

صفاً واحداً على قياس واحد ، ثم القيام بالحركات المقررة من ركوع وسجود ، وفاقاً لأمر يصدره الامام ، على ان يصار الى انفاذ ذلك جماعة واحدة ، وصفاً واحداً ...

واذا نظرنا الى ان العرب الفخوريين بانفسهم وعاداتهم ونقائدهم لم يكونوا يقبلون نوعاً من انواع التقييد والحصار ، ادر كنا خطورة هذه الصلاة التي فرضت عليهم الاظهار بأمر رجل واحد ، في وقوفه ، وركوعه وسجوده ، بما كان جديداً عند العرب ، غريباً عنهم وعن نقائدهم وعاداتهم .

واذا فما يذهب اليه المؤرخون الغربيون من ان المساجد كانت معسكرات للتدريب العسكري ليس بعدو الحقيقة اذا نظرنا الى ان الحركات التي يصار الى اقرارها في الصلاة انما هي حركات وباضية عسكرية .

ثم ان هذه الاجتماعات المقررة لكل المسلمين في المسجد قد خلقت فيهم نوعاً من روح الخاطلة والتفاهم بعضهم مع بعض ، خصوصاً بعد اقرار مذهب المساواة في الاسلام بما قضى على رابطة القبيلة ، واحل محل هذه الرابطة الضيقة رابطة عربية اسلامية واسعة ، كانت الخطوة الاولى للوحدة العربية ، التي جمعت العرب ، وقذفت بهم الى العالم .

وهناك (الزكاة) وهي ظاهرة جديدة في العالم ، ذلك ان الدين الجديد لم ير من الحكمة ولا من الفائدة ان يترك مساعدة الفقير للجماعة نفسها ، بل فرض ذلك فرضاً ، وحدده تحديداً ، وجعله من اركان الدين ، وكلف الحكومة ان تقوم بجمعه ثم تعمل على تقسيه بين المستحقين ، بما يجعل محمد ابن عبدالله ، صاحب اول فكرة اشتراكية

في العالم .

وكذلك نرى ان محمداً كان من الانبياء المستوعين وليس من الانبياء الفلاسفة ، فلم يفكر في مظاهر الانسان الفردية وعلاقتها مع الروح ، وانما رأى الضرورة تدعو الى انشاء مملكة لله على الارض ، وانذر قومه ان هناك يوماً تعرض فيه الحسابات وتفرض العقوبات ، فمن واجب الانسان ان يستعد لهذا اليوم ويتبها له .

ولما كان محمد في مكة كان رسولاً فقط ، ولكنه لما ذهب الى المدينة اصبح رسولاً وزعيماً وطنياً ، وقونه كرسول ونبى مكنته من اقرار تشريعه السياسي والاداري في البلد الجديد .

ومع ان محمداً كان عربياً قرشياً ، فان العادات العربية فيها تتعلق بوشائج القبيلة لم تتعلق به ولم تؤثر عليه في حال من الاحوال . لقد كان على استعداد لمغادرة بيته ووطنه وبلده وقبيلته في سبيل الله ، ودينه الجديد كان يقضي على كل ما يدعو الى الانقسام والحلاف ، كان ديناً وطنياً شعاره توحيد الصفوف في الدين والاجتماع ، فاما في الدين فقد وحد الناس حول آله واحد ، بعد ان كانت الاوثان تعد بالثلاث ، واما في الاجتماع فقد وحد الناس عامة ، لا فرق بين قبيلة وقبيلة ، ولا بين عربي وغير عربي ، فكان احد المسلمين الفرس مستشاره العسكري في معركة الخندق ، وبلال العبد الاسود مؤذنه ومؤذن المسلمين .

وكان محمد الى ذلك كالصخر امام المسائل الاساسية ، كالايمان بالله وبرسوله وعدم الاشتراك به ونبذ الاوثان ، وترك العصبية الجاهلية والتناحر بالانساب وغيرها ، وكانت الاسلام في بعض المسائل الثانوية اقرب الى التساهل منه الى التشدد ، فقد ترك للعرب بعض عادات جاهلية لم يمنعها الا على قدر ، كتعدد الزوجات والرق ، وبعض الشعائر

القديمة ولكنه نهى عن الاغراق فيها ، ونصح بتروكها خصوصاً الرق .
ولما انتهى رسول الله من تثبيت امره في المدينة انصرف الى اهل
مكة ، وكان اول ما فكر به العمل على اضعاف سيطرة مكة التجارية ،
وشل حركتها المالية ، بالقضاء على تجارتها وتهديد سلامة قوافلها ،
فارسى البعوث لمطاردة القوافل ، وضرب الحصار على طرق المواصلات
الخاصة بها .

قصة عدد المسلمين

وكان نجاح الدعوة الاسلامية ضعيفاً لبناً في اول الامر ، واذا اعتمدنا
المصادر التي بين ايدينا ، والتي تقول ان ٨٣ عائلة من المسلمين هاجرت
الى الحبشة ، وحسبنا العائلة مؤلفة من اربعة اشخاص متسللاً وحسبنا
من بقي من المسلمين في مكة ، فانا نجد ان المسلمين لم يكونوا يزيدون
عن خمسين شخص بين رجل وامرأة و غلام .

ومع ذلك فان هذا العدد اخاف اهل مكة وافض مضاجعهم ، لان
عدد المكيين انفسهم كان قليلاً ، وخروج مثل هذا العدد من بين
ظهرانهم اضعفهم ، فارسلوا وفداً الى التجاشي يرجونه اخراج المسلمين
من بلاده ، فرفض طلبهم ، لانه رأى الدين الاسلامي يساق ككثيراً
من العقائد المسيحية ، ولانه في الوقت نفسه كان يكره مصكة
واصنامها ...

ومن المؤكد ان تأييد الدولة الحبشية للمسلمين اخاف المكيين وما
كان لهم ان ينسوا اطماع الحبشة في بلادهم وتجارهم وكنسهم ، فقرروا
عندئذ مقاطعة المسلمين ثم فكروا جدياً بالقضاء على محمد ما كان الى
ذلك سبيل ، خصوصاً بعد ما عرفوا بانصال محمد باهل يثرب ، واذا

كانوا قد اعتبروا محمداً خطراً عليهم بسبب عطف نجاشي الحبشة عليه وعلى
شيعته ، فكيف به اذا نزل بئر ، وابده اهلها وهي محطة تجارية
تقوم على الطريق الذي يربط مكة بالشام . فلما لم يوفقوا وتمكن محمد
من الهجرة الى بئر ، احسن المكبون من قريش وحلفائها ان الامر
قد خرج من يدهم ، وانهم امام احداث خطيرة قريبة .

وكان اول هذه الاحداث حصار محمد لمكة ، والعمل على القضاء
على تجارتها ، وكانت خطته هذه من الاسباب الاولى التي ادت الى معركة
بدر وظفر المسلمين فيها .

وكان عدد المسلمين قليلاً يوم بدر وحمل السلاح منهم لا يزيدون عن
مائة من المقاتلة ، وسبب ذلك ان اكثر اهل المدينة لم يكونوا قد
تقبلوا الاسلام ، وكانوا لا يجدون انفسهم مرتبطين بمساعدة محمد اذا
كان مهاجراً ، واما اذا هاجمه خصومه ، فالواجب بقضي عندئذ بمساعدته
والمدافعة عنه ..

اما اهل مكة فقد اضطروا طبعاً الى محاربة محمد دفاعاً عن تجارتهم ،
وخوفاً من انتقال الحركة التجارية من مكة الى المدينة ، ورغبة منهم
في القضاء على الخطر الذي يهددهم .

رسول الله واليهودية

وعنا يتسائل المرء لماذا لم يحاول اليهود الاستفادة من تطور الحركة
التجارية لمصلحة المدينة خاصة والبلاد العربية عامة ، لانه اذا زاد نفوذ
محمد قوة ومنعة وتمكن من اخضاع اهل مكة لسلطانه ؟ اصاب
اهل المدينة منها الخير الكثير ، واليهود عدد كبير في المدينة ، فهم طبعاً
سينعمون بالخير الذي سينعم به غيرهم ؟

بفسر المؤرخون موقفهم العدائي نحو محمد، بأن مرده تعصبهم الديني، وكرههم للتعاون مع غير اليهود كما هو شأنهم، وكما هو حالهم حتى يومنا هذا، وكما كانت فرديتهم في السابق سبباً في شقائهم وتشردهم، فإن هذه الفردية التي توارثوها من الماضي البعيد، والتي ما تزال عالقة بهم، قد أضرت بهم في الحاضر ومزقتهم وجعلت الشعوب المختلفة في أوروبا لا تطبق التعامل معهم، والعيش ورايهم.

وكذلك اضطر محمد إلى مقاومة اليهود ومحاربتهم لأن فرديتهم كانت تعارض إنسانيته الواسعة وحبّه للتعاون مع الجميع، وكما ضرب محمد اليهود وتشردهم، فعل بأهل مكة مثله ففضى على سلطانهم الوثني الذي كان رأس المقاصد في الجزيرة العربية.

وأول ضربة أصابت أهل مكة هي معركة بدر، التي انتصر فيها محمد انتصاراً عظيماً عليهم، ومع انتصار محمد فقد فشل في غزوة (أحد) التي وقعت بعد بدر بسنة واحدة، فإن هذا الفشل، كان من الهوان بحيث أنه كان موضعاً لم يضعف المسلمين، ولم يؤثر على معنوياتهم وسلاحهم.

معركة بدر

وحدث بدر أنه لما تقدمت قريش في ١٦ مارس من السنة الثانية للهجرة نحو (بدر) كانت المسلمون بانتظارهم في صفوف متراصة منتظمة، وكان رسول الله نفسه قد سوى صفوفهم، وثبت نفوسهم، وادخل في قلوبهم انهم الغالبون.

أقد كان أهل مكة بعدون الف مقاتل تقريباً والمسلمون لا يزيدون عن ثلث عدد خصومهم، ومع ذلك فقد اشتد عجب أهل مكة لما هجمت

خبلهم على المسلمين فلم يتراجع احد ، ولم يرتد شخص ، وثبتوا امامهم ثباتاً مدهشاً ، اقلقهم واخذوا يحسبون له الف حساب ، ثم عادوا الى صفوفهم لا يدرون كيف يفسرون هذه الظاهرة الغريبة التي شاهدوها من ثبات مشاة المسلمين امام عجوم الفرسان ، وعندئذ بدأت المبارزات الفردية ، وانتهت بانتصار المسلمين على اعدائهم ، ودام هذا حتى المساء ، وعندئذ اصدر رسول الله امره بالهجوم العام ، فلم يثبت اهل مكة مع كثرتهم امام المسلمين الا قليلاً وولوا الادبار ، فاركب على الارض سبعين فتيلاً ، ومثلهم من الاسرى ، ولم يخسر المسلمون الا اربعة عشر فتيلاً .

معركة احد

اما معركة احد التي حدثت بعد معركة بدر بسنة واحدة ، فقد كان عدد رجال محمد يقارب السبعائة شخص ، واهل مكة يقاربون الثلاثة آلاف مقاتل ، ولقد انجلت هذه المعركة عن فشل المسلمين لعدم تمسكهم بالامور التي صدرت اليهم وعدم تنفيذها حرفياً ، خصوصاً الرماة منهم الذين صدر اليهم الامر بالالبقاء في مراكزهم معها حصل ، ومما ثقلت محايير المعركة ، فسادروا مراكزهم لما شاهدوا المكين يتراجعون رغبة منهم في الحصول على نصيبهم من الغنائم والسلاح ، وقد فطن خالد بن الوليد الى الفراغ الذي احدثه في الدفاع الاسلامي انسحاب الرماة من اماكنهم - وكانوا يحمون مؤخرة المسلمين - فهاجم المؤخرة ، واتى المسلمين من خلفهم فكان الفشل .

ومن هذا يظهر لنا ان سلطان التعاليم الجديدة لم يكن قد بلغ الغاية من نفوس المسلمين العرب بحيث يفسهم عاداتهم الجاهلية ،

وحرصهم على عدم الانصياع للأوامر الصادرة ، ويحملهم على قبول النظام المفروض عليهم والذي لم يتعودوه قبلاً .

ولقد حاول أهل مكة بعد معركة بدر واحد ، القضاء على سلطات محمد فألبوا عليه القبائل وجمعوا الأحزاب وحصلوه في المدينة ، ولكنهم لم يوفقوا ، فاضطروا أخيراً إلى الاتفاق معه ، والاعتراف به كممثل لجماعة مثلهم سلطاناً وقوة ، وهذا الاعتراف منهم بسلطان محمد الذي حاولوا قتله لسنوات خلت ، كان ايذاناً باندثار سلطانهم واندحارهم ، وهو ما وقع فعلاً لما مشى محمد من المدينة إلى مكة على رأس عشرة آلاف من المسلمين ، ودخل مكة دخول الفاتح ، وانزل الأصنام عن الكعبة ، ودخل أهل مكة في الإسلام ، ولما عاد محمد إلى المدينة ، كانت مكة بلداً تابعاً لها ، بعد أن كانت مركز الحركة الدينية والتجارية والسياسية في الجزيرة قبل الإسلام .

ولما كان أهل مكة تجاراً اذكياء ، وجماعة من الأشخاص العمليين البارعين فقد أدركوا بعد أن تقبلوا الإسلام ، أن في بذور هذا الدين من الفوائد والسلطان والاحجاد الشيء الكثير ، فاطلصوا للدين الجديد اخلاصاً ملحوظاً نجد آثاره بثباتهم وعدم ارتدادهم بعد وفاة رسول الله وعند ارتداد العرب بعده .

فلما كانت الفتوحات كان سكان مكة أول من قدم القواد والحكام والامراء للبلاد المفتوحة الجديدة ، والدولة العربية الناشئة ، كما نرى بني أمية الذين كانوا من أشد الناس مقاومة لمحمد ودينه في أول الدعوة يقيمون باسم هذا الدين الجديد الذي انكروه أول الامر ، امبراطورية عظيمة عاصمتها دمشق ، بعد أن أصبحت المدينة العاصمة الأولى غير صالحة لأن تكون عاصمة الامبراطورية الواسعة الاطراف .

نشوء الدولة

وفاة رسول الله

أصبح اليوم الثامن من شهر ربيع سنة ٦٣٢ هـ جامعاً غائباً ، وأصبح الناس بين الساعة الثانية والثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم وبينما كانت الشمس قد أخذت تسير إلى مستقرها ، ونحاول أن نأخذ بغير ، يزدحمون حول المسجد النبوي في المدينة ويقفون حوله صغرفاً متواضعة ، لا يأبهون بشدة الحر ، ولذعة الهاجرة ، ولا يفتنون لشدةها ، وكأنهم في عالم آخر غير العالم الذي هم فيه ، وكانوا إلى ذلك جماعات عديدة ، بعضهم أخذ مكانه تحت أشجار النخيل القائمة حول المسجد ، والبعض الآخر استند إلى جدران المسجد القائمة ، والكل يتحدثون بصوت خافت ، والخطاب ظاهراً ملأ وجوههم ، واستولى على أفئدتهم وفكرهم . وكذلك كان يرى الناظر جماعة من البدو تروح وتغدو ، كما كانت هناك بعض النساء والأطفال في حالة عصبية لم تكن تظهر على الأطفال عادة ، ولكن هذا الجو الجامع الذي ملأ الفضاء ، جعل الأطفال أنفسهم على السكون والانكماش ، وعدم الأخذ بما يأخذون به عادة من لعب وهم ومرح .

كان كل شيء يدل على أن القوم ينتظرون حادثاً خطيباً مبعث فريباً ...

كما أن أصوات البكاء التي كانت تصدر من ناحية المسجد ، كانت تفسر

نوع هذا الحادث الخطير وأهميته .

وكان البيت الذي وقف حوله الناس ، أو أخذوا مكانهم على مقربة منه ، ملاصقاً للمسجد ، وكانه قطعة منه ، ظاهر البساطة ، صار بناؤه من حجارة لم تشذب ، وقطع من الطين المجفف ، وذلك في فترات متقطعة من الزمن ، ولم يكن البناء يعلو كثيراً عن طول الرجل المعتدل ، وأما سطح المنزل فقد صار صنعه من عسف النخل وبعض الطين بحيث يمنع ماء المطر من التسالي الى الداخل ...

وجلس خارج الباب الوحيد للمنزل اشخاص على مقاعد من الطين اقيمت على جانب الحائط ، وفي قمم وجوههم ما يدل على انهم ينتظرون خبراً من الداخل .

وفجأة وقف بلال يدعو الناس الى الصلاة ، فقاموا الى صلاتهم وما كان أشد عجبهم حين ساعدوا ابا بكر يصلي بهم ، وعندهم لساعات خلت برسول الله مكانه ...

هذا أدرك المسلمون ان رسول الله قد ساء مرضه واشتد ، ولولا ذلك ما كان ابا بكر القيام قيامه ، وأما رسول الله فكان متهدداً في بيت عائشة ، يغالب الحرارة وتغالبه ، وقد اشتد عليه الوجع ، وأخذت فواه تضجج شيئاً فشيئاً وهو ينظر الى السماء بعينه ، وكأنه يريد الصعود اليها بأسرع ما يكون من الوقت ..

والمواقع ان وفاة رسول الله كانت صدمة عظيمة للمسلمين ، حتى ان بعضهم وعمر منهم ابوا الايمان بان محمداً سيذهب عنهم ويغادرهم ، او ان الموت الذي ينزل بالناس سينزل بالرسول الكريم ، الذي خلقهم خلقاً جديداً ، ووجد صفوفهم ، والف بين قلوبهم ، وجعلهم امة قوية تستطيع ان تفرض سلطاتها في الارض ، وان تكون اذا شاءت وارادت في

مسألة الحكم

والواقع انه ما كاد ينتقل رسول الله الى الملائكة الاعلى ، حتى فطن المسلمون الى ظاهرة خطيرة تتعلق عليها مصيرهم ، ذلك ان رسول الله الذي لم يتوك صغيراً ولا كبيراً من شؤون الحياة ومطالبها الا بحسبها وعرض لها ، لم يعرض لمسألة الحكم بعده بقليل ولا كثير ، وكما ان القرآن لم يعرض لهذه الناحية الخطيرة ، فكذلك اغفل رسول الله هذا الامر الخطير ليس بصفته رسولاً فحسب ، وانما بصفته مؤسساً لدولة عربية جديدة ، المفروض في مؤسسها ان يعرض لولاية العهد من بعده ، حتى لا تكون فوضى ولا اختلاف . .

بعرض المستشرقون هذه الناحية فيذهبون المذاهب في تأويلها ، فيقول بعضهم : اكان سبب هذا الاغفال ان رسول الله لم يبحث مسألة مونه كمسألة عملية قريبة ؟ ، خصوصاً وان احداً في المدينة كما يظهر - وكما ثبت من موقف عمر بن الخطاب والكاره مسوت رسول الله - لم يكن يفتن الى ان رسول الله ذاهب لمآبه ، على الاقل بمثل هذه السرعة ؟

وسواء اكان رسول الله قد نجح في بحث مسألة الحكم المقبل حتى لا يشير اختياره سابقة سنة من بعده فيختار كل خليفة من يشاء من رجاله واصحابه واهله ، ام خشي الفتنة بين اصحابه ، والاسلام لا يزال طويلاً ليناً ، ام استقر رأيه على ان الخلافة ليست من العقائد الاساسية الاسلامية في كثير ولا قليل ، فتترك الامر للمسلمين يختارون من يشاؤون نجيباً لتفضيل واحد من اصحابه على الآخر ، فان الواقع ان

رسول الله لم يعين خلفه من بعده ، وأنه وقف من اعلاه واصحابه موقفاً واحداً ، فترك للجميع حرية الرأي والاختيار .

وكان موقف رسول الله سليماً مكيئاً ، فالمسلمون عند الله وعند غيره سواء ، لا يفضل احدهم الاخر الا بما يفضيه من خدمات للمصلحة العامة ، والعصبية الى هذا كانت لا تزال قوية عند العرب ، فقد كان هناك الانصار والمهاجرون ، وكل يريد الحكم لنفسه ، وكان الانصار والمهاجرون في الوقت نفسه ينقسمون فيما بينهم ، فكان الانصار يضطربون في حزبين ، الاوس والخزرج ، والمهاجرون ينقسمون مثلهم الى حزبين هاشم وامية ، وكانت الروح العربية كما قدمنا لا نعرف غير رابطة القبيلة التي هدمها الرسول وانكرها ، ولكن تعاليمه هذه لم تكن قد بلغت الغاية من نفوس القوم ، وكان لابد لها من الوقت الطويل لتجمل ثمارها ، كل هذه العوامل باعترافنا حملت رسول الله على تأخير بحث مسألة الحكم من بعده للساعة الاخيرة ، فلما كانت الساعة الاخيرة ، غلبه الوجع ، واشتدت عليه الحمى ، فذهب الى رحمة ربه ملقياً على المسلمين انفسهم مسؤولية خطيئة عظيمة .

والواقع انه ما كاد يعلم الناس بموت رسول الله حتى ظهر الاختلاف ، واول ما ظهر الاختلاف بين المهاجرين والانصار الذي آخى رسول الله بينهم ، فقد رفض الانصار النزول تحت حكم المهاجرين وقرروا اختيار امير منهم ، كما رفض بنو هاشم في الوقت نفسه قبول حكم شخص غريب عنهم ، واما موقف العرب الذين اسلموا مؤخراً في اطراف الجزيرة فقد رفضوا اداء الجزية ، وبعضهم ثار على الحكم الاسلامي ، والبعض الآخر انكر الاسلام . واما بنو امية فلم يجرؤوا ساكناً ، وهم زعماء مكة ، ووقفوا يرقبون الفرصة ، وينظرون الى الريح ...

الخليفة الاولى

وكان ابو بكر احب الناس الى المسلمين في ذلك العهد ، وليس سبب ذلك مركزه عند رسول الله ، وحب الرسول له ، وتكليفه بالصلاة مكانه في مرضه ، وانما مورد هذا الحب كريم خلقه ودمائه اخلاقه ، وجميل صفاته ، وصدقه واخلاصه ، وكبر سنه ، وكبر السن عند العرب اذا كان الشخص المختار حائزاً لبعض الصفات التي ذكرناها ، من اوكد الاسباب لاختياره وتوحيده .

والواقع ان عمر بن الخطاب في تسرعه ببايعة ابي بكر في سقيفة بني ساعدة قد حدد الموقف (١) واحداث اعظم انقلاب عرفه التاريخ ، لقد كان ابو بكر يرغب في الخروج من هذا الامر لا عليه ولا له ، كان كل همه ان يخرج الاسلام من هذه الساعة الجاهمة وهو اقوى سلاحاً ، واعظم سلطاناً ، وكان لا يرى كبير امر في اختيار عمر بن الخطاب او ابي عبيدة عامر بن الجراح لتولي شؤون العرب المسلمين ولكنه ما كاد يدعو الناس الى اختيار احد هذين الرجلين حتى صاح عمر منكراً منه موقفه هذا ، قائلاً : ان احداً لا يتقدم عليه ، ثم طلب منه ان يبسط يده ، فبسط يده وبايعه الانصار ، دون ان يفتن ابو بكر الى اهمية هذا الحدث الخطير ، ودون ان يفتن عمر في الوقت نفسه الى ان مصير الاسلام السياسي كان معلقاً بهذه المبايعة وافرارها على الوجه الاكمل والاحسن ، ولو ان الناس بايعوا احد الانصار ، او اختلفوا ، لتمزق الاسلام ، وهذه العصية التي كان عمر مشهوراً بها ، والتي كانت

(١) انظر الطبري وابن الاثير واليعقوبي والبداية والنهاية ، والمسعودي في مروج الذهب ...

تظهر اماراتها فيه حين يرى مخالفة من بعض الناس لما يعتقد حقا
 وواجبا ، كانت لفظة مباركة للقضية الاسلامية والوحدة العربية يوم
 السقيفة (١) لانها مكنتهم من تسوية قضية الحكم بسرعة ، ليتفرغوا
 صفاء واحدا لمواجهة الخطر ثورة داخلية عرفها الاسلام في تاريخه واول
 نشاته ...

ومن غريب امر عمر بن الخطاب انه لما تولى الخلافة ، مهدت عصبية
 وزالت سرعة لفتاته ، وحل محلها الاعتدال وضبط النفس ، بحيث لم يشهد
 العالم منه في عهده موقفا استعمل فيه عواطفه واجراها في وجوه الحكم
 والسلطان .

وفي اليوم التالي بايع الناس ابا بكر في المسجد وتخلف عن البيعة
 سعد بن عباد زعيم الاوس ، وعلي بن ابي طالب وبعض بني هاشم ،
 فكانت هذه المبايعة دستوراً جديداً للدولة الجديدة ، وهذا الدستور
 يقوم على انتخاب الخليفة من وجوه الناس في العاصمة ، وموافقة الناس
 في الامصار على هذا الاختيار بعد ذلك .

حروب الردة

وما كاد يعلم عرب الجزيرة بموت رسول الله حتى ارتد بعضهم عن
 الاسلام ، واستقل البعض الآخر وابى ربط مصيره بمصير الدولة
 الجديدة ، وكان موقف الخليفة الاول من المرتدين والثائرين العرب
 موقفاً موقفاً فلو تساهل في شيء من امور الدين معهم لفسد الامر ،
 ونصدت اصول الاسلام ، وكان ابو بكر الى ذلك رجلاً مؤمناً كل

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابنا عمر بن الخطاب مع ذكر جميع المصادر
 والشواهد ...

الايان برسالة محمد ودين محمد ، وكان هذا الايمان الذي ملك عليه عواطفه وقلبه من اكبر العوامل في نجاح سياسته ، وانتصار جيوشه ، خذ مثلاً ارساله لجيش اسامة بن زيد الى مشارف الشام مع حاجة العاصمة ومكة الى هذا الجند بسبب الثورة التي غمرت الجزيرة من اقصادها الى اقصادها ، فان ارساله لهذا الجيش مع قيام هذا الخطر الداهم - لان رسول الله امر بالفاذ هذا الجيش قبل وفاته - لم يكن من الحكمة العسكرية في كثير ولا قليل ، ولكنه كان عملاً رائعاً يدل على صلابه في العقيدة نهار امامها الجبال ، وهذه الصلابه في العقيدة ، وهذا العناد في الايمان ، مكتسباً ابا بكر من تحضيد الثورة ، لانه بث روحه في قلوب جنوده ، فحصلوا ايمانه منهم ، وهزموا عدوهم وهم فئة قليلة لان ايمانهم كان شيئاً فوق الوصف وفوق التصوير ...

وكذلك رأينا ابا بكر يقف ثابتاً امام ما يعتقد حقا بصرف النظر عن خطورة الموقف ، واضطراب الحال ، ومن المعارم ان الصلابه في الخطأ افضل من التردد في الحق ، وبذلك فازت سياسة الخليفة الاولى ونجحت .

فلما انتهت حروب الردة بانتصار الجيوش الاسلاميه ، خرجت جزيرة العرب من ثورة داميه ، لعب فيها التدمير دوراً عظيماً ، مما اهاب بالخليفة الاول الى ارسال هذه الجيوش التي نزلت قمح الفئ ، مع من يريد الانضمام اليها من رجال القبائل شرط ان لا يكونوا ارندوا عن الاسلام ، الى غزو البلاد المجاورة ، تمكيناً للدولة العربية الجديدة ، وعملاً بسياسة الرسول من نشر الاسلام والدعوة له .

ولما كان الاسلام قد وجد الصفوف في الجزيرة ، ومنع الغزو والاعتداء ، ولما كانت حروب الردة قد افقرت كثيراً من القبائل ،

فقد رأى الصديق فوق رغبته في نشر الاسلام ، ان الحالة الاقتصادية تدعو الى توسع القبائل العربية وتزويها على المواطن الحصة التي كانت حولها .. (١)

ولكن الاسباب الاقتصادية وحدها لا تكفي ، وما نعلم ان مثل هذه الاسباب قد مكنت امة من الامم من انشاء دولة عالمية ، ثم ان العرب كانوا اضعف سلاحاً ، واقل جنداً من الامم المجاورة ، وما كان بطرق العرب والحالة هذه محاربة سوانهم ، او مهاجمة جيوشهم ، لولا الاسلام الذي وحد صفوفهم ، وخلق فيهم روح القومية بدلا من روح القبيلة ، ثم اعطاهم شيئاً ما كانوا لولاها ليطفروا او ينجحوا وهو الايمان ..

يقول بعض المؤرخين ان السياسة طغت على الدين في اول الفتحوات وان الرغبة في السيطرة والحكم كانا اقوى من الفكرة الروحية ، ويضربون مثلاً على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وهما من اكبر القواد العرب ، فان الروح الدينية عندهما كانت ضعيفة لينة ، ومع ذلك فقد فتحا الفتحوات ، وبسطا سلطانه الاسلام ، واذا فيها فد فعلا ذلك بدافع الوطنية والعصية لاعلاء مجد العرب لا بدافع ديني ، وهذه الفكرة خاطئة جداً لان المفروض فيها الحكم على شيء مجهول ، فما الحجة التي لا تدفع والتي تؤيد ان خالد بن الوليد كان قليل الايمان ؟؟ وانه لما فتح الفتح ، وضحي بنفسه في المعارك بدافع سياسي زمني ؟ لا بدافع ديني .

ثم ما قول عزلاء المؤرخين بعمر بن الخطاب ، وما قام فتسح الا

(١) هذا ما يذهب اليه كثير من المؤرخين المشرقين ، الذين يحملون الاسباب الاقتصادية اساساً للزحف العربية ولكننا نذهب في هذا مذاهباً وسطاً ، فنقول انه من جهة الاسباب .

بأمرة ، ولا سار جيش الا بأذنه ، اكان قليل الايمان ، فعل ما فعل في
سبيل السيادة والسيادة العربية ٧٧

اما القول بان الذين قادوا الجيوش وفتحوا البلاد كانوا اقل ايماناً
من سواهم ، فليس الايمان بظواهره الخارجية ، وانما هو بالعمل والافعال ،
ونحن امام الافعال واعمال لا سبيل الى انكارها ، وامام تضحيات في
سبيل نشر الدعوة ، غدت ارض الفتوح من مشرق الارض الى مغربها
بدماء الشهداء من العرب المسلمين ..

ومن المؤكد عندما ان الفتوحات قامت بدافع من الدين والوطنية
معاً ، فبعض القبائل العربية في المراكز كانت تنادي بعض الاحياء
بشعارها في الجاهلية ، وكانت تحارب متمسكة مستقلة ليظهر خطرهما ،
وتذهب بفخر النصر دون سواها ..

معركة ذي قار وانما

خذ مثلاً معركة ذي قار التي وقعت بين العرب والفرس قبل الاسلام
وفي الجاهلية ، فقد غلب فيها العرب الفرس ، وكان لهذا الانتصار العربي
نتائج بعيدة المدى في الاسلام .

وقد دلت معركة ذي قار على ان العرب كانوا ينعمون بحركة اجتماعية
انسانية عظيمة ، ولكن هذا الشعور ظل فردياً لا يعرف الظهور حتى
جاء الاسلام فوحد العرب ، وجمعهم ، وافضى اليهم بروح وطنية
جديدة ، وكان له الفضل الاكبر في الدور الذي لعبه الشعب العربي في
الحضارة العالمية .

وكانت قبيلة بني شيبان قد انجلت منتصرة في معركة ذي قار ، فلما
كان الاسلام وانتقل رسول الله الى ربه ، اخذت هذه القبيلة بزعامسة

كبيرها المشي بن حارثة الشيباني تحارب الفرس على حدود العراق ،
بسبب الفخر الذي ناله من انتصارها الاول ، والقوة الجديدة التي نفخها
الاسلام في حدود ابنائها وكبارها .

وكذلك نرى ان بني شيبان كانوا اول من غزا الفرس في الاسلام
من العرب ، حتى اذا انتهى امر الردة وجه ابو بكر الجيوش لمساعدتهم
بقيادة خالد بن الوليد القائد الذي لم يغلب في المعارك الكثيرة التي
نشبت بينه وبين الفرس ابداً ...

لقد سحق العرب الفرس في معركتين (القادسية) و (نهاوند) ،
وسحقوا الروم في معركة واحدة (اليرموك) ووصلت الفتوحات العربية
في ايام عمر بن الخطاب واول عهد عثمان بن عفان وذلك في الشرق الى
نهر جيحون الذي كان يفصل بينهم وبين القبائل التركية وبلاد الترك ،
واما غرباً فوصل العرب الى اواسط افريقيا واستولوا في اقل من
خمس عشرة سنة على كل بلاد فارس والافغان وسورية ومصر ،
وافريقيا ، وهو حادث عجيب طبعاً ، ولم نعد الفتوح الى سابق عهدها
وكانت قد توقفت في عهد عثمان بسبب الاختلافات الداخلية ،
إلا في عهد الوليد بن عبد الملك لما اخذ قتيبة بن مسلم يتقدم نحو خوارزم
وبلاذ ما وراء النهر ، حتى اخضعها وفرض على اهلها ضريبة قدرها
مليوناً قطعة ذهبية واقام في خوارزم مسجداً متواضعاً صلى فيه بعد ان
كسر الترك واجلامهم ، وما زال هذا شأنه حتى وصل الى بلاد الصين ،
وفرض الجزية على ملوكها .

وفي الوقت نفسه كان محمد بن القاسم القائد العربي الشاب يقتحم
حدود الهند ، وفرض على اهلها الجزية والاسلام ، وهذا في الشرق ،
واما في الغرب فان موسى بن نصير وطارق بن زياد راحا يذهبان بلاد

الاندلس الى الدولة العربية ، وبفكر ان بالمضي بفتوحها في بلاد فرانسا
والمالبا ...

وعند الفتوح الاسلامية العظيمة التي وقعت بهذه السرعة العجيبة ،
كانت شيئاً لم يسبق له مثيل في التاريخ ، حتى قال الكثيرون ان العرب
فتحوا في ثمانين سنة - غير متصلة ولا متتابعة - اكثر مما فتح الرومان
في ثمانمائة سنة ، وكان قائلون بقول : ان العرب فتحوا نصف الدنيا في
نصف قرن . وقائلون الذي كان ينظر الى الحوادث من الناحية
العسكرية ، كان يذهب الى ان العرب قبل الاسلام كانوا ذوي بصائر
بالحرب وخبرة عظيمة ، وان حروب القبائل العربية بعضها مع بعض
كانت قد ساعدت في تنظيم افرادها وتدريبهم الى الحد الذي صيرهم امة
مخاربة من الدرجة الاولى ...

وكان قائلون من المعجبين بحمد الذي خلق هذه الامة العجيبة
اعجاباً عظيماً حتى راح في فترة من الزمن ، ووفقاً للمصادر التي بين
ايدنا يريد الدخول في الاسلام ، وحمل جيشه في مصر على مثل ذلك .

العربي

ثم ان العربي نفسه وقد خلقه الاسلام خلقاً جديداً اصبح قوة
عظيمة ، فهذا البدوي الذي يعبر على الصحراء وحياتها المرهقة ،
ومطالبها القاسية ، وعنائها الشديد ، ولا طعام له سوى اللبن والتمر
احياناً ، مما لا يطيقه غيره ، ولا يتحمله سواه ، ثم يأتي الاسلام فيثبت
فيه روحاً جديدة ، ويخلق خلقاً جديداً ، سهل عليه ولا شك ان يقف
وحده في وجه العشرة من جنود الفرس والروم ، ولا عجب اذا
كان بضعة آلاف من هؤلاء الاشداء الحشنين قد عصفوا بمئات الآلاف

من جنود الدور الرومانية التي كانت تقيد جنودها وتصفدهم لثمنهم من
أقرب والفرار .

هذه الحياة في الصحراء التي كانت تعرض صاحبها ومن يعيش فيها
للبيوار والهلاك في كل لحظة ، كانت تجعل من العربي كما قدمنا رجلاً يرى
الحياة ولا قيمة لها ، فإذا أضفت الى هذا فعل العقيدة والايان الراسخ
بحياة اخرى - حملها الاسلام اليه - وهي اطيب واعز واكرم ، فهل
يستغرب احد ان هؤلاء البدو الحفاة ، الذين لا يملكون إلا السيف
والرمح والايان ، اكتسحوا دولاً كبيرة وبمالك عظيمة ، وهدموا بناء
كان يبدو شامخاً قائماً .

وكذلك نرى ان الايمان الجديد مكن العرب من الخروج من
جزيرتهم الى البلاد التي حوهم ، ثم انحدروا على العالم المتقدم في زمنهم
كما ينحدر السيل الجارف فاغرقوه ، ولم يفرقوه فقط ، ولم يفتحوا
البلاد ويحكموها فحسب ، بل قلبوها عربية خالصة ، وإذا كان الفرس
قد استطاعوا ان يحتفظوا ببعض صفاتهم وخصائصهم وروحهم القومية
- مما لم يستطع البيزنطيون مثله - لأن الفرس كانوا أكثر صلابة في
وطنتهم من البيزنطيين ، يضاف اليه ان البلاد التي فتحها العرب من دولة
الأكسرة كانت فارسية واهلها من الفرس على خلاف ما فتح العرب
من بلاد الدولة الرومانية ، فانها كانت اجنبية لارومانية ولا بيزنطية ،
فبقاء الشعور القومي في بلاد فارس طبيعي ومعقول والفتح لا يمكن ان
يقتله ، وانعدام مثل هذا الشعور فيما فتحه العرب من املاك الدولة
الرومانية معقول ايضاً ، لأنه لم يكن هناك في الاصل ، وهذا بقيت
فارس شوكة في جنب الدولة العربية .

الجزيرة العربية والعاصمة الجديدة

ولكن الصحراء التي جعلت من هؤلاء القوم جماعة أشداء أقوياء لا يأبهون للموت ، ولا يفتنون للحياة والنعيم والترف ، لم تكن تصلح لأن تكون مقر الدولة العظيمة التي أخضعها أبناؤها ، وفتحها شبابه . نعم تستطيع بسهولة أن تحتفظ باستقلالها وعزتها ولكنها لا تقوى على حكم انظار أخرى بعيدة كالشام والعراق ومصر . وقد بقي الحجاز مقر الدولة العربية في صدر الاسلام وعلى عهد الخلفاء الراشدين ولكن هذا كان زمن التوسع والامتداد ، لا زمن الاستقرار والنظام الدائم ، فلما انتهت الفتوح أو معظمها وأهمها ، وصارت الفتوح بعد ذلك عبارة عن توسع طبيعي لدولة مستقرة تفرج ما انت من نفسها من القوة والبأس والشوكة بالتوسع والزحف ، وتدفعها مقتضيات المحافظة على ما في اليد الى هذا الزحف ، صارت جزيرة العرب لا تصلح أن تكون هي مركز الدولة ، أما في زمن أبي بكر فقد كانت الحاجة تدعو الى توطيد الامر في قلب الجزيرة أولاً ، قبل امكان التفكير في غيرها . وأما في زمن عمر فقد كانت الجيوش تزحف فلا يعقل أن تنقل العاصمة قبل أن يستتب الأمر . نعم فتحت البلاد في عهده ، ولكن الفتح يستدعي التمكن والتوطيد أولاً . ثم إن عمر آ كان يشق عليه أن يخرج من الجزيرة ، وكانت صلته بالنبي عليه الصلاة والسلام اوثق من أن تسمح له بتترك الجزيرة حتى ولو كان كل شيء قد استقر وانتظم . ولم يكن قد عاش في الشام أو مصر أو العراق حتى تبدو له مزية التحول بقاعدة الدولة الى جهة أخرى . وأما زمن علي وعثمان فقد كان زمن اضطراب وتزعاج وانقسام ، وكان هذا حسيبها شاغلاً عن اقامة مركز الدولة اقامة ثابتة نهائية في

مكان آخر غير الحجاز . ولما انتهى النزاع بفوز معاوية كانت هذا قد ادرك منزلة البلاد الأخرى وعرف فضلها كمر كثر للملك ومقر للدولة التي سادها بفضل ما تولى منها في الفترة السابقة .

وبلاء جزيرة العرب أنها مجدية فاحلة ، فإذا امتدت لها رقعة ملك أهلها إلى التحول عنها إلى غيرها ، لأن الحياة في غيرها تكون أرغد والعيش أطيب . والمرء يحن إلى الراحة والدعة مهما بلغ من اعتياده الحشونة والمشقة والشظف ، وفرق بين هجرة تدعو إليها كثرة السكان ، وهجرة تدعو إليها الفاقة والخل . ولا بد لبلاد تريد أن تكون مقر دولة كبيرة أن تكون هي ذات موارد كافية إلى حد ما . ولهذا لم يكد العرب بفتحون الأفطار المجاورة حتى كثرت هجرتهم إليها طلباً للرغد والراحة ، ومن ألف التنقل وكثرة الرحل من ناحية إلى أخرى انتجاعاً للرزق لم فشق عليه الهجرة إلى بلاد بعيدة لأنه لم يزل ابداً مهاجراً في قلب بلاده ، وما دامت الدولة واحدة في الحجاز ومصر والشام والعراق فأخلق بهذا أن يكون مشجعاً على الهجرة ومستحسناً على النزوح .

وما بلغت النظر في أمر الجزيرة وسكانها أن القبائل العربية البدوية لم تقبل الإسلام في أول الأمر عن طيبة خاطر وعن اخلاص ، وهذا يفسر قوة الردة بعد وفاة رسول الله ، ولكن أبا بكر عرف كيف يعلم العرب الثائرين أن سياسة الرسول التي تدعو إلى الوحدة القومية ، وربط قبائل العرب بعضها مع بعض هي سياسة خلفائه من بعده ، وبعد انتهاء حروب الردة لم يبق في جزيرة العرب جماعة ثائرة ، ولا قبيلة عاصية ، فأصبح من حق أبي بكر والحالة هذه أن يفكر في اقرار سياسة الرسول خارج الجزيرة ، وتوحيد العرب المقيمين على أطرافها وفي الأمصار القريبة منها والذين كانوا تحت حكم الروم أو الفرس .

وما كان أبو بكر ليستطيع ذلك لولا ما تم له من النجاح في الجزيرة ،
لأن الأمة التي تعجز عن توحيد نفسها لا تستطيع الغلبة على غيرها ،
والظفر على سواها ، وكان هناك أمام الخليفة الأول ، طريق بضرب
نحو الشمال ، وآخر نحو الشمال الشرقي ، فما تأخر في إرسال الجنود على
الطريقين ، وضرب الروم والفرس من جهتين .

وكذلك نرى أن المسلمين الذين لم يكونوا في معركة بدر يشككون
قوة يزيد عن ثلاثمائة مقاتل ، والذين أصبحوا في غزوة تبوك ثلاثين ألفاً ،
قد استطاعوا في الحروب الأولى وفي عهد الخليفة الأول أن يجمعوا ما
لا يقل عن مئتين ألف جندي لمحاربة الروم والفرس معاً .

وأما القول بأن أبي بكر لم يكن يتعمق بفكرة واضحة مقررّة في
هذه الزخوف ، وأنها كانت مجرد غزوات لاشغال العرب ، فمردود بالأوامر
التي أصدرها إلى قواده الأربعة لما وجههم إلى الشام ، وأمر كل قائد منهم
على حكم البلاد التي ينجح في الاستيلاء عليها ...

وإذا كانت جزيرة العرب قد خسرت سيادتها السياسية في عهد علي
بن أبي طالب لما نقل عاصمته إلى الكوفة ، وفي عهد الأمويين لما نقلوا
عاصمتهم إلى دمشق ، فإنها احتفظت بسيادتها الدينية ، وما تزال تحتفظ
بها حتى اليوم .

والواقع أن الزخوف الأولى التي قام بها سكان الجزيرة أفقرتها من
الرجال ، لأن كثيراً من أهلها بعد الزخوف الأولى استقروا في الأمصار
المتنوعة ، فخسرت الجزيرة والحالة هذه لبس فقط قسماً كبيراً من
سكانها ، وإنما خسرت أيضاً أذكى رجالها الذين وجدوها ضيقة على
مواعينهم ، ورأوا في الأمصار الواسعة والأنهر القائمة حول الجزيرة ميداناً
واسعاً لنشاطهم .

وانتقد حاولت الجزيرة استعادة مركزها السياسي بواسطة
عبدالله بن الزبير فلم توفق ، وبقتل عبدالله بن الزبير سنة ٦٩٢ ميلادية ،
انتقلت السيادة السياسية الى دمشق ، ومنها الى بغداد في عهد العباسيين ،
ثم الى منازل اخرى من المدن العربية ، ولكنها لم تعد الى الجزيرة ابداً .



تمثل هذه الصورة فارس روماني في العهد العربي ..

النظام السياسي للدول العربية

الخلافة

ذهب السلف الى ان اساس كل حكم في الاسلام ، الخلافة ، او
الامامة العظمى ، ، وجروا في تعريف الخلافة على انها رياسة في امور
الدين والدنيا لباية عن رسول الله ، وان منزلة الخليفة من الامة ، منزلة
رسول الله من المؤمنين ، له عليهم الولاية العامة ، والطاعة التامة ، وله
حق القيام على دينهم ، فبقيم فيهم حدوده ، وينقل شرائعه وله حق القيام
على شئون دنياهم ايضاً ، بيده وحده زمام الامة ، فكان ولاية مستمدة
منه ، وكل خطة دينية او دنيوية منفردة عن منصبه ، فهو الحاكم الزماني ،
وهو الحاكم الروحي .

والخلافة شيء جديد لم يكن قبل الاسلام ، وليست مبعثة عن نظام
سياسي سابق ، ولكنها شيء نشأ بعد وفاة رسول الله ، واول من تلقب
بهذا اللقب ابو بكر الصديق الخليفة الاول في الاسلام ، وتوارث هذا
اللقب من جاء بعده من امراء المسلمين .

وقد ذهب كثير من المستشرقين بقولهم ان الخلافة ونظامها يسارقان
نظام الامبراطورية الرومانية المقدسة الذي نشأ في اوروبا في العصور
الوسطى ، وراح بعضهم يحاول التفریب بين النظامين ، والتأليف بين
المذهبيين ، ولكن الواقع ان الخلافة شيء ، والامبراطورية المقدسة شيء
آخر ، وقد فطن الى الفوارق العظيمة بين المذهبيين والنظاميين السر

توماس ارنولد في كتابه الخلافة فقال : (١)

« لما صرح البابا اينوسنت الثالث بان المسيح قد استودع بطرس الرسول شؤون الكنيسة العالمية ، وحكم العالم كله ايضاً ، اعلن مذهب الدين العالمي الذي كانت ندعو اليه الكنيسة منذ نشأتها ، ومن هنا نشأت فكرة الامبراطورية الرومانية المقدسة التي يكون الامبراطور فيها امبراطوراً عالمياً ، وحاكماً مرشداً لشؤون المؤمنين الديوية بسلطات واسعة جداً حتى تعم سلطته العالم كله .

« والاسلام كذلك دين عالمي ، يدعو جميع الناس الى الايمان بالله ورسوله ، او يدفعون الجزية كمشعوب خاضعة للسيادة الاسلامية التي يشرف عليها سياسياً ودينياً الخليفة .

« ومع وجود فكرة او مبدأ السيطرة العالمية بين المذهبين فانها يختلفان فيما بينهما من حيث ان الامبراطورية الرومانية المقدسة لم تكن مستحدثة الوجود ، وانما هي منبثقة عن امبراطورية وثنية سابقة ، كما نجد فيها حاكماً كمين احدهما (زمني) وهو الامبراطور ، والاخر (روحي) وهو البابا ، واما الخلافة فنظام مستحدث ، ووليد ظروف واحوال نشأت عند وفاة رسول الله ، والخليفة الى ذلك حاكم سياسي وديني ، ولكن وظيفته الدينية لا تتعدى المحافظة على الشؤون الدينية المقررة في الاسلام ، وليس له صلاحيات دينية كهذه التي يتمتع بها البابا ، من عصمة وغفران للخطايا ، فان مثل هذه الامور ليست من شأن الخليفة في كثير ولا قليل ، وانما هي شيء يتعلق بين المرء وربه ، والله وحده عند المسلمين يغفر ويصفح ويمحق الذنوب .

« ولما نتكر ان الخليفة كان يتمتع بصلاحيات سياسية عظيمة ،

(١) السر توماس ارنولد « الخلافة » (لندن)

ولكن صلاحياته الدينية كانت ضعيفة جداً - وهذه هي نظرية السنة في هذا الموضوع - وان كان الشيعة يذهبون الى ان (الامام) وهو ما يطلق على الخليفة في نظرهم ، يجب ان لا يفوض امره الى نظير الامة ، وان الامامة وكن من اركان الدين ، لا يجوز لشيء اغفاله ولا تفويضه الى الامة ، بل يجب عليه تعيين الامام لهم ، وان يكون هذا الامام معصوماً عن الكبائر والصغائر .

الخليفة

واذاً فنظرية الشيعة في الامامة اوسع وابعد مدى من نظرية السنة فيها وهي عندهم ملكية قائمة ، ووراثية دائمة ، وهي اصل من اصول الدين والامام معصوم في نظرهم ، واما الخليفة عند السنة ، فرجل من عامة المسلمين صار اختياره لهذا المنصب لفضله وشرفه واختلافه ومقدوره على الاخطلاع باعباء الحكم اذ لا ينص من رسول الله على خليفته ، والحديث الموضوع المتعلق بان الخلافة في قریش ، ظاهر التحريف والوضع ، ولو كان صادراً عن رسول الله لعرف به الصحابة وانصاره ، ولأحتج به ابو بكر وعمر يوم السقيفة ، ولا كان اجتراء الانصار على المطالبة بالامارة ، ونحن نوبأ بالانصار وقد نصرنا رسول الله وابدوه ان يطلبوا الخلافة لأنفسهم ، وهم من غير قریش ، وهذا الحديث معروف بينهم ، ورسول الله لما بدفن ، ولما يوارى التراب ... وكذلك نرى ان الخليفة عند السنة (١) رجل كغيره من المسلمين

(١) والسنة هم الاكثرية الساحقة من المسلمين ، لان الشيعة لا يمدون اكثر من ٤ مليوناً ، واذا انشأ اليهم بلية الفرف لم يزيدوا عن عشرين مليوناً يبقى في العالم ما يزيد عن ٢٥٠ مليوناً من السنة . - دائرة المعارف الاسلامية - الطبعة الانكليزية -

لا يستطيع ان يتقدم او يتأخر عن ما جاء في القرآن الكريم ، واقرنه
الاحاديث الموثوقة ، وليس هو افضل من غيره من المسلمين إلا بالعمل
الصالح ...

واكثر صلاحيات الحقيقة التي انعقد عليها الاجماع كالصلاة بالمسلمين
اماماً في المسجد مثلاً ، وقيامه فيهم خطيباً يوم الجمعة ، لا يستقل فيها
وحده ، بل يستطيع اي مسلم القيام بها ، اذا وضيت به الجماعة
الاسلامية ، ذلك ان الاسلام لا يعرف نظام الكهنوت ، ولا يقره ،
وليس هناك فئة من المسلمين تستطيع القيام بعمل معين من اعمال الدين
لا يستطيعه غيرها من المسلمين ، والعلماء في الاسلام جماعة انصرفوا الى
دراسة الشؤون الدينية ، والعلوم الفقهية ، وليس لهم صلاحيات خاصة
بين الناس بسبب تجردهم هذه الدروس ، وليس هناك نص في القرآن
ولا حديث مشهور يجعلهم فئة خاصة ، لها امتيازاتها وحقوقها ، وانما هم
جماعة انصرفوا لهذا العمل بمثل ارادتهم ، واحترامهم الناس لعلمهم
وفضلهم - كما احتراموا غيرهم من العلماء الذين حذفوا الفنون والمعارف
الاخرى وتخصصوا فيها - لا لأنهم يؤلفون هيئة معينة دينية خاصة ،
تستحق هذا الاحترام والاجلال .

وما يقال في العلماء يقال في الائمة الذين يصلون بالناس ، ويلقون
الخطب الدينية يوم الجمعة او يدرسون في المساجد المختلفة ، فهؤلاء صار
تعيينهم لهذه الوظائف - التي قد يستطيع القيام بها كل مسلم صالح لها -
في العصور المتأخرة ، بعد ما روي من المناسب اختيار امثالهم ، ليكون
الختار المكلف بهذه الاعمال حاضراً في المسجد وقت الصلاة ، فلا تتأخر
الصلاة ربما يختار المصلون من يصلي بهم اماماً ، وكذلك الحال في
صاحب خطبة يوم الجمعة ، فانها لما تحتاجه من استعداد سابق ، روي ان

يكلف بها شخص معين ، ليكون مستعداً لالقاءها في أوقاتها ، لا انت
بتوك الامر للعالمين ، وقد لا يكون بينهم من هو على استعداد للخطابة
والوعظ والارشاد في الوقت المعين ...

واذاً فالخلافة في الواقع مع حفظها الدينية الضيقة ، لا تنعم بشيء من
الصلاحيات الدينية ، وما يعطيه هذا المنصب لصاحبه من صلاحيات
دينية ، لا يرفعه عن غيره من المسلمين ، لان هذه الصلاحيات هي سواء
عند الجميع ، لا تتعلق به وحده ، في كثير ولا قليل .

وكذلك تختلف الخلافة عن الامبراطورية الرومانية المقدسة من
حيث ان الاخيرة قد انهارت واندثرت ، وقد انهارت واندثرت ولفظت
انفاسها ، قبل ان يعلن نابليون في سنة ١٨٠٦ انه لا يعترف بوجودها ،
وليس هناك اليوم احد من ملوك الفرنجة يفكر في بعثها ، واما الخلافة
فانها اذا لم تكن قائمة فعلاً عند المسلمين بعد ان صار الغائب في تركيا
- في ٣ آذار ١٩٣٤ - فانها امر يفكر به الجميع ، ويعمل له الجميع .

ديموقراطية

ومن المؤكد ان السبب في هذه النظرية الخاطئة التي فشت بسبب
المستشرقين من وجود ملاية عظيمة بين الخلافة والامبراطورية
الرومانية المقدسة تعود على الارجح الى ان المستشرقين نظروا الى
الخلافة ، نظراً الى البابوية ، ويقول (اونولد) في كتابه الخلافة حين
يبحث هذا الامر ما يأتي :

« ان العقيدة الاسلامية المتعلقة بالله وصفاته تختلف اختلافاً عظيماً
عن الصفات الالهية في الدين المسيحي ، فالاسلام يعتبر صفات الله ، شيئاً
خاصاً بالله دون غيره من المخلوقات لا يشاركه فيها احد ، ولا يتعلق

بعضها احد ، وهي الى ذلك تربط العلاقات بين المسلم وربه ارتباطاً
يختلف كل الاختلاف عن العلاقات المقررة بين المسيحي والله في الدين
المسيحي ، والسنة في الاسلام - وهي ما وافق عليه اكثرية المسلمين - تقرر
ان احداً من المسلمين لا يستطيع ان يقول انه اقرب الى الله من غيره ،
وكل المسلمين سواء في طاعة الله والانقياد لاوامره ونواهيهِ وتقديم
العبودية له على وجه يخالف كل المخالفة ما عند غيرهم من ذلك ...

« وليس يوجد في الاسلام الى ذلك انفصال بين الدولة والدين كما
يوجد في المسيحية وهو امر كان سبباً في حدوث اختلافات عظيمة في
المسيحية في القرون الماضية .

« وليس يمنع ذلك ما كان يقوم به العلماء في الاسلام من رفت الى
آخر ، من انتقاد اعمال الخليفة حين خروجه عن العدل والانصاف ،
ومطالبتهم اياه بالعودة الى اوامر الدين ونواحيهِ ، لأن هذه الانتقادات
لم تكن موجهة الى رئيس الدولة من جماعة من الكهنة ، وانما كانت تصدر
من جماعة من العلماء الى آخر مثلهم ، ولكي نفهم نظام الخلافة ،
يجب ان تعلم ان الخليفة موظف سياسي قبل ان يكون موظفاً دينياً ،
وان الواجبات الدينية الملقاة على عاتقه لا تعطيه حقوقاً دينية او روحية
تجعله يتناز بها عن غيره من المسلمين .

شروط الخلافة

والخلافة ضربان : اختيارية وقهرية .

والاختيارية هي التي تكون نتيجة انتخاب الامة وبيعته ورضاها
ويشترط فيمن يكون مستحقاً لها ان يكون جامعاً لصفات المطلوبة ،
والشروط اللازمة لها ، اربعة : العلم والعدالة ، والكفاية وسلامة الحواس

والاعضاء ، مما يؤثر في الرأي والعمل ، واختلفوا في شرط خامس هو النسب القرشي ، وقد بسطنا رأينا في هذا قبلاً ، وقلنا ان الحديث الذي ينص على ان تكون الخلافة في قريش موضوع ما في ذلك شك ولا ريب .

والقهرية هي التي نالها صاحبها بالقلب والقوة ، ويرى بعض الفقهاء انعقادها ولزوم الطاعة لصاحبها ، حتى لا تكون فتنة عامة ونورة جارية ، فترق المجتمع الاسلامي ..

واذا كانت الشروط الاربعة التي قدمناها ضرورية لكل مرشح للخلافة ، فان الرأي الخامس وهو النسب القرشي لم يحز اجماع الناس ليصبح قاعدة مقررة ، خصوصاً وليس في الاسلام تفضيل لعربي على عجمي من المسلمين الا بالتقوى والعمل الصالح ، فاذا كان الاسلام يمنع امضاة بين العربي والعجمي ، فمن المفروض ان يمنعها بين العربي والعربي . وفي رأينا ان كل مسلم يستطيع ان يكون خليفة اذا جمع الى الشروط الاربعة المقررة في كل خليفة ، وهي العلم والعدالة والكفاية وسلامة الخواص والاعضاء ، وقرر المسلمون انتخابه ، والاسلام الدين المتواضع ابعد الاديان عن الاثرة ، وتفضيل جماعة على اخرى من المسلمين خصوصاً والله سبحانه وتعالى لم يرسل رسوله الى قريش وغير قريش وانما ارسله عادياً ونذيراً الى البشر عامة .

اختبار الخليفة الاول

والمستشرقون يعجبون كيف ان رسول الله لم يعين خليفته من بعده في حياته ، وبعضهم يذهب الى انه ترك الحرية للمسلمين ليختاروا الزعيم الذي يشاؤون ، لان هذا الاختيار اكثر انطباقاً على العادات البدوية

والخوة العربية .

وكان من عادة القبائل العربية اذا مات زعيمها ان تختار مكانه من رجال القبيلة من ينعم بشئ زعامته واقوده ، او يكون من الرجال الذين يحترمهم القبيلة لسنهم وقوذهم او لخدماتهم العظيمة في سبيلها ، وهذا الاختيار قريب من البساطة ، واعلق من غيره بالعقيدة البدوية في ذلك العهد .

وكذلك كان اختيار الخليفة الاول ابي بكر ، ومنبعث شكل الانتخاب قريباً ، واما الخليفة الاول فقد اختار عمر بن الخطاب ، ولم يترك اختيار خلفه لجماعة المسلمين كما فعل رسول الله ، وبعض المستشرقين يلعبون الى ان هذا الانتخاب كان منظراً ، لان عمر بن الخطاب وفد اختاره ، او كان السبب المباشر في اختيار ابي بكر للخلافة ، وكان الى ذلك الحاكم الحقيقي في عهد ابي بكر ، فقد كان مرشحاً اكثر من غيره لبني الحلاء بعد الخليفة الاول .

وهذه النظرية تحتاج الى بعض التعليق ، فليس صحيحاً ان عمر بن الخطاب كان الفعال لما يريد في عهد ابي بكر ، لان المصادر التاريخية التي بين ايدينا لا تدع مجالاً الى الشك في ان عمر بن الخطاب كان يختلف كثيراً مع ابي بكر في شؤون الحكم ، اختلف معه في مسألة الودة ، واختلف معه في ابقاء خالد بن الوليد قائداً بعد مقتل مالك بن نويرة ، واختلف معه في كثير من المسائل الادارية الاخرى (١) ، والشئ الثابت ان الخليفة الاول كان يأخذ رأي الفاروق في كثير مما يعرض له من امور الدولة ، كما كان يأخذ رأي سواه ايضاً ، ولا يمكنه كالت الى الفاروق ورأيه اقرب وبه اعلق .

(١) انظر الطبري وابن الاثير وكتابنا « عمر بن الخطاب » .

وكذلك الخلف الفاروق مع ابي بكر في مسألة خطيرة جداً وهي
مسألة العطاء ، فقد ساوى ابو بكر المسلمين في العطاء ، - وهو المال
الذي كان يصار الى توزيعه بين المسلمين من واردات الغنائم والفتوحات
الجديدة - واما عمر فقد رفض الاخذ برأي ابي بكر في الخلافة ،
وقال : « لا اعتبر من حارب رسول الله كمن حارب معه » وراح يقرر
في العطاء خطة جديدة ، وهي تقديم النسياء الرسول ثم صحابة واهل بدو
والمسلمين الاولين على غيرهم من المسلمين ..

حكم الخلافة

ويرى بعض المسلمين من المتأخرين طبعاً ان نصب الخليفة واجب
اذا تركه المسلمون اتوا جميعاً ، وبعضهم يحاول تخفيف الاثم ، ولكنهم
يجمعون على وجوب نصب الخليفة ، وابن خلدون يقول : ان هذا مما
انعقد عليه الاجماع ، والدليل على ذلك اجماع الصحابة بعد وفاة رسول
الله على بيعة ابي بكر ، ثم اختيار ابي بكر لعمر ، ثم عهد عمر لاهل
الشورى باختيار خليفة منهم ، ولكن الشيء الواقع هو ان احداً من
العلماء لا يستطيع ان يقيم الدليل القاطع على وجوب ذلك بآية من
القرآن الكريم ، ونريد طبعاً آية صريحة لا سبيل الى الشك في مدلولها
ومعناها .

والعلماء السابقون يقولون بانعدام نص في الكتاب بهذا المعنى ،
ويوردون الامر كله الى الاجماع .

وكما انه ليس في القرآن نص على الخلافة والامامة فكذلك لا يوجد
في السنة ، ونعني بالسنة (الحديث) نص يعترف بوجود الخلافة او
الامامة العظمى ، بمعنى النيابة عن رسول الله والقيام مقامه من المسلمين .

وإذا فكما ترك رسول الله أمر تعيين خلف له من بعده، فعل القرآن مثله فلم يعرض لمسألة الحكم بعد رسول الله، كما ان الحديث لم يبحث امر الخلافة بعد محمد .

ولكن رسول الله كان رسولا وكان حاكماً سياسياً في الوقت نفسه، ففشاؤه بين الناس وارساله القضاة الى القبائل ، وتعيينه بعض العمال في عهده ، وقيادته الجنود والزحف وغيرها ، يمكن اعتبارها كلها من آثار الدولة ، ومظهراً من مظاهر الحكومة ، ومن نظر الى اعمال رسول الله من هذه الجهة ساغ له ان يقول : انه كان رسولا وكان ملكاً سياسياً ايضاً ...

وهنا تعرض لنا مسألة خطيرة جدوة بالتفكير ، وهي : هل كانت تأسيسه صلى الله عليه وسلم للملكة الاسلامية ، وقيامه ببعض اعمال الملك السياسي فيها شيئاً خارجاً عن حدود رسالته ، ام كان جزءاً مما بعثه الله له ، واوحى به اليه ؟؟

وكتاب السلف لم يعرضوا هذه الناحية على الوجه الذي اشرنا اليه ولكن ابن خلدون عرض ذلك بما يشير الى ان الاسلام دون غيره من الملل الاخرى قد اختص بانه جمع بين الدعوة الدينية وتنفيذها بالفعل ، وقد بينه بنوع خاص في الفصل الذي شرح فيه اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية (١)

والذي يبدو لنا ان محمد بن عبد الله كان رسولا وانه لم يكن له ملك ولا حكومة ، وانه صلى الله عليه وسلم لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذي يفهم (سياسياً) من هذه الكلمة ، وان ما اجراه من نظم سياسية حكومية في عهده كانت اقرب الى الفطرة والبساطة منها الى الملك

واصول الحكم ، ولو ان رسول الله رغب في تأسيس الملك على النحو الذي نفهمه من هذه الكلمة لعرض لاصول الحكم ونظام الخلافة من بعده ، ولقرر جميع ذلك ومتعلقاته ، كما قرر الامور الدينية والاجتماعية ، ما فرط في شيء من هذا ، ولا تركه لمن بعده يجرون فيه على اختيارهم وهوام .

ولكن الرسول كان رسولا ، جاء الى العرب بهذا الدين المتواضع الساذج البسيط ، ورغب الى خلفائه من بعده نشر هذا الدين في العالم ودعوة جميع الشعوب اليه بالحسن والموعظة الحسنة .

الشورى

ولما طعن عمر فكر في اول الامر على ما يظهر ، ان يفعل ما فعله رسول الله قبله ، فيترك المسلمين وشأنهم يختارون من يريدونه ، ولكن بعض الصحابة خوفوه الفتنة ، فاوصى بالشورى وهم ستة نفر ، علي بن ابي طالب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن ابي وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، على ان يجتمعوا ويختاروا واحداً منهم ، وامهلهم ثلاثة ايام لافراز هذا العمل واختيار الخليفة . وبعض المستشرقين خصوصاً كيناني ، يشك في هذا الامر ، وينسب الى ان عمر بن الخطاب لم يعين احداً من الشورى ، وان الناس من بعده ، اجتمعوا على هؤلاء الستة الذين توفي رسول الله وهو راض عنهم فكلفوهم اختيار الخليفة .

ولكن المصادر التي بين ايدينا تنفي هذا الرأي كل النفي ، ويصعب علينا الايمان بان الناس بعد عمر اجتمعوا على ستة نفر فقط ، وفوضوا اليهم اختيار الخليفة ، مع ما نعلمه من حب الناس للحربة واعتبار كل

واحد منهم نفسه مثل غيره من المسلمين ، ومن المؤكد لدينا ان عمرأ
اختار السنة ولولا ذلك ما اجتمعوا ، ولا انفقوا ، ولا اتبعهم الناس .
وفي اجتماع الشورى صار اختيار عثمان بن عفان ، وكان علي اقرب
منه للخلافة ، لو سار علي رأي عبد الرحمن بن عوف ، ووعد بالسير على
سيرة صاحبيه ابي بكر وعمر ، ولكنه رفض هذا الشرط ، وطلب ان
يتروك الامر لاجتهاده ، فخشى عبد الرحمن بن عوف منه هذا التشدد ،
وصرف الامر عنه الى عثمان بن عفان ، لان الناس في ذلك العهد كانوا
كما يظهر - ونحن هنا نتكلم عن اهل المدينة لأن احداً سواهم لم يتعرض
للانتخاب ولم يؤخذ رأيه فيه - منقسمين كما يظهر بين علي وعثمان ،
بعضهم يؤيد هذا ، والبعض الآخر يؤيد الآخر ...

وهنا يحار المرء في بحث فاحشه خطيرة في هذا الانتخاب ، وهي
تتعلق في موقف الامويين من انتخاب عثمان ، وهل كانوا من الصكثرة
بالمدينة بحيث استطاعوا ان يجمعوا حولهم عدداً لا بأس به من الناس
استطاع مزاحمة انصار علي وحمل عبد الرحمن بن عوف على تقديمه
وترشحه ؟؟

هل كانت الارستوقراطية المكية التي حاربت رسول الله من القوة في
المدينة بحيث استطاعت مزاحمة على نفسه في الانتخاب ، وحمل الناس
على تأييده ورفع عقيرتهم بهذا التأييد لما راح عبد الرحمن بن عوف يدور
بين القوم هذه الايام الثلاثة التي سبقت الانتخاب ليتعرف على رأي
الناس ؟؟

هذه مسألة من الخطورة بالمكان الارفع ، ولكن سنبحث في المصادر
التاريخية لا يؤيدها ، لانه كما يظهر لنا لم تكن هناك اكثرية لواحد من
المرشحين في المدينة ، على الآخر ، ولو كانت هناك اكثرية ظاهرة قوية ،

لأخذ عبد الرحمن بن عوف بها ما في ذلك شك ولا ريب ، وهو شخص لا يشك احد في اخلاصه ، بعد ان اخرج نفسه من الخلافة ، وتخلي عن حقه في الانتخاب .

والواقع ان اختيار الخلفاء الراشدين الاربعة ، كان انتخاباً ديموقراطياً حراً ، لان الخلافة في عهد بني امية أصبحت ملكاً لا شأن للرعية فيه ولا رأي لها في اقراره ، وان كان الانتخاب في عهد الراشدين ضيقاً لا يتعدى اهل المدينة كما قدمنا ، ولا يؤخذ فيه رأي الامصار البعيدة ، بسبب بعدها ، وضرورة اختيار الخليفة قبل حدوث فساد ، وظهور اضطراب .

لقب الخليفة

ولقد نعم الخليفة بثلاثة القاب : (الخليفة) و (امير المؤمنين) و (الامام) ، اما لقب الخليفة فقد ورد في القرآن غير مرة ، ولكنه لم يرد بالمعنى الذي صار استعماله في عهد الدولة الاسلامية ، واول من استعمل هذا اللقب الخليفة الاول ابو بكر .

وكان يطلق على ابي بكر (خليفة رسول الله) ، فلما ولي عمر كانوا يخاطبونه اول الامر قائلين : يا خليفة خليفة رسول الله ، وكان هذا اللقب قبلاً على الاذان ، فدعت الحاجة الى استعمال لقب آخر اسهل وافضل واقصر ، فاستعملوا لقب (امير المؤمنين) وعمر بن الخطاب اول من لقب بذلك ، وقد تردد عمر في قبول هذا اللقب اول الامر ، لما فيه من الزهو والخيلاء ، ثم ارتضاه وقبله ، حين لم يجد افضل منه . واما كلمة (امام) فقد وردت في القرآن ، وكانت تعني اول الامر ما نعبه كلمة (خليفة) ولم تستعمل عند السنة الا قليلاً ، واستعملها الشيعة اكثر منهم ، فاخذوا يطلقونها على انتمهم من ولد عسلي بن ابي طالب

وفاطمة بنت محمد ، ()

ومما يجب ان يصار الى ذكره قبل ختام هذا البحث ان تكليف رسول الله في مرضه لابي بكر بالصلاة في المسلمين ، كانت من الاسباب الفعالة في قبول الناس ببعثه دون ما اعتراض ، لان امامة الصلاة كانت خاصة برسول الله في المدينة دون غيره ، وكان الخلفاء بعد رسول الله يؤمنون الناس بالصلاة الى زمن متأخر ، وكانت هذه الوظيفة من اجل اعمال الخليفة .

اعوان الخليفة

ولم يكن للخلفاء الراشدين اعواناً معينين ، ولا وزراء مستشارين في اول الامر ، وكان الخليفة الاول ابو بكر يستشير اصحاب رسول الله في كل ما يعرض له من امور الدولة ، كما كان يفعل محمد قبله ، فقد ثبت ان رسول الله كان يشاور اصحابه في الامور العامة والخاصة ، وكان يشاور ابا بكر في امور اخرى ، حتى ان العرب الذي اختلفوا مع الفرس والروم قبل الاسلام ، وعرفوا اسم الوزير منهم ، كانوا يسمون ابا بكر وزير النبي صلى الله عليه وسلم .

ولكن لفظ الوزير لم يكن معروفاً عند العرب في ذلك العصر ، لبساطة الاسلام ، وبعده عن ابهة الملك (١)

وفعل عمر بن الخطاب مثل ابي بكر فقد كان يشاور اصحابه في مختلف الامور التي تعرض له من شؤون الدولة الجديدة ، وكذلك كان

(١) استعمل لقب (الامام) المأمون من خلفاء المسلمين ٨١٣-٨٣٣ ونقش هذا اللقب على العملة في عهده .

(٢) ابن خلدون (مقدمة)

شأن عثمان وعلي بعدهما، ولما افضت الخلافة الى بني امية اتخذوا المستشارين من رجالات دولتهم وانصارهم ، ومع ان احداً في عهدهم لم يلقب بوزير الخليفة ، الا اننا نجد زياداً حاكماً العراق يطلق عليه لقب وزير معاوية في عهده .

ونجد فوق ذلك ان معاوية لما حاول تولية العهد لابنه يزيد كتب الى زياد يستشيريه ، فتصحه زياد ان لا يفعل ، وان لا يعرض لهذا الامر خطره وامميته ، فسكت عنه حتى توفي زياد فعاد معاوية واقره .

المسجد مركز الادارة الاسلامية الاولى

وكان المسجد دار الندوة الاسلامية الاولى او البرلمان المعاصر ، اذ كان يشبه البرلمان المعاصر في كثير من الوجوه ، ففيه كان مقام الخلفاء الاولون ، وفيه كان يجتمع كبار الصحابة حول الخليفة ، وفيه كانت تقرر كل شؤون الدولة الاسلامية عهده الخلفاء الراشدين ، فمن اراد شيئاً من الخليفة ذهب الى المسجد ، ومن رغب في التحدث اليه ، تحدث اليه في المسجد ، واذا فلم يكن المسجد مكاناً للعبادة فحسب - كما اصبح بعد ذلك - وانما كان ايضاً مركز الحياة السياسية والاجتماعية للدولة الاسلامية ، ففي المسجد كان يجتمع رسول الله الى اصحابه ، ويقرر الغزوات ، ويرسل البعثات ، ويبعث السفراء ، وفي المسجد كان يخطب الناس مختلف الخطب السياسية والدينية والاجتماعية ، وفي المسجد استقبل محمد مختلف نواب القبائل التي جاءت الى المدينة ، وفيه استقبل سفراء الممالك المختلفة والجماعات المستقلة كاهل نجران مثلاً ، وفي المسجد بسط ابو بكر الصديق الخليفة الاول في الاسلام سياسته العامة ، وفي المسجد كان يباع المسلمون الخليفة بالخلافة ، ومن فوق منبر المدينة اعلن

عمر للناس تفهيم جيوش المسلمين في العراق ، واستنحت المجاهدين على
المسارعة الى الحرب والجهاد ، وفي المسجد قائم عثمان بن عفان يدافع
عن سياسته ، كما يسطح عمر قبله سياسته العامة للناس يوم ولي الخلافة ،
واذاً فالمسجد كان دار اجتماع المسلمين ، كما هو حال البرلمانات اليوم ،
وكما يسطح رؤساء وزارات الدول المختلفة في العصر الحاضر سياستهم
الخارجية والداخلية الامة في برلمانهم المختلفة ، وكما تلقى خطب العرش
على منابرهما ، فان الخلفاء الاولون كانوا يفعلون ذلك في المسجد ، منذ
نصف والى وثلاثمائة سنة .

واذن فالقول بأنه يجب حصر المساجد بالصلاة فقط قول ضعيف ،
فالمسجد كان وما يزال المكان الذي تجتمع فيه العائلة الاسلامية للصلاة
وبحث امورها العامة الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها .
ثم ان المسجد كان في العصور الماضية مركزاً للتقافات الاسلامية ،
ففيه كان يجتمع العلماء ، وفيه درست علوم الحديث والتفسير والفقه
والادب وغيرها ، وفيه كان يجتمع علماء مختلف هذه العلوم للدرس
والمنافسة والتعليم ، وفي المسجد كان يجلس القضاة لعقد جلساتهم واحصدار
احكامهم ، وفي المسجد كانت توجد مختلف الكتب الدينية والعلمية
والادبية ، وبذلك يكون المسجد الاسلامي داراً عامة للمسلمين ،
ومركزاً علمياً ودينياً للطلالين .

وبعضي الايام فقد المسجد مكانه السياسية ، فلم يعد
يسيطر فيه الخليفة سياسته العامة ، ولا يجتمع فيه الى وزرائه ولا
مستشاريه ، ولا عاد يجلس فيه الوالي لانصاف الناس ، ولا القاضي للفصل
في الخصومات ، وغدا عمله مقصوراً على اقامة الخطبة الدينية والصلاة ،
وتدريس المسلمين شؤون دينهم بشكل عادي بسيط ، لا يتناسب مع

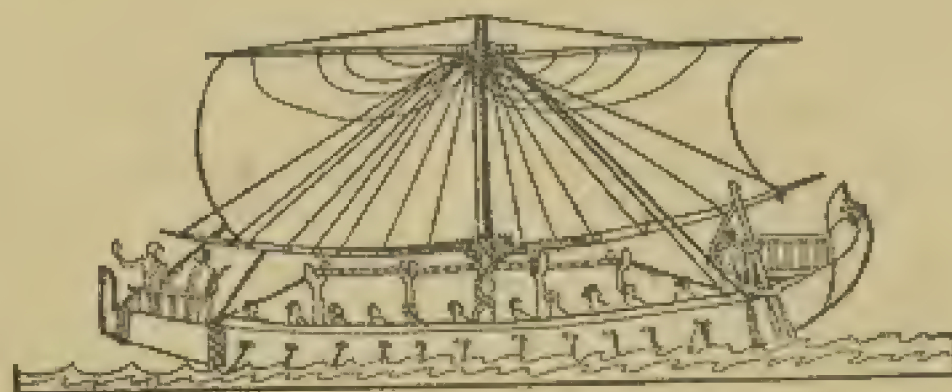
مقامه السابق ، وخطوره العظيم .

وما يقال في المسجد يقال في الخطبة - خطبة يوم الجمعة خاصة - فقد كانت الخطبة تشريعاً وانذاراً وبسطاً للسياسة العامة في العصور الاولى ، وكما خسر المسجد مركزه السياسي مع الايام خسرت الخطبة مقامها الواسع العالي مع الايام ايضاً ، ومرد ذلك انه كانت في ايام رسول الله مسجد واحد ، واما بعده فقد اصبحت المساجد تعد بالآلاف ، ولم يعد بطوق الخليفة اسماع صوته لغير اهل بلده ، فقل الاهتمام بالخطبة ، واصبحت اداة للنصائح الدينية .

ولكن الخطبة مع ذلك احتفظت بشيء واحد من شأنها السياسي الاول ، وذلك انها بقيت محتفظة بذكر اسم الخليفة القائم ، والدعاء له بالنجاح والصلاح وطول العمر ، كما انها اصبحت في الايام الاخيرة سبباً في حيرة بعض الدول الاوروبية التي استولت على بعض الامصار الاسلامية ، اذ كيف تسمع بذكر اسم ملك مسلم ليس له سلطان على مصر الذي تحكمه - وقد يكون هذا الملك الخليفة معاكساً لسياستها ، مختلفاً معها ... وطبعاً وقع هذا الاختلاف ايام الدولة العثمانية التي كان يطلق على سلاطينها لقب الخلفاء ايضاً ، ولكن لقب الخليفة عند الاتراك لم يدم طويلاً بعد الحرب العظمى ، اذ ألغته الحكومة التي اصبحت جمهورية في اذار سنة ١٩٢٤ بقرار من المجلس الملي الكبير ، وارسلت آخر سلطان حمل هذا اللقب وهو السلطان عبد المجيد الى المنفى .



قنادج من الفن المغربي



المراكب الفينيقية القديمة يوم كانت تبحر بحاب البحر المتوسط

السياسة الخارجية

العلاقات الدولية

يعرض هذا البحث الى لون جديد من ألوان الحضارة العربية ، وهو هذه العلاقات الدولية الخارجية التي كانت بين الدولة العربية الاسلامية الاولى وبين الدول الاخرى ، وان كانت هذه العلاقات قليلة متقطعة لا كثيرة متعددة ...

ولقد عرف بعض العلماء (الدبلوماسية) بانها :

« استعمال الذكاء والكياسة في اداة العلاقات الرسمية بين الدول المستقلة ، متعدياً ذلك احياناً الى علاقاتها بالدول المستعمرة » .

والعلاقات الدبلوماسية قديمة جداً على ما يظهر ، وقد رأيناها بين القبائل العربية حين كان يصار الى انتداب شخص او اشخاص من ذوي المقدرة والكياسة والدهاء لتسوية بعض المنازعات بين قبيلتين مختلفتين .

في العهد الاول

وكان عمر بن الخطاب يسمى سفير قريش في الجاهلية ، اي انه كان رسولها عند القبائل الاخرى لفض المنازعات التي قد تقع بين قريش وهذه القبائل .

ولكن عمر بن الخطاب لم يكن من اهل الذين بل كان من اهل

الشدة ...

وأول ما نراه من تدبير محمد رسول الله وعلاقاته الدولية ، هذه العلاقات التي كان يحاول توثيقها مع قريش ، لأن قريشا - بعد حربه الى المدينة - أصبحت خارجة عن تأثيره ، بعيدة عن سياسته ، وأصبحت في الواقع امة خارجية يصح ان يجري معها في علاقاته على النحو الذي يجري فيه مع كسرى فارس او قيصر الروم او غيرهما من الملوك والامراء ، كما وقع فعلاً في المراسلات الدبلوماسية التي ارسلها اليهم يدعوهم الى الاسلام والايمان بالله لا آله الا هو .

السياسة وعهد الحديبية

وفي عهد الحديبية نجلى تدبير محمد في سياسة خصومه وسياسة اتباعه ، وفي الاعتماد على السلم والعهد حيث لا تحسن المسألة ولا تصلح العهود .
بدأ بالدعوة الى الحج فلم يقصره في تلك السنة على المسلمين المصدقين لرسالته ، بل شمل به كل من اراد الحج من ابناء القبائل العربية التي التي تشارك المسلمين في تعظيم البيت والسعي اليه ، فجعل له وللغرب اجمعين قضية واحدة في وجه قريش ، وفصل بذلك بين دعواها ودعوى القبائل العربية الاخرى ، ثم افسد على قريش ما تعدوه من اثاره فحوة العرب وتوجيهها الى مناوئة محمد والرسالة الاسلامية ، وافهمهم انه وجماعة العرب يقتصر بهم العرب ولا يذلون بانتحارهم ، او يقطعون ما بينهم وبين آبائهم واجدادهم ، فاذا خالفوا قريشا في شي . فذلك شأن قريش وحدهم او شأن المنتفعين من قريش بالسيطرة على مكة وليس هو شأن القبائل اجمعين .

ثم افسد على قريش من جهة اخرى ما تعدوه من اغصاب العرب

على الاسلام بما ادعوا من قطعه للارزاق ، وتهديده للاسواق ، التي
بمعمرها الحاج ويستفيد منها الغادون الى مكة والرائحون منها ، فآخذ
محمد معه المسلمين الى مكة كما يأخذ معه من شاء مصاحبه من غير
المسلمين قصاد البيت الحرام ، فاذا حال بينهم حائل وبين ما يقصدون
اليه فالانتم اثم فريش وحدهما فهي التي تمنع الناس عن الوصول الى
الكعبة ومكة ...

ولم يكن رسول الله ليركن الى السيف وحده ولا الى السلم وحده ،
ولكنه كان يضع كليهما حيث يجب ان يوضع ، ويدفع كليهما حيث ينبغي
ان يدفع ، وقد خرج النبي الى مكة في رحلة الحديبية حاجا لا غازيا يقول
ذلك ويكرره ويقم الشواهد عليه لمن سآله ، وبثبت نية السلم بالتجرد
من السلاح الا افله .

فلم يفصل بهذه الحطة بين العرب وفريش فحسب ، بل فصل بين
فريش ومن معهم من الاحابيش من انصارهم ، وجعل الزعماء وذوي
الرأي يختلفون فيما بينهم على ما يسلكون من مسلك في دفعه او قبوله
وفل من اتباعه من ادرك قصده ومرماه حتى الصفوة المختارين .

المهد

ولما اتفق الطرفان - المسلمون وفريش - على التعاهد والتهادن
كانت سيامة النبي في قبول الشروط التي طلبتها فريش غاية في الحكمة
والقدرة الدبلوماسية .

ولما طلبوا منه ان يحذف كلمة رسول الله من الاتفاق فعل ، لان
غايته كانت السلم لا الحرب ، وغرضه كان ابعسد مدى من بقاء لقبه
او حذفه ...

وكان في المعاهدة ان من اتى محمداً من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً من رجال محمد لم يردوه عليه ، وانه من احب من العرب مخالفة محمد فلا جناح عليه ومن احب مخالفة قريش فلا جناح عليه ، وان يرجع محمد واصحابه عن مكة عامهم هذا على ان يعودوا اليها في العام الذي يليه ، ويقيموا بها ثلاثة ايام ومعهم من السلاح السيوف في قريها ، ولا سلاح غيرها .

ولو كان عهد الحديبية هذا قد كتب بعد قتال الهزم فيه المشركون وانتصر فيه المسلمون لوجب ان يكتب على غير هذا الاسلوب ، فيعترف المشركون كرهاً او طوعاً بصفة النبوة ولا يردون احداً من مواليهم او قاصريهم يذهب الى النبي ويلحق بالمسلمين .

وما انقضت فترة وجيزة حتى علمت قريش انها هي الخسارة بذلك الشرط الذي حسبته غنائماً وحذلاتاً لمحمد صلوات الله عليه ، فان المسلمين الذين نفروا من قريش ولم يقبلهم محمد في حوزته رعاية لعهد ، قد خرجوا الى طريق القوافل ياخذونها على تجارة قريش وهي امان في عهد الهدنة بين الطرفين ، فلا استطاع المشركون ان يشككوا في النبي لانهم خارجون من ولايته بحكم الهدنة ، ولا استطاعوا ان يجزؤوا في مكة كما ارادوا يوم املوا شروطهم في عهد الحديبية ، ولو قضى العهد بولاية النبي على من ينفر من مسلمي مكة لجاز للمشتركين ان ينقضوه او يطالبوا النبي بالمحافظة عليه .

وعندئذ جهر بمخالفة النبي من لم يكن يجهر بولائه ، واستراح النبي من قريش ففرغ ليهود خيبر وللمماليك الاجنبية يرسل الرسل الى عظمائها بالدعوة الى دينه ، وفتح الابواب لمن يقدون اليه واطلأت

الى سنة عادية يرتب فيها شؤونه وينظم اموره وسياسته .
وهكذا تجلت عبقرية محمد في سياسة الامور كما تجلت في قيادة
الجيوش ونال بالسياسة والمهادنة ورحابة الصدر فوق ما كان يناله
بالحرب والقتال .

محمد وملوك عصره

ولعل اعظم حوادث سياسي وعسكري في عهد رسول الله ، هو
معركة مؤتة ، فان هذه المعركة الصغيرة البسيطة كانت انذاراً عربياً
صريحاً للامبراطورية البيزنطية ، ودليلاً على ان العلاقات الدبلوماسية
بين الروم والعرب لم تكن على ما يرام ...

لقد دعا محمد بن عبدالله قبصر الروم الى الاسلام ، كما دعا كسرى
الفرس ومقوقس مصر ، وجماعة غيرهم من الامراء والحكام في عهده ،
يلتزم عهد الله عليه بان يدعو العالم كله الى دينه .

وكانت هذه السفارات حديثاً غريباً فريداً في تاريخ الانبياء والمرسلين
فما نعلم احداً من الانبياء خاطب ملوك عصره بمثل ما خاطبهم به رسول
الله ، في زمن لم يكن فيه الاسلام قوة تصح ان تقف في وجه كسرى
وقبصر ، ولا كان الى ذلك قوة تبسط في مواطن الجزيرة كلها ، ولكن
محمداً أرسل الى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، فكان حقاً عليه ان يؤدي
رسالته ، ويبلغ صوته الى الملوك والامراء الذين يحكمون العالم في
عده ، ويسيطرون على شعوبه وامصاره في زمنه .

وكان من نتائج هذه السفارات ان رد بعض الملوك عليها رداً شديداً
ككسرى الفرس مثلاً ، وكان غيرهم ليناً رقيقاً كقبصر الروم ومملك
الحبشة ، وكانت العلاقات السياسية مع الحبشة حسنة جداً ، وكان

النجاحي كثير المجاملة للمسلمين وحب بهم عند فدومهم اليه ، ونولاهم
بالعناية مدة اقامتهم ، بحيث يصح ان نقول انه كانت هناك علاقات ودية
بين الدولة العربية الجديدة الناشئة وبين الدولة الحبشية .

وكانت هذه السفارات عملاً بديعاً من اعمال السياسة وهي اول عمل
قام به الاسلام في هذا الميدان ، وكانت الى هذا نذيراً للممالك التي حول
الجزيرة بان هناك قوة جديدة قد ظهرت في الجزيرة ، وان هذه القوة
ستكون خطراً عظيماً على الامصار التي حولها والممالك التي تجاورها ان
لم يتقبل اهلها الاسلام ديناً ، او يعملوا على التفاهم والانفاق مع رجال
هذا الدين الجديد ...

معركة مؤنه

وحدثت معركة مؤنه بعد هذه السفارات ، وكانت السفارات من
اسبابها ما في ذلك شك ولا ريب ، لان رسول الله اراد ان يقتص من
عامل الروم على البلقاء من ارض الشام لقتله احد رسله ، وحدثت هذه
المعركة في الوقت الذي كان البيزنطيون يحسفون بانتصارات هرقل على
الفرس ، وبعودة الصليب الحقيقي الى مكانه في كنيسة القيامة ، بعد ان
انتزعه الفرس منها لسنوات خلت ، وبينما كان الامبراطور هرقل في القدس ،
انبأ قواده بصدوم قوة عربية تقدمت نحو مؤنه على حدود البلقاء شرقي
جنوبي البحر الميت ...

ومن المؤكد ان هرقل لم يأبه لهذه المعركة الصغيرة ، ولا فطن الى
خطورتها ، ولا استشر قواده - وقد ردوا العرب بالاقبل من العناء -
والتعب - خوفاً ولا ارتياباً ، وكان من المستحيل في ذلك العهد ان
يفطن احد الى ان هذه المعركة ليست إلا مقدمة الزخوف العربية

الكبرى التي شاهدها سوريا بعد سنوات قليلة ، بسبب رفض هرقل رسالة محمد ، وبسبب موقف عامله في البلقاء من رسول محمد . ويرى المستشرقون ان الغرض من تحدي المسلمين للروم في معركة موته ، يعود الى سببين : اولها الانتقام من الفساسنة الذين قتلوا سفير رسول الله ، والسفير لا يقتل وفاً للعرف الديبلوماسي ، وثانيها الحصول على السبوف التي كانت تصنع في القرى حول موته ، والتي كانت تعد سلاحاً ماضياً في ذلك العهد .

وكانت هذه المعركة الصغيرة التي انتهت بفشل المسلمين وتراجعهم ، النذير الاول لمعركة ضخمة طويلة تدوم اجيالاً واجيالاً بين العرب والروم حتى يأذن الله باحتلال القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م .

وكان على هرقل نفسه ان يشهد بام عينيه انهيار امانيه في سورية وغير سورية من امصار الامبراطورية ، فما كادت تنتهي حروب الردة في الجزيرة حتى اصدر الخليفة الاول امره لثلاثة من قواده بالزحف على سورية ، انتقاماً لقتلى المسلمين مؤته ، وتحقيقاً لامر رسول الله بنشر الدين ، وسيادة العالم ، فمضى عمرو بن العاص ، ويؤيد بن ابي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، في كئائب عربية صغيرة لا يزيد عدد رجال الواحد منها عن ثلاثة آلاف مقاتل ، ثم تنابعت الامدادات الى القواد الثلاثة حتى صار كل واحد منهم في سبعة آلاف وخمسمائة مقاتل ، ثم سرح الصديق بعدهم ابا عبيدة عامر بن الجراح في مثل هذا العدد ، بحيث كانت تتراوح قوات العرب المسلمين الذين مشوا لمحاربة الروم بين الثلاثين والخمسة والثلاثين الف مقاتل على اوسع تقدير ...

الدبلوماسية في عهد الخلفاء الراشدين

وكانت الدبلوماسية عهد رسول الله والخلفاء الراشدين والامويين ضيقة الحدود ، محدودة المسالك ، ذلك ان العهد كان عهد فتح وانشاء ، ولم يكن من السهل ان ينشأ بين المسلمين والامم الاخرى التي كانت تقوم الى جوارهم علائق دبلوماسية قبل استكمال الفتوح ، وتحديد الحدود ، اللهم الا ما كان يعقب فتح كل فطر من عقد الصلح والتعاهد كما حدث في سورية ومصر ايام عمر بن الخطاب ، وهذه علاقات دبلوماسية ضيقة محدودة كما قدمنا ، ولم تكن الى ذلك مع دولة خارجية ، وانما كانت تقع بين المسلمين وبين بعض رؤساء الملل الذين دانوا لسلطان المسلمين ، كهذه المعاهدة التي صار عقدها بين عمر بن الخطاب وبطريق القدس قبيل تسليم المدينة ، والمعاهدة التي صار عقدها بين المقوقس وعمرو بن العاص قبيل تسليم الاسكندرية .

والعلاقات بين الدولة الاموية والدولة البيزنطية كانت محدودة ايضاً ، الا ما كان من هذا الاتفاق الذي تم اولاً بين معاوية وامبراطور الروم ، ثم بين عبيد الملك بن مروان وبين الروم ايضاً ، واضطرار الخليفين لدفع مبلغ من المال الى قيصر القسطنطينية ليربحا حياذه موقفاً ريثما يستتب لهما الامر في داخل الامبراطورية العربية ، حتى اذا كانت ذلك امراً واقعاً او فحماً دفع المال ، وعاد الى ما كانا عليه من الحرب والقتال والسياسة المسلحة .

الاسلام والديانات الاخرى

هزة عظيمة

يقول فوت كرمير المستشرق الألماني : ان البحث في التأثير الاسلامي على غيره من الديانات ، وتأثير هذه عليه ، لا يزال في اوله ، وان المجال لا يزال واسعاً لدرسه والتبسط فيه ، ونحن مع اقرارنا وإيماننا بهذا التأثير لا نرى بداً من تناوله بشيء كثير من الاعتدال لأن البحث كما قدمنا لا يزال قتيلاً يحتاج الى كثير من التمهيد والتحقيق . ففي القرن السابع الميلادي والاول مرة في تاريخ الجزيرة العربية ، حصلت فيها هزة كان من نتيجتها تأسيس دولة عربية عالمية .

وليس بالمستبعد حصول مثل هذه الهزة في العصور النائية من التاريخ ، لما اخذ الساميون من سكان الجزيرة بالهجرة الى البلاد المجاورة كالعراق وسورية ومصر وغيرها ، وما حصل في القرن السابع لم يمكن إلا تنمة لهذه الموجات السابقة ، التي هبأت الاسباب للموجة الكبرى في القرن السابع ، ولكن الامر الذي يشير الاهتمام هو ان الموجات السالفة لم تكن تحمل طابع الفتح ولا الاحتلال ، فقد كان العرب الساميون يغادرون موطنهم الاولى الى ما حوّلها من البلاد طلباً للسكن والعيش مع السكان السابقين ، الذين كانوا يعارضونهم احبائاً ، او لا يعارضونهم ابداً ، واذا حصلت معارضة فان هذه المعارضة تكون محلية لا شأن لها ، ولا تتعدى موضعها ...

وكذلك سمعنا من كسنوفان سنة ٤٠١ ق م بوجود قبائل عربية كانت تعيش الى شرقي الفرات في العراق ، وسمعنا في القرن الاول المسيحي في عهد سترابون ان نصف سكان بلدة (كويت) الواقعة في مصر العليا هم من العرب ، كما حملت البنا المصادر التاريخية قبل الاسلام انت العرب السوريين من رعاية الامبراطورية البيزنطية ، والعرب العراقيين من رعاية الامبراطورية الفارسية كانوا يشتركون في الحروب التي تقع بين الدولتين استراكاً فعلياً ...

في القرن السابع

واما في القرن السابع الميلادي فقد تبدل كل شيء ، وخرجت من الجزيرة العربية موجة جرفت كل ما امامها ، واستولت على بلاد وجماعات كانوا يفوقون العرب الفاتحين في المعارف والعلوم والحضارة ، ومع ذلك فان العرب لم يقنوا ذاتيتهم ولا شخصيتهم كما فعلت القبائل الجرمانية لما استولت على رومية المتحضرة ، وكما اخضع المغول شخصيتهم لما تقدموا الى آسيا ، ولكنهم حفظوا عصبيتهم ، وفرضوا دينهم ولغتهم على كل الممالك والجماعات التي سقطت تحت لوائهم ، وكان كل هذا بدون ضغط منهم ، لانه في الواقع لم يكن من مصلحة السياسة المالية للدولة الاموية اقبال غير المسلمين على الاسلام ، لما يتبع ذلك من سقوط الجزيرة عنهم ، ونقص الوارد الى بيت المال ، وكان هذا النقص في نظر بعض الامراء ، ابعداً ثراً ، واعظم خطراً من انتشار الاسلام وتبسط الدين .

عند الفتح

ولما فتح العرب العراق ، كان يسكنه بعض قبائل عربية من ربيعة

ومضر ، وبعض الفرس والنصارى ، وثا فتحت فارس ، كان فيها عدا
سكانها من الفرس ، يهود وروم من الذين أسروا في الحروب الفارسية
الرومانية ، أو من الذين جرى نقلهم من بلادهم الى فارس .

واما سورية فقد تداولت عليها قبل الفتح الاسلامي امم
مختلفة ، من فينيقيين ، واموريين ، وكنعانيين ، ومصريين من عهد
الغزو الفرعوني ، ويونان وروم وغرب من الفساسنة ، ثم اصبحت
سورية قبل الفتح الاسلامي اقليماً رومانياً تأثر بالثقافة الرومانية
البيزنطية ، وغلبت على ابناءه الديانة المسيحية ، كما ورث في الوقت نفسه
كثيراً من عادات الامم السالفة وخضاوتها وتقاليدها .

وكان يسكن هذه البلاد عند الفتح ، السوربيون اهل البلاد ، والارمن
واليهود ، وبعض الروم ، وبعض القبائل العربية ، ككفان ، ولحم
وجذام وكاب ، وقضاة وطائفة من تغلب ، وكانوا في القسم الجنوبي
من سورية اكثر منهم في القسم الشمالي بحكم الجوار لبلادهم ، وكانوا
يتكلمون لغة هي مزيج من الارامية والعربية ، وكان يعدون انفسهم
سوريين لا تربطهم بعرب الحجاز إلا العلاقات التجارية ، وقد ابدوا
الرومان ضد العرب عند الفتح بعض التأييد ...

واما مصر مهد المدنية القديمة ، والوارثة لحضارة قدماء المصريين
واليونان والرومان ، والتي فيها الاسكندرية مركز المذاهب الفلسفية
والطوائف الدينية ، وملتقى الآراء الشرقية والغربية ، فقد كان
يسكنها المصريون ومزيج من امم اخرى كاليهود والرومان ، ولما
فتحت افريقيا كان يسكنها البربر والرومان ، فكان من اثر كل هذه
الفتوح العربية ان اتصلت كل هذه الامم المختلفة الاغراض والمشارب
والمذاهب واللفات ، والادبان والتقاليد بعضها ببعض ، وان احدثت ،

ما في ذلك شك ولا ريب ، نوعاً من المزج في الدم والنظم الاجتماعية والعقلية والعقائد الدينية ، وكان سبب ذلك ما اتبعه العرب في فتوحهم ، من استرقاق الذين غلبوهم ، او تركهم احراراً ، وكانت هذا الامر متروكاً للخليفة نفسه يفعل فيه ما يشاء وفقاً للمصلحة والحاجة ، فقد حرر عمر بن الخطاب كل سواد العراق ، وفرض على كل شخص من الموسرين في العام ثمانية واربعين درهماً وعلى غير الموسرين اربعة وعشرين ، كما نرى ان عمر بن العزيز امر باسترقاق بعض امري الترك في ايامه .

الرق والموالي

وكان الرق شائعاً في العالم ، لم تختلف عن استعماله امة من الامم ، كانت كبيرة ام صغيرة ، استرق اليونان في عهدهم ، وفعل الرومان مثلهم بعدهم ، ومنع القانون الروماني للمالك الحق في قتل عبده ، او استحيائه ، وجعله مستقلاً غير مسؤول عن تصرفه في عبده ، وكن كثير الرقيق عند الرومان ، حتى زادوا على عدد الرومانيين انفسهم ... وكان الرقيق موجوداً عند العرب في جاهليتهم ، ولما جاء الاسلام ظل الرق امراً واقعاً وكثر الاسترقاق من الامم المفتوحة كثرة هائلة ، ووزع المسترقون رجلاً ونساء وذراعي على العرب الفاتحين ، فكانت للزبير ابن العوام الف عبد والاف امة ، ولغيره اقل ، وهذا الرقيق يعد مملوكاً للسيد كائنات ، له الحق في بيعه وهبته واذا كان امة جاز للسيد ان يستمتع بها ، واذا ولدت الامة من سيدها فالولد ابنه ، وتسمى الامة ام رداً ، ويبقى ملكاً له بعد ولادتها ، ولكن لا يجوز له ان يبيعهما او يهبها ، واذا مات عنها فهي حرة .

وقد اوجب الاسلام حسن معاملته الرقيق ، وحبيب العتق ، وجعله
كفارة عن كثير من الجرائم .

ومتى اعتق الرجل عبده او امنه ورد اليها حريتها ، تبقى هناك صلة
بينهم وهذه الصلة تسمى الولاء ، وبطل العبد المعتق ينسب الى من اغتقه
فيقولون : زيد بن حارثة مولى رسول الله اي عتيقه ، واذا كان العتيق
من قبيلة فقد ينسبون المولى الى هذه القبيلة فيقولون مولى بني هاشم ،
ويظهر اثر هذه الصلة فيما اذا مات المعتق من غير وارث فان المعتق يرثه .
هذا هو نظام (المولى) او الرقيق من الوجهة القانونية ، واما من
الجهة الاجتماعية فقد كان يقال : مولى الرجل ، ويعنون حلفاء وورثته
من بني عمه واخوته وسائر عصبته ، والمولى العصبية ، فلما دخلت العجم
على العرب بعد الفتح الاسلامية اطلق عليهم اسم المولى ، بعد ان
اصبحوا عصبية لهم ، كما انه لما كثرت الرق والعتق كثر استعمال المولى
بمعنى المعتق ، وقد تأثر المولى بالعصبية العربية فكان مولى كل قبيلة
ينتسبون اليها ، ويحاربون معها ، ويستخدمونهم في شؤونها ، فنرى من
ذلك ان كلمة (مولى) قد حُرِّفَت عن معناها العربي القديم ، وصارت
تطلق بعد الفتح على العجم والروم وغيرهم من غير العرب ، وعلى
الذين صار إعتاقهم من غير العرب ايضاً من العجم والروم وغيرهم ، مع
كونهم من المسلمين ...

ومع ان الاسلام يؤيد المساواة المطلقة ، فقد كان العرب خصوصاً
في الدولة الاموية ، ينظرون الى المولى نظرة فيها شيء من الازدراء ،
ولكن هذا لم يكن عاماً ، لاننا نرى العرب في المدن الكبرى نكرم
فقهاءها من المولى تكريماً عظيماً ... ولكن موقف الامويين هذا ،
وموقف بعض عمالهم ، اغضب المولى ، وحملهم على الخفد عليهم

والعمل على تأييد كل من حمل لواء الثورة ضدهم .

ويذكر لنا بعض المؤرخين ان معاوية بن ابي سفيان قال : « اني رأيت هذه الحمراء - يعنى الموالي من الفرس والروم - قد كثرت ، وكأني انظر الى رثبة منهم على العرب والسيلطان ، فقد رأيت ان اقتل شطراً ، وادع شطراً لاقامة السوق وعمارة الطريق » ولكن معاوية لم يفعل بما قال شيئاً ، وكلمته هذه تدل على بعد نظره ، وعلى انه احس بالخطر الذي يهدد الدولة العربية من جراء تكاثر الموالي ، خصوصاً وان العرب الذين تولوا العراق وسورية ومصر وغيرها من الامصار كانوا اقلية بالنسبة الى المسلمين وغير المسلمين من غير العرب ...

ولقد وُزع كثير من ابناء البلاد المفتوحة ونسائهم - كأنهم غنائم - على الجيش العربي ، - ونعني بالبلاد المفتوحة البلاد التي حاربت الفاتحين ، ولم تقبل منهم الصلح ، فصار اقتحامها عنوة - ، فكان لكل جندي تقريباً بعض العبيد والاماء يستخدمهم في حوائجه ، ويستولد الاماء ان شاء ، فنتج عن هذا ان دخلت البيت العربي عناصر فارسية ورومانية وسورية ومصرية ويونانية ، ولم يعد البيت العربي بيتاً عربياً ، بل بيتاً مختلطاً ، ورب البيت هو العربي . ولكن هذا لم يكن عامماً طبعاً ...

ثم ان الاماء كن يلدن اولاداً يحملون الدمين معاً ، الدم العربي من جهة الاب ، والدم الاجنبي من جهة الام ، وكانت عدد هذا النوع كثيراً كثرة الفتوح التي فتحها المسلمون في عهد عمر ومن بعده ، وكان بين الاسرى ايضاً او السبي نساء من بنات الملوك او من اشراف القوم ، كما يقال ان ثلاثاً من بنات يزدجرد ملك الفرس ، تزوجن ثلاثة من ابناء الصحابة الحسين بن علي ، محمد بن ابي بكر ، وعبدالله بن عمر ، فأولدوهن ثلاثة ابناء فاقوا اهل المدينة فقهاً وورعاً وعلماً .

دخول الاسلام والاختلاط بالعرب

ثم هناك أيضاً من قبل الاسلام من غير العرب ، ونزلوا في الخواضر العربية ، وامتزجوا بالعرب ، ففسدت البلاد مسكونة بالفاتحين وخصوصهم قبل الفتح ، ومن اهل البلاد وغير اهل البلاد ، من الذين تركوا بلادهم ونزحوا الى غيرها ، واحد جميع هؤلاء يشترك في الحياة الاجتماعية والاقتصادية الجديدة ، وفي كثير من الخواضر كان غير العرب اكثر من العرب ، كالكوفة مثلاً ، فان نصف سكانها كانوا من الموالي وكانوا يحسبون الحرف والصناعة والتجارة ، وكان استنهم فرساً ، في جنسهم ولغتهم ، جاءوا الكوفة اسرى حرب ، ثم دخلوا في الاسلام ، ثم اعتنقهم مالكوهم العرب ، فكانوا موالي لهم ، وبذلك صاروا احراراً ، ولكنهم ظلوا في حاجة الى حماية ساداتهم ، فهم حاشية العرب واتباعهم في السلم والحرب .

وكذلك كان الحال في غير الكوفة ، من الامصار العربية ، وما مقتل عمر بن الخطاب إلا مرده وجود بعض الفرس في المدينة عاصمة الخلافة ، ولم يكن العرب اكثرية إلا في الجزيرة نفسها ، واما في الممالك المفتوحة فقد كان العنصر الاجنبي اعظم واكثر .

وطبعاً ساعد هذا الامتزاج العربي الاجنبي ، على امتزاج العبادات العربية والقضاء العربي الذي صار وضعه من القرآن والسنة ، والحكم العربية ، بالعبادات الاجنبية ، والقانون الروماني والفارسي ، والحكم الفارسية والرومانية ، كما صار اقرار النظام الاداري للدولة العربية على غرار النظام الفارسية والرومانية القديمة ، حتى العقيدة الاسلامية لم تغل من التأثير هذا الامتزاج ، فالذين دخلوا الاسلام من الامم الاخرى لم

يتفهموا الاسلام كما تفهمه العربي ، حتى المخلصون منهم في اعتناقهم الاسلام اغافهموه مشوباً بكثير من تقاليدهم الدينية القديمة ، وعقائدهم السابقة .

والواقع ان العرب في تساهلهم بشأن الموالي ، وبإسكاتهم من التزوج بنسائهم ، قد افقدوا الشعب العربي كثيراً من حيويته وقوته ، كما انهم خلقوا في الاسلام اول عهده مشكلة الموالي ، لبس من الوجهة السياسية فحسب ، وانما من الوجهة الدينية ايضاً .

وكانت للموالي عصبية سياسية غير العصبية العربية ، وهم تقاليد دينية كان لابد ان ينزعوا اليها وبخالفوا بها النزعة الاسلامية العربية البسيطة ، ولذلك نرى الاسلام في اول عهده وبعد الفتوح ، يواجه حروباً جديدة غير حروب السيف والرمح ، كانت هناك حرب بين الاسلام والديانات الاخرى ، وحرب بين اللغة العربية واللغات الاخرى ، وحرب بين النظم الاجتماعية العربية وبين النظم الاجتماعية الفارسية والرومية ، وبذلك اصبحت المداكة الاسلامية ميداناً فسيحاً لهذه الحروب تتنازع فيها الآمال المختلفة ، ففرس ينجون الى ملائكتهم القديمة ويعتقدون انهم ارفع من العرب ، وروم كذلك ، كما ان النظم السياسية كانت متضاربة بين العرب والروم والفرس ، وكذلك كان هناك من الفرس من اسلم ومنهم من ظل على مجوسيته ، ومثل هذا كان حال الرومان والمصريين واليهود ، كما ان اللغة العربية كانت تقف امام لغات الامم الاخرى التي نزلت تحت حكمها ، وكلما كثر الذين يتقبلون الاسلام ، كلما ضعف شأن العرب ، لأنه لم يبق هناك امة عربية لغتها واحدة ودينها واحد ، وآمالها واحدة ، وانما كانت هناك امة اسلامية مؤلفة من امم ، ونزعات ، ولغات مختلفة ، تحاول كل واحدة

منها ان تحكم في غيرها ، وان تسيطر وحدها .
 وفي أثناء هذا العراك العظيم الذي تبسط حتى شمل المملكة
 الاسلامية كلها ، انتصر العرب في شيئين عظيمين ، اللغة والدين ، فاما
 لغتهم فقد سادت هذه الممالك جميعها ، وانجزمت امامها اللغات الاخرى ،
 وصارت لغة السياسة ولغة العلم ، وظل هذا الانتصار حليفا حتى اليوم
 في اكثر هذه الممالك ، واما الدين فقد ساد هذه الافطار ، وفاز اكثر
 من فوز اللغة العربية ، وفل من بقي من سكان هذه البلاد على دينه
 الاصيل .

اوان التأثير

ويذهب بعض المستشرقين الى ان كثيراً من الآراء الاسلامية
 والمذاهب الفلسفية والاجتماعية صار اقتباسها من اهل الكتاب ، ونحن
 وان كنا لا ننكر هذا التأثير على الفلسفة الاسلامية والثقافات
 الاسلامية ، الا اننا لا نرى بداً من الاشارة فقط الى ان هناك اختلافاً
 عظيماً بين المؤرخين في مقدار هذا التأثير وخطره ، فقد كان قوياً في
 ناحية ضعيفاً في الاخرى ، واما تأثير اهل الكتاب على المذاهب مثلاً ،
 فقد يصح اذا كان هذا التأثير بما ثبتت صحته ، وتأكدت روايته ، واما
 تأثير الاسلام على المسيحية فليس من شك فيه عند المؤرخين اليوم ، ففي
 القرن الثامن الميلادي ظهرت فئة من الكاثوليك في فرانسا تنسك
 الاعتراف للكهنة ، ونقول ان الاعتراف لا يكون إلا لله ، ومعلوم ان
 الاعتراف ليس بوجود عند المسلمين ، لعدم وجود الكهنة عندهم ،
 واصحاب هذه النظرية انما تأثروا بالتعاليم الاسلامية التي غزتهم من
 اسبانيا ما في ذلك شك ولا ريب .

ثم جاء البروتستانت بعد مئات السنين فاعتنقوا هذه الفكرة وايدوها . وهناك مذاهب مسيحية اخرى اشار اليها بعض مؤرخي المسيحية كالمستر هين ، في كتابه (المسيحية والاسلام في اسبانيا) اقتبست بذورها من التعاليم الاسلامية ، حتى ان بعض اصحاب هذه المذاهب ذهبوا يعملون للتقريب بين المذهبين ليصار الى توحيد المسلمين والمسيحيين بازالة سوء التفاهم بينهم حول بعض الامور الدينية .

وهناك كلوديموس مطران (نورين) الذي صار تعيينه مطرانا خاسا سنة ٨٢٨ ، فان اول اعماله كان منسج الرسوم والصور والتماثيل في اوسيته ، وكان هذا طبعاً من تأثير الاسلام عليه ، لانه ولد ونشأ في اسبانيا الاسلامية .

المسيحيون عند الفتح

ومن المؤكد اليوم ان اسباب هذا التأثير تعود الى هذا الامتزاج بين المسلمين وغير المسلمين بعد الفتح الاولى ، وقد اشرنا الى ذلك فيما تقدم ، وتعود في الوقت نفسه الى تسامع المسلمين ورحابة صدرهم ، وهو ما اشار اليه المستشرق (فون كرم) فان المناقشات التي كانت تجري بين المسيحيين والمسلمين في دمشق والتي حفظ لنا التاريخ بعضها ، في آثار يوحنا الدمشقي ، وتلميذه ثيودور ابو قره ، تؤيد هذا التسامع وتؤكد . . . ولولا ذلك ما كان يقدور يوحنا الدمشقي وتلميذه ان يضعوا الرسائل في الرد على المسلمين ومناقشتهم ، وفي تأييد المسيحية ومذاهبها المختلفة في وسط مسلم ، ونحت سلطان حكومة مسلمة ، والاسلام لا يزال في نشأته ، اولا تسامع المسلمين والحكومة الاسلامية العربية .

وكان الموظفون المسيحيون واليهود في عهد معاوية وبعده ،
 علاون دوائر الدولة ، وكان سرجيوس والد يوحنا الدمشقي مستشاراً
 في عهد عبد الملك بن مروان ، وما توفي قام ابنه مكانه ، وكان
 بندور المسيحي في هذا العهد ، ان يحمل صليبه على صدره ، ويشي بين
 الناس في دمشق ، وليس من شك في ان هذه الاتصالات الودية التي
 كانت تجري بين المسلمين والمسيحيين في دوائر الدولة والأسواق العامة ،
 أدت الى الاتصالات الثقافية ايضاً ، فعلم المسلمون الفلسفة اليونانية من
 اخوانهم المسيحيين ، كما تعلموا فنون المنطق واللغة ، واطلعوا على
 الاختلافات المذهبية التي كانت تستعر في الكنيسة ، كما ناقشوا المسيحيين
 في هذه الاختلافات والمذاهب .

وكما بحث المسيحيون في صفات الله ، بحث المسلمون في صفاته جل
 جلاله ، ثم اداهم هذا الى بحث القضاء والقدر ، وما ينعم به الانسان
 من ارادة في الحياة ، وعلى هو خير أو سيير ، ثم انتقلوا الى النار وعلى
 هي ابدية ام غير ابدية ، لمن يركب جريمة الكفر مثلاً ، ام ان الله
 يعفو بعد ذلك ويصفح ، وكان اول من طرقت هذا البحث في الاسلام
 جماعة المرجئة الذين ظهروا في اواخر عهد بني امية . . .

ثم هناك القدرية : وهؤلاء ايضاً ظهروا في عهد امية ، وكانوا
 اساس مذهب المعتزلة ، ومذهبهم فيه كثير من الفلسفة اليونانية ،
 خصوصاً هذه الفلسفة التي كانت مدرسة دمشق تعمل على ذبوعها
 وانتشارها .

واذا كان القدرية والمرجئة قد نشئا في دمشق بسبب التأثير
 اليوناني ، فقد عاشت في الاراضي الحلبية الواقعة حول ما بين النهرين
 في عهد الفتح العربية جماعات تنتمي الى مختلف العقائد والاديان ،

فالفرس اعتنقوا مذهب زروسترا ، وكان بينهم انصار (ماني) وهو دين مزيج من الزروسترية والمسيحية والمذاهب الهندية ، وكان في العراق ايضاً بعض المسيحيين ، وبقايا الوثنيين ، ومن هؤلاء جميعاً من اعتنق الاسلام وحملوا معهم تقاليدهم ومذاهبهم القديمة المختلفة .

ومن المؤكد ان كثيراً من اصحاب هذه المذاهب المختلفة لما اعتنقوا الاسلام لم يعتنقوه بقلوب صافية ، ولا تفهموا او امره ونواحيه المتواضعة كل التفهم ، فكان من اثر ذلك ان مزج بعضهم العقيدة الاسلامية بما كان عنده سابقاً من تقاليد ومعتقدات دينية ، فاذا الاسلام مع الايام وبين هؤلاء يختلف كل الاختلاف عن الاسلام المتواضع الحق المبين الذي نعرفه ...

وظهرت هذه المعتقدات الدينية الجديدة الغربية عن الاسلام اول ما ظهرت في الفتن المختلفة ، فكان حزب الخوارج اول الاحزاب ظهوراً ، والخواارج حزب ديموقراطي جمهوري مغرق في نظرفه ، لا يعرف الاعتدال ووحدة الصدر في اقرار مذهبه ، فكان شره اكثر من نفعه ، وكان انتصاره امعن في التفرقة وتقسيم المسلمين من اي حزب آخر .

وفام حول بعض الائمة احزاب مختلفة ، نظروا اليهم كأصحاب الحق الشرعي في الخلافة دون غيرهم ثم تطور هذا الحزب مع الايام حتى اصبح مذهباً سياسياً دينياً ، حيث حوله ما اخذوه من النظريات الفارسية الاصل في حق الملكية الالهية ، ثم هناك الاعتقاد بالرجعة - اي انتظار رجوع بعض الائمة الى الحياة بعد موتهم او اختفائهم - وهذه النظرية ليست من الاسلام في شيء ، يردها المستشرقون الى اهل الكتاب ..

الحضارة العربية والحضارات الأخرى

حضارة عربية

فاذا اشرفنا على الوان الحضارة العربية في الادارة والسياسة والتشريع والعمران ، وجدنا بعض المستشرقين يذهبون الى انه لم تكن هناك حضارة عربية ، وانما كان هناك حضارة امم اسلامية ، يروجون بذلك الى ان الامم التي دخلت الاسلام حملت معها حضارتها وثقافتها ، فنشأت من هذه الحضارات والثقافات الحضارة الاسلامية ، واذاً فالحضارة الاسلامية لا يمكن ان تنسب الى العرب وانما يجب ان تود وتعود الى هذه الامم المختلفة التي خضعت للاسلام .

ومع ان المؤرخ المعاصر لا يستطيع ان ينكر ما افضى به كل شعب اعتنق الاسلام للحضارة العربية الاسلامية ، فانه لا يستطيع ان ينكر في الوقت نفسه ان هذه الامم التي خضعت مضائرها للاسلام من حدود الصين والهند الى جبال اليبوتيه ، قد عملت معاً للحضارة العربية ، لان الحضارة العربية في الواقع تختلف كل الاختلاف عن الحضارات السابقة ، وليست وليدة عنها فحسب ، وسبب ذلك ان هذه الامم اوروبية الاسلام التي تزامت اطرافها ، وتعددت ممالكها ، كانت ترتبط إما سياسياً او دينياً او تجارياً بعضها مع بعض ، وكانت فيها دائماً وابداً عوامل تعمل على نقل الحضارات والثقافات من بلد الى آخر ، ولا ادل على ذلك من هذا الاجتماع العام الذي يعقد في كل سنة في مكة ، وهو ما يسمونه

بوسم الحج ، فإن هذا البلد الذي كان يجتمع فيه الوف المسلمين المختلفين في الاخلاق والعادات والثقافات منذ نشؤ الاسلام الى اليوم ، قد ساعد دون ما شك ولا ريب على توثيق العادات الثقافية والاجتماعية والتجارية بين الامم العربية الاسلامية بعضها مع بعض ، كما ساعد على نقل الثقافات والحضارات المختلفة من بلد الى آخر .

وكذلك ليس من شك بان الشعلة التي اخذت في دمشق اولاً ثم في اسبانيا ، والتي افادت في الوقت نفسه النظم الحالك الذي كان يعمر العالم في القرون الماضية ، كانت لها اثرها وكان يشع نورها على المواطن البعيدة الواقعة حول نهر الكنج وبحر قزوين .

واذا قمنا امام حضارة واحدة عاشت اجيالاً عديدة واستطاعت في انحاء ذلك ان تنصر في بوتقة واحدة الثقافات الاسلامية وغير الاسلامية ، وان تسيرها في خدمتها ، مدى اجيال ، ونفرض عليها المضي في الطريق الذي شقته لها .

عوامل الحضارة

ومن المؤكد ان اهم عامل من عوامل الحضارة والتقدم هو اتصال الجماعات بعضها مع بعض ، وتقدم امة او تأخرها ، لا يفسر بقيمة عقائدها الدينية ، ولا بالاعتماد على العنصرية فيها ، حتى ولا بأهمية البيئة التي هي فيها ، وانما يفسر بالمركز الذي احتلته هذه الامة في مختلف الاوقات من تاريخها وتأثيره عليها من حيث اتصالها بغيرها من الامم .

ومما يمكن من اهمية العنصرية الهندية الاوروبية وتفوقها على غيرها من العنصريات الاخرى ، فلولا هذا الاتصال الوثيق بينها وبين الامم الاخرى ، ولولا المركز الذي احتلته في تاريخها وساعدها على هذا

الاتصال ، اظلت الشعوب الهندية الاوروبية متواخرة .
وكذلك مهما يقال في منافع الافليم الاوروبي على غيره من الاقاليم ،
ومهما يقال في المركز الجغرافي الذي تحمله اوروبا والذي يتفوق على
غيره من المراكز ، فان اوروبا اخذت تسيطر على العالم لما غفكت من
السيطرة على طرق المواصلات الثقافية في العالم .
وبذلك يجب ان يدرس تاريخ الثقافة الاسلامية على النحو الذي
اثرنا اليه ، من حيث ان هذه الثقافة سيطرت على العالم لما حصرت
طرق المواصلات في يدعها ، فلما تخلصت عن هذه الطرق الخطيرة ، انتهت
حضارتها ، وضعفت ثقافتها ، وقامت مكانها الامم التي استوائت على هذه
المراكز الخطيرة ..

العراك بين المسيحية والوثنية

لقد ادخلت المسيحية نظرية جديدة في الحياة ، تمخضت عن حملة
شديدة على الوثنية اليونانية والرومانية ، وعلى الشرق القديم .
وقبل ان نتمكن من اقرار دعوتها ، والنجاح في خطتها
ظهر الاسلام ..

والعراك الذي قام بين المسيحية والوثنية لم يذلق بالدين فحسب ،
بل تعداه الى العلوم والفنون الوثنية ، خصوصاً وان ايمان المسيحيين الاول
يقرب انتهاء العالم جعلهم لا يكتفون بالعلوم والفنون الوثنية القديمة ،
ولا للنظم الحكومية المعروفة قبل عهدهم .

ومع ان المسيحية ساعدت كثيراً على اضعاف الثقافات الوثنية
القديمة ، إلا انها في الوقت نفسه رفعت مستوى الجماعات العامة ، ومكنتهم
من قراءة الانجيل في لغاتهم الخاصة ، كما مكنت هذه الجماعات من

الاشتراك في الخلافات الدينية خصوصاً في المدن التي كانت تنعم بشيء من الحضارة ، وشيء من نظام ثابت من نظم الحكم . وكانت الامصار الآسيوية ومصر التابعة للحكم الروماني احسن حالا وانعم حياة اجتماعية من غيرها من الامصار الاخرى ، خصوصاً في الوقت الذي اجتاح فيه البرابرة الالمان روميه وامبراطوريتها ، واجتاح فيه السلاف البلقان ، يهدمون ويمزقون الحضارات القائمة التي كانت تنعم بها هذه الجماعات في روميه وفي البلقان .

مدن جديدة

وفي الوقت الذي كان فيه تأثير الفكر اليوناني والحضارة الاغريقية على اشدما ، ظهرت مدن جديدة في آسيا ومصر ، كانت تسابق روميه نفسها في السعة والعظمة والجمال ، فالاسكندرية في مصر ، وانطاكية في سورية ، وسلوقية على نهر دجلة ، كانت جميعها لا تقل عن رومية سعة وعمرانا ، وفي مثل هذه المدن الكبيرة وغيرها من المدن التي اسسها اليونانيون ، كان السكان الاصليون يؤلفون الجماعات المتواضعة المتوسطة ، والى هؤلاء السكان ادار المبشرون المسيحيون انظارهم ، ومع انتشار الانجيل بين السكان في اليونانية ، انتشرت ايضا مؤلفات اخرى في السريانية والقبطية ، كما انتشرت في الوقت نفسه اداب مسيحية في لغات الامم المختلفة المعروفة في ذلك العهد ، كالنوبية والحبشية في افريقيا ، والجيورجية في آسيا ، والاثار التي بين ايدينا تقطع بان العربية كانت مستعملة في الكنيسة ، ولكن ليس لدينا ما يثبت انه كانت هناك اداب مسيحية في اللغة العربية قبل الاسلام .

ولقد تبسطت المسيحية في اثناء النزاع السياسي الذي كان يقوم بين

رومية وفارس ، وكانت مواطن هذا النزاع حول ما بين النهرين في العراق ، حيث كان الزعماء المحليون ، ينضمون الى احد الحصين وفاقاً للظروف والاحوال .

كما ان بلدة (اورفا) الواقعة الى شرقي الفرات ، وعلى طريق المواصلات بين سورية والعراق ، كان لها تأثير عظيم في تاريخ الكنيسة ، والحضارة السورية.

فادغار التاسع ١٧٩-٢١٦ مسيحية ، امير (اورفا) كان من الزعماء الاوائل الذين اعتنقوا المسيحية ، واصبحت (اورفا) مع الايام مركز الحضارة السورية والاداب السريانية ، وفي القرن الخامس ظهرت في هذه البلدة المدرسة اللاهوتية الايرانية التي كان لها تأثير عظيم في توطيد المسيحية ونشرها في ايران ، ومن (اورفا) ظهر اول كاتب سوري (بارداسان) ١٥٥-٢٢٢ م ، وكان وثيقاً اعتنق المسيحية ثم عاد الى وثنيته ، وكان آخر ممثل لمذهب الشكوكيين ، الذي كانت مزيجاً من التعاليم الوثنية والدينية وغيرها .

ولما كان مفروضاً على المبشرين المسيحيين تعلم الفلسفة والمنطق لمقاومة الشكوكيين والوثنيين وفلسفاتهم ومنطقهم ، فقد ظهرت عدة مذاهب فلسفية وثنية ، كمدرسة الاسكندرية التي اعتمدت فلسفة افلاطون ، ومدرسة انطاكية التي ابدت مذهب ارسطو ، ومنذ القرن الرابع نرى الاختلافات الدينية تسهر في وسط الكنيسة ، ونرى كنائس الشرق مختلفة متفرقة .

فمن الكنيسة الملكية () خرج اليعاقبة ، الذين كان لهم رأيهم في المسيح عليه السلام ، والنسطوريون الذين كانوا يختلفون مع غيرهم

(1) Melchits

في مركز العذراء عليها السلام ، ولما اضطدتهم الامبراطورية البيزنطية
هربوا الى ايران واستقروا فيها .

وفي اواخر القرن الخامس هرب النسطوريون من (اورفا) بعد
ان هدم الامبراطور زينو المدرسة الفارسية فيها ..

وكذلك نرى ان فارس الساسانية كانت في القرن الخامس موثلاً
وملاً لكل هذه المذاهب المختلفة ، من المسيحيين واليهود والوثنيين
الذين كانوا مضطهدين في الامبراطورية البيزنطية .

وقبل هذا العهد ، وفي الحروب التي كانت تقع بين فارس والرومان
نرى الفرس في تقدمهم في البلاد السورية بحروب بعض سكان المدن
على الانتقال الى بلاد فارس ، خصوصاً اصحاب الحرب والصناعات منهم ،
وكذلك كانوا يفعلون مع الرومان الذين كانوا يقعون اسرى في ايديهم
اذا كانوا من اصحاب الحرف والصنائع ، يبتزونهم الحصون والسدود
وغيرها ، واداً اردنا المقارنة بين الامبراطورية البيزنطية في القرون
الخامسة والسادسة والسابعة بعد المسيح ، وبين الفرس في هذه القرون
الثلاثة ، نرى ان الاولين وان كانوا يتمتعون بمركز ابرو في الحضارة ، الا
ان الساسانيين الفرس كانوا اكثر تقدماً ...

وليس من شك في ان الفرس في القرن السادس كانوا افضى قدماً
في سيرهم نحو الحضارة ، وفي هذا القرن الذي عرف انهيار الحضارة
الوثنية في الامبراطورية البيزنطية ، نراه في فارس عصر اتصال
بالحضارات الوثنية المختلفة ، ففيه صار ترجمة كتاب « كبله ودمنة » من
الفنيدية الى الفارسية ، وفيه كانت الفلسفة الاغريقية تترجم وتدرس في
فارس ، وفيه قدم بول الفارسي كتابه عن ارسطو الى خسرو الاول في
اللغة السريانية ، وقد حاول فيه ان يبرهن على تقدم العلم على الايمان ،

لأن العلم الذي لا يضطرب بالنشك يساعد على توطيد السلام بين الشعوب ،
 وأما الايمان الذي يبحث عن المجهول فإنه اداة اختلاف وشقاق .
 أما التجارة والصناعة الفارسية فقد وصلا الى ابعاد الغابات في القرن
 السابع اي قبل الفتح العربية .

وفيما قبل الفتح الاسلامي ايضاً وقعت بين الفرس والرومان
 البيزنطيين حروب طالت الى سنوات (٦٠٤ - ٦٣٠) ، استولى الفرس
 انماها على كل امصار الامبراطورية الاسبوية ومصر منها ، وكان نائب
 كسرى لهذه الامصار يقيم في الاسكندرية التي لم ينلها ما قال المحدث
 السورية من الحراب والتدمير وأما انطاكية فقد اصابها الكارثة
 قبل الفتح الفارسي ، وذلك في القرن السادس سنة ٥٤٠ لما نزلت بها
 هزة ارضية دمرتها تدميراً ، وقد أعاد الامبراطور جوستينيان عمارتها
 ولكن على منوال اصغر ، وفي القرن السابع دمر الفرس جميع المدن
 السورية التي مودا فيها ، وقطعوا اشجار الزيتون في المدن التي نزلوها ،
 وظلت آثار هذا التدمير ماثلة للعيان الى ما بعد مائة سنة من هذا
 التاريخ ، ولما كان الفرس قد وصلوا في زحفهم الى جوار القسطنطينية
 فاصابا الصغرى قد اصابها ما اصاب سورية حتماً من التدمير ، ولمسا
 فمكن الروم اخيراً من كسر شوكة الفرس ، قاموا في البلاد الواقعة تحت
 الحكم الفارسي بمثل ما قام به الفرس في بلادهم ، وساعدتهم انتصارهم الحزر ،
 وقد أعادت معاهدة الصلح التي وقعت اخيراً بين الدولتين كل الامصار
 التي احتلها الفرس قبلاً الى الامبراطورية البيزنطية ، ورجع الرومان
 بعض الاراضي العراقية ، وكان فشل السلاح الفارسي سبباً في سقوط
 خسرو الثاني ٦٢٨ كسرى الفرس ، وفيما ثورات في فارس . وما
 كاد الرومان ينتهون من حروبهم مع الفرس حتى عادوا الى اضطهاد

(الكفرة) أو الفرانقة الذين كان يخالفون مذنب كنيسة القسطنطينية كما اضطهدوا اليهود والوثنيين ايضاً بما جعل كل هؤلاء انصاراً للعرب فيما بعد .

وثنا ظهر المسلمون بدأ انحطاط الامبراطورية البيزنطية ثقافياً وحضارة ، وانتقلت الحضارة العالمية الى العرب الذين ظلوا يسيطرون عليها الى اجيال عديدة .

اهل الكتاب والحضارة العربية

وليس من شك اليوم ان حالة المسيحيين في الحكم العربي كانت افضل واحسن من حالتهم في عهد الامبراطورية البيزنطية .

وفي العصر الاول الهجري ، ظهرت آثار ادبية وعلمية في اليونانية والسريانية في مصر وسورية والعراق ، يعود الفضل فيها الى المسيحيين من سكان الامبراطورية العربية .

وكان يعقوب الاورفي ، وهو من اوراق (٦٤٠ - ٧٠٨ م) عالماً مشهوراً ، وبصفه مؤرخو الكنيسة بانه كان للكنيسة البعقوبية كما كان القديس جيروم للكنيسة الرومانية .

ومن المعلوم ان الامراء المسلمين استعانوا باهل الكتاب في العمارة والادارة ، وقد بنى المسيحيون كنائس جديدة في ابان الحكم الاسلامي ولم يعترضهم احد من العمال والامراء ، لانتانزي آثاراً مسيحية كثيرة تمتد الى العهد الاسلامي الاول ، ولم يكن المسلمون يمنعون المسيحيين من الاتصال باخوانهم خارج البلاد الاسلامية ، وفي الاجتماع الذي عقد في القسطنطينية ٦٨٠ - ٦٨١ ، نرى مسيحياً من دمشق يمثل المسيحيين فيها .

وحوالى سنة ٧٢٠ انتقل نشاط المذاهب الفلسفية اليونانية من الاسكندرية الى انطاكية .

وفي اواسط القرن الثامن اتصل المسلمون بالعلوم اليونانية بواسطة المسيحيين ، وفي هذا العهد سأل الخليفة المنصور ٧٥٤-٧٧٥ الامبراطور في القسطنطينية ان يبعث له ببعض الكتب الرياضية .

وفي القرن التاسع ترى حنين بن اسحق اول مترجم للآثار اليونانية الى العربية ، بصرف سنتين في القسطنطينية يدرس فيها اللغة اليونانية ، ثم لما عاد الى بغداد حمل معه كثيراً من المؤلفات اليونانية .

وهناك ما يؤيد تعلم المسلمين اللغة اليونانية ، وكانوا يتعلمونها من المسيحيين الموجودين بينهم .

وكان (نيوفيلوس) من اورفا ، فلكي بلاط المهدي ، وكان مكلفاً بدراسة العلوم الفلكية وهو الذي ترجم الالباقه والارذسية الى السريانية .

والظاهر ان الحرية التي اعطتها الدولة العربية الاسلامية للشعوب التي لم تكن مسلمة ولا عربية ، قد خلقت فكرة الشعبية عندهم ، فآخذوا بقولون انهم افضل من العرب ، ويؤثفون الكتب في ذلك ، بما دعا العرب الى الرد عليهم ، وانتقاد موقفهم .

وكذلك كانت تنعم الخلافة بشيء لم يكن ينعم به غيرها ، وهو انها جمعت تحت سلطانها ، مختلف الفنون والعلوم والثقافات والجماعات المنحصرة ، وكان التسامح الاسلامي - وهو مما لم يكن ينعم به الرومان - مساعداً وعاملاً فعالاً في تنشيط المعارف والعلوم وانصراف المسيحيين وغير المسيحيين الى الارتواء من هذه المعارف والعلوم . ومع ان المسلمين قد آخذوا معارفهم - اليونانية والرومانية وغيرها -

عن المسيحيين ، فإن المسيحيين في الواقع لم يكونوا أكثر من واسطة ، ولم يظهر بين غير المسلمين العرب مفكر واحد ، استطاع أن يخلق شيئاً جديداً لم يكن معروفاً ، ولا تمكن أحد منهم من شرح المذاهب الفلسفية اليونانية شرحاً جديداً فيه خبرة ودراصة بارعة ، بخلاف المسلمين الذين أخرجوا أمثال الفارابي ، وابن سينا ، والبيروني ، وابن رشد وغيرهم عما لا مجال إلى تعدادهم .

وكان تلامذة الاساتذة المسيحيين باكثرهم من المسلمين ، ومع الأيام أصبح المسلمون يسيطرون على المعارف والعلوم والثقافات اليونانية القديمة التي كان يسيطر عليها المسيحيون قبلاً ، كما بدأ المسيحيون في الوقت نفسه يعمدون بدراسة الآداب العربية بعد ان ظلوا زمناً طويلاً لا يفكرون بها ولا يدرسونها ، مقتصرين على الآداب اليونانية القديمة .

والذي نريد ان نقوله بعد ما تقدم هو ان الحياة الثقافية للمسيحيين الشرقيين في المدة التي نلت الفتوح الاسلامية لم يكن لها كبير قيمة في نفسها ، ولا اثمرت على الثقافة العالمية ، ولمدة طويلة كانت زعامة العرب المسلمين في العلوم والفنون اكثر ظهوراً ، وازد انواءاً ، وان كانت اقل عدداً ...

وفي سورية ومصر كانت المسيحيون حتى منتصف القرن العاشر يسيطرون على وظائف الكتبة والطبابة ، وكان اليهود ابرز في التجارة . وفي القرن الثاني عشر كان السوربيون اول من قبل الاتفاق مع الكنائس المسيحية الاخرى على ان يحترم كل فريق الآخر ، وكان الاتفاق الاول بين البعاثية والنساطرة .

ومن القرن التاسع ابتداءً شأن غير المسلمين بالانحطاط ، وسبب ذلك

ذهاب الحاجة اليهم في العلوم والفنون بعد ان اتقنها المسلمون ، كما ان الامبراطورية البيزنطية كانت تعامل اهل الكتاب المقيمين تحت السلطان الاسلامي ، معاملة قاسية ، فاحتقرتهم ونبذتهم ، ولكن المسلمين وان استغنوا عن اهل الكتاب في العلوم والموظائف وغيرهما ، الا انهم لم يضطهدوا احداً منهم بحال من الاحوال ، وظل هؤلاء ينعمون بمركز ممتاز في الامبراطورية الاسلامية ، حتى ان بعض كبارهم كانوا يرددون الملابس التي كان يرتديها كبار المسلمين .

واخذ المسيحيون مع الايام يتقبلون الاسلام ، فاضرت المسيحية بلاد فارس ، وضعفت كثيراً في مصر ، ولم يبق منها إلا الاقل في سورية ، وانقرضت تماماً في أفريقيا الشمالية .

ويظهر ان مشاركة النصارى كان اقرب الى العرب المسلمين منهم الى الشعوب الاخرى ، ففي الحروب الصليبية كما يقول احد الكتاب الروس من الذين ارتدوا للكنيسة : كان الكهنة والشعب المسيحي يفضلون الحكم العربي الاسلامي على بقاء الحكم الاورو .

وليس يستبعد ان يصل الشرق الى عهد ، يكون للرومية فيه اثر اكبر من اثر الدين في نفوس شعوبه وجماعاته .

الاقبال على العربية

ولقد ثبت اليوم بما لا يقبل الشك ان الشعوب المختلفة التي كانت تسكن اقطار الامبراطورية العربية وجدت من مصلحتها تقبل الاسلام والانضمام الى الدين الجديد ، وكان ذلك امرأ واقعاً فاختلج الفرس والسوريون والقبط والبربر يتقبلون الاسلام ، وحين يتقبلون الاسلام كانوا يسون انفسهم عرباً ، وراحوا يقدمون ذكاهم وعلومهم ومعارفهم

لتعزيز الدين الجديد، واخذوا في الوقت نفسه يكتبون بالعربية ويؤلفون بالعربية ، واذاً فمع اعترافنا بان الامم التي عززت الحضارة العربية الاسلامية كانت باكثريتها من غير العرب إلا ان هذه الامم نفسها حين تقبلت الاسلام ، خصوصاً في سورية ومصر وأفريقيا تقبلت معه العنصرية العربية ، واخذت تتوالد وتعيش بين العرب وتحت ظيل الحكومة العربية .. بحيث اصبحوا عرباً مع الأيام وتناسوا ثقافتهم الماضية وثقافتهم السالفة .

ولم يعمل العرب لنشر الاسلام ، ولم يكن عندهم مبشرون ولا كانوا بمبشرون التبشير ، والذين كانوا بمبشرون التبشير منهم هم المسيحيون الذين اسلموا والذين تعلموا التبشير من المسيحية .

الحضارة متقاربة

والحضارة قبل الاسلام كانت تقريباً متقاربة في مختلف المواطن ، فالحضارة الاغريقية غلبت الحضارة الرومانية في القسطنطينية ، التي اخذت الكثير من الحضارة الفارسية لانصافها حكومياً وسياسياً وحروبياً بعضها مع بعض ، كما اخذ الفرس من اليونان قبلهم ...

وكانت الحضارة في آسيا الغربية مزيجاً ، نعمت بالثانيون اليوناني والسامي والفارسي كما نعمت بكل ثقافة خارجية اتصلت بها .

ومن المؤكد ان الحضارة الاسلامية كانت في اول الامر مزيجاً من الحضارتين الارامية والعربية ، ولكن هذا لم يطل طويلاً ، فما لبثت الحضارات الاخرى ان اتصلت بالحضارة الاسلامية ، التي اتصلت بدورها بالحضارات اليونانية والرومانية والفارسية وحضارات وسط آسيا كتركستان والصين والهند .

ما اخذته العرب

ويقول بعض المستشرقين ان العرب اخذوا ادارتهم عن الفرس والرومان ، والفلسفة والعلوم الطبيعية عن اليونان ، وفن العمارة عن البيزنطيين والفرس ، واخذوا فقههم وكتابة التاريخ عن الفرس ، واستقل العرب بشعرهم وادبهم ، وقضائهم وتشريعهم ، لان ما اخذوه من الامم المختلفة من هذه العلوم والفنون كان حينئذ لا يذكر .

اللغة العربية في فارس

ومن الدلائل على تأثير العرب على الفرس ، انه لما قتل يزيد بن كسرى الفرس سنة ٦٥١ ، انهارت الامبراطورية الفارسية والديانة الفارسية واللغة الفارسية ايضاً ، وقامت العربية مقام اللغة الفارسية فاصبحت اللغة الرسمية ، ولغة العلوم والفنون ايضاً ، وادى هذا على وجه التحقيق الى اضعاف اللغة الفارسية اضعافاً عظيماً ، فاصبحت اللغة العربية لغة سكان نيسابور ، وسكان كوم وهرات ، يتكلمون بها ويكتبون ، واصبحت العربية لسان الطبقة الراقية ، حتى في خراسان غلبت العربية الفارسية .

وبعد الفتح العربي لم يبق لسكان فارس من وسيلة لاطهار عواطفهم والاعراب عن امالهم ومشاعرهم الا بالشعر ، وفي الشعر فسدوا الشعر العربي مع بعض التعديل القليل .

وفي عهد المأمون فقط اخذت فارس تعود الى نفسها ، وبدأت الحركة الاستقلالية الداخلية فيها ، وظهر فيها بعض الامراء الذين اخذوا يعملون لهذا الاستقلال ، كبني طاهر ، وبني بويه وغيرهم ، وقد

لعب الشعر الفارسي دوراً عظيماً في تنشيط هذه الحركة الاستقلالية كما
اذكى روح الوطنية .

نظامان كبيران

والخلاصة ان الفكر العربي خلق نظامين كبيرين : اولهما امبراطورية عربية
خلقها العرب وحكمها العرب ، واستفاد منها العرب وغير العرب ، وصار
حكمها وفاقاً للنظم العربية نفسها ، وهذه الامبراطورية انتهت بانتهاء
امية ، وثانيها الامبراطورية الاسلامية التي كان العرب فيها جماعة من
المسلمين ، والتي قام بها وحكمها ووطدها جماعات اسلامية مختلفة منهم
العرب ، وهذه الدولة دامت مئات السنوات وظلت حية حتى السنوات
الاخيرة لمولم تضعف إلا بتقدم الحضارة الاوروبية التي حلت محل
الحضارة الاسلامية ، ومع ان هذه الامبراطورية لم تكن عربية بشكل
ما في الكلمة من معنى ، وكان اكثرية سكانها والعاملين فيها من غير
العرب ، فانها اخذت نظمها وروحها من النظم العربية السائدة ، وكان من
مظاهر التأثير العربي فيها ان المسلم الاعجمي كان يسمى نفسه باحماة عربية ،
ويتعلم العربية ، ويؤلف بالعربية ، ويدين بالاسلام الذي هو دين العرب ،
ويقرأ القرآن الذي هو افصح كتاب في العربية ، فكيف لا يصبح عربياً ،
وسنوات قليلة تكفي في الوقت الحاضر لقبول اي اجنبي يعيش في احد
البلاد المتحضرة الحاضرة ليصبح من اهلها وابنائها . . .

ماذا قدم العرب

ولقد قدم العرب للعالم ديناً جديداً ، حدد علاقة الانسان بربه
تجديداً معقولا ، قوى الدعائم مسبوك الحدود ، وزفيع من شأن المرأة

عما كانت عليه في الجامعة ، وخلق الوطنية العربية ، ولم تكن هناك قبل عهده وطنية في الجزيرة ، وحرّم الاشربة المسكرة التي لا تزال تخبث فساداً في المجتمع الغربي حتى اليوم ، واما هذه المساواة الانسانية وهـ : النظم الاشتراكية التي تجعل من المجتمع الانساني مجتمعا منحدداً بعمل كل واحد للمجتمع ، ولا تستثمر جماعة من هذا المجتمع غيرها ، فانه في الواقع شيء جديد يجعل الانسانية في نعيم دائم ، ونظام كأنه الرئيس الاخضر ...

ومن المؤكد اليوم ان كثيراً من الهدوء العقلي السليم ، والتفكير الهادئ المستقيم ، اللذين وصلا الى الامم الاوروبية مع عصر النهضة ، وحلاها من عرب اسبانيا وتفكيرهم المنطقي ، وتحكيمهم للعقل في كثير من شؤون الحياة ومشاكلها والوانها . (١)

ولكن العرب الى ذلك لم يوفقوا الى خلق نظام دائم ثابت كالامبراطوريات المعاصرة ، او كالامبراطورية الرومانية السابقة ، ونظمهم الحكومية التي استقامت في عهدهم تساوق النظم الاغريقية قوية جبارة في نشأتها ، ضعيفة مع الایام ، مهددة بالسقوط والانحيار ابداً ودائماً .. لانها نظم تظهر فيها الفردية اكثر مما يظهر فيه عمل الجماعة المنسجمة القوية .

والعرب مع ذلك لم يفتحوا المدن فحسب ، وانما حملوا ايضاً سكان هذه البلاد المفتوحة على تأثرهم والجري على غرارهم ، وقد تقبلت هذه الجماعات لغتهم اول الامر ثم دينهم ، وهم من هذه الناحية اعظم الامم المستعمرة في العالم لان احداً من المستعمرين لم يوفق الى ما وفق اليه العرب من الخضاع الحكوميين للغة ودينه وعاداته ...

(١) ريتشارد كوك في كتابه - مركز العرب في الشمس - ص (٥٣)

ومع ان الامبراطورية قد نشأت وقامت على سيوف جماعات مسلمة
من غير العرب ، فان هذه الجماعات لم توفق الى التغلب على التأثير
العربي إلا في بعض الاحوال والحالات ، وظلت الامبراطورية العباسية
امبراطورية عربية مسلمة ، تتنازعها مؤثرات عديدة ، عربية وغير
عربية .

وهذه العناصر العربية عن العرب كانت في الوقت نفسه تعمل لمصلحة
العرب ، والحضارة العربية ، وكذلك رأينا الفن والفلسفة والعلم عند
اليونان تعود سيرتها الاولى في عهد الحضارة الاسلامية العربية ، كما شاهدنا
الصوفية الهندية الفارسية تقدم ثمارها ، وكما استفاد العرب من هؤلاء
جميعهم استفادوا ايضاً من الفن العسكري عند الترك ، والفن المائي عند
غيرهم ، وحسب البحر الذي كان خاصاً بالشرقيين من سكان السواحل .



التنظيم الإداري في عهد الخلفاء الراشدين

الخليفة الأول

كان الحكم في عهد الخلفاء الراشدين شيئاً اقرب الى الامور الدينية منه الى سواها وغيرها ، وهو في الواقع حكم الفطرة لم تستقم فيه سيطرة لسلطان ، ولا حرس خليفة ، ولا دائرة لحكومة ، ولا موظفون يتفرغون للنظر في شؤون الدولة ومناهج الحكم ، بل لقد كانت الحالة في عهد الراشدين شيئاً بسيطاً هو اقرب الى حكم العائلة منه الى حكم مملكة فتية جديدة كثيرة الامصار عظيمة الشأن والسلطان .

لقد انتظمت الحكومة في عهد الراشدين ، بل في عهد الخليفة الاول في شخص واحد هو الخليفة نفسه ، فكانت صاحب التشريع والتنفيذ ، وكان الحاكم والقاضي ، والمنفذ لما يصدره من اوامر ، وما يشرعه من حدود ، وهي ظاهرة تراها في حياة العائلة عن الرومان والعرب البدو وهي الى ذلك كاه ، كانت ظاهرة واضحة في عهد الخليفة الاول الذي كان كل شيء في الدولة ، إلا حين يعهد ببعض واجباته الى غيره من الصحابة في المدينة التي كانت عاصمة الدولة الاسلامية الناشئة في عهده ، كما وقّع فعلاً ، وقد ذكر المؤرخون انه ولي عمر بن الخطاب القضاء في المدينة ، وعهد الى ابن عبيدة عامر بن الجراح بامانة بيت المال قبل تعيينه قائداً لاحد الجيوش العربية في الشام .

ولم يتخذ ابو بكر كاتباً معيناً فكان يكتب له زيد بن ثابت ، وعثمان

بن عفان وعلي بن ابي طالب ، وكان يكافهم بالكتابة له حين تدعو الحاجة
ويكون الى ذلك سبيل .

والذين كان يكافهم ابو بكر بالعمل له في بعض الحالات ، كانوا
يفعلون ذلك دون ما اجر ، فلا يصح والحالة هذه ان نعتبرهم من
الموظفين في الدولة .

اما الدولة الاسلامية في عهد الخليفة الاول فكانت مؤلفة من
الجزيرة العربية نفسها ، لان الافطار الجديدة المفتوحة في العراق ومشارق
الشام لم تكن لعهده فقد تقورت وانتظمت شؤون الحكم فيها ، وكانت
لا تزال تحت الحكم العسكري للقواد المختلفين الذين كانوا يفصلون في
شؤونها وبشرفون على مصالحها وامورها .

اما الجزيرة العربية فقد جزأها الخليفة الاول الى ولايات ، وجعل
على كل ولاية اميراً من قبله ، وكان الامير يقيم الصلاة ، ويقضي في
القضايا ويقيم الحدود ، فكان كالخليفة حاكماً وقاضياً .

وكان الخليفة الاول يرتق اول الامر من استغلال ارضه ، وعمل
يده ، وقد ظل ستة اشهر من خلافته وهو على حاله هذا ، لا ينفق على
نفسه من بيت المال شيئاً ، حتى اجتمع بعض كبار الصحابة وقرروا له
شيئاً من بيت المال ، ففرضوا له قوت رجل من المهاجرين ليس
بافضلهم ولا اقلهم شأنًا ، وكسوة الشتاء والصيف .

وقدر بعض المؤرخين ما فرض له ستة الاف درهم في السنة فلما
حضرته الوفاة امر بجزء ما اخذه من الاموال العامة ، فباع ورثته ارضاً
له حتى استقام لهم تنفيذ رغبته .

وكان جند المسلمين في عهده من المتطوعة لا يكلفون بيت المال قليلاً
ولا كثيراً ، وانما كانوا ينفقون من اموالهم ، ثم بما يصيبون من الغنائم

في الحروب التي يشتركون فيها ، ذلك انه كانت للمقاتلة اربعة الخماس الغنيمة ، سوى ما يناله الجندي من سلب من يصرعه في الحرب ، وكان امير الجيش الى ذلك يفضل الممنارين من الجند بالبلاء والجرأة على غيرهم وسواهم بالعطاء والنوال .

وكان الخليفة الاول يسوي في العطاء بين الناس ، ولا يميز احداً عن احد ، فقبل له :

- كيف تسوي بالسالفين الاولين غيرهم ؟

فقال : اواثك قوم عملوا لانفسهم ، وسبقوا الى الدخول في الدين ابتغاء مرضاة الله فوقع اجرهم على الله ، واما انا فلا افضل احداً على احد . وكان يرد الى بيت مال المسلمين خمس الغنائم الحربية ، وصدقات المسلمين ، وجزية اعسل الذمة ، فكان يأخذ الخليفة من هذه الاموال عطاه ، ويدفع منها رزق عماله ، وولائه على الامصار في الجزيرة ويقسم الباقي بين المسلمين المتخلفين في المدينة وغير المدينة ، والذين سبقوا الى الاسلام وشهدوا بدرأ واحداً في عهد رسول الله .

نشر الاسلام

ومما يجب ان يصار الى ذكره بمناسبة الكلام عن الخليفة الاول ايمانه المطلق بالدعوة الاسلامية ، وقيامه بنشرها على الوجه الاكمل والاحسن ، وموقفه من المرتدين ، يوم اضطربت القلوب ، وضعفت العزائم ... وهو اول من ادرك ان الامة العربية لا تستطيع ان تنشر دعوتها اذا لم توحيد صفوفها ، ونشئ الى العالم صفاً واحداً وقلباً واحداً ، وقد اثبتت الايام بعد نظره ، واتزان تفكيره ، فلما توحدت العربية ، اصدر امره الى العرب بالزحف الى العراق وسورية ، والولا توحيد

الصفوف ، وفضاءه على الاختلافات الداخلية ، لما كان يطوق العرب ان
يسيطروا سلطانهم الواسع ، ودينهم المتواضع على البلاد المجاورة والامصار
البعيدة .

والمستشرقون يختلفون فيما يسطناه اختلافاً عظيماً ، بعضهم يقول ان
رسول الله لم يفكر ابداً في بناء دولة ضخمة كهذه الممالك التي كانت تقوم
على اطراف الجزيرة - الامبراطورية الفارسية او الرومانية مثلاً -
وان جل ما كان يرمي اليه هو نشر دعوته بين العرب وفي جزيرة العرب ...
وبعضهم يقول ان رسول الله كان يسعى الى انشاء امبراطورية
اسلامية عالمية ، ويقول دي غوي (De Goeje) ان ابا بكر ارسل
البعوث العسكرية الى سورية لثلاثة اسباب :

- ١ - رغبة محمد في نشر الاسلام بين كل العرب .
- ٢ - رغبة محمد في ان يسود الاسلام العالم .
- ٣ - رفض كسرى الفرس وقيصر الروم قبول الاسلام لما دعاهما
محمد الى ذلك في مراسلاته الدبلوماسية .

واما (كيناني) المستشرق الابطالي الكبير فينكر ذلك كل
الانكار ، ويقول : ان العرب لم يكونوا يفهمون من انشاء الممالك
كثيراً ولا قلبلاً ليضحوا بانفسهم في هذا السبيل ، وان محمداً لم يكن
عنده مشروع للسيطرة على العالم ، وانه لم يتوكل شيئاً من ذلك خلفائه
من بعده ، ويذكر لنا ما يذكره (اليعقوبي) من ان ابا بكر لما ارسل
الزحف الى سورية لم يكن يرمي من وراء ذلك التوسيع غارة لموقعة
كهنه الغارات البدوية المعروفة ...

والواقع ان كيناني ومن يؤيده يجوزون لانفسهم انكار حقيقة
اصبحت امرأ واقعاً ، ايدها الفتوحات الاسلامية ، وايدها القرأت

نفسه ، وابتدتها سياسة ابي بكر العسكرية نفسها ... فلو كان ابو بكر يريد غزوة ، لاكتفى بالغارة التي ارسلها بقيادة اسامة بن زيد بعد وفاة رسول الله بياوم الى مشارف الشام ، للاقتصاص من بني قضاعه ، وقد نجحت الغارة كما هو معلوم ومعروف .

ولكن الجيوش الاربعة التي ارسلها ابو بكر لسورية بعد هذه الغارة ، وبعد الانهاء من حروب الردة ، وتعبينه مراكم معينة لكل قائد من قواد هذه الجيوش ، لاقتحامها واحتلالها ، يدل دلالة واضحة على رغبة الخليفة الاولى بالتوسع ونشر الدين ، وهو ما ليس يتفق ومبدأ الغارة ...

وهناك نصوص صريحة في القرآن يدل على ان الله الذي بعث رسوله الى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، وفي الحديث ما يدل على مثل ذلك ، ولو مد الله في عمر رسوله المكاث رسول الله اول من جهز الجيوش وبعث البعث للامصار التي حوله ...

عمر ابن الخطاب

ويجمع المؤرخون على ان عمر بن الخطاب اول منظم اداري للدولة الاسلامية الناشئة ، وعمر بن الخطاب باجماع مؤرخي العرب والفرنجية شخصية خرجت على غير مثال وقانون ، وهو في نظر الجميع يقف وحده وفي الصف الاول بين حكام العالم من عرب وعجم ، والمؤرخون الافرنج بقدرهم فيما بقدرونه فيه شخصيته النادرة وبراعته ، وبعد نظره ، وهدوء اعصابه وجوانته وحسن ادارته ، وقد تمكن بها جميعاً من تسير دفة الفتوحات في طول الارض وعرضها وهو في مكانه بالمدينة . ويقول تولد كه في وصفه : انه كان وهو في مقره بالمدينة يدور

حركات الجيوش العربية القانحة ، وكان يعيش عبثة بسيطة متواضعة
تشير الإعجاب حقاً ، بينما كانت الزخارف العربية تدر على بيت المال
الغنائم الوفيرة ، والثروات الطائلة ، والاموال العظيمة فلا يأبه لها ،
ولا يكاد يرمقها ، وهذه ظاهرة فريدة في تاريخ العباقر في التاريخ ،
تدل على ان عمر بن الخطاب كان فذاً بين الرجال والابطال .

و اول عمل سياسي خطير اقراه عمر بن الخطاب هذا التشريع الذي
اصدوره ، بشأن اجلاء غير المسلمين عن الجزيرة العربية . . .

ويرجع السبب في هذا التشريع الى ما افضى به رسول الله قبل
وفاته ، من المضي في ارسال الغزوة ضد الروم بقيادة اسامة بن زيد ،
وتقسيم غلال خيبر ، واخراج غير المسلمين من الجزيرة (١) .

وفد صار انفاذ الامر بن الاولين في عهد الخليفة الاول ، وفي عهد
عمر صار اقرار الامر الاخير ، وفي المصادر التي بين ايدينا ما يدل على
ان هناك جماعة من اليهود كانوا لا يزالون في خيبر ، وجماعة من النصارى
في نجران ، من اعمال اليمن ، وان عمر بن الخطاب وجد من الحكمة
وحسن الرأي ان يكون الاسلام في مواطنه منجاة عن الشكوك والبدع
التي كانت تعصف في ذلك العهد ، فاستقر رأيه اخيراً على اجلاء غير
المسلمين ، ويرى بعض المستشرقين ان عقله الدينية ، وجهوده العظيمة
لبث الاسلام ونشره ، كانا بدعوانه الى مثل هذا العمل ، ولو لم يأمر به
رسول الله وبدعو اليه ، والذي بدعو الى الاعتقاد بان رسول الله نفسه لم

(١) هناك اختلاف عظيم بين المؤرخين حول الامر الذي يتضمن باخراج غير
المسلمين من الجزيرة ، فبعض يشكو ان يكون رسول الله قد امر به ، ودعا اليه .
على ان هناك نظرية ثانية وهي ان (البخاري) يعتبر بلاد العرب - التي يجري فيها هذا
الاجلاء مثلاً - هي مكة والمدينة ، واليامة واليمن . ومما عدا ذلك فتخرج عن الجزيرة
بالمعنى الصحيح المعروف في ذلك العهد .

بأمر بالخراج غير المسلمين من الجزيرة ، ان سكان نجران جازا الى ابي بكر بعد وفاة رسول الله وطلبوا منه تجديد العهد لهم ، فكانهم بذلك كانوا يعتقدون ان العهد الذي قطعه لهم محمد بن عبدالله كان عهداً شخصياً لا يربط خلفاءه من بعده ، فلما تولى عمر الخلافة اجلاهم واليهود . وقد صار اجلاء اهل الكتاب عن الجزيرة في كثير من اللطف ورحابة الصدر ، فلم يكلفهم احد تبديل دينهم ، وفدوت اموالهم غير المنقولة ، فاعطوا ما يقابلها في البلاد التي نزلوها ، كما خيروا في البلد الذي يريدون السكنى فيه ، والمستشرق كبتاني يقول : ان هذا الاجلاء كانت حادثاً فردياً كما يظهر فقد بقي بعض المسيحيين واليهود في الجزيرة ، ولكنهم كانوا من القلة بحيث لم يفكر احد في ترحيلهم ، واما مسيحيو نجران فكانوا يؤلفون عدداً ضخماً ، فدرهم ابن سعد ياربين الفاً .

وقد ذهب اهل نجران الى سورية والعراق ، ورفعت عنهم ضريبة الجزيرة مدة اربعة وعشرين شهراً ، واعطوا من الارض ما يكفي حاجتهم .

اما يهود خيبر فلم يكن في العهد الذي اعطي لهم عهد رسول الله ما يدعو الى بقائهم مكانهم ابد الدهر ، اذ اشار العهد الى انهم يظنون في خيبر لمدة موقتة ، وقد صار اجلائهم عن خيبر في عهد عمر فذهبوا الى سوريا ، بعد ان دفعت الخزانة العامة ما يوازي او ما يقل قليلاً عن ما كان يملكونه في خيبر من الاموال .

العربي قوة عسكرية

والامر الثاني الذي اقره عمر في عهده ، منعه العرب من مشقوى

الأرض والأقامة فيها في البلاد المفتوحة ، ليظفروا قوة عسكرية متحركة ،
وليظفروا مجاهدين غازين أبدأ ، تحت تصرف الدولة .

ومنه الفكرة ، مع خطورتها وأهميتها لم تنجح كل النجاح ، فساد
العرب بعد وفاة عمر إلى شراء الأرض ، وزرعها والأقامة فيها ، ولكنهم
في أيام عمر أقاموا في المعسكرات ، فكان العرب في سورية يقيمون
في الجابية ، وحمص ، واماوس وطبرية ، واللد ، والرملة ، وفي مصر
تولوا الفسطاط والاسكندرية ، وفي العراق أقاموا بالكوفة والبصرة ،
وتركوا الأرض لأصحابها يزرعونها ويدفعون الخراج عنها .

فلما توفي عمر وكان عهد عثمان عاد الناس سيوتهم من الأخذ بأمور
الدنيا ، وشراء الدور والمقارنات ، ففسدت وصية عمر التي أراد بها أن
يظل المسلمون جيشاً متاهباً متحفزاً ، وحركة دائمة غير متصل بالأرض
في كثير ولا قليل .

والواقع أن عمر بن الخطاب كان رجلاً شديداً — باجتماع المؤرخين —
ضيق على قریش انقاسها ، فلم يزل أحد معه من الدنيا شيئاً اعظاماً
له وإجلالا ، وناسياً به واقتهاد ، فلما وليهم عثمان وكان رجلاً لين فعملوا
ما فعلوا للسبب الذي اشرفا اليه من لطفه ووداعته ، وبعده عن الشدة
والأخذ بالفسوة والضعف .

ولقد اشار عثمان نفسه إلى خوف الناس من عمر في عهدده ، فلما
انكروا على عثمان ما انكروه وقف على المنبر وقال بخاطب المهاجرين
والانصار :

« أما والله لقد عتبتم علي أشياء ونقمتم أموراً قد افرغتم لآلئ
الخطاب منها ، ولكنكم رفعتكم ، ولم يجترئ أحد يلا بصره منه ،
ولا يشير بظرفه اليه ،

الولاية

ثم نظر عمر الى الاقاليم العربية المفتوحة فقسمها الى اقسام
ليسهل حكمها ، ويشرف على موارد ثروتها ، وهي : ولاية الاهواز
والبحرين وولاية سجستان ومكران ، وولاية طبرستان وكرمان ،
وولاية خراسان ، وجعل بلاد فارس ثلاث ولايات ، وقسم العراق الى
قسمين ، حاضرة الاول البصرة ، وحاضرة الثاني الكوفة ، وقسم بلاد
الشام الى قسمين : حمص ، ودمشق ، وجعل فلسطين قسماً قائماً بذاته ،
وقسم افريقية ثلاث ولايات : مصر العليا ، ومصر السفلى ، وغرب مصر
وصحراء ليبيا .

وكان امير الولاية يعين من الخليفة نفسه ، وينوب عنه في حكم
الولاية ، وكان للقضاء والصلاة والخراج والجند والشرطة وما
اليها من مهام الدولة ، على ان عمر بن الخطاب عاد فعين لفلسطين ودمشق
وحمص وقنسرين عمالاً للصلاة بالناس واقامة العدل بينهم وهم القضاة .
واختار عمر الولاة من العرب وسار على هذه السياسة من جاء بعده
من الخلفاء الراشدين والامويين .

وكان عمر حريصاً كل الحرص على ان يأخذ عماله سيرته ، ويشعرون
صراحته واساليبه ، ويتأثرون اخلاقه وآدابه ، وهذا سبب مرافقتهم
لعماله ، واستطلاع اخبارهم ، واخذ المذنب منهم بالقصاص الشديد
والعقوبة البليغة .

وكان عمر قد اقام محمد بن مسلمة مفتشاً عاماً يرسله الى كل بلد شكوا
اهله من اميرهم ، وكان عمر يشق به شقة عظيمة ، وبها ساس به الفاروق
عماله انه كان يحصي عليهم اموالهم قبل توليتهم ، فاذا زاد لهم مال بعد

ولا يتهم صادرهم . عليه كاه او بعضه ، ذلك انه كان يرى ان لا يتناول
العامل من مال الامة فوق كفايته ، فان كثر ماله كان اما مربباً اخذه
من غير محله ، ويبت مال المسلمين اولى به ، واما ان يكون راتبه فوق
كفايته ، والمسلمون اولى بها فمثل من كفاية العامل الذي يعمل
بالاجر .

فعمرو اذا لم يختار للاموال الا افاضل الرجال ممن كانوا على غرار
وزهده ، وكان الى ذلك يستشير كبار الصعابة في عماله ، ثم يقرر ما
يراه في شأنهم .

ولقد صدر عمر عامله على مصر عمرو بن العاص ، لانه فشت له فاشية
من منافع ورقيق وآنية وحيوان ، لم تكن له حين ولي مصر ، فادعى
عمرو : ان ارض مصر ارض زراعية ومنجر ، وانها اي امواله
الزائدة - امان خيل تذاجت ، وسهام اجتمعت ، وانه يصيب فضلاً عما
يحتاج اليه لنفقته ، ومع ذلك فاسمه عمر ماله .

وصادر عمر اموال ابي هريرة عامله على البحرين لانه اجتمعت له
عشرة آلاف وقيل اضعاف ذلك من الدراهم ، وقد ادعى ان خيله تناسلت
وسهامه تلاحقت وانه انجر ، فقال له عمر : انظر رأس مالك ورزقك
فخذ ، واجعل الآخر في بيت المال .

يريد بذلك ان يحصر العامل كده في خدمة اهل عمله ، واما الانجار
وتشجير الاموال فهذا ليس من شأن عمال الدولة ... واما الادارة في
عهد عثمان وعلي فانها كانت على غرار الادارة في عهد الفاروق .

النظام الاداري

ولقد ظل النظام الاداري في عهد الخلفاء الراشدين وصدرأ من

الدولة الاموية على ما كان عليه في بلاد الفرس والرومان ، وسبب ذلك ان العرب وجدوا في البلاد التي احتلوها نظاماً ادارياً ثابتاً ، فاقروه وابقوه ، حتى لا يضطرب الامر ، وتعتور الادارة القوضى بسبب الانتقال من نظام الى آخر ، ولكنهم احدثوا ما ينطبقه الاصلاح من التغيير والتبديل مما لا غنى للعرب عنه ، ومما يتفق مع عقائدهم الدينية ، وبسائر مصلحة الشعوب التي خضعت لهم ..

واما القضاء والصلابة فكانا من الامور الجوهرية التي تناوفا التبديل لارطباطها ارتباطاً وثيقاً بالدين ، وكان النظام الاداري في صدر الاسلام بسيطاً جداً ، فلم يكن فيه توزيع الاعمال ، وتقسيم الواجبات ، فكان الخليفة او العامل يقوم بكثير من الاعمال دفعة واحدة ، وكان الموظفون عهد الخلفاء الراشدين عدداً محدوداً ، ولم يكن عددهم الا اواخر عهد الامويين وفي عهد العباسيين .

الديوان

ومن الامور التي اقرها عمر بن الخطاب نظام الديوان في الاسلام ، وهو عمل من اجل الاعمال واعظمها ، وسببه انه لما نالت الفتوح الاسلامية ، وكثرت واردات وارادات الدولة ، رأى عمر توزيع هذه الاموال على المسلمين مراعيّاً في ذلك مراتبهم واستحقاقهم ، فاخذ يفكر في الامر واحسن الوجوه لاقراره ، فاشار عليه احد الفرس باحتفال نظام الدواوين الذي كان يسير عليه الفرس لضبط دخل الدولة وخرجها فعمل عمر بمشورته ، ودون الدواوين وفرض العطاء .

ولاجل تقسيم الواردات او (العطاء) صار احصاء المسلمين ، فكانت عائشة ، وزوجات رسول الله اول الجميع ، وكانت عائشة تنال من بيت المال

١٢٠٠٠ درهم في السنة ، ثم يأتي آل البيت ثم المهاجرون فالانصار ، كل واحد منهم وفقاً لما قدمه لرسول الله والاسلام من خدمة ونضحية ، ويتراوح عطاؤه بين ٤٠٠٠ - ٥٠٠٠ درهم في السنة ، ثم يأتي بعد هؤلاء رجال القبائل العربية من المجاهدين والفاتحين - وكان يقدم منهم من يحفظ القرآن - وكان اقل عطاء المحارب من ٥٠٠ - ٦٠٠ درهم ويدخل في العطاء النساء والاطفال والموالي ويأخذون من ٢٠٠ - ٦٠٠ درهم وفقاً لمركزهم .

الكاتب

ومن اعوان الخليفة منذ نشوء الدولة الاسلامية الكاتب ، فقد كان السواد الاعظم من العرب لا يعرف القراءة والكتابة ، وكانوا يختارون كتابهم من الذين يجيدون الخط ، فكتب بعض الصحابة لرسول الله ، وكتب لابي بكر غير واحد من الصحابة ايضاً ، وكتب لعمر وعثمان وعلي جماعة من الصحابة ، ولم يكن الكاتب يتناول اجراً في هذا العهد ، فكانت الوظيفة فخرية ، ولكنها كانت مصلحة ضرورية من مصالح الدولة ، ولم تصبح الكتابة وظيفة رسمية يتناول صاحبها راتباً من الدولة إلا في عهد الامويين ...

واما الحاجب فلم يكن معروفاً عهد الخلفاء الراشدين بالمعنى الذي صار اليه بعد ذلك ، لانهم لم يكونوا يتمتعون احداً من الدخول عليهم ، واول من اتخذ الحجاب معاوية بن ابي سفيان وجري من بعده على اثره (١) .

(١) ولكن الحاجب كان موجوداً في عهد رسول الله وعهد الخلفاء الراشدين ، ولكن هذا الحاجب كان للخدمة اكثر منه لمنع الناس من الدخول الى الخليفة ، ووظيفته لم تكن تتعدى تنظيم اجتماعات الخليفة الاول ومن بعده ، ولما منع احد عن الوصول الى الخليفة لم يكن معروفاً عهد الراشدين .

وعمر بن الخطاب اول من وضع النظام السياسي للدولة الاسلامية
كما قدمنا ، وكانت سياسته ترمي الى غاسك بلاد العرب ، وادماج
القبائل بعضها في بعض ، قضاء منه على روح الجاهلية ، وعصبيه القبيلة ،
ليخرج العرب من هذا الصبر الاجتماعي امة واحدة .

وكان من سياسته عدم اختلاط العرب باهلالي البلاد المفتوحة حتى
لا تضيع قوميتهم ، ولو امدت الله في عمره ، وتمكن من اقرار اغراضه
هذه لتبدل وجه الاسلام ، ولا كانت وقعت هذه الفتن التي حدثت بعده ،
والتي كانت من الاسباب التي دعت الى ظهور روح العصية الجاهلية التي
حاول عمر القضاء عليها فلم يوفق في المدة القصيرة التي قضاها في الحكم .

الفتن العام

وما يجب الاشارة اليه هو ان محمد بن مسلمة الذي عينه عمر بن الخطاب
مفتشاً على الحكام والامراء في عهده ، لم يحصل على وظيفته هذه عفواً ،
ولا اجراها امير المؤمنين عمر بن الخطاب عليه اعطاباً ، فقد كان محمد
بن مسلمة من انصار رسول الله الاول ، وكان رسول الله كثير آما بلبه
عنه في المدينة اثناء غيابه ، ولما توسعت الفتوح في عهد عمر بن الخطاب
ودعت الضرورة الى ارسال الحكام والامراء الى المدن المفتوحة ، وكان
عمر من اعظم الناس واكبر الخلفاء ايماناً بحق رعيته عليه ، وضرورة
اخذ حكامه وامرائه على انبياع الطريقة المثلى والحكم بالحق . وعدم اتيار
القربى والصداقة على غيرهم من الرعية ، فقد فتقت له الخيلة تعيين محمد بن
مسلمة الصالح الورع والفاصل الحازم ليكون مفتشاً عاماً على هؤلاء
الحكام والامراء .

ومن اعمال المفتش العام انه لما شكوا بعضهم سعد بن ابى وقاص سنة

٢٩١ هجرية وهو بطل القادسية ، ومع الخطر الذي كان لا يزال يهدد المسلمين في بلاد فارس والعراق ، من حيث ان المعارك الحربية لم تكن قد انتهت ، وكان الفرس لا يزالون يجمعون الجيوش ، ويرسلون البعثات ، اصدر عمر بن الخطاب امره الى محمد بن مسلمة ليذهب الى الكوفة ويقوم بالتحقيق عما اسند الى سعد بن ابي وقاص من اعمال تخالف سياسة الفاروق الحكومية ، فذهب المفتش العام الى الكوفة ، وبحت وحقق واتى بسعد بن ابي وقاص معه الى المدينة ليحقق معه عمر بنفسه .

وكذلك ارسل عمرو بن الخطاب محمد بن مسلمة الى مصر ليحقق في الاموال التي جمعها عمر بن العاص ، فذهب وحقق وشاطره نصف امواله . وكذلك كانت سياسة عمر مع عماله ، لا يسمع عن احدهم شكوى إلا ارسل اليه من يحقق معه ، ولا يبلغه عن واحد من تقصير إلا بعث اليه مفتشه ، احقافاً للحق ، وانصافاً للناس ، ومنعاً للعمال عن استخدام نفوذهم لمصالحهم الشخصية .

وبما لا شك فيه ان شخصية مثل عمر ، تستطيع ان تفرض على رجال الدولة وموظفيها اخذ الناس بالانصاف والعدل ، ولكن متى كان الخليفة ضعيفاً ، فان الفساد طبعاً يدب الى العمال ، خصوصاً اذا لم يكن فوق رؤوسهم وازرع يأخذهم في الجري على سنن العدل والانصاف ... وعمر بن الخطاب كان ما في ذلك شك ولا ريب ، من اعظم الخلفاء معرفة بنفسية الناس في عهده ، فلما بعث معاوية الى الشام - او حين عين معاوية ليكون عاملاً على دمشق بعد وفاة اخيه يزيد بن ابي سفيان - بعث معه بقاض يقيم الصلاة ويحكم بين الناس ، لانه كان يعرف اطباع معاوية ودهاءه وبعد نظره ورغبته في تألف الناس حوله ، فكان يخشى ان تجعل هذه السياسة معاوية على البعد عن الحق في احكامه ورغبة منه في تألف الناس ،

وهو ما ظهر من معاوية بعد وفاة عمر بن الخطاب .

وليس ادل على بعد نظر الفاروق ، وعظيم همته فيما تكلفه من الاحكام والوان التشريع من ان الخلافة بعده اصبحت عارية عن كل ما كانت تنعم به من قوة في عهده ، فلما ولي عثمان وكان شيخاً لبناً وأبناً بني امية من اعلاه بقرضون سلطانهم على الدولة وامرهم على شؤون الخلافة ، بحيث ثارت الفتنة ، ونقم الناس .
ولو كان عثمان مثل عمر قوة ودعاء وبعد نظر وعزيمة لما كانت الفتنة ، ولا كان هذا الشقاق الذي دب بين المسلمين .

عمر وسياسة القومية

وكان لعمر بن الخطاب سياسة عربية قومية مقروءة ، ويظهر لنا هذا من اجلاته لغير المسلمين من الجزيرة ، فقد اراد ان يجعل الجزيرة عربية بعيدة عن كل تأثير اجنبي ، فنصح والحالة هذه مادة الاسلام ، يؤيد ذلك هذه السياسة التي اجراها في الجزيرة كما قدمنا ، ثم منعه المسلمين من استعمال غير اللغة العربية من اللغات ، وامره الى المسيحيين في الوقت نفسه يتعلم اللغة العربية والكتابة العربية .

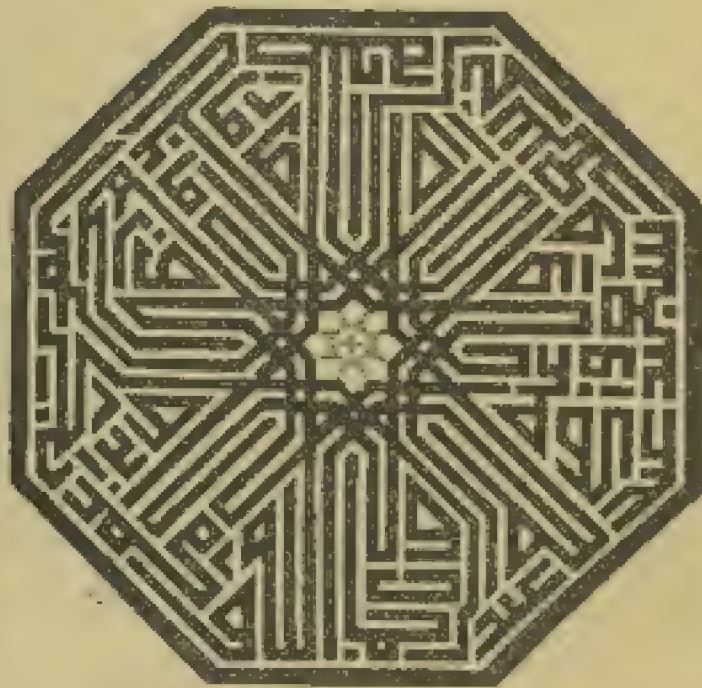
ويظهر لنا ايضاً من العهود التي قطعها عمر لغير المسلمين انه لم يكن يفكر في تعريب احد منهم ، وانما كان همه ان يجعل العرب عنصراً خاصاً بعيداً عن العناصر الاجنبية الاخرى ، لا يتصل بها ولا يتزاوج معها ، محافظة منه على نقاوة دمه ، كما هو الحال مع بعض دول اوروبا المعاصرة ، وكلمة عمر (ان العربي لا يكون عبداً) تصور لنا سياسته تصويراً واضحاً ، فالعربي في سياسته هو السيد المطاع ، والحاكم الفانيح ، والجندي الشاك السلاح .

وبما يدل أيضاً على سياسة عمر الوطنية ، وجهه للوحدة العربية والدم العربي ان قبيلة عربية هربت عند ابتداء الفتوح الى آسيا الصغرى ، وكانت هذه القبيصة العربية مسيحية لم تؤمن بالاسلام ، فكتب عمر الى امبراطور الروم بردها ، او يرسل اليه كل المبحين في البلاد المفتوحة ، فاعادها الامبراطور الى الخرد ، ووزعها عمر بين القبائل .
وبما يؤيد سياسته الوطنية العربية ايضاً معاملته للعرب المسيحيين فيما يتعلق بالجزية المفروضة على كل من لبس مسلماً ، واعتراض العرب المسلمين على كلمة جزية ، وهي تعني الذل والصغار ، فبدل عمر الكلمة ، ورضي ان يأخذ منهم مبلغاً من المال (كركاة) على نحو زكاة المسلمين اسوة ببناء عمهم المسلمين .. (١)

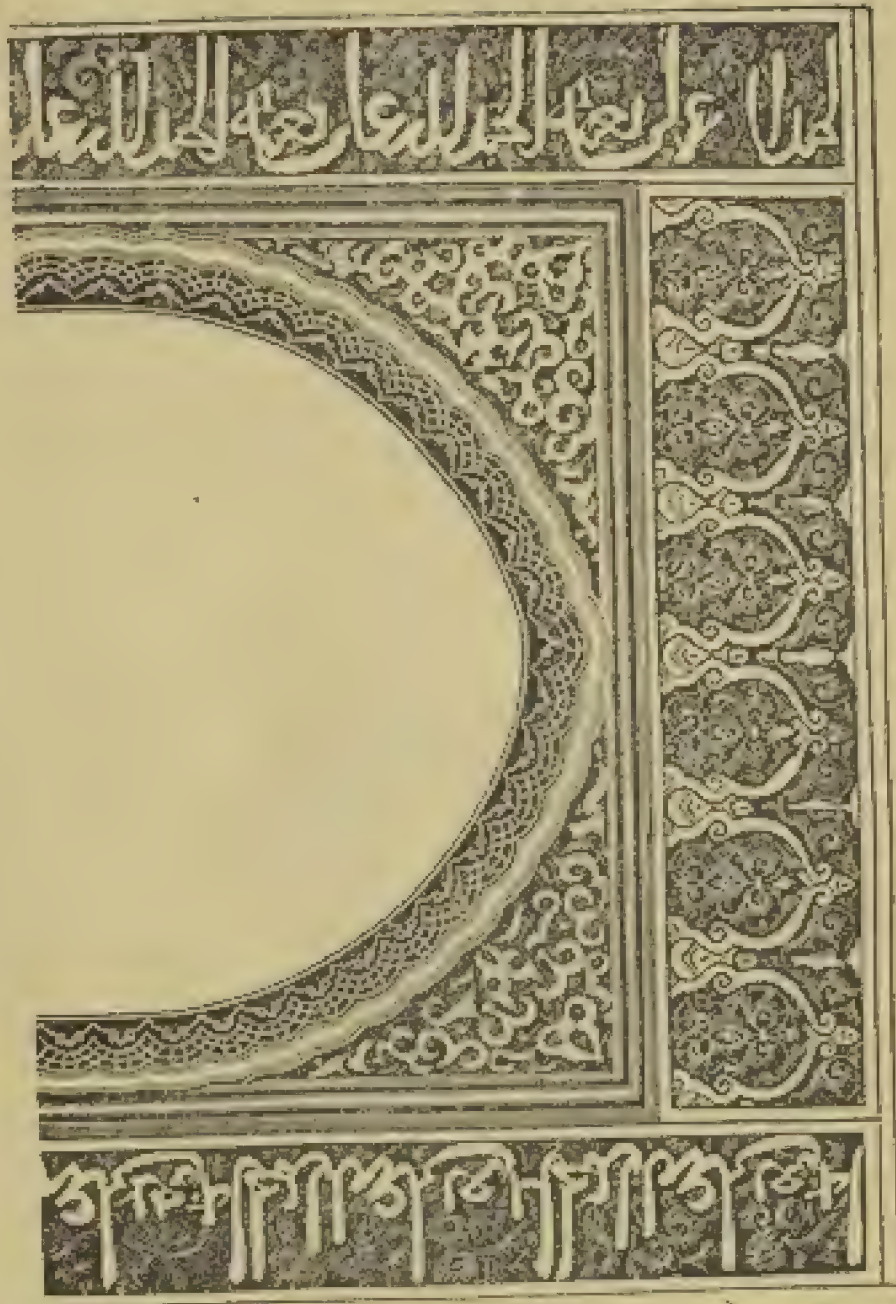
ابام عثمان

وفي ابام عثمان كثرت الولايات بتكاثر الفتوح ، وكان حاكم سورية معاوية بن ابي سفيان ، والظاهر انه في هذا العهد وبسبب ابن عثمان اخذ معاوية بعين الحكم والموظفين للندن السورية الواقعة ضمن ولايته مثل حمص وفنسرين والاردن ، وفلسطين والساحل ، كما عين القضاة ايضاً ... وكانت تأتي بعد الشام من الولايات : الكوفة ، ثم البصرة ، وقرقيسيا واذربيجان ، وهاوند ، والري ، وحمذان ، واصفهان ، وحلوان .
وكانت افريقيا او ما صار فتحه من افريقيا تابعاً لامير مصر ...
وكان شرفي الجزيرة العربية - البحرين وعمان - يحكمها من امير البصرة ولم يحدث تبدل عظيم في عهد عثمان في دواوين القضاء .
والذي نعرفه انه عين قاضياً خاصاً في المدينة ، وذلك نيابة عنه .

وبعد ان اصبحت عاجزاً عن الجلوس للقضاء بين الناس .
والظاهر ان القضاة لم يكونوا يرسلون الى كل بلاد الدولة الجديدة ،
وانما الى المدن الكبرى فقط ، واما المدن الصغيرة ، فكان العامل يقوم
مقام القاضي فيها ، كما كان يقوم بالصلاة وغير ذلك . واما علي بن ابي
طالب فلم يتمكن من عمل شيء يذكر في عهده بسبب الثورات الداخلية
التي حصلت ، وحرقه همنه لحرب معاوية ، ولكننا نعلم انه الغى
ما الزمه عثمان من ارض في العراق الى اخضائه واعله ، كما عزل بعض
عمال عثمان واستبدلهم بسواهم ، واصلاح بعض الاخطاء ، وقد
تمكن من افران اصلاحاته هذه في العراق والحجاز وفارس ، ولمدة
قصيرة في مصر .



نماذج من الفن العربي



النظام المالي في عهد الخلفاء الراشدين

العرب قبل الفتح

لم يكن للعرب حين اقتحموا امصار الامبراطوريتين الفارسية والرومانية دواوين مدونة ، ولا نظام معلوم للضرائب إلا نظام الاعشار او الزكاة او الصدقة وهي واحد كما يظهر (١) ، وكانت هناك احاديث تتعلق بالضرائب التي وضعها رسول الله على اراضي اليهود والنصارى كالتخيس، والتنصيف ، ولكنها كانت دون الغاية لبلاد قطعت في الحضارة مثواً بعيداً ، كالأمبراطوريتين الفارسية والرومانية ، وكصر مثلاً حيث كانت الحضارة والتجارة والزراعة في حالة راقية رفيعة ، ولهذا لم تكد الفتوحات العربية تستنب وتستقر في بعض هذه الامصار والبلاد حتى دعت الحاجة الى انشاء بيت للمال يقوم على صيانة الواردات وحفظها لمصالح الدولة الاسلامية الجديدة ...

ولهذا لم تكد الجيوش العربية تحتل البلاد المذكورة حتى اخذ عمر منظم الدولة العربية وواضع دستورها يبحث عن نظام للضرائب جديد يضمن لبيت المال مصلحته ولا يكون محجفاً بحقوق الاهالي الذين دخلوا في ذمة المسلمين ، فكان له اما ان يتبع سنة النبي في الجزية واما ان يسير في طريق آخر اقتضته الاحوال وسنة التطور ، فرأى بعد

(١) العشر والصدقة والزكاة واحد قال ابو يوسف « الصدقة على المسلمين والجزية

على اهل الذمة » .

التجري والتفكير ان بقر الاراضي في ايدي اصحابها السابقين وبأخذ
منهم الجزية التي كانوا يؤدونها لاصحاب السلطة قبله فكان من ذلك ان
اتبع في السواد وبلاد فارس وتوابعها النظام الفارسي او نظام بني
ساسان ، (١) وفي سوريا ومصر وشمال افريقيا النظام البيزنطي وهو ما
يؤيده البحث التاريخي ولا ينكره كتبة المسلمين .

ويقول ابو يوسف في كتاب الخراج : ان عمر بن الخطاب لما اراد
مسح السواد ارسل الى حذيفة ان ابعت الي بدعقان من (جوصي) ،
وبعت الى عثمان بن حنيف ان ابعت الي بدعقات من العراق ،
فبعث اليه كل منها بواحد ، ومعه ترجان من اهل الخيرة ، فلما قدموا
على عمر قال : - كيف كنتم تؤدون الى الاعاجم في ارضهم ؟

وبعد ان استشارهم اصدر قراره وفافاً للمعلومات التي اخذها منهم
وفعل مثل ذلك في الشام ومصر والامصار الاخرى التي كانت تحت
الادارة البيزنطية ، وهذا سبب ما نراه من اختلاف بين احكام الجزية
او الخراج في العراق وفارس عن مثلها في سورية ومصر اول الفتوح .
ولعل سبب ذلك اختلاف الدواوين في الاراضي المفتوحة ، فلم
يكن بمقدور امير المؤمنين وهو يحمل اعباء هذه المسؤوليات الحريصة
العظيمة في تلك الفترة من الزمن ان يعمل على نقلها الى العربية ، وان

(١) ترك عمر بن الخطاب الارض في السواد بايدي سكانها الاصليين يزعمونها
ويقلعونها ويدفعون خريبة الرؤوس او الجزية عن انفسهم ، لانهم من غير المسلمين ،
وخريبة الخراج المفروضة على الارض ، ولم يستبد عمر سكان السواد ، وانما تركهم
احراراً ، وسمح في الوقت نفسه بتقسيم الاموال المنقولة الموجودة في السواد من حيوانات
وغيرها على الفاتحين كفنائهم حرب .

وكانت قبيلة « بجيلة » قد وعدت ببيع ارض السواد مقابل مساعدتها لجيش المسلمين ،
ولكن عمراً بعد المعركة اشترى منها هذا الحق مقابل الف درهم تدفع لافراد القبيلة كل
سنة من بيت المال .

يستخرج منها نظاماً واحداً يفرضه على الامبراطورية الجديدة من اقصاها الى اقصاها - وهذه الدواوين كما نعلم لم تفكر الدولة العربية في نقلها الى العربية إلا بعد خمسين سنة من هذا التاريخ - على ان كل هذه المشاكل العظيمة التي كان يحمل اعيانها - كما يظهر - لم تكن تمنعه عن النظر احياناً في الانظمة التي صار اقوارها ، ولم تكن تصرفه عن التدقيق في الضرائب وموارد الخلافة ، فقد ذكر ابو يوسف في كتابه « الحراج » ان عمر قال للدهاقين الذين دعاهم يستفسر منهم عن مقدار الضرائب التي كانوا يؤدونها الى الاعاجم وعن طريقها ، وانه فرض على بعضهم اكثر مما كانوا يدفعونه ، كما يقول في موضع آخر : ان عمر قال لما رفع اليه ما فعله عثمان بن حنيف في السواد : انهم يطبقون اكثر من ذلك .

تعليق

فاذا صحت هذه الروايات فان عمرأ يكون قد ادخل بعض التعديل على نظام الضرائب الذي كان متبعاً في عهد الامبراطورية الفارسية ، ولكن الذي يظهر لنا ان في هذه الاخبار والروايات بعض النظر ، لان حب عمر للعدل وورقه باعل الذمة معروف مشهور ، فلا يجوز والحالة هذه ان يكون قد عمل على اضعاف الضرائب عليهم ، وهو المشهور بأنه كان يساعدهم ويحسن اليهم ، والا فرب الى الرأي والظن ان هذا حصل بعد عهده ، ثم نسب بعض المؤرخين اليه باعتباره المنظم الاول للسياسة المالية في الدولة العربية .

هذا الى ان عمرأ كان يطلب من عماله في الامصار وجباة المال « ان يقصدوا العدل فيما بين اهل الارض وبين اهل الفيل » من غير زيادة

تجحف بأهل الخراج ولا نقصات يضر بأهل الفقه (١) . ومن
يدفق في أقوال مؤرخي العرب عن سياسة عمر الاقتصادية وأقواله
في وجوب مراعاة العدل ، ويدرس أحوال البلاد المغلوبة درساً منزعاً
عن الغرض لا يسعه إلا أن يقر بأن الجزية التي كان يؤديها أهل الذمة في
خلافته لم تكن باهظة ولا مجحفة بمقوقهم وهو ما يقول به مستشرقو
أوروبا أيضاً (٢) . وقد اجمع أصحاب التاريخ وكتب الخراج أو كادوا
يجمعون أن جزية مصر كانت في خلافة عمر دينارين على الخالم ما عدا
النساء والصبيان والشيوخ ، وكانت جزية أهل السواد درهماً وقفيزاً
على كل جريب وثانية وأربعين درهماً على رأس الموسر ، وأربعة
وعشرين على الوسط ، وأثنى عشر على الفقير أو العامل بيده أو الصانع (٣)
فإذا صبح ذلك كان ما أقره عمر على أهل الذمة من الجزية يتراوح بين
دينارين ودينار أي نحو جنيه ونصف جنيه مصري على رأس الخالم كان
يؤديها ورقاً وذهباً أو عرضاً كالدواب والمتاع وهي جزية معتدلة إذا
قابلناها بما يؤديه الفلاح اليوم في سوريا ومصر والعراق ، وإذا اعتبرنا
أن أهل الذمة لم يكونوا في ذلك العهد يؤدون غيرها من الضرائب لا
على بيوتهم ولا على تجارتهم ولا على شيء آخر . . . ، وكانت الجزية تؤخذ
من رقاب أو عدد سكان القرية أو الرستاق بالتخمين لا عن مساحة
الأرض (٤) وقد بقي هذا النظام متبعاً إلى أوائل حكم بني أمية حين

(١) الأحكام السلطانية لابن خلدون . ١٣٣ .

(٢) انظر Becker H. Islamstudien من ٢٣٥ .

(٣) أبو يوسف - ٦٩ .

(٤) انظر كلمة « جزية » Encyel. Musulmane . (الترجمة الفرنسية)

بدأوا بفرقون بين ضريبة الرؤوس او الرقاب ، وبين ضريبة الاراضي ،
 او بالاحرى خراج الاراضي او ايجارها ، فسموا الضريبة الاولى جزية
 واطلقوا على الثانية ، كلمة خراج وهي كلمة يونانية كانت معروفة في
 مصر وسوريا قبل ان يفتحها العرب ، وكانت تستعمل للدلالة على ما كان
 المزارع يؤديه عينياً لصاحب الارض اي للحكومة او البلدية ، او
 المالك الذين يؤجره ارضه على شروط معروفة ، وهم في كل ذلك يتبعون
 نظام الضرائب البيزنطي او الفارسي الذي كان يفرق بين ضريبة
 الرؤوس (رأسية) او (رجولية) (١) وبين ضريبة الاراضي او
 الخراج ، الا ان كتاب العرب خلطوا بين الكلمتين فكانوا تارة يسمون
 الجزية خراجاً وطوراً يطلقون كلمة خراج على الجزية والخراج وانتقل
 هذا الخطأ الى مؤلفاتهم (٢) .

ولعل السبب انه لما كان الخراج اعظم الضرائب واهمها ، وكانت
 تتوقف عليه حياة المملكة وسعادتها ، تغلبت هذه الضريبة واسمها على
 سائر الضرائب ومنها الجزية .

وامم من كل ذلك ان المسلمين بعد ان كانوا يؤدون في بلادهم
 عشر عن ارضهم ، أصبحوا بعد ان انتقلت اليهم اكثر الاراضي
 المفتوحة بطريق الاقطاع او الشراء او القوة ، وبعد ان اعتنق الاسلام
 اكثر سكان البلاد المفتوحة ، يؤدون عن اراضيهم الخراج كاهل الذمة
 الذين ظفروا على دينهم ، فادى هذا الى انتشار كلمة (خراج) لان اكثر
 الاراضي صارت ارضاً خراجية ، وساعد على ذلك ان اهل الذمة وقد
 أصبحوا اقلية في البلاد الاسلامية ، لم يعودوا يؤدون الجزية - ضريبة
 (١) الشترق « بكر » في كتابه (اجات في الاسلام)

(٢) انظر كتاب اي يوسف في الخراج ، وفروع البلدان والفارسي والاحكام السلطانية

الرأس والرؤوس - أو صاروا يؤدونها نادراً ، بعد أن أصبحت الدولة الإسلامية لا تكثرت لها لقلتها .

واردات بيت المال

أما المال الوارد لبيت مال المسلمين فإما أن يكون ضريبة عن الأرض أو عن أشياء أخرى غير الأرض (١) :
 ضريبة الأرض تسمى عشراً وخراجاً ، ويؤخذ العشر من غلة الأرض التي أسلم أهلها بدون حرب ، أو التي فتحت عنوة ، فصارت غنمية للمسلمين ثم صار تقسيمها بين الفاتحين .

الخراج

ويؤخذ الخراج -- وهو مقدار معين من المال أو الحاصلات -- عن الأرض التي فتحها المسلمون عنوة إذا عيّن الخليفة عن تقسيمها على المحاربين ووقفها على مصالح المسلمين بعد أن عوّض المحاربين عن نصيبهم فيها أو استرضاهم كما فعل عمر بن الخطاب ، وكان يؤخذ الخراج أيضاً عن الأرض التي أفا الله بها على المسلمين فملكوها وصالحوا أهلها على أن يتركوه فيها بخراج معلوم يؤدونه إلى بيت مال المسلمين .

وكان الخراج إما شيئاً مقدراً من مال أو غلة كما صنع عمر في أرض السواد ، وأما حصة شائعة مما يخرج من الأرض وهو ما يسمى بالمعاملة أو المنزاعة ، كما عامل رسول الله أهل خيبر على نصف ما يخرج من الأرض قليلاً كان أو كثيراً .

ولقد مسحت أرض السواد في زمن عمر بن الخطاب فبلغت

(١) انظر « الصولي » .

٣٦٤٠٠٠٠٠٠٠٠ جريباً ، فوضع عليها مقادير معينة من الدراهم تختلف باختلاف مقدار الأرض من درهمين الى عشرة دراهم عن كل جريب ، وقد بلغ ما جبي من خراج العراق في عهد عمر ١٨٤٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، متوسط جباية الجريب ٣٤٥٥ درهماً ، فاذا كان الفدان يساوي ٣٤٥ من الاجربة فتكون ضريبة الفدان المزروع قمحاً ١٤ درهماً .

ولم يكن ايراد الخراج ثابتاً ، فقد كانت ضريبة الأرض تقل وتكثر حسب اهتمام اهليها بتعميرها واصلاح جسورها وخلقائها ونحوها . وكانت ضريبة الأرض هذه او خراجها ، تدفع من المسلمين وغير المسلمين على السواء .

وكان النظام المالي المنبع اول الامر ، هو النظام الذي كانت عليه الأرض والناس عهد الفرس والروم ، وكانت ضريبة الأرض مختلفة وفقاً لحصص الأرض وجدبها .

وكانت هذه الضريبة تدفع انصافاً من حاصلات الأرض ويستثنى من ذلك النبلد والحيوانات الحبة .

ولم تكن الأرض تعد من الغنائم ، وانما الغنائم الاسرى والاموال المنقولة ، كما وان الأرض وما يخرج منها من الخراج كان ملكاً لكل المسلمين .

جباية الخراج

وكان جباة الخراج او عماله مستقلين عن الولاة والقواد ، يدفعون من الوااردات التي تصل اليهم ارزاق الجند في المصر المكلفين بجباية خراجهم ، وما يحتاجه المصالح العامة ، ويرسلون الباقي الى بيت المال في العاصمة .

وكانت الضرائب في عهد الخلفاء الراشدين هيئة لينة ، وكان العهد عهد تسامح وعدل لم يشتد فيه الولاية في جمع الجزية ، وكانت الضرائب المفروضة على الارض تقدر حسب مساحة الارض وجودتها ونوع محصولها ، ولم تكن تدفع كلها نقداً ، بل كان بعضها يدفع عيناً ، وقد عنى الولاية بالمرءى لصيانة جباية الخراج ، فعنوا بمراقبة السدود ، وانشاء الترع والجسور والعمل على صيانتها ، وكانت الضريبة تخفص اذا قل المحصول لسبب من الاسباب .

وكان الخلفاء يشرفون بانفسهم على جباية الخراج ويحاسبون الولاية وعمال الخراج حساباً عسيراً ، وقد بلغ من شدة مراقبة عمر بن الخطاب لعماله ، ان كان يحصي اموالهم قبل توليتهم ، فاذا انتهت ولاية احدهم احصى ثروته من جديد ، وما زاد مما دونه كله او بعضه ورده الى بيت المال ، ويعرف هذا بنظام المقاسمة .

وكان هناك غير الخراج من الضرائب ، كانت هناك ضريبة (العشر) وقد فرضها عمر بن الخطاب على السفن التي تمر ببعض الثغور وهو ما يسمى بضرائب الجمرك اليوم .

الزكاة

وكانت هناك ضريبة (الزكاة) او الصدقة ، وهي كل ما يؤخذ من اغنياء المسلمين ، ولم يكن المسلم يدفع غير هذه الضريبة عن امواله ومتاجره ، الا ضريبة الارض عن الارض التي في يده ، والزكاة كانت تؤخذ من المسلمين الاغنياء كما قدمنا ، وتوضع في ديوان خاص في مركز الخلافة له فروع في سائر الولايات ، ومقدارها ربع العشر عما يمتلكونه من المال ، ذهباً كان او فضة ، واما زكاة الغنم ويلتحق بها العنز ،

فكانت تؤخذ بمقدار واحدة من أربعين فما فوق الى مائة، ومن ١٠١-٢٠٠ واحدة في كل مائة، وفي الابل عن كل خمس، شاة الى أربعة وعشرين، فان كانت خمسة وعشرين فعليها بنت مخاض (ناقة صغيرة بنت سنة او اقل) والجاموس والبقر كل ثلاثين عليها واحدة (بنت سنة الى سنتين) فاذا بلغ العدد ستين، كانت بمقدار واحدة بنت سنتين، والجيل اذا اعتبرت آلة من آلات الحرب فلا زكاة عليها، كل هذا اذا كانت هذه الحيوانات تأكل من الكلاء المباح، فان غلفها صاحبها فلا زكاة عليها، واذا دخلت في التجارة فتقوم ويدفع عنها زكاة التجارة. وكانت الزكاة تقسم على الفقراء والمساكين والايام الفقراء والمنحقرين. وكان معاوية يأخذ ٢ ونصف بالمئة من عطاء كل مسلم كزكاة وهذا يشابه اليوم ضريبة الدخل في الدول الاوروبية الحاضرة.

الجزية

والجزية ضريبة يدفعها غير المسلم، وهي موزعة على كل رجل غير مسلم في الدولة الاسلامية عن الصبيان والنساء والشيوخ. (١) وانما وجبت الجزية على اهل الكتاب وغير اهل الكتاب، كما وجبت الزكاة على المسلمين ليتكافأ الفريقان - وهما رعية دولة واحدة - في المسؤوليات والاعباء، كما تكافأ في التمتع بالحقوق وتساوياً في الانتفاع بالمرافق العامة للدولة، - اذ ليس في مواشي اهل الذمة من الابل والبقر والغنم زكاة - ولا يدفع الزكاة الا المسلمون. ومن مات غير المسلم ممن تجب عليه الجزية او اسلم، تسقط عنه الجزية.

ولما اخذ الناس يتقبلون الاسلام خصوصاً الموالي ، هرباً من الجزية ،
 ورغبة في الانضمام للجيش العربي ، خسرت الخزانة العامة مورداً عظيماً ،
 فقرر الخراج رد الموالي وغيرهم الى الاراضي الزراعية التي تركوها ،
 والتحقوا بالمدن هرباً من العمل الزراعي ، ورغبة في الحصول على حياة
 الراحة التي تنعم بها المدن المتحضرة ، كما تقبلوا الاسلام ليكونوا كالمسلمين ،
 وينعموا بما ينعم به المسلمون من عطاء واعمال في الجيش وغير الجيش ،
 مما اضر بالحياة الزراعية وافقر الارض ، فردد الخراج الى الارض ،
 واقرب عليهم الضريبة التي كانوا يدفعونها قبل الاسلام ، وفعل مثل ذلك
 بالعرب المسلمين الذين اشتروا الارض ، ففرض عليهم ضريبة الخراج
 المقررة عليها .

فلما كان عهد عمر بن العزيز حاول إعادة الحالة الى ما كانت عليه
 عهد عمر بن الخطاب ، من رفع الضريبة عن المسلم إلا ما كان من
 الزكاة ، وضريبة الخراج عن الارض ، لان هذه الضريبة تعود للجماعة
 الاسلامية ، كما منع في عهد بيع ارض الخراج الى العربي او المسلم ،
 وقرر اذا تقبل الاسلام احد من اصحاب الارض ، فارضه تعود
 الى سكان البلدة الواقعة فيها الارض ، وصاحبها يكون مستأجراً لها ،
 ولكن هذه الطريقة لم تنجح فما كاد يموت حتى عادت الحالة الى ما
 كانت عليه ...

والواقع ان كل ما كان يربحه العربي في عهد عمر بن العزيز من
 قبول الاسلام هو رفع الجزية عنه لا غير ...

وكانت نجب الجزية على الرجال الاحرار العقلاء الاصحاء القادرين
 على الدفع ، ولا تؤخذ الجزية من مسكين يعيش من الصدقة ، ولا من
 عاجز عن العمل ، ولا من الاعمي والمقعذ والمجنون ، وغيرهم من ذوي

الغناات ، ولا من الرهبان واهل الصوامع إلا اذا كانوا من اهل اليسار
والمال ، ولا من الاطفال والنساء والشيوخ ، وبلا حظ من ذلك ان
الشرع لم يفرض الجزية إلا على الاشخاص الذين لو كانوا مسلمين لوجب
عليهم الجهاد .

اما مقدار الجزية فقد ذهب ابو حنيفة في تصنيفها الى ثلاثة اصناف :

- ١ - اغنياء يؤخذ منهم ثمانية واربعون درهماً .
- ٢ - ومتوسطون يؤخذ منهم اربعة وعشرون درهماً .
- ٣ - وفقراء يكسبون ويؤخذ منهم اثنا عشر درهماً .

واما جباية الجزية فقد اوصى الشرع الاسلامي بالرفق والانصاف في
جبايتها من اهل الكتاب ، وصيانة ارواحهم واموالهم من العدوان
وعبت الجباة والولاء ، وتقضي القاعدة الفقهية او دستور الاسلام فيما
يتعلق بطريقة اخذ الجزية من دافعيتها بانه لا يضرب احد من اهل
الذمة في استبدادهم الجزية ، ولا يقاموا في الشمس ولا غيرهما ، ولا
يجعل عليهم في ابدانهم شيء من المسكارة ، ولكن يرفق بهم ويجسرون
حتى يؤدوا ما عليهم . (١)

ومن الامثلة عن معاملة الخلفاء لاهل الذمة ما روى ان عمر بن الخطاب
مر على باب قوم عليه سائل يسأل وكان شيخاً كبيراً ضريح البصر ،
فضرب على عضده من خلفه وقال له : من اي اهل الكتاب انت ؟
فقال : يهودي .

فقال : فما الجألك الى ما ارى ؟

فقال : اسأل الجزية والحاجة والسكن .

(١) ولا يباع في الجزية بقرم ولا خيتم ولا مواشيم ، وقال ابو عبيد : انه لا
يجب تكبيرهم فوق طائفتهم .

فاخذ عمر بيده وذعب به الى منزله ، فاعطاه شيئاً مما في المنزل ،
ثم ارسله الى خازن بيت المال فقال :

- انظر هذا واشباعه ، فوائده ما انصفناه ، اكلنا شيبته ثم
نخذله عند الهرم ، انما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا من مساكين
اهل الكتاب... ووضع الجزية عنه وعن امثاله .

وقد كتب ابو يوسف قاضي مروان الرشيد اليه يقول :

« قد ينبغي يا امير المؤمنين ابدك الله ، ان تتقدم في الرفق باهل
دومة نبيك وابن عمك محمد صلى الله عليه وسلم ، والتفقه لهم ، حتى لا
يظلموا ، ولا يؤذوا ، ولا يكافوا فوق طاقتهم ، ولا يؤخذ شيء من
اموالهم الا بحق يجب عليهم ، فقد روى عن رسول الله انه قال : من
ظلم معاهداً او كلفه فوق طاقته فانا حبيبه .

وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب عند وفاته : اوصى الخليفة من
بعدي بدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يوفي لهم بعهدهم ، وان
يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم .

والجزية ليست من محدثات الاسلام وانما هي قديمة ، فرضها اليونان
على سكان اسيا الصغرى حول القرن الخامس قبل الميلاد ، كما وضعها
الرومان على الامم التي اخضعوها ، وكانت اعظم من الجزية التي
وضعها الاسلام .

وهناك (الفيه) وهو كل مال وصل من المشركين عفواً من غير
قتال فهو كمال الهدنة والجزية والمراج يذهب خمسة لرسول الله وبعده
موته ثلث المسلمين ، وكانت الاربعة الخمس الباقية تقسم في صدر الاسلام
بين الجند في الاعمال الحربية لشراء الاسلحة وغيرها ، حتى دون عمر
الدواوين وقدر ارزاق الجنود .

وهناك (الغنيمة) وهي كل ما اصاب المسلمون من جند العدو
بالقتال وتشتمل على اربعة اقسام : الاسرى ، والسبي ، والارض ،
والاموال ..

فالاسرى من يقع في الاسر من العدو المحارب .
واما السبي فالثمن والاحطال الذين يقومون في ايدي المسلمين ، وهؤلاء
لا يجوز قتالهم ، وانما يقتلون في جملة الغنائم .
والارض التي تؤخذ في الحرب عنوة يخرج اهلها منها لانهم غنيمة
كالاموال ، وقد فرقها بعضهم بين المحاربين ، وحبسها عمر لصالح
المسلمين .

واما (الاموال) المنقولة فهي ما يمكن نقله كالمشاة والمال والاسلحة
والذباب والدواب وغيرها ، وكان رسول الله في اول الامر يقسمها وقافاً
لرأيه ، ثم نزلت الآية بتقسيمها ، وصارت اربعة اقسامها للمقاتلين الفاتحين ،
والخمس الباقي للرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ،
ولما مات رسول الله ذهبت حصته الى بيت المال .

مقدار جباية الخراج

والواقع ان المورد المقرر الثابت للخزائن العامة كان من الخراج
والجزية ، وهي اقل من الخراج مورداً ، واقل ثباتاً ايضاً لان الجزية كما
قدمنا كانت تقرض على غير المسلمين فاذا تقبل احدهم الاسلام سقطت عنه ،
واما الخراج فكان يؤخذ من الارض ، والارض اثبت ، ومع ذلك فمن
الصعب تعيين مقدار الواردات من الخراج في عهد الدولة الاسلامية حتى
اواخر عهد الامويين لان مؤرخي العرب كانوا كثيراً ما يجمعون بين
الجزية والخراج في تقدير انهم التي بين ايدينا ، وربما ادخلوا معها العشور

ايضاً ، ومع ذلك فنحن ذاكرون فيما يلي امثلة من جباية اعمال المملكة
الاسلامية في عصر بني امية .

واردات العراق

فالسواد في العراق بلغ ارتفاع خراجـه في ايام عمر بن الخطاب
(سنة ٢٠ للهجرة) ١٣٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم . (١)

وبلغ خراج السواد في عهد عمر وعثمان مائة الف الف درهم ، فلما
ولي معاوية صار الى خمسين الف الف ، وهدايا النيروز والمهرجان خمسون
الف الف ايضاً اخذها لنفسه ولجيبه كما يظهر ، وكان قد اصطفى اموال
كسري من الارض ، فكان يقطع فيها ويصل ويحيز من يشاء ، ثم بلغ
الخراج في عهد ابن الزبير ستين الف الف ، والهدايا التي اشترنا اليها عشرين
الف الف ، فلما ولي الحجاج صار الى اربعين الف الف ، وما كان يصل
الى ذلك الا بالشدة والعنف ، فلما قتل ابن الاشعث عمـد الحجاج الى
روساء اهل السواد فانتقم منهم لانهم ايدوا ابن الاشعث ، فخربت
الارض ، ووصل الخراج الى خمسة وعشرين الف الف ، فلما صار الامر
الى عمر بن عبد العزيز عاد الى سيرة عمر بن الخطاب فجبا الخراج ستين
الف الف ، ولم يقبل الهدايا . . . وهناك مصادر تذهب الى غير ذلك فنقول
ان عبيد الله بن زياد جباه (٦٢ هـ) ١٣٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم .

وجباه (العراق) الحجاج بن يوسف (٨٥ هـ) ١٨٨٠٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم .

وجباه الخليفة عمر بن عبد العزيز (١٠٠ هـ) ١٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم .

وكان ابن هبيرة امير العراق بعده يجبيه (١٠٠ هـ) ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم

سوى طعام الجند وارزاق المقاومة .

(١) السوداء الارض الخصبة في العراق وهي سوداء ، سميت السوداء لسوادها

ثم كان يوسف بن عمر يحمل منه الى دار الخلافة من سنين الى سبعين مليوناً من الدراهم ، وينفق على من معه من جنود الشام ١٦٠٠٠٠٠٠٠٠ وعلى البريد اربعة ملايين وعلى الطوارق مليوني درهم ، ويبقى عنده للتفقة على بيوت الاحداث والعراة عشرة ملايين ، فكان مجموع جباية السواد مائة مليون درهم .

اما مصر فقد جباها عمرو بن العاص ١٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، وهذا الرقم يجب ان يضم الجزية والخراج طبعاً .

وجباها بعده عبدالله بن سعد بن ابى مروح ١٤ مليوناً ، وقل خراجها في ايام بني امية ، حتى اذا كان عهد هشام بن عبد الملك بعث الى عامله عليها ان يسحبها ففعل ، وجباها اربعة ملايين دينار ، ويجب ان ننظر في هذه المناسبة الى ان كثيراً من الذين تقبلوا الاسلام سقطت الجزية عنهم ، فقل وارد الجزية ...

وجباها اسامة بن زيد في خلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٧ هـ - اي قبل عهد هشام - اثني عشر مليوناً من الدراهم ، ولما صارت الى بني العباس انحطت خراجها حتى بلغ اقل من مليون دينار في السنة .
واما الشام فقد بلغ خراجها في ايام عبد الملك بن مروان ١٠٧٢٠٠٠٠٠ دينار ، منها ١٨٠٠٠٠٠ من الاردن ، و ٣٥٠٠٠٠٠ من فلسطين ، و ٤٠٠٠٠٠٠ من دمشق ، و ٨٠٠٠٠٠٠ من حمص وقنصرين والعواصم . (١)

(١) كان خراج الشام في عهد عمر بن الخطاب خمسمائة الف دينار ، فلما اتى الامر الى معاوية قطع الوظائف على اهل المدن ، فوظف اهل قنصرين ٥٠٠٠٠٠ دينار ، وعلى اهل دمشق ٤٥٠٠٠٠٠ دينار ، وعلى الاردن ١٨٠٠٠٠٠ دينار وعلى فلسطين مثل ذلك ثم جعل بعد ذلك يصطفي الارض الجيدة ويدفعها الى الرجل بخراجها وعلوجها والخراج على اصله لا ينقص منه شيء « الصولي »

والواقع ان الواردات العامة للدولة الاموية امر يصعب تحقيقه ،
فقد ضاع اكثره في الحروب المختلفة ، والثورات العديدة ، وليس بين
ايدينا من المصادر ما يساعدنا على اجراء حساب عام لكل موارد
الخزينة العامة ، ولكن ما اتفناه من واردات بعض الامصار يدل على
مبلغ الثراء الذي وصل اليه سلطان الامويين ، وكان الاعتماد في
الواردات كما يظهر على العراق والجزيرة والشام ومصر ، واما الاطراف
فقد كان خراجها يدفع بين العمال والكتاب والحياة والجند ، وبعضها
لم يكن يدفع شيئاً يستحق الذكر .

مصارف الدولة

اما مصارفات الدولة الاسلامية فكانت محصورة محدودة عهد رسول
الله والخلفاء الراشدين ... ولم يكن يوجد عهد رسول الله موظف واحد
للدولة ، وكانت اعطيات المسلمين او المقاتلة غير محدودة ، وانما كانوا
ياخذون حصتهم من غنائم الحرب .

وكان الجند او المقاتلة كل المسلمين في ذلك العهد ، او كل من
يستطيع حمل السلاح منهم ، وكان رسول الله يقسم بينهم ما يرد من
خراج الارض التي بقيت في ايدي اهلها ، كالواردات التي كانت ترد من
خيبر مثلاً ... وما يرد من غنائم الحرب ، وكل ذلك كان قليلاً جداً ...
وكان رسول الله في عهده يدفع من واردات الدولة في حياته ديون
من يموت من المسلمين (١)

واذاً فقد كان رسول الله يعتبر المسلمين عائلة واحدة ، يساعد بعضهم

(١) يوجد حديث بهذا المعنى في البخاري ، ذكره البلاذري ، واستند
الحديث الى ابن مبررة .

بعضاً ، وأما إذا ترك أحد المسلمين مالا ، فإنه يذهب الى ورثته .

عهد أبي بكر

وفي عهد أبي بكر بدأت الفتوحات العربية ، ولكنها كانت لا تزال في أولها ، فلم تحمل الى بيت المال الاموال الوفيرة والغنائم العظيمة التي حملتها ايام عمر بن الخطاب ، وقد سوى أبو بكر بين المسلمين في العطاء في ايامه ، وكانت الواردات توزع كلها دفعة واحدة على المسلمين عند قدومها ووصولها ، فنرى انه دفع في السنة الاولى من ولايته - في المدينة - تسعة دراهم ونصف لكل مسلم رجلاً ونسباً واولاداً واهراراً وموالي ، ودفع في السنة الثانية عشرين درهماً لكل واحد . وكان أبو بكر يسأل المسلمين قبل توزيع العطاء فيما اذا كان واحدهم قد دفع ما عليه من الزكاة ، فاذا كان الجواب بالرفض ، حسم من عطائه مقدار الزكاة ، واذا كان بالإيجاب ، دفع له عطائه كاملاً (١) . والزكاة كما هو معلوم ضريبة دينية اسلامية تؤخذ من الاغنياء وترد على الفقراء ، وكانت مفروضة على كل عقار او مال او تجارة صار استثمارها في بحر السنة المتصرمة ، ولم يكن هناك من زكاة على الرقيق والحيول ، وان كان أبو حنيفة قد اجتهد فاجرى ديناراً على الفرس الواحد .

عمر بن الخطاب والاحصاء

فلما كان عهد عمر بن الخطاب واجه الفاروق موقفاً جديداً يحتاج الى سياسة جديدة ، بسبب تكاثر الفئوح ، وتكاثر الغنائم والاموال

(١) شرح الموطأ .

والأرزاق ، فصار أفراد (ديوان العطاء) ، وصار في الوقت نفسه
(احصاء المسلمين) ...

وكان احصاء المسلمين عملاً إجبارياً من الطراز الاول ، وصار اقراره
ووضعه وضعاً ممتازاً ، بحيث أحصيت كل قبيلة من القبائل المسلمة رجالاً
ونساء واطفالاً ، كما تركت اما كن خاصة للعواليد الجدد من المسلمين ...
ويظهر لنا ان المؤرخين لم يقطنوا الى خطورة هذا العمل ، وكونه
الوحيد من نوعه في ذلك العهد البعيد ، وانه حادث تاريخي من الطراز
الاول ما في ذلك شك ولا ريب ، وليس سبب ذلك احصاء عمر بن
الخطاب المسلمين ، فان مثل هذا العمل ليس جديداً ، فقد سبق الفاروق
الى مثله بعض اباطرة القسطنطينية ورومية ، ولكن غرض هؤلاء ، كان
يختلف كل الاختلاف عن غرض الفاروق ، فباطرة الرومان قد احصوا
وعابهم لزيادة الضرائب عليهم ، والعمل على اقفال كل باب من ابواب
النجاة من وجه مأمور الضرائب ، واما احصاء عمر ، فهو احصاء جديد
لم يسبقه الى مثله احد ، هو احصاء حكومة لرعاياها لتوزع على كل منهم
حصته من الاموال العامة ...

تنظيم العطاء

ولقد تقرر قبيل التوزيع العام والاحصاء ان الاموال التي ترد على
الدولة من الغنائم والضرائب وغيرها خاصة بالمسلمين كلها ، وانه يجب
ان توزع عليهم ، وان التوزيع يجب ان يجري وفقاً لدرجات المسلمين
من رسول الله وخلفائه من بعده .

وكان عمر يفضل اهل السابقة ثم الذين يلونهم ، وكان يقول :
« لا اجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ، وكانت ابو بكر

قبله يسوي بين الناس في العطاء ولا يفضل أهل السابقة ، ويقول : انهم عملوا لله فاجورهم على الله ، وانما هذا المال عرض حاضر ، بأكله البر والفاجر وليس ثمتاً لأعمالهم .

وعلى هذا الاساس صار تقديم نساء رسول الله على الجميع ، فتقرر لعائشة زوج الرسول وابنة ابي بكر الخليفة الاول اثني عشر الف درهم في السنة .

وتقرر لبقية زوجات رسول الله عشرة الاف درهم ... (١)

ثم جاء دور الهاشميين وابناء عبد المطلب ممن حضروا بدرأ :

ثم الهاشميين الذين تقبلوا الاسلام بعد ذلك ..

ثم جاء دور المهاجرين والانصار من الذين حضروا بدرأ ، او اعتنقوا الاسلام اولاً ، او افضوا الى رسول الله والاسلام بخدمات ملحوظة .

وعلى هذا اعطى عمر كل من شهد بدرأ ٥٠٠٠ درهم :

واعطى الحسن والحسين مثل ذلك .

وقرر لمن كان اسلامه كالاسلام اعل بدر ولم يشهد بها ٤٠٠٠ درهم .

ويقال انه خصص للعباس خمسة الاف درهم وبعضهم يقول عشرة

الاف .. وبعضهم يقول اقل .

وقرر ٣٠٠٠ درهم لكل من انضم الى رسول الله قبيل فتح مكة

ولمن تقبل الاسلام بعد فتح مكة ٢٠٠٠ درهم .

ومثل هذا المبلغ لابناء المهاجرين والانصار من اهل بدر .

واعطى اربعة آلاف درهم لكل من كان رسول الله راضياً عنهم

(١) يقول الماوردي انهم اخذت ١٠٠٠٠ درهم ، وانما ابو يوسف يقول ان الجميع

اخذت مثل عائشة .

كأسامة بن زيد مثلاً، وأعطى لأبيه - أي ابن عمر - ولبعض أبناء المهاجرين
والأنصار ٣٠٠٠ درهم .

وأعطى أهل مكة ٨٠٠ درهم لكل واحد منهم .
وأعطى أفراد العرب من اليمنية والقيسية الذين يسكنوا سورية من
٣٠٠ إلى ١٤٠٠ درهم ، وذاقوا لجودتهم في حفظ القرآن .
وأعطى بعضهم أكثر من ذلك .

وأعطى النساء ممن غادرن مكة بعد هجرة رسول الله ١٠٠٠ درهم
وأقل وأكثر ، ففرض لصفية بنت عبد المطلب ٦٠٠٠ درهم مثلاً ،
وذلك لقربانها من رسول الله .

وقد لساؤ الناس مبالغ تتراوح بين ٣٠٠ - ٤٠٠ درهم .
وقد لساؤ النساء المهاجرين والأنصار مبالغ تتراوح بين ٢٠٠ - ٣٠٠ ،
٤٠٠ ، ٦٠٠ درهم .

وخصص عطاآت سنوية لغير العرب من الفرس أصحاب الأملاك في
العراق ، ولبعض المسيحيين في الحيرة (١)

ونصح عماله بمعاملة المسيحيين معاملة المسلمين ، لا فرق فيما بينهم من
حيث انصافهم والعدل بينهم ، وأذن لهم أن يؤثفوا قبيلة لأنفسهم .

وخصص لأولاد ونساء الرجال الذين سقطوا في الحروب أو كانوا
في الحرب عشرة دنانير في السنة .

ولم يترك العبيد ، فأعطى ٣٠٠٠ درهم لكل عبد من العبيد الثلاثة
الذين حاربوا في بدر أول معركة ظفر فيها المسلمون على خصومهم من
أهل مكة ...

وكان بنال سكان المدينة أيضاً بعض الخنطة وشيئاً من الأغذية التي

كانت ترد من الخارج .

والواقع ان واردات الدولة الاسلامية عهد الخلفاء الراشدين كانت توزع على اهل الديوان ، وكان الديوان يشمل اسماء المسلمين من المهاجرين والانصار ومن تابعهم ومقدار اعطياتهم ، وفاقاً للنسب النبوي والسابقة في الاسلام ، وكان لكل مسلم راتب يتناوله لنفسه ، ورواتب لأهله واولاده .

وكانت هناك مصارقات اخرى غير العطاء الذي وصفناه ، وكانت هذه المصارقات تدور حول ثلاثة ابواب ...

- ١ - ملابس الجنود الذين يحاربون لنشر الاسلام وسلاحهم .
- ٢ - دفع اجور الموظفين الذين يجمعون الضرائب وغيرهم من الموظفين .
- ٣ - مساعدة الفقراء واليتامى من المسلمين ...

رواتب الموظفين

والظاهر ان عمر بن الخطاب لم يقدر الرواتب إلا في ولاية عمار بن ياسر على الكوفة ، فقد أجرى عليه ستائة درهم مع عطائه لولائه وكتابته ومؤذنيه ومن كان يلي معه اموز الدولة في كل شهر .
 وأجرى عليه في كل يوم نصف شاة ، ونصف جريب من الخنطة .
 وأجرى على عثمان بن حنيف وقد ارسله معه ربع شاة وخمسة دراهم كل يوم مع عطائه ، وكان عطاؤه خمسة آلاف درهم .
 وأجرى على عبدالله بن مسعود مائة درهم في الشهر ، وربع شاة كل يوم .
 وأجرى على شريح القاضي مائة درهم في كل شهر ، وعشرة اجرية .

وانما فضل عماداً عليهم لانه كان على الصلاة .
وعين عمر في الوقت نفسه قاضياً على البصرة ، واجرى عليه راتباً
شهرياً ، وبظهر ان امير المؤمنين عمر بن الخطاب قد عين القضاة على
المدن الكبرى ، وان كنا لا نؤي تأييداً لما نذهب اليه في كثير من
الكتب التي لم تعرض لهذا الامر في كثير ولا قليل .

عمر واعماله المالية

والواقع ان عمراً اول من وضع النظام المالي للدولة العربية ، فهو
الذي فرد الرواتب المختلفة على الموظفين ، وهو الذي احصى المسلمين ،
وهو الذي مسح ارض السواد وكلف بذلك عثمان بن حنيف ، فمسح هذا
الارض على قدر طبعاً ، لاننا لا نعتقد ان هذا المسح كان حاسماً ولا
دقيقاً . فكانت النتيجة ٣٦ مليون جريب ، كل جريب يساوي ٣٦٠٠
يود مربع (١) واليود العربي ٣٤ انشا ، وعلى اساس هذا المسح صار
اقرار ضريبة الارض وهي المسماة بالخراج .

كما رفع عمر ضريبة الجمر لك ليسمح للبلاد العربية خصوصاً الجزيرة
نفسها بالتمون بما تحتاجه من الحبوب وغيرها من مصر وغير مصر من
مدن الامبراطورية الجديدة .

كما اصدر امره الى عامله على مصر بوصل النيل مع البحر الاحمر
بواسطة قناة فدية كانت تبدأ من بابلون - القاهرة ، وتصب في البحر
الاحمر ، وقد صار فتح هذه القناة التي سميت بقناة امير المؤمنين في سنة
واحدة ، وعلى الاثر اخذت القوافل تحمل الميرة من مصر الى نهر النيل .
فالبحر الاحمر ، فالبحار ، فسقطت اسعار الحبوب في البحار خصوصاً

« ١ » او مليون وثمان المليون من الهكتارات .

في مكة والمدينة ، بعد ما أصبح وردود الحبوب اليها متتابعاً ،
وسبب فتح القناة على ما يظهر المجاعة التي حصلت في الجزيرة ،
والطاعون الذي ظهر في الشام سنة ٦٣٩ فذهب بخلق كثير .

مسألة الزكاة

اما مسألة الزكاة فكانت ضريبة تؤخذ من اغنياء المسلمين كما قدمنا
لنتفق على فقرائهم ، وكانت الحكومة في اول الامر تقوم بجمع هذه
الضريبة وهي ٢ ونصف بالمئة ، على الرجوع المقررة بشأنها في كتب
الشريعة ، وتضعها في صندوق خاص ، ثم يصار الى انفاقها على المسلمين
الفقراء والمساكين وابناء السبيل .

وكان المسلمون يدفعون غير الزكاة العشر من حاصلات الارض التي
بايديهم ، مقابل اخذهم العطاء من خزانة الدولة واربعة اخماس الغنائم
اذا كانوا من المقاتلة في الحرب .

والعرب لما استولوا على (السواد العراقي) وهو هذه الارض الخصبة
المشهوره في التاريخ والتي سميت بالسواد لسواد ارضها (١) لم يفتنوا الى
خطرها واهميتها وعظيم ثروتها ، وكانوا لا يدركون الى ذلك اهمية المال ،
ولا ما يتصعد من الارقام ، حتى ان بعضهم لم يكن يعرف فوق الالف
رقماً .

وكذلك لم يفتنوا في اول امرهم الى اهمية الجواهر ، والذهب ،

« ١ » السواد هو الارض التي قامت عليها امبراطورية البابليين ومن بعدهم وهو
القسم الجنوبي من العراق ، لان القسم الشرقي قامت عليه امبراطورية اشور ، وفي السواد
كانت الخيرة ، كما كان يوجد في الانبار مركز الحكومة الفارسية ، وكانت الاله مرفاً
السواد العظيم .

الذي حملته الغنائم ، وفضلوا عليها الحيوانات المداجنة ، والارض المزروعة .

بحث سياسة عمر المالية

ومن المؤكد ان سياسة عمر المالية كانت موافقة لروح ذلك العصر ، اذا اعتبرنا ان المسلمين كانوا اقلية ، وان غير المسلمين كانوا اكثريه ، وان الثروة كانت عظيمة ، فكان يتقدور عمر بن الخطاب والحالة هذه ان يخصص لكل فرد من المسلمين مبلغاً يتقاضاه من بيت المال ، بحيث كان المسلمون والحالة هذه بمثابة جيش عظيم من الجند والموظفين يقومون بحماية ارض واسعة الاطراف عظيمة المساحات كثيرة الخيرات ، على سكانها والمزارعين والفلاحين فيها ان يقدموا لهذه الاقلية الاسلامية مبلغاً من المال ، يقوم باوردهم مقابل حمايتهم والدفاع عنهم ، هذا مع الاعتبار بان المبلغ الذي كان يدفعه غير المسلمين كان ضريبة معتدلة مقررة اذا فيست بالاضرائب التي كانوا يدفعونها للحكومات السابقة الفادحة الغير مقررة .

لقد كانت واردات السواد وحده في عهد عمر بن الخطاب ١٢٠ مليوناً من الدراهم وكان السواد لا يقل عن ٣٨ مليون جريب ، وضع عمر على كل جريب درهماً ومقداراً معيناً من غلة الجريب .

وكان غير المسلمين من سكان الارض يدفعون ما يأتي عن كل جريب :

لكل جريب مزروع نخلاً ١٠ دراهم .

١٠	د	عنباً	١٠	د
٦	د	فصباً	٦	د
٤	د	حنطة	٤	د
٢	د	شعيراً	٢	د

وكان على كل شخص من غير المسلمين ان يضع حول رقبته اشارة
بأخذها من عامل الخراج تدل على انه من الذين يدفعون ضريبة الجزية
او الرووس ، وهي ٤٨ درهماً للموسرين ، و ٢٤ للموسطين ، و ١٢ لاهل
الطبقة الثالثة ، واما النساء والاولاد والشيوخ فلا ضريبة عليهم .

وهذه « الاشارة » وزع منها عامل عمر بن الخطاب في السواد فقط
٥٥٠ ألفاً ، وهذا يعني ان سكان السواد في عهد عمر كانوا يزيدون عن
نصف مليون ، واما عدد المسلمين فلم يكن يزيد عن مائتي الف شخص .
ولقد رضى عمر من بعده من الخلفاء برحلة الرعية من سكان السواد ،
ولكن بعض الامراء اخذوا يعتبرون مقدار الخراج عن الارض شيئاً
ثباتاً لا يجوز نقصانه ، مع ان سكان السواد كان يقل عددهم ، فلم
يكن بقدر الباقيين في الارض دفع الخراج المطلوب عن الارض كلها ،
بما جعل الكثيرين من سكان السواد يتقبلون الاسلام ، خلاصاً من
الضريبة ، وكان هؤلاء اذا فعلوا ذلك يأخذون معهم اموالهم المنقولة
فقط ، واما الارض نفسها فنظمت ملكاً للدولة .

ولما اخذ الناس عهد عثمان بن عفان يستملكون الارض خلافاً لوصية
عمر ، اخذ غير المسلمين ايضاً يستملكون ارضهم ويحتفظون بها .

السواد

والسواد - وهو الارض السوداء في العراق - كان على اقسام ،
فالارض التي صار الاستيلاء عليها حرباً كان يستطبع الخليفة نقبسيها
على المحاربين او حفظها لبيت المال مقابل « خراج » يدفعه اهلها .
واما الارض التي صار الاستيلاء عليها بالصلح والاتفاق ، فنبقى مع
اصحابها مقابل دفع الخراج عنها وهي (ارض الصلح) .

وقد نهى عمر بن الخطاب عن استهلاك ارض الحراج ، وامر بتترك
 اهلها لتكون مادة للمسلمين ، ولأن المسلم لم يتعود دفع الضرائب ،
 ولا الاشتغال بالزراعة ، فترك الارض والحالة هذه في ايدي اصحابها
 كان معناه حفظها ، ورعايتها ، بحيث يعمل فيها اصحابها الاصليون او
 الذين كانوا يعملون فيها ، ويأخذ لبيت المال منها ضريبة يوزعها على
 المسلمين .

ثم انه ترك الارض في ايدي اصحابها كان راحة لاصحابها الذين كانوا
 يعيشون منها ، فحفظ عمر بعمله هذا حقوق اصحاب الارض الاصليين ،
 وحفظ للمسلمين ثروة عظيمة ، او حفظ لبيت مال المسلمين ثروة عظيمة
 يصار الى توزيعها عليهم او لما يعود لمصلحتهم .

وكذلك نهى عمر عن شراء ارض شخص من غير المسلمين حفظاً
 للخراج المقرر عليها لان انقطاعه كان مضرأ لبيت المال .

واما اذا ورث مسلم ارضاً من والد غير مسلم فعليه دفع خراجها .

حكومة عمر العجبية

والواقع ان حكومة عمر بن الخطاب كانت حكومة عجبية ليس لها
 مثيل في العالم ، فهي حكومة مستفعاة من هذه الدولة العربية المتواضعة
 التي اسسها محمد بن عبدالله في المدينة ، والتي كانت حكومة ديموقراطية
 جمهورية اشتراكية لاسك فيها ، لان الزكاة المقررة في الاسلام ، ليست
 في الواقع إلا ضريبة تفرض على رأس المال ، وتوزع على الفقراء
 والمستحقين ، واذا نظرنا الى اهتمام رسول الله بالزكاة ، وجعلها من اركان
 الاسلام ، اذكرنا الغاية الاشتراكية العظيمة التي كان يرمي اليها
 الاسلام ، والتي كان يريد من ورائها ان يجعل المجتمع الاسلامي مجتمعاً

سعيدياً يعمل فيه الجميع خيراً للجميع ، لا اثر فيه للخصومات والحزبيات
التي خلقها رأس المال في العصر الحاضر ، والتي جرت الكثير من
الحروب والدماء .

ومع ذلك فان بعض المستشرقين يحاول رد الزكاة الى انها من اصل
فينيقي او كنعاني ، واما حبسهم في ذلك ، فلان هناك ضريبة كان
يدفعها الاغنياء عندهم لتوزع على الكهنة ، والكهنة على كل حال ،
ليسوا فقراء الامة ، والاشتراكية المعاصرة لا توزع مساعداتها على
الكهنة ورجال الدين ، وانما توزعها على الفقراء ، والاسلام اول من
ابد فكرة الاشتراكية في العالم فجعل للفقراء حقاً في الحياة ونعيم الحياة .

حكومة عمر

واذاً فقد كان عمر بن الخطاب يرى ان من حق كل مسلم ان ينعم
بشيء من بيت المال ، ولكن وفاقاً لقرايته من رسول الله وخدمته
للالسلام ، وعلى هذا الاساس وضع نظام العطاء ، وجمع اصحاب رسول
الله فقال لهم :

— اني قد رأيت ان افرض العطاء لأهلك .

فقالوا : نعم الرأي يا امير المؤمنين .

قال : فمن ابدأ .

قالوا : بنفسك .

قال : لا ، ولكنني اضع نفسي حيث وضعها الله ، وابدأ بآل رسول
الله أولاً .

ولما جاء قوم عمر بن الخطاب — بنو عدي — يقولون له :

— انت خليفة رسول الله وخليفة ابي بكر ، فلو جعلت نفسك حيث

جعلك هؤلاء القوم الذين كتبوا .

قال لهم : بخ . بخ . بني عدي ، اردتم الاكل على ظهري ، وان
اهب حساني لكم ، لا والله حتى تأتبعكم الدعوة ، وان يطبق عليكم
الدفر - يريد ولو ان تكتبوا آخر الناس - ان لي صاحبين رسول
الله والصديق ابي بكر ، سلكا طريقاً فان خالفها خولف بي ، والله ما
ادر كنا الفضل في الدنيا وما نرجو الثواب على عملنا الا بمحمد صلى الله
عليه وسلم ، فهو شرفنا ، وقومه اشرف العرب ، ثم الاقرب فالاقرب .
وكذلك نرى ان عمر بن الخطاب اعتمد في تقرير العطاء على مركز
كل مسلم من رسول الله قريباً كان او محبباً له ... فقدم قرابة رسول
الله على المسلمين اجمعين ، وكانوا القوم اذا استنوا في القرابة قدم اهل
السابقة ، ووضع نفسه بعدهم وهو الخليفة ، ولو قدم نفسه ما عتب احد ،
بل لقد طلب الصحابة منه ان يقدم نفسه فابي ووضعها في المركز
الذي اعتقد انه مركزها .

لقد فرض عمر لاسامة بن زيد ، وهو ابن خادم رسول الله ، اربعة
الاف درهم ، وفرض لعبدالله بن عمر اربعة ، ثلاثة الاف ...
ولعبدالله سابقته وعلمه ومركزه . فراح عبدالله يعتب عليه وقال له :
- فرضت لي ثلاثة الاف ، وفرضت لاسامة اربعة الاف وقد شهدت
ما لم يشهد اسامة .

فقال له عمر : زدته لانه كان احب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
منك ، وكان ابوه احب الى رسول الله من ابيك ...

النظام المالي في العهد الأموي

العطاء في عهد معاوية

لما احتاج معاوية الى تأييد الناس له في العهد الأموي ، زاد في اعطيات الجند بصورة خاصة ، وكان جنده بعد سنتين الفأ يلقى عليهم مئتين مليون درهم في العام ، فليحق كل رجل الف درهم ، وهذا اضعاف ما فرضه عمر بن الخطاب ...

وكان في مقدمة القبائل التي اخذت بيده وحاربت معه ، وايدت دعوته قبائل اليمن ، فجعل معاوية اليمنية فرقة خاصة ، وعدتها الفأ فارس وفرض لهم عطاء مضاعفاً ، وجعلهم جنداً مستقلاً لا يحتسبون بسواهم وكان يستشير امراءهم وقوادهم وقرهم ، فاستفعل امر اليمنية ، حتى خشي معاوية منهم ، ف قرب عندئذ القيسية ، واعطاهم مثل عطايتهم وصار يغزي البحر باليمن والبحر بالقيسية ، فشق ذلك على اليمنية وعائيه ، فجمع بين القيليين واغراهم .

وزاد معاوية في عطاء من رأى الحاجة تدعوه الى اصطناعه ، واخذ ينصرف في بيت المال تصرفاً ما رأى المسلمون قبل ذلك مثله ، اعطى عمرو بن العاص مصر قطعة له في حياته مقابل تأييده لسياسته ضد علي ، وقد قدروا غلة مصر باثني عشر مليوناً من الدراهم ، واخذ يوزع الاموال ذات اليمن وذات اليسار على انصاره ومن يريد اصطناعه من الناس حتي انه لما انتهى من حربه مع علي ، واظمان الى الخلافة وجيد

الخزانة العامة نكاد تكون فارغة ، بما اضطره الى حسم الزكاة من العطاء لتثبيت الموازنة التي افقرتها الثورات والحروب السابقة والمبات الكثيرة ...

وكان معاوية يزيد العطاء او ينقصه او يقطعه وفقاً لموقف صاحب العطاء من الحكومة القائمة والنظام الجديد ، زاد في اعطيات انصاره ومعاوينه ، وانقص عطاء بعض خصومه من شيعة ، علي او منع عنهم العطاء منعاً باتاً ...

وكان من سياسته استرضاء آل البيت ، فوسع عليهم في العطاء ، فيقال انه بعد ان كان عطاء الحسن والحسين في ايام عمر بن الخطاب خمسة آلاف درهم في السنة ، جعله معاوية مليون درهم ، وزاد في عطاء عبدالله بن عباس ، وعبدالله بن جعفر بن ابي طالب وغيرهما ، وكما قدم عمر بن الخطاب من شهد (بدو) اول غزوات رسول الله على اهل مكة ، على غيرهم بالعطاء ، فقدم معاوية من شهد معركة صفين معه ، وسار خلفاء بني امية على خطوات معارفة فاعطوا احزابهم ، وفرضوا الاعطية للشعراء ايضاً - وهم كالصحف اليوم - فخرجوا بذلك عن سنة عمر بن الخطاب في العطاء الذي اجراه على الناس وفقاً لمقامهم في الاسلام وخدماتهم لرسول الله ...

الواردات في ايام معاوية

- وكانت واردات الدولة الاموية في عهد معاوية تدور حول
 الابواب الآتية : ١ - الجزية . ٢ - الخراج . ٣ - الزكاة .
 ٤ - عشر حاصلات الارض التي بيد المسلمين .
 ٥ - ضريبة عن التجارة وهي اشبه بضريبة الجمارك اليوم .

٦ - ضريبة تؤخذ عيناً من الشعوب المحكومة بموجب اتفاق صار عقده في اول الفتح .

٧ - مبالغ تدفع نقداً من المدن او الامصار التي صار فتحها صلحاً وبموجب اتفاق .

٨ - مبالغ تؤخذ من الامم التي انتصر عليها العرب في الحرب .

٩ - خمس الغنائم في الحروب .

وهناك مورد عاشر ، وهو تضمين الخراج إما للعالم الذين يتولون الامصار ، او للملتزمين وهم اناس من اهل الفنى والنفوذ كانوا يضمنون الاراضي من متولي الخراج بما لم معين يقع عليهم بالمزايدة قبضن الواحد قرية او بلدآ او كورة فيزرعها ويستغلها ويدفع ما عليها من الخراج ويستولي على الباقي .

وهذه الطريقة لبست من مخترعات الاسلام بل هي فديسة من ايام اليونانيين وقد اقتبسها العرب عن الرومان الذين اخذوها عن اليونان . اما مقدار الواردات في عهد معاوية فبصعب تقديرها لقلة المصادر وندرتها ، بل واختفائها تماماً ، ولكننا نعلم ان السواد - وهو ودمشق ومصر والجزيرة اعظم موارد الدولة في ذلك الحين ، لان بقية الاطراف لم تكن وارداتها لنفي بمصارفاتها - بلغت غلته في ايام عمر بن الخطاب ١٢٠ مليون درهم - سنة ٢٠ هجرية - ، وفي ايام عبيد الله بن زياد - في خلافة يزيد بن معاوية - (٦٢ هـ) ١٣٥ مليون درهم ، واما مصر فقد اخذها عمرو بن العاص طعمة له ، واما الشام فقد كان خراجها ايام عبد الملك بن مروان ١٠٧٢٠٠٠٠ ديناراً ، بحيث يستطيع المؤرخ المعاصر ان يقول ان الواردات في اواخر ايام معاوية لم تكن لتزيد عن ٣٠٠ مليون درهم مثلاً ، والدراهم يساوي فرنكاً من الذهب ..

أو ما يبلغ ١٥ مليون ليرة ذهبية ...

الحالة المالية بعد معاوية

وقد سار عبد الملك بن مروان على سياسة معاوية في استرضاء الأحزاب والتوسع بالعطاء ، كما راح عامله على العراق الحجاج بن يوسف يوزل للناس العطاء لحثهم على حرب الخوارج وحرب الترك وغير الترك ، حتى أنه صرف على الجيش الذي سار إلى رتييل في الهند - وعدته اربعين ألفاً مليوني درهم سوى اعطيات الجند فضلاً عما اعطاء لقوادهم ، ولما توفي الوليد بن يزيد بن عبد الملك زاد العطاء عشرة دراهم ، فلما خلفه يزيد الثالث اعاد العطاء الى ما كان عليه قبلاً .

وزادت الواردات بعد معاوية زيادة حسنة ، فسقطت بلغت واردات السواد - العراق - في عهد الحجاج ١٨٨ مليون درهم ، سنة (٨٥ هـ) وبلغت واردات مصر في عهد هشام اربعة ملايين دينار ، ثم تددت الواردات باضطراب الامر وقلة الابدي العامة في الزراعة ، واقبال الناس على الاسلام ، فقلت جباية العراق في عهد عمر بن عبد العزيز وضمف امر الجباية في مصر مما كانت عليه في عهد هشام حتى بلغت الى مليون دينار ...

وكان يصرف من بيت المال في عهد بني امية مبالغ حسنة لتحسين الترع الكبيرة والحجاري التي تأخذ من الانهار الضخمة كدجلة والفرات لنقل الماء الى الاراضي البعيدة ، كما كان بيت المال مسؤولاً عن حفر الترع للزراعة وغيرها .

وكذلك كان على بيت المال النفقة على المسجونين واسرى الحرب ، من ماكل ومشرب وملبس .

وعليه النفقة على المعدات الحربية وصنعها ، وصرف الرواتب المقررة للموظفين المختلفين في الدولة .

وكان كذلك - أي بيت المال - مرتعاً خصباً للشعراء والادباء ومن يرى الخليفة من زعماء الناس أرضاء وتقريبه .

وبما يجب ان يصار الى ذكره ان بيت المال اصبح منذ عهد عثمان بن عفان - اذا استثنينا عهد الامام علي - فقد اليه يد المستحق وغيره ، ففي عهد عثمان حصل بعض اقربائه على مبالغ حسنة من بيت المال ، ومن امثلة ذلك ان عثمان اعطى مروان بن الحكم كاتبه خمس عتائم افريقية وقد قدرها بعضهم بمئات الالوف من الدراهم ، كما انه تسامح في مسألة الاراضي المشاعة فاقطعها معاوية وغير معاوية ، وبظهر انه لم يأخذ من الذين اقطعهم ايهاً اوراقاً تثبت ان الارض انما هي لبيت المال او للمسلمين جميعهم ، وانه اقطعها من اقطعها لمدة محدودة من الزمن . .

مثال ذلك ان المسلمين لما فتحوا الشام واقرروا الارض في ابسدي اصحابها ، كان جانب كبير منها ملكاً للبطارقة قواد جند الروم ، فلما غلبت الروم وفرن البطارقة ، او قتلوا ظلت ضبايعهم سائبة لا مالك لها ، فارفضها المسلمون على بيت المال ، فكان العمال يضمنون غلتها فيعطون بيت المال قسماً ، ويأخذون الباقي ، فلما ولي عثمان ، طلب منه معاوية اقطاع هذه الاراضي التي لا مالك لها ، وليست من قرى اهل الذمة ولا الحراج ، وحجته ان الذي اجراه عليه من الرزق في عمله لا يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الاجناد ورسل امراءهم ورسل الروم ووفودهم .

فاقطع عثمان هذه الاراضي ، وانتقلت من معاوية الى اهل بيته . وفعل عثمان مثل ذلك بالاملاك العامة في السواد خصوصاً التي كانت تخص

ملوك الفرس ، والاراضي التي تركها اهلها ، وهذه الاملاك اعطاها
عثمان بالايثار الى من يشاء امرهم مقابل خمسين مليون درهم ، كما سمح
لبعض اهله بشراء الارض التي حظر عمر على المسلمين شراؤها ومها يكن
من امر فان تلزم عثمان هذه الاراضي او اقطاعها كان مخالفاً لسياسة عمر
ووصيته .

سياسة عمر والايام بعده

واذا كانت سياسة عمر بن الخطاب حسنة موفقة في وقته وعهده ،
فانما اصبحت بعد مائة سنة شيئاً لا تستطيع الدولة القيام به ولا تنفيذه .
اصبح العطاء مع الايام مبلغاً ضخماً فادحاً ، وكثر عدده من يأخذون
العطاء بسبب هذه الزيادات التي ادخلها معاوية وغير معاوية من الخلفاء
بعده على ديوان عمر .

فلما كان عهد عمر بن عبد العزيز وذلك بعد ان اصبح النقص ظاهراً
في الخراج وبعد ان قلت الفسوحات ، وقلت معها الغنائم والثروات
العظيمة التي كانت تحملها هذه الفسوحات ، حاول عمر ان يعود بالعرب
الى سياسة سلفه عمر بن الخطاب ، وان ينشر الاسلام بين الشعوب
المختلفة ، فمنع الموالي الحقوق التي كان ينعم بها المسلمون من العرب
وحدهم ، واعفاهم من الجزية التي كان يدفعها غير المسلم ، ثم جعل لهم
حق مقاسمة اخوانهم المسلمين من العرب نصيبهم من الاعطيات السنوية .
ولكن بيت المال لم يكن في حالة تمكنه من القيام بكل هذه
الفروض الجديدة ، وكانت الحالة المالية في هذا العهد تتطلب اصلاحاً
عاجلاً ، بعد ان انضبت الاعطيات السنوية في العراق بيت المال ، وبعد
ان قلّ الوارد اليه من جراء إلغاء الجزية في خراسان باقبال الناس على

الاسلام ، وارتفاع الجزية عنهم باسلامهم ، ولذلك لم تدم هذه السياسة المالية التي اجراها عمر بن عبد العزيز في عهده طويلاً . فما لبث خليفته من بعده وهو يزيد ان اعاد الحالة الى ما كانت عليه سابقاً ، فاغضب الموالي الذين اسلموا ، وقتل آماهم في المساواة ، وكان من حق عمر بن عبد العزيز ان يقضي على العطاء فضاء مبرماً ، وان يجد اعمالاً جديدة غير الغزو والفتح المرابطين في الولايات الاسلامية من جند العرب حتى لا يكونوا عالة على بيت المال ...

واذا كانت سياسة عمر بن الخطاب في العطاء في عهده موفقة لما فرض العطاء لكل مسلم باعتباره جندياً موظفاً في الدولة ، على الدولة ان تقدم له ما يحتاجه ، وعليه ان يقوم بخدمتها ... فان عدد الجنود في عهد عمر كان محدوداً ، وكان غير المسلمين اكثر من المسلمين ، وكانت هؤلاء يقومون بالزراعة والتجارة وغيرها من الاعمال التي تدور على بيت المال الاموال اللازمة لصرفها على جنود الدولة ، وكانت هناك ايضاً الجزية المفروضة على غير المسلمين والتي كانت مصدر وحدها تقدم منها مبلغاً عظيماً ، ولكن الحالة تبدلت بعد عهد عمر ، ونقبل الاسلام اكثر المسيحيين الموجودين في الدولة ، وزاد الجند عن حالة الدولة ، وفلست الفتوحات ، فقلت الاموال التي ترد الى الدولة من الفتوحات ، كما نقصت الجزية باسلام غير المسلمين ، فاصبح بيت المال والحالة هذه لا يستطيع القيام بالاعباء المفروضة ، والتي تفرض لكل مسلم عطاء من بيت المال ، وكانت سياسة عمر نحول دون ملكية الجند للارض ، لان الجند في ذلك الوقت كانوا اقلية والفتوحات في اوجها ، وليس يصح ان يلهو الجند بالزراعة وامامه ما امامه من سياسة التوسع والتبسط في الارض ، فلما انتهت الفتوحات اواخر عهد الامويين اصبحت الحاجة

ماسة الى تبديل السياسة القديمة ، وترك الجند يستغل الارض ويعمل فيها ، فتنجو الدولة من شر العطاء ، وتزداد الواردات بما تدره الارض المستثمرة الجديدة من الخراج للخزانة العامة ، ولكن عمر بن عبد العزيز ، وقد فكر في الاصلاح لم يظن الى هذا الامر الخطير ، فاراد العودة الى عهد عمر جده ، وعهده غير عهد عمر ، وقرر منع الجند من التوطن في الارض ، واعطاء المواشي من المسلمين الاعطيات من بيت المال ، مع ان الضرورة كانت تدعو في ذلك الوقت الى الغاء الاعطيات التي كانت تمنح للعرب انفسهم .

وكذلك حالت سياسة عمر بن عبد العزيز التي انضبت بيت المال ، دون نجاح سياسته العامة التي كانت توحي في ذاتها الى الاصلاح واعفاء المسلمين الجدد من الجزية ، فلما عاد خلفاؤه الى الغاء ما قرره ، وارجعوا الضرائب المفروضة على الذين اسلموا - رغبة منهم في دفع الجزية عنهم - بدأ الاضطراب يظهر في الدولة الاموية **وتكثرت** جماعات كبيرة من المسلمين غير العرب لسياسة الدولة المالية التي غدت في نظرهم عبثاً ثقيلاً لا قبل لهم باحتماله ، وهي السياسة التي اتبعها الامويون ولا سيما في خلافة هشام بن عبد الملك ، بعد فشل الاصلاح الذي قام به عمر بن عبد العزيز **ل**.

وهناك شيء آخر ايضاً ، وهو انه يجب ان ينظر الى هذه الاصلاحات مع ما كانت تنعم به من خطأ وفوضى يعين الاهتمام ، ذلك انها كانت سياسة جديدة ، وكانت هذه السياسة الجديدة مفيدة ناجحة لولا ما اصابها من العوامل التي افسدتها واخرت بها ...

كانت الغاية التي قصد اليها عمر بن عبد العزيز من دفع الجزية عن الشعوب التي اسلمت - وذلك وفاقاً لسياسة عمر بن الخطاب ، ونقضاً

لسياسة الحجاج الذي اقر الجزية على المسلمين من الموالي ايضاً - ان
 يساوي بين العرب المسلمين وغير العرب من المسلمين ، وكان عدم
 المساواة سبباً دائماً من اسباب الثورات والاضطرابات والقلق في قلب
 الدولة ، وكانت الحالة تدعو الى ذلك ، لانه كان من مصلحة الامويين
 مساواة المسلمين بعضهم مع بعض ، بعد ان اصبح عدم المساواة خطراً
 يهدد سلامة الدولة .

واذا لم تكن هذه المساواة من مصلحة الدولة المالية ، أفلم تكن من
 مصلحة الاسلام ؟ بعد ان تبدلت الارض غير الارض ، وتوقفت الفتوح
 بعد الوليد ، واصبحت الحاجة ماسة الى اصلاح داخلي عظيم يهدم سياسة
 العطاء هدماً ، فلا يجعل قسماً كبيراً من المسلمين يعيشون على حساب
 الدولة ، كما انه كان من الواجب خلق موارد جديدة مالية لتسديد
 المصارفات ، واخلال التوازن في الخزنة العامة ، واقرار سياسة مالية
 حازمة مقررّة تكون مواردها مقررّة معروفة ، وتكون مصارفاتها
 محددة معينة ...

ولكن عمر بن عبد العزيز كان شخصية محافظة لم يفتن الى سياسة
 عمر بن الخطاب وفائدتها في عهده ، وضررها بعد عشرات السنين بعده ،
 فراح يحاول العودة الى هذه السياسة التي كان يجب تعديلها ، وراح
 يحاول التوسع في مسألة العطاء توسعاً قضى على بيت المال ، وجعل من
 الشعب قباة بهذه الاعباء الجديدة التي فرضها عليه ، فكان من اثر ذلك
 ان الموالي الذين كانوا يؤملون رفع الجزية عنهم بعهد اسلامهم اسوة
 باخوانهم المسلمين الآخرين ، لم يوفقوا الى الوصول لغرضهم هذا ، مما
 كان سبباً في قلقهم واضطرابهم ، وتأيينهم للثورات التي قامت بينهم
 وحولهم ...

الضرائب في عهد امية

ولقد زادت الضرائب في عهد الامويين زيادة محسوسة ، ولم يراع
الحلفاء الامويون القوااعد التي قرروها اسلافهم ، بل تجاوزوا حدود
الضرائب التي فرضوها ..

وفد كتب معاوية الى وردان عامه على مصر : « ان زد على كل
امرئ من القبط فيراطاً »

فكتب اليه وردان « كيف ازيد عليهم وفي عهدك انت لا يزد
عليهم ؟ »

وكانت الحالة في الولايات العربية مثل ذلك ، فقد صادر احد اخوة
الحجاج ببلاد اليمن املاك الناس ، واثار حقدوم وسخطهم بفرضه عليهم
ضريبة معينة ، وذلك عدا العشر الذي قرره الاسلام .

وفي عهد عبد الملك صار احصاء السكان عامة في خراسان وكلف كل
شخص بسداد ما فرض عليه من الضريبة ، وزادت جزية كل شخص
ثلاثة دنانير عما كانت عليه من قبل ، وكذلك كانت الحالة في العراق ،
حيث زبدت الضرائب الاستثنائية زيادة فادحة انقلت كاهل السلطان .
ولم يكن كل عمال بني امية من اهل الاخلاص والانصاف ، فان
منهم من كان ينظر الى الولاية والامارة كوسيلة للثراء والانتجار ، ولم
يكن الرؤساء وحدهم هم الذين يتفرون على حساب بيت المال ، فقد
كانت هناك طائفة من صغار الموظفين يسير على منتهى وتعمل على
سياستهم .

وكان بعض الحلفاء يحاسبون العمال حساباً عسيراً ، ويفرضون عليهم
الغرامات الفادحة لاسترداد الاموال التي جمعوها من ولاياتهم ، فيغضبون

بعملهم هذا قبائلهم ، وكان من الحق ان لا يتركوا لهم الجبل على الغارب منذ اول الامر ، ولا يعمينوا في هذه الوظائف العالية الا من ثبثت كفاءته ، واشتهر عنه الفضل والاخلاص والانصاف والذمة .

بحث الضرائب في عهد امية

وبين الاوراق التي صار العثور عليها في مصر ، ما يتعلق بالضرائب بين سنة ٨٠-١٠٠ هجرية ، ومنها يظهر انه كانت هناك عدة ضرائب على غير المسلمين ، منها ضريبة الارض التي كانت تدفع عيناً ونقداً ، اي مالا وحياً او حبوباً ، ولسنا على يقين من هذه الضريبة اكانت واحدة ام انها كانت مؤلفة من ضربتين !!

وهناك ايضاً ضرائب مختلفة هي اقرب الى التكاليف الحكومية الغير مقررة ، ولكنها كانت تجبي دائماً .

اما المسلمون فلم يكونوا يدفعون إلا ضريبة العشر عن ارضهم ، والزكاة التي كانت تأخذها الحكومة وتضعها في بيت المال ، على ان تصرفها على الفقراء والمساكين .

وليس هناك بين هذه الاوراق ما يدل على ان المرأة كانت تدفع الجزية او ضريبة الرؤوس ، وهذا ما تؤيده المصادر الاسلامية .

وكذلك لم يكن يدفع هذه الضريبة كل الناس ، فبعض الكهنة كانوا يدفعونها ، وبعضهم لم يكونوا يدفعونها ، وكذلك لم يكن يدفع ضريبة الرؤوس او الجزية صغار الاولاد ، وكان يدفعها كبارهم .

اما ضريبة الرؤوس فلم تكن مستقرة على معدل واحد ، فقد كان يؤخذ من الشخص الواحد ثلاثة دنانير في السنة ، ومن غيره دينارين ، ومن ثالث اربعة دنانير والى الفارسي غاصح من هذه الضريبة التي كانت

تقيد في الاوراق المذكورة على حساب اكثر من شخص واحد ..

فمثلاً دفع ٩٥ شخصاً ٢٣٠ ديناراً .

و ٥ ٥ اشخاص سبعة دنانير وثلث دينار .

و ٥ ٧ اشخاص سبعة عشر ديناراً .

و ٥ ١٥ شخصاً ثمانية وثلاثين ديناراً ونصف .

و ٥ ٧ اشخاص عشرين ديناراً ونصف .

و ٥ ٥ اشخاص ٩٣ ديناراً وهكذا ...

الارض

اما الارض فكان يؤخذ الخراج المقرر عليها نقداً وعبئاً دراهماً
وغلالاً من محصولاتها .

واصحاب الارض حتى النساء من غير المسلمين كانوا يدفعون هذه
الضريبة ، ويظهر ان الاشخاص الذين لم يكن عندهم ارض كانوا
يدفعون ضريبة القمح والفلال ... كما ان الارض المزروعة قمحاً او غنماً
كانت تختلف الضريبة عليها باختلاف محصولها وما يزرع فيها .
وكانت تؤخذ ضريبة عن الارض التي يزرع فيها الطلح او شجر
السنت والتمل ايضاً .

واختلفت الضريبة على الارض ، ولكننا نأخذ نماذج مما وجد في الاوراق
المذكورة عن ضريبة الارض التي صار تأجيرها الى المسلمين والعرب مثلاً ،
فقد كان المأمور المكلف بالشؤون المالية والخراج ، يؤجر ٤٠ فداناً
من الارض العامة بثلاثين ديناراً .

واجرت خمسين فداناً بخمسين ديناراً .

وكانوا يأخذون ضريبة ديناراً واحداً ، وعشر ارادب من الحنطة

وثلاثة ارادب ونصف من الشعير عن الفدان الواحد .
وفي ورقة اخرى نجد ان مأمور الخراج كان يأخذ ديناراً واحداً
و ١٥ اردباً من الحنطة عن الفدان المزروع حنطة .
واما الارض التي تزرع شعيراً فكانوا يأخذون عنها ديناراً واحداً
ونصف ارادب من الحنطة ، وسدس ارادب من الشعير ...
وفي القرن الاول للهجرة ترى الضرائب الفردية قليلة ، وهذا يدل
على ان الارض التي كانت لدى الافراد لم تكن عظيمة المساحة ، فافصى
ما وصلت اليه الضريبة على الفرد الواحد سبعة دنانير .
اما قيمة العملة وقوتها الشرائية في ذلك العهد اي (القرن الاول
الهجري) فهي كما يلي :
ففي سنة ٨٠ للهجرة كان ثمن عشرين ارادب من الحنطة ديناراً واحداً .
وفي سنة ٨٨ كان ثمن اثني عشر اردباً ديناراً .
ونرى بعد هذا التاريخ الدينار الواحد يساوي عشرة ارادب من
الحنطة وعشرين من الشعير .
وفي سنة ٩٢ هجرية كان الحروف الواحد يساوي نصف دينار .
اما اجور العمال فكانت زعيدة جداً ، فكانت اجرة العامل في
صناعة السفن لا تزيد عن دينارين في الشهر . واجرة النجار ثلثي الدينار ،
واجرة الفشار احد عشر ديناراً في السنة .
وهنا لابد من الملاحظة ان العمال كانوا على درجات من حيث
براعتهم واحسانهم في صنعهم .
والظاهر ان الحكومة المركزية - او مأمور الخراج في العاصمة -
كان يفرض مقدار الخراج على بلدة او محلة ، ويترك للموظفين المحليين
امر تقسيمها بين الناس .

فقد كتب فره بن شريق امير مصر الى سكان بلدة في مصر بقول :
 « المقرر عليكم من الضريبة لعام ٨٨ هو ما يأتي :
 ١٠٤ دنانير وثلاث الدينار ، واحد عشر اردبياً وثلاث الارdeb من
 الحنطة ، كنبه رشيد في صفر سنة ٩٩١ هـ .
 والاختلاف بين التاريخين يعود الى الاختلاف بين التاريخ الشمسي
 والقمرى . . . وكانت هناك ضرائب تؤخذ من الكنائس وغيرها وهي اقرب
 الى التكاليف الحكومية كما قدمنا ، وهذه لم تكن مقررة ، وانما كانت تفرض
 عند اللزوم كما يظهر .

اختلاف الضرائب

والواقع ان نظام الضرائب كان يختلف في كل مصر من امصار
 الامبراطورية عن غيره ، فقد كانت الضرائب التي فرضت على غير
 المسلمين عهد رسول الله والخلفاء الراشدين اقل بكثير من الضرائب التي
 فرضت عهد خلفاء امية .
 فقد قرر رسول الله على غير المسلم في كثير من الحالات ديناراً
 واحد في السنة ، فلما كان عهد ابي بكر وصار فتح بصرى ، فرض ابو
 بكر على اهلها ديناراً واحداً وجريباً واحداً من الحنطة .
 وعومل سكان انطاكية مثل ذلك بعد هذا العهد لما صار فتحها .
 وفي ايام عمر زادت الفتوحات زيادة عظيمة ، فكان غير المسلم يدفع
 في اول الامر ديناراً واحداً وجريباً ، ثم ادخل عمر بعض التعديل على
 هذا التشريع المثالي الاول .
 فرض خالد بن الوليد على دمشق ديناراً وجريباً ، وزيتاً وخلاً (١)
 (١) فتوح البلدان .

واما ابو عبيدة فوضع ضريبة مقررة على كل بلدة ، لا تزيد اذا زادوا ، ولا تقل اذا قلوا (١) .

وفي حالات اخرى صار دفع الضريبة على الجماعة وفاقاً لمقدرتهم على الدفع ، فاذا زادت ثروتهم زبدت الضريبة ، وان قلت صار انقاصها .
واما في الرقة فقد دفع كل شخص ديناراً ، وبعض الحنطة والحل والزيت والعمل ..

وفي الجزيرة - شمالي العراق - اخذت الضريبة عيناً من الحبوب والزيت والحل ، ثم عدتها عمر بن الخطاب .

وبعض المدن دفعت مقداراً معيناً ، فدفعت الحيرة مبلغاً يتراوح بين الثمانين والمائة الف درهم في السنة .

ودفعت الانبار ٤٠٠ درهم والف ثوب (٢) .

وحصل مثل ذلك في الرما ، وحران ، فانها دفعا مبالغ مقررة .

واما حمص فقد دفعت ١٧٠ الف دينار ، وهذا مبلغ عظيم ، ولكن الطبري يقول : ان اهلها دفعوا عن كل واحد منهم ديناراً واحداً وبعض الحبوب ، فهل يعني هذا ان اهل حمص وما جاورها كانوا يعدون عند الفتح مائة وسبعين الفاً من السكان ؟؟

واما مصر فالأرجح انها دفعت دينارين عن كل شخص من سكانها ، واكثر المؤرخين على انها دفعت المبلغ الذي كانت تدفعه قبلاً للامبراطورية البيزنطية .

ولكن الضريبة عليها زبدت في ايام الامويين ما في ذلك من شك

ولا ريب ..

(١) ابن عساكر في تاريخ دمشق .

(٢) البلاذري .

فقد حصل عبيد الله بن أبي سرح من مصر ، أكثر مما حصله عمرو بن العاص من الضرائب .

وفي عهد عبد العزيز بن مروان - أيام عبد الملك بن مروان - صار وضع ضريبة على الكهنة ، ديناراً واحداً عن كل واحد منهم ..
وبقول سيفروس (١) : أنها كانت أول جزية أخذت منهم ، ولا نعلم إذا كانت الضريبة عن الرؤوس أم عن الأرض التي كانوا يزرعونها !! ..

وفي عهد عبد العزيز بن مروان رفعت الضريبة أيضاً رغم احتجاج السكان إلى عبد الملك الخليفة .

وقد زبدت الضريبة بما يعادل الثلث ، ولكن تاريخ الزيادة غير معروف .

فلما كان عهد عمر بن عبد العزيز رفع الضريبة عن الأرض التي تخص الكنيسة والأساقفة ، ولكن يزيد خلفه أعادها .

والزيادة بعد هذا التاريخ أصبحت عادية ، وسبب ذلك نقصان الضريبة بسبب إقبال القبط على الإسلام ، فكان لابد والحالة هذه من زيادة الضرائب لسد النقص .

وأما المصادر المسيحية فتقول أنها - أي الزيادة - أصبحت عظيمة ، وأما المصادر الإسلامية فتشير إليها فقط ، ولا تبحث مقدارها .

انواع من الضرائب على الأرض

وكان الأشخاص الذين يدفعون ضريبة الأرض على أقسام :

أصحاب الأرض ، الذين يدفعون الضريبة عن محصول أراضيهم .

(١) تاريخ البطركية في مصر .

ضريبة على العنب والحضراوات حتى سنة ٣٠٢ هجرية (١) وحتى زمن
علي بن عيسى الجراح .

ضريبة على التجارة

وقد وضع عمر بن الخطاب ضريبة على التجارة فاخذ ٢ ونصف بالمائة
من المسلم وخمسة بالمائة من غير المسلم ، وعشرة بالمائة من الغريب الذي
يريد الاتجار في البلاد الاسلامية .

وكانت هذه الضريبة تدفع مرة في السنة .

واما الامام مالك فيقول : انها كانت تؤخذ عن كل سفرة تجارية .

وكان الذي يعبد النار يعتبر غريباً .

وهناك من يذهب الى ان الغريب فقط او الاجانب دفعوا هذه

الضريبة .

وقد اخذ عمر بن الخطاب من النبط خمسة بالمائة من الحنطة والزيت ،

وعشرة بالمائة من الخمر والبقول للسباح لهم بالتجارة خارج موطنهم (٢)

واما اذا كان الناجر بتاجر بالاشربة والمسكرات فيصار الى تقدير

تجارته بواسطة تجار من شيعته ، واذا اثبت المسيحي التاجر ، ان ديونه

توازي ما عنده من المال يعفى من الضريبة .

فيظهر من كل هذا ان التكاليف الحكومية التي كانت تؤخذ فوق

الضرائب المقررة لم تكن شديدة ، وان دفع الضرائب لم يكن يحصل

بالاكراه والعنف ، فكانت الدولة تسمح للأشخاص او للجماعات الذين

عليهم ضريبة ، ان يدفعوها اقساطاً ، وفي بعض الحالات كانت الدولة

(١) ابن حوقل المسالك .

(٢) كتاب الام .

نعفي من دفع الضريبة الاشخاص الذين يشنون عجزهم عن دفعها .
والواقع ان نظام الضرائب الذي ورثته الحكومة العربية من
البيزنطيين كان فاسداً ، وكان تشريعهم يساعد على دفع الضريبة نفسها
وفاقاً للاهواء والغايات الشخصية .

وكانت ضريبة الارض تدفع اقساطاً ، واما ضريبة الرؤوس او
الجزية فدفعة واحدة .

ونظام الضرائب منذ عهد عمر بن الخطاب لم يكن واحداً ، وانما كان
نظاماً مختلفاً كل الاختلاف ، وفاقاً للمدن والبلاد والجماعات ، وطريقة
استلامها .

وبظهر انه صار معاملة البلاد التي فتحت سلباً كغيرها من البلاد التي
فتحت حرباً مع الابلام ، وكان المسيحيون وغير المسلمين في اول الامر
يدفعون الضرائب وحدهم تقريباً - ما عدا ضريبة العشر والزكاة التي
كان يدفعها المسلمون - ثم صار الجميع سواء في دفع الضرائب ، وذلك
لما كثر المسلمون وقتل المسيحيون .

ولكن الاجماع يتعقد اليوم بين جميع المؤرخين على ان حالة المسيحيين
في ايام امية كانت حسنة ، نعموا بالوظائف ، ونعموا بالعدل
والانصاف ، وكانوا احراراً في دينهم وعقائدهم ، ما جرب احد إجبارهم
على الاسلام ، ولا تدخل احد في امور دينهم وحياتهم الخاصة ، واذا
كان عمر بن عبد العزيز قد اشتد عليهم قليلاً فامر بخراج المسيحيين من
الوظائف ، وحظر عليهم اللباس الاسلامي ، وامرهم ان يرتدوا زيّاً
خاصاً ، فانه كان يعاملهم كافراد معاملة كلها انصاف وعدل ، وليس
يخبرنا المؤرخون انه امر بعد ان وجد الزيادة عظيمة في واردات مصر
مثلاً ، ان يرد لغير المسلمين ما اخذ منهم من المال ، بعد ان ظهر له ان

واردات مصر تريد على مصارفاتها !!

وليس يرد هذا ان من بعده لم يتأثروا سيونه ، فان سياسة الاسلام نحو غير المسلمين معروفة مقررة ، هي سياسة عدل وانصاف ، لا قهر وعسف ، واذا كان بعض الخلفاء قد اتبعوا سياسة العنف والقهر نحو بعض افراد رعيته من غير المسلمين فليس هذا بما يضير الاسلام في كثير ولا قليل ، لان هؤلاء الخلفاء فعلوا مثل ذلك مع المسلمين انفسهم وعاملوهم معاملة قاسية شديدة .



القضاء والتشريع

في الجاهلية

لم يكن للعرب قبل الاسلام تشريع معروف ، وانما كان لكل قبيلة عرف وعادات وتقاليد تشترك فيها احياناً مع سواها او تختلف معها ، وفاقاً لبعدها عن البداوة وقربها منها ، وكان للقبيلة حاكم يحكم بين المتنازعين منهم حسب تقاليدهم ونجارتهم ، ولو تتبعنا كتب الادب لوجدنا فيها ان العرب كانوا تارة يتحاكمون الى شيخ القبيلة ، وتارة الى الكاهن ، واخرى الى من عرف بمجودة الرأي واصالة الحكم ، وهؤلاء الحكماء لم يكونوا يحكمون بقانون مدون ، ولا قواعد معروفة ، وانما كانوا يرجعون الى عرفهم وتقاليدهم التي كونتها نجارتهم ، واقربتها عاداتهم ، ولم يكن لهذا القانون الجاهلي المؤسس على العرف والتقليد عقوبات ، ولا امتصاصيون ملزمون بالتحاكم اليه والخضوع لحكمه ، وهم احرار في التحاكم اليه اولاً ، وهم احرار في قبول الحكم او رفضه ، ومن رفض الحكم ولم يطلع له فلا جزاء عليه اكثر من ان يحل عليه غضب القبيلة او يطرده منها . والقانون حكم ، ثم تنفذ هذا الحكم .

ولم يكن عند البدو قضاء بالمعنى الصحيح ، فاذا قتل احد البدو شخصاً ، قامت عائلته باخذ ثأره ، وهذه العادة كانت مألوفة عند كثير من الامم كما يظهر في العصور الاولى من التاريخ .
واما اذا اخل بدوي بالواجبات الاجتماعية كاذن سرق ، او خان او

الغضب حقاً لغيره ، فإن جزاءه يكون طرده من بين افراد القبيلة ،
والبدوي الذي لا قبيلة له ، يكون في حالة لا نطاق ، فلا يتأمره احد ،
ولا يؤيده مؤيد ، وهو عرضة ابدآ للاخطار التي يتعرض لها كل فرد في
الصحراء .

والعربي الى ذلك لم يكن بالشخص الذي يضطهد غيره ، والاضطهاد
- بمعناه المعروف عند الروم وغيرهم كاضطهاد اليهود والنصارى والمخالفين
لمذهب الكنيسة الحكومية - وذلك في العصر الذي سبق الاسلام لم
يكن معروفاً عند العرب ، فقد كان يوسع اليهودي او المسيحي ان
يعيش مع العربي الوثني ، ولكن احداً منها لم يكن يستطيع العيش في
الامبراطورية الرومانية مثلاً ، حتى المسيحي اذا كان مذهبه يخالف
مذهب الكنيسة الحاكمة .

والواقع انه لم يكن عند العرب قانون وانما كانت هناك تقاليد جرى
الاتفاق على مراعاتها والعمل بها .

واما في مكة فقد كانت الحالة القضائية فيها اكمل واحسن ، وسبب
ذلك ان مكة كانت بلداً منحضراً بالنسبة الى بقية المواطن العربية ،
وكان اهلها قد وزعوا الاعمال الادارية في بلادهم على عشرة رجال من
عشرة ابطن ، كالخجاجة والسقاية والرفادة والندوة والالواء ، وكان من
هذه الاعمال ما يتعلق بالقضاء ، عهدوا به الى ابي بكر في الجاهلية فقد
ذكروا انه عهد اليه بالديار والمغارم ، ويدلنا على ذلك ايضاً ما رووا
لنا من اجتماع بعض قبائل فريش على حلف الفضول ، فقد تحالفوا على
الابتعاد عن مكة غريب ، ولا قريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه ، حتى
ياخذوا له بحقه ، ويؤدوا اليه مظلمته ، من انفسهم ومن غيرهم . . .

وسبب ذلك في نظرنا ان مكة كانت بلداً مقدساً ، نجيح العرب الى

كعبتها من اطراف الجزيرة ، وكانت مركزاً تجارياً خطيراً فاذا
كان من ينزل فيها حاجباً او متاجراً يظلم ويضمر حقه ، قل الخبيث اليها ،
ونقصت تجارتها ، ومن ذلك رأى اهلها ان يكونوا صفاً واحداً على كل
ظالم ، وجبهة واحدة مع كل مظلوم حتى ينال حقه .

وكذلك كان التشريع في المدينة قبل الاسلام رافياً رقباً نسبياً
لاختلاط العرب فيها بغيرهم ، ولا خدم بما عند اهل الكتاب من القواعد
الاجتماعية المقررة .

فلما جاء الاسلام اقر بعض التقاليد العربية وانكر البعض الآخر ،
وعدل غيرها بحيث تكون موافقة لروحه وتعاليمه .

عهد رسول الله

اقام رسول الله بمكة ثلاث عشرة سنة ، واقام بالمدينة نحو عشر
سنين ، وفي المدينة نزل التشريع الاسلامي ، بما تنزل به القرآن من
آيات واحكام ، وبما تحدث به رسول الله الى اصحابه من تفسير هذه
الاحكام .

ولقد نزل القرآن على رسول الله في نحو ثلاث وعشرين سنة ، منه
ما نزل بمكة ويبلغ نحو ثلثي القرآن ، ومنه ما نزل بالمدينة ويبلغ نحو
الثلث ، واذا تتبعنا الآيات المكية نجد انها لا تكاد تعرض لشيء من
التشريع في المسائل المدنية والاحوال الشخصية والاجتماعية ، وانما تقتصر
على بيان اصول الدين والدعوة اليه ، كالإيمان بالله ورسوله واليوم
الآخر ، والامر بمكارم الاخلاق كالعدل والاحسان ، والوفاء بالوعد ،
والاحسان بالعفو ، والخوف من الله وحده ، والشكر ونجنب مساوي .
الاخلاق ، كالزنا والقتل واد البنات والتطيف في الكيل والميزان ،

والنهي عن كل ما هو كفر أو تابع للكفر ، حتى ما شرع في مكة من عبادات كالصلاة والزكاة لم يكن على التفصيل والبيان الذي عرف بعد ذلك في المدينة ...

أما التشريع في الأمور المدنية من بيع وأجارة ، وروبا ، ونحو ذلك ، والجنايات من قتل وسرقة ، والأحوال الشخصية من زواج وطلاق ، فكل ذلك كان بعد أن هاجر رسول الله إلى المدينة .

وكان التشريع أكثر ما يكون بمناسبة حوادث تحدث ، فيحتاجكم فيها المتخاصمون إلى رسول الله ، فتنزل الآية أو الآيات فاطقة بالحكم ، مثل ما روي أن رجلاً من غطفان كان عنده مال كثير لابن أخ له يتيم ، فلما بلغ التيم طلب المال فمنعه عنه ، فترافعا إلى رسول الله فنزلت الآية : « وآتوا اليتم أموالهم » .

وكان الناس في المدينة يسرون فيما لم يرد فيه حكم إسلامي على المؤلف عندهم في الجاهلية حتى يبدله الإسلام أو يقره ، ويمكن القول أن آيات الأحكام في المدينة كانت تنزل حسب تطور جماعة المسلمين فيها ، وهذا التدرج ومراعاة حال جماعة المسلمين يفسران لنا العلة في تشريع المنع الذي نراه في الأحكام الإسلامية الأولى ، لأن الإسلام دين يسر لا عسر ، فلما أراد الله منع الحرة لم يمنعها دفعة واحدة ، وإنما منعها أول الأمر منعاً وسطاً فأمر المسلمين أن لا يقربوا الصلاة وهم سكارى ، ثم صدر المنع البات بعد ذلك ، وبعد أن هبأ المسلمين له ، وأجرامهم على خطئة وسخطى ، لا هي شديدة ولا هي لينة رفيقة .

وكذلك نرى في الأحكام القرآنية وقد تعرضت إلى جميع ما يصدر عن الإنسان من أعمال ، أنها لم تتعرض كثيراً للتفاصيل الجزئية ، وإنما تعرضت غالباً للأمور الكلية ، فهي لا تتعرض في الصلاة مثلاً إلى

اوقاتها وحياتها ، وفي الزكاة الى مقدار الواجب فيها وانواع ما يجب ، وهكذا في بقية الامور الاخرى ، بل ترك ذلك لرسول الله ﷺ بقوله وفعله .

والاسلام الى ذلك فيه تجديد واصلاح كثير في شؤون التشريع ، ادخل على النظام الجاهلي تغييرات وتعديلات يطول شرحها ، فهو بقال عدد الزوجات ، ويجعل لتعددتها شروطاً يصعب على الانسان التخلص الغاضل القيام بها فما بالك بغيره من عامة الناس ، ولو كان الفخاة في الاسلام من ذوي العدل والفضل والعلم ، وكانوا ممن الذين يأخذون برأي القرآن لا برأي العاطفة والمصلحة ، لكان تعدد الزوجات في الاسلام لا يصار الى إقراره إلا عند الضرورة القصوى والحاجة الملحة المشروعة .

ويضع الاسلام كذلك نظاماً للوث يخالف النظام الجاهلي كل المخالفة ، فقد كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغار من أبناء الميت ، وانما يورثون من يلاقي المدو ويقاسم في الحروب ، فشرع الاسلام توريث المرأة ، وكان ذلك شديداً على نفوس العرب ، حتى راح القرآن يؤكد اعطاء المرأة نصيبها ، ويؤيد في حريتها .

وهناك نوع آخر في التشريع كان في عهد رسول الله ، وهو التشريع بالسنة ، او التشريع المأخوذ عن احاديث رسول الله وافعاله ، وهذا التشريع باكثره تفسير للتشريع القرآني الذي اشرنا الى انه عرض للامور الكلية ، وترك التفاصيل لرسول الله بقررها وبسطها .

في عهد الخلفاء الراشدين

فلما اتسعت رفعة الفتوحات الاسلامية ، وكان عهد الخلفاء الراشدين

والامويين واجه الخلفاء الاولون امراً عظيماً ، فقد عرضت لهم مسائل جزئية ، وحالات خاصة لم يكن لهم بها عهد سابق ، خصوصاً وان احداً لم يدع ان القرآن والسنة الصحيحة نصاً في المسائل الجزئية على كل ما كان وما هو كائن ، فنسج عن هذا اهل آخر من اصول التشريع ، وهو الرأي الذي انتظم بعد القرآن والسنة وسمي القياس .

وقد جرى على هذا كثير من الصحابة ، فكانوا يستعملون رأيهم حيث لا نص ، فاستعملوا رأيهم في مسألة الخلافة ولم يكن فيها نص صحيح ، واستعملوا رأيهم في محاربة المرتدين ولم يحدث مثل هذا في عهد رسول الله ، واستعملوا رأيهم في جمع القرآن ، واستعملوا رأيهم في كثير من المسائل الاخرى ، ومن المفروض في استعمال الرأي طبعاً ان لا يكون (الرأي) مخالفاً للانصاف والعدل والعقل والذوق السليم . ونضرب لذلك مثلاً قصة رفعت الى عمر بن الخطاب ، وهي قصة رجل قتلته امرأة ابوه وخليطها ، فتردد عمر هل يقتل الكثير بالواحد ، هل يقتل المرأة وخليطها ، وقد اشتركا بالقتل ؟ فقال له علي بن ابي طالب : - اريد لو ان نكراً اشتركوا في سرقة (ديك) او (دجاجة) فاختد هذا عضواً وهذا عضواً اكنث فاطمهم ؟

قال عمر : نعم .

فقال علي : فكذلك .

فعمل عمر برأيه وكتب الى عامره ان يقتلها ، فلو اشترك في قتله اهل صنعاء كلهم لقتلتهم ..

ولما سئل علي في عقوبة شارب الخمر قال : من شرب هذى ، ومن هذى افترى ، فارى عليه حد المفترى - وهو القاذف - ومثل هذا كثير يدل على تفكير صائب وبعد نظر غريب ...

اجتهاد عمر

وعمر بن الخطاب كان اجراً الصحابة في هذا الباب ، وهو استعمال الرأي ، وسبب ذلك انه واجه من الامور المحتاجة الى التشريع ما لم يواجهه خليفة قبله ولا بعده ، فهو الذي على يده فتحت الفتوح ، ومصررت الامصار ، وخضعت الامم المتعددة من فساوس والروم لحكم الاسلام ، فكان لعمر من التشريع في المسائل الاقتصادية والسياسية والعمرانية ما كان اصلاً للفقهاء من بعده .

وقد سار عمر في اجتهاده الى اوسع مما ذكرنا ، فكان يجتهد في تعرف المصلحة التي لاجلها كانت الآية ، او الحديث ، ثم يستوشد بتلك المصلحة في احكامه ، وهو اقرب شيء الى ما يعبر عنه الآن بالاسترشاد بروح القانون لا بحرفيته .

مثال ذلك ان رسول الله اعطى المؤلفات قلوبهم من الصدقات ، والمؤلفة قلوبهم هؤلاء الذين اسلموا بعد مكة من قريش ، فكان رسول الله رغبة منه في استمالتهم يعطيهم من الزكاة ، والزكاة مفروض نوزبها على الفقراء والمساكين ، فلما كان عهد ابي بكر جاء بعض المؤلفات قلوبهم - وهم من الاغنياء طبعاً - يطلبون ارضاً من ابي بكر ، فكتب لهم بها ، وهي ارض المسلمين ، فجاء عمر فمزق الكتاب ، وقال : ان الله اغتر الاسلام واغنى عنكم ، فان تبتم اليه ، وإلا فبيننا وبينكم السيف . فنرى من هذا ان عمر غلغل الدفع الى المؤلفات قلوبهم لعلها هي المصلحة السياسية في ذلك الوقت ، فلما ارتفعت هذه المصلحة ، بعزة الاسلام ، وعدم حاجته الى من تتألف قلوبهم لم يستمر في اقرار الحكم . وكذلك روي عن عمر انه لم يقطع بد السارق في عام الجماعة ،

وسبب ذلك ان الذين سرفوا انما فعلوا ذلك لباكلوا لا لشهوة السرقة...

الاستشارة

وكان الخلفاء الراشدون يعتمدون الى الاستشارة فيما يعرض عليهم من خصومات ، فكان ابو بكر ينظر في كتاب الله ، فان وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به ، فان لم يكن في كتاب الله شيء ، نظر في سنة الرسول ، فان لم يجد شيئاً سأل المسلمين هل قضى رسول الله بشيء من هذا ، فان اعياه ذلك استشار رؤوس الناس وخيارهم ، فان اجمع رأيهم على شيء قضى به ، وكان عمر يفعل مثل ذلك ، وينظر فيما اذا كان ابو بكر قد قضى بشيء مما هو يشأه وإلا جمع الناس واستشارهم . وقال الشعبي : كانت القضية ترفع الى عمر رضي الله عنه ، فربما يتأمل في ذلك شهراً ويستشير اصحابه ، واليوم يفصل في المجلس مائة قضية ...

وعلى كل فان حامل لواء الرأي كان عمر بن الخطاب ، وهذا اقرب الى طريقته في حب الاستقلال ، واخبر من سار على طريقته عبد الله بن مسعود في العراق ، فكان يمشق عمراً ويعجب بأرائه ، وكان لا يخالفه في شيء من مذاهبه ، بل كان يتأثره في كل اعماله واقواله ، واظهر مناحي عمر كما رأينا الاعتداد بالرأي حيث لا نص ، واذا علمنا ان علم اهل العراق كان عن عبد الله بن مسعود ، وان مدرسة العراق توجت بأبي حنيفة ، رأينا السبب الذي من اجله اشتهرت مدرسة العراق تشتهر بالرأي واعمال القياس ، بخلاف مدرسة الحجاز التي كانت تأخذ بالحديث ولا تأخذ بالرأي .

وهذا مدرسة كانت بين المدرستين ، لا تهمل الرأي بتاتاً ، وهي

مع ذلك غلبة بالحديث ، ولا تعمل بالرأي الا بشروط ، وعند ما لم يكن نص في المسألة ، ومن اعلام هذه المدرسة الامام مالك ثم الامام الشافعي ..

وقد ارتقى البحث في الرأي ونظم ، ووضعت له قواعد وشروط . وسمي بالقياس ، وحصر الرأي بعد وضع هذه القواعد والنظم في دائرة ضيقة محدودة .

القضاء في عهد الراشدين والامويين

واقدر رأينا موقف ابى بكر من العضلات والخصومات تعرض عليه كيف كان يستشير فيها كبار الصحابة فيما لم يرد فيه كتاب ولا سنة ، ولم يؤثر عنه انه عين قاضياً إلا حين كثرت عليه شؤون الامة فعهد بالشؤون القضائية الى عمر بن الخطاب .

ولما كان عهد عمر جرى في التشريع والقضاء على طريقة ابى بكر ، وجرى من بعده على غرار ، حتى كانت الدولة الاموية وانتقل مركز الخلافة الى دمشق ، وفي عهدها ظهر اثر الامتزاج بين العرب الفاتحين والامم المفتوحة ، ولكن هذا الامتزاج وما تبعه من تأثر الفقه الاسلامي بالقانون الروماني لم يكن خطيراً في حال من الاحوال ، ولكننا لا ننكر ان القانون الروماني افاد من ناحية عرض المسائل على الفقهاء ليبدوا فيها رأيهم حسب القواعد الكلية للشريعة الاسلامية ، ومن المحقق ان مصر والشام كانت تحكمها محاكم رومانية بالقانون الروماني ، فلما جاء الاسلام ودخلت مصر والشام في النظام الجديد ، كانت من المفروض ان يعرض المحكومون نقاضيتهم القديم ، واراها محاكمهم القديمة على الاسلام لينظروا ما يقر منها ، وما يرفض ، ولما كان قضاء الاسلام

في الصدر الاول يتعمدون بشي . كثير من المرونة والتسامح فيما لم يخرج
عن قواعد الاسلام ، فليس بغريب اذاً ان يستمعوا للتخاصمين ، وان
يعرض هؤلاء عليهم النصوص القانونية القديمة ، وان يستمع لها القضاة
بشي . كثير من رحابة الصدر وحسب المعرفة ..

ولم يهتم الخلفاء عهد الدولة الاموية بشي . من شئون التشريع إلا ما كان
من عمر بن عبد العزيز ، والتشريع لم يرق تحت حمايتهم ورعايتهم ، كما كان
الحال في عهد العباسيين ، وانما رقي في المدارس وحلقات الدروس فيها ،
ولم يبذل الامويون محاولة في صيغ تشريعهم صيغة رسمية ، فلا نرى في
الدولة الاموية مثل ابي يوسف في الدولة العباسية يحبس الخلفاء ،
ويؤبدونه في التشريع ، ويوثقون الصلة بينه وبينهم ، وبينه وبين
قضاة الامصار ، ولا نرى من المشرعين من اتصل بالامويين الا الزهري
مثلاً .

وفي هذا العهد - الاموي - لم تكن المذاهب الاربعة قد تكونت ،
وانما كان هناك اثمة كثيرون مجتهدون كالاوزاعي وغيره . من اندثرت
مذاهبهم ، وبدأ في آخر عهد الدولة الاموية بظهور امامان من الائمة
الاربعة ، الامام ابو حنيفة في العراق ، والامام مالك بن انس في
المدينة ، والاول ولد سنة ٨٠ في ولاية عبد الملك بن مروان ، وعاش
نحو ١٨ سنة في ظل الدولة العباسية ، واشتهر بقدرته التشريعية ، وقوة
حجته ، وحسن منطقه ودقته في الاستنتاج ، ومن اجل ذلك عدّه امام
اهل الرأي ، ولم يصل الينا شي . من تأليفه القانونية ولا ثبت تاريخياً
انه دون مذهبه في كتاب ، انما فعل ذلك ، تليذاه من بعده ، ابو
يوسف ويحمد .

وولد الامام مالك سنة ٩٦ للهجرة بالمدينة من اصل عوفي ، وبها

تعلم وعلم وألف ، واشتهر انه حجة في الحديث ، وبنار مذهبه باعتقاده
على الحديث اكثر من ابي حنيفة ، وتوفي سنة ١٧٩ هجرية ، وخلف لنا
كتاب (الموطأ) وهو كتاب فقه وان ملي . حديثاً ، ولم يكن غرضه
فيه ان يجمع الاحاديث المعروفة في عهده ، او التي صحت عنده ، وانما
كان غرضه الاتيان بالتشريع مستنداً عليه بالحديث ، ولذلك نجد فيه
فتاواه الشخصية واراؤه في بعض المسائل .

القضاء

ولم تكن الحاجة تدعو الى تعيين القضاة عند نشوء الدولة الاسلامية ،
فقد كان رسول الله مشرعاً وقاضياً ، وكان ابو بكر يقضي بالناس في
عهده ، فلما اتسعت رقعة الخلافة ، وغلب العرب على غيرهم من الامم ،
دعت الحال الى ادخال نظام تشريعي لفض المشاكل التي تنشأ بين
الافراد من العرب وغيرهم ، وقضى هذا النظام بتعيين قضاة يشوبون
عن الخليفة في فض هذه المشاكل ، وفاقاً لاحكام الكتاب الكريم
والحديث الشريف (السنة) والقياس فيما لم يرد فيه كتاب ولا سنة
ولا اجماع .

وكان القضاء في اول الامر من اختصاص العامل اذا كانت ولاية
عامة ، كأن نكون اليه الصلاة والحراج والجند والشرطة والقضاء ،
وكان من مستلزمات القاضي ان يكون رجلاً عفيفاً ورعاً تقياً عالماً
مجتهداً ، سلباً من العيوب التي تحول دون معرفة الحقيقة كالعمى والصمم ،
لا نأخذ في الله لومة لائم .

اما مسألة اختيار القاضي وتعيينه ، فقد كانت خاضعة لنوع سلطة
العامل او الامير ، فان كانت ولايته عامة ، قام الامير بتعيينه ، وان

كانت خاصة ، كأن يكون عاملاً على الخراج او على الصلاة فقط ،
فاختياره يكون من قبل الخليفة مباشرة .

وقد دعت سنة التقدم والارتقاء الى اتخاذ الشهود (المخلصين) حين
فشت شهادة الزور ، اذ جرت العادة ان تقبل شهادة من يتقدم لادائها ،
سواء أكان ممن عرف بالخير او بالشر ، فقضى النظام الجديد بتعيين شهود
عدول ، عرفوا بحسن السمعة والعفة ، فصاروا من هيئة المحكمة يعمل
برأيهم القاضي فيما له علاقة بالمتقاضين .

وكان من اختصاصهم ايضاً الشهادة على ما يصدره القاضي من
الاحكام ، وانه غير مخالف لاحكام الشريعة الاسلامية .

وكان سلطة القضاء موزعة بين ثلاثة : القاضي ، والمختب ، وقاضي
المظالم .

فالقاضي يفصل في القضايا المرتبطة بالدين بوجه خاص .

وللمختب حق النظر فيما يتعلق بالنظام العام وفي الجنايات احياناً ،
كما يستدعي امر الفصل فيها الى السرعة .

وبفصل قاضي المظالم فيما استعصى من الاحكام على القاضي والمختب
وكان القضاء والحسبة يستندان في بعض الاحيان الى رجل واحد ، مع
ما بين العاملين من التباين ، لان عمل القاضي مبني على التحقيق والافادة
في الحكم ، وعمل المختب مبني على الشدة والسرعة في الفصل .

الحسبة

وكان للمختب النظر في مراعاة احكام الشرع ، والاشراف على
نظام الاسواق ، والحيلولة دون بروز الحوادث مما يعوق نظام المرور ،
وكان عليه رفع المضايقة عن الجمهور ، والاشراف على الموازين والمكاييل

وعلى ابقفاء الديون ، وكانت سلطته من الانساع بحيث كان له ان يستعين بالشرطة لتنفيذ احكامه وهو يساوق نظام البلديات المعاصرة .

قاضي المظالم

وقاضي المظالم كان ينعم بسلطة قضائية أعلى من سلطة القاضي والمحتسب ، تعرض عليه القضايا التي يعجز فيها القاضي عن تنفيذ حكمه في رجل من الاعيان والاشراف ، وقد دعت الحاجة الى انشاء هذه المحكمة لوقف تعدي ذوي الجاه والحسب ، ولهذا كان يسند الامر في المظالم الى رجل عظيم القدر ، كثير الورع ، ولم يجلس للمظالم احد من الخلفاء الراشدين ، لان الناس كانوا في الصدر الاول ، ولقرب عهدهم من النبوة ، عن المظالم ابعد ، والى الحق والانصاف اقرب واسرع ... وقد احتاج الامام علي نفسه الى الجلوس للمظالم ، ولكنه لم يفرد يوماً خاصاً للنظر فيها ، وانما كان اذا جاءه منظم انصفه ، ثم صار تخصص يوم معين للنظر في المظالم ، واول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان ، لكنه كان اذا وقف منها على مشكل احتاج فيه الى حكم رده الى قاضيه ابن ادريس الازدي ، فكان ابن ادريس المباشر ، وعبد الملك الأمر ، وكانت تنعقد محكمة المظالم تحت رئاسة الخليفة او الوالي او من يتوب عنها .

وكان صاحب المظالم يعين يوماً بقصده فيه المتظلمون ، اذا كان من الموظفين لينصرف بقية ايام الاسبوع الى عمله الآخر ، واما اذا كان خاصاً بالمظالم ، فانه كان ينظر في المظالم كل ايام الاسبوع . وكانت محكمة المظالم تنعقد في احد المساجد ، كغيرها من المحاكم التي يعقدها القضاة ، وكان صاحب المظالم يحاط بخمس جماعات مختلفة لا

بمنظم عقد جلساته الا بحضورهم :

- ١ - الحجة والاعوان : وقد اُخبروا بحيث يستطيعون التغلب على كل من يلجأ الى القوة والعنف ، او الفرار من وجه القضاء .
- ٢ - القضاة والحكام : ومهنتهم الاشارة على قاضي المظالم باقوم الطرق لرد الحقوق الى اصحابها واعلامه بما يجري بين الخصوم لمعرفةهم بشتات الامور الخاصة بالمتقاضين .
- ٣ - الفقهاء : واليهم يرجع قاضي المظالم فيما اشكل عليه من المسائل الشرعية .
- ٤ - الكتاب : ويقومون بتدوين ما يجري بين الخصوم واثبات ما لهم وما عليهم من الحقوق .
- ٥ - الشهود : ومهنتهم الشهادة على ان ما اصدره القاضي من الاحكام لا يتنافى الحق والعدل .

اختصاص قاضي المظالم

وكان من اختصاص قاضي المظالم النظر في القضايا التي يقيسها الافراد والجماعات على الولاة اذا حادوا عن طريق العدل والانصاف ، وعلى محال الخراج اذا اشتغلوا في جمع الضرائب ، وعلى كتاب الدواوين اذا حادوا عن اثبات اموال المسلمين بنقص او زيادة ، والنظر في نظم المرتبة اذا انقصت ارزاقهم ، او تأخر ميعاد دفعها اليهم ، وكان يستعان بشخصية صاحب المظالم ونفوذه وهيبته في التأثير على الخصم حتى يعترف بالحق ، فاذا اعترف حكم عليه باعترافه ، وتنفيذ ما يعجز القاضي والمحاسب عن تنفيذه من الاحكام ، ومراعاة اقامة العبادات كالجمع والاعباد والحج والجهاد .

وكذلك نرى ما كان لصاحب هذه الوظيفة من النفوذ ، وما كان عليه النظام القضائي في عهد الامويين من الدقة والانتقان والسمي الى احقاق الحق ، ما كان الى ذلك سبيلاً ، خصوصاً وهذا النظام ليس يختلف كثيراً في غاياته وطرقه عن النظام الحاضر .

حرية القضاة

والخلاصة ان الاحكام القضائية في هذا العصر لم تكن على منوال واحد وشريعة واحدة ، لان المجتهدين لم يكونوا على رأي واحد ، ولم تظن الدولة الى ضرورة جمع كلمة المجتهدين على قضاء واحد واحكام واحدة ، فكان القاضي في مصر يحكم في امر واحد بما يختلف مع قاضي العراق في الامر نفسه ، والخلفاء والامراء وقفوا موقف المنفرج من هذا الامر وتركوا لكل قاض تمام حريته في الحكم بما يراه . وكان بعض القضاة اسرع من غيرهم في المحافظة على حقوق الناس والضعفاء من الشعب ، فقد تولى القضاة مراقبة اموال البنائى ، واول قاض نظر فيها عبد الرحمن بن معاوية بن حديج قاضي مصر ، من قبل عبد العزيز بن مروان ، فانه ضمن عريف كل قوم اموال بنائى تلك القبيلة .

وقد رأينا ان قاضي مصر فعل ذلك دون امر الخليفة والامير ، وانما اداء اجتهاده الى ذلك ، وكذلك فعلوا في مسألة الاحباس ، فان توبة بن نمر في زمن هشام بن عبد الملك ارل من وضع بدء عليها ، وكانت الاحباس هذه في ايدي اهلها او اوصيائهم ، فلما كان توبة قال : ما ارى مرجع هذه الصدقات إلا الى الفقراء والمساكين فارى امت اضع بدي عليها حفظاً لها من الضياع والتوارث ، فلم يمت توبة حتى صار

الاحباس ديواناً عظيماً وكان ذلك سنة ١١٨ للهجرة ، فذلك اول انشاء ديوان الاوقاف بمصر .

وكان اختيار القضاة يرجع غالباً الى امراء الامصار ، فهم الذين يعينون من يقوم بالقضاء بين الناس ، واحياناً كان الخلفاء يولون القضاة ، واما قاضي العاصمة فيختاره الخليفة وليس له امتياز على غيره من القضاة ، ولا رأي له في اختيار احد منهم ، ومعنى ذلك انه لم يكن في عهد الامويين قاض للقضاة مثلاً كما هو الحال اليوم ، بل كان كل قاض مستقل عن القاضي الآخر في الولاية الاخرى .

وكانت مرتبات القضاة باعظة ، بحيث تكفيهم وتقبض عنهم ، وتمنعهم عن الرشوة ، فقد كان عبد الرحمن بن بحيرة يتولى القضاء بمصر ، ومعه القصص وبيت المال ، فكان رزقه في السنة من القضاء مئتي دينار ، ومن القصص مثلها ، ومن بيت المال مثلها ، وكان عطاؤه مئتي دينار ، وجائزته مائتي دينار ، اي انه كان يأخذ الف دينار في السنة ، وهذا مبلغ لا يتناوله قاض في كل البلاد الاسلامية ، خصوصاً اذا نظرنا الى مقدرة هذا المبلغ على الشراء في ذلك العصر بحيث يوازي اليوم اكثر من خمسة آلاف دينار ...

وقرأنا في الكندي اسراً بصرف مرتب قاض في عهد مروان الثاني يستدل منه على ان رواتب القضاة كانت تصرف مقدماً .

النساء والقضاة

وهناك ظاهرة في الاسلام يجب ان نعرض لها ، خطوطها وجليل امرها ... وهي ما ذهب اليه ابو حنيفة وغيره من علماء الصدر الاول في الاسلام من جواز انتخاب النساء للقضاء بين الناس . شرط ان

نكون السيدة المكلفة بالقضاء مقبولة الشهادة .

اما ابو جرير الطبري فيقول : انه يمكن تعيين المرأة للقضاء في كل الاحوال ، وبشروط في القاضي ان يكون بلغ سن الرشد ، سواء اكان رجلاً ام امرأة ، وان يكون حاضراً لقراءة العقول ، وان يكون حراً ، اما العبد فمحروم من القضاء لانه ليس مستقلاً ، واذا تحرر العبد فلا مانع من ان يكون قاضياً .

وفي الوقت نفسه يسمح للعبد باعطاء الفتاوى اذا كان يستطيع ذلك ، ومعنى الاستطاعة ان يكون عالماً في الفقه والتشريع طبعاً .
وكان من الممكن ان يصار الى تعيين القاضي بامر شفهي او خطي ، على انه كان يجب ان يذكر اسم البلد الذي عين للقضاء فيه ، واذا عزل وجب اعلام اهل البلد بخبر عزله ، حتى لا يقضي بين الناس بعد عزله .

الاسلام وحرية الرأي

ولقد وقف المصلحون المسلمون منذ نشوء الاسلام موقفاً شديداً من الذين كانوا يدعون الى الاخذ بالقديم على طول الخط ، لان مثل هذه السياسة تضر بالاسلام وتمنع تقدمه وتبسطه وانتشاره خصوصاً بعد تكاثر الفتوح وتبدل الالام ...

وكانت السنة اضيق من ان نستطيع تسوية كل امر جديد يعرض للمسلمين ، وعندئذ اصبح على المسؤولين في الاسلام ان يواجهوا هذه الحالات الجديدة بشيء من رحابة الصدر ، لان الاسلام دين اليسر لا العسر ، فقام فريق من المصلحين المسلمين بقولون : بان العمل بالجديد مسموح به ، على ان يكون ذلك بواسطة الاجماع ...

فتقرر مثلاً اعتبار بعض التقاليد التي جرى عليها الناس - ولو

كانت مخالفة للسنة ، او مجهولة من السنة ، بمعنى ان السنة لم تعرض لها
وتبحثها - امراً مقبولا مقررأ ..

والاجماع في الواقع اصبح مع الايام قوة ، واصبح سلطانه سلطان
اي امر صدر عن السنة .

خذ مثلاً المولد النبوي فان كثيرين من المسلمين كانوا ينكرونه في
الماضي ثم اصبح مع الايام عادة مقبولة معمولاً بها ، لا يعترض عليها
احد ، ولا ينكرها انسان . وكذلك الامر في غيره من الاعياد والعادات .
وهناك بدع دخلت في الاسلام ، منها زيارة قبور الصلحاء من
المسلمين ، وغلبة من الزائرين في استدرار رضاهم وعطفهم ودعائهم ،
وهذه بدعة مضرّة ، لانها نوع من الشرك بالله ، وهو امر لا يقره الاسلام
وينكره كل الانكار .

ورأى العلماء مع الايام انه اذا دعت المصلحة العامة ، الى الاخذ
بالجديد فليس في ذلك خروج على السنة .

ونادى بهذا الرأي مالك بن انس نفسه صاحب المذهب المالكي
فقال : ه انه اذا دعت مصلحة المسلمين العامة ، فان وضع الاحكام
وفاقاً لهذه المصلحة امر مفيد وضروري ولو خالفت هذه الاحكام السنة .
وايد الزرقاني هذا الرأي في تعديله وشروحه على كتاب الموطأ ، فقال
في تعديل الاحكام اذا دعت المصلحة العامة الى هذا التعديل ... (١)
وهذا يدل على رحابة صدر الاسلام واستعداده للسير مع الحضارة ..

(١) الزرقاني في شرح الموطأ ..

مائة سنة من الحضارة الاموية

المراكز الثمانية

فاذا اشرفت سنة (٧٣٢ م) فضع امام مائة سنة نقطعت على نشوء الحضارة العربية ، استطاع العرب في اثنتائها ان ينشئوا دولة فافت في سمعها وخطرها ، الامبراطورية الرومانية ، وامتدت حدودها من الهند والصين الى جبال البيرنه التي تقطع بين فرنسا واسبانيا ، لا يفصل هذه الامبراطورية بعضها عن بعض بحر ولا نهر إلا ما كان من هذه الشقة الصغيرة من الماء التي كانت تفصل اسبانيا عن افريقيا والتي يقوم على ضفتها الشمالية جبل طارق نسبة لطارق بن زياد القائد العربي الذي اقتحم اسبانيا وضمها الى الامبراطورية العربية ...

والواقع انه باحتلال العرب لسورية وفلسطين والعراق ومصر وفارس ، سيطروا على مراكز جغرافية من الطراز الاول ، كانت مراكز الثقافة العالية في ذلك العهد ، فورث العربي كل هذه الحضارات القديمة التي كانت مزيجاً عجيباً من كل المعارف والعلوم السابقة ... واخذ يعمل مع اهله لتكوين حضارة جديدة تكون ابعداً اثرأ ، واكثر انسانية من الحضارات السابقة ...

وكان العربي الى هذا عملياً فما كاد ينزل الارض الجديدة حتى اظهر من حسن الاستعداد لضم الحضارات المختلفة ما لم يكن احد يتوقعه او يظن له ...

وإذا كان العربي لم يقدم في أول الأمر وفي عهد الخلفاء الراشدين للمدن المفتوحة غير دينه ولغته ، فسبب ذلك ان الزخرف كانت تستغرق كل وقته ، وان عهد الاستقرار والاعمار لم يكن قد استقر على الوجه الذي يسمح للفاتحين بالعمل المنتج ...

ولكن ما قدمه لم يكن قليلاً ، وكان الى هذا شيئاً ضرورياً يجب ان يستبق كل حضارة وعمران ، فهذا الدين المتواضع الذي قرر العلاقات الروحية بين المرء وربه كان ضرورة ملحة ، وهذه اللغة التي كانت وسيلة جديدة لنشر الثقافات والحضارات القديمة كانت أمراً لا مفر منه ، بين امم اختلفت لغاتها وتقاليدها واديانها اختلفاً كان من العسير توحيدها ، إلا بلغة جديدة تربط علاقاتها بعضها مع بعض ، وتوحد صفوفها وجهودها للقيام بالأعمال الضخمة الجديدة ...

فإذا كان العهد الأموي فنحن امام شيء جديد يقدمه العربي للعالم المتحضر وللشعوب المختلفة .

التقسيمات الادارية في العهد الأموي

وكانت التقسيمات الادارية للأمويين مماثلة تقريباً للتقسيمات الادارية في عهد البيزنطيين . فصار تقسيم المملكة كما يلي : ١ - سورية وفلسطين ٢ - الكوفة مع كل العراق ، ٣ - البصرة ومعها فارس وسجستان ، وخراسان والبحرين وعمان ، ولا يبعد ان تكون نجد والهامة قد ضمنا اليها ايضاً ، ٤ - ارمينيا ، ٥ - الحجاز مكة والمدينة وكانوا يرسلون حاكماً الى كل بلدة من البلدين ، ٦ - كرمان والبلاد الواقعة على حدود افند - السند ، كابول وغيرها ، ٧ - مصر ، ٨ - افريقية ، ٩ - اليمن وجنوبي بلاد العرب .

ولما صار فتح الاندلس ضمت الى افريقيا .
 وكثيراً ما كان يحدث ان تضم منطقة الى اخرى ، كما فعل معاوية
 لما ضم البصرة والكوفة في ايام زياد حاكم العراق ، وذلك بعد
 موت المغيرة حاكم الكوفة ، وبذلك اصبح العراق كله امانة واحدة ،
 وكان يضم اكثر بلاد الفرس ، وشرقي الجزيرة العربية ، وكانت الكوفة
 العاصمة ، وكان الحال مثل ذلك في ايام الحجاج ...
 ثم نرى مع الابطام امير العراق يرسل مندوباً عنه الى خراسان وما
 وراء النهر ، ومركزه في (مرو) وآخر الى السند والبنجاب .
 وهذا يعني ضم هذه المناطق الواسعة الى سلطانه .
 وكذلك صار ضم الحجاز واليمن ووسط بلاد العرب الى امانة
 واحدة .

وتمت الجزيرة وهي القسم الشمالي من البلاد الواقعة بين دجلة
 والفرات الى ارمينيا ، ومعها اذربيجان ، وبعض اقسام من شرقي
 آسيا الصغرى .

كما ضمت مصر السفلى الى العليا .
 وتألقت ولاية افريقيا من افريقيا واسبانيا والجزر الواقعة بالقرب
 منها ، وكان مركزها القيروان . بحيث اصبحت المملكة العربية في فترة
 من الوقت مؤلفة من خمس ولايات فقط .

العاصمة

وفي وسط دمشق العاصمة ، وعلى مقربة من الجامع الاموي الذي
 اسبغ عليه الوليد بن عبد الملك كل مظاهر الفن المعروف في عهده ، كان
 يقوم قصر الخليفة ، قصر الخضراء الذي انشاء معاوية ، وكان غاية في

الجمال والجلال ، ازدانت جدرانها بالفسيفساء واعمدته بالرخام والذهب ،
وسقوفه بالذهب المرصع بالجواهر ، كما نظف جوه النافورات الجميلة
والمياه الجارية والحدائق الغناء التي امتدت حوله بأشجارها الظليلة
الوارفة .

وفي هذا القصر كان يجلس الخليفة للناس ، في وسط القاعة الكبرى
وحوله سادات قريش وامية ، كل على مراتبهم ، ويقف امامه الشعراء
واصحاب الحاجات ، وسحول الجميع الحرس وغير الحرس من بطانة
الخليفة ، وفي مثل هذا الجو الانيق جلس سليمان بن عبد الملك يستمع
الى موسى بن نصير وطارق بن زياد يقصان عليه فتوح الاندلس
وبعرضان عليه كما عرضا على الوليد قبل وفاته ، مئات الاسرى من ابناء
الاشراف وذوي المكانة من القوط سكان الاندلس .

وكانت دمشق قبل الفتح العربي مقر حكام الروم ، فاصبحت عاصمة
الدولة العربية في عهد معاوية ، وغدت اكبر مدن الاسلام في ذلك
العصر ، وافتحها في الابهة والعمارة ، كما امتازت على غيرها من المدن
بكثرة انهارها وعمورها ولطافة جوها ...

وبذكر ياقوت (١) ان دمشق كانت حصينة متبعة ، اقيمت حولها
اسوار قوية بلغ ارتفاعها ثمانية امتار ، وعرضها خمسة عشر قدماً ، وكان
لدمشق سبعة ابواب ، وكان القادم يرى ابوابها العالية من مسافة
بعيدة ، ولما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة جعل دمشق وضواحيها
بالمباني العامة العديدة ، واغرق الوليد في العمارة اغراقاً عظيماً لم يسبقه
خليفة قبله ولا بعده ، حتى ضربت بذلك الامثال ، وكان الناس في عهده
لا يتكلمون بغير العمارة ...

(١) معجم البلدان .

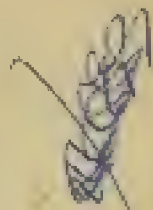
ومن آثار الامويين الخالدة في دمشق مجاري الماء ، وقد بلغ نظام مجاري الماء من الدقة بحيث صار لكل دار في دمشق نافورة خاصة ، وذلك بفضل الاقنية السبع الرئيسية التي شقها الامويون لايصال الماء الى المدينة ، وبواسطة القناطر الكثيرة المنقاة على الاعمدة ، التي شيدوها لماء الشرب الى الدور الخاصة المختلفة .

العملة

وكانت عملة الفرس والرومان وبملكة حمير العربية منتشرة في الحجاز قبل الاسلام ، وقد استعمل الخلفاء الاولون هذه العملة ، وفي بعض الاحيان نقشوا عليها بعض الآيات ، وصار ضرب القليل من العملة الذهبية والفضية قبل عهد عبد الملك بن مروان ، الذي كانت اول من ضرب في دمشق اول دينار اسلامي ، واول درهم فضي ، وذلك سنة ٦٩٥ هـ وفعل مثله الحجاج في الكوفة .

وكان لكل ولاية - قبل عهد عبد الملك - دار ضرب خاصة ، لصك ما تحتاج اليه من العملة ، ولكنها لم تكن تنفي بالغرض المطلوب منها بعد اتساع رقعة المملكة ، خصوصاً وان العملة التي كانت تضرب في الامصار المختلفة كانت بعيدة عن الضبط ، كثيرة التزييف .

ولما رأى عبد الملك هذا الاضطراب الفظيع في عملة الدولة ، بنى داراً رئيسية لصك العملة في دمشق ، وامر بسحب العملة المنتشرة ، في جميع انحاء الدولة ، وضرب بدلها عملة فضية وذهبية ، وكان يعاقب من يزيف العملة عقاباً صارماً .



البريد

وعرف العرب نظام البريد في الدولة العربية أيام معاوية بن أبي سفيان ، وصار تنظيمه في عهد عبد الملك بن مروان ، وكانت الغاية من استعمال البريد في الدولة العربية الاسراع في ايصال الاخبار او الرسائل من الخليفة الى عماله وبالعكس .

والبريد كان عبارة عن وضع خيل مضمرات في عدة اماكن من الطرق الرئيسية بين العاصمة والولايات المختلفة ، فاذا وصل حامل بريد الخليفة ورسائله الى عماله الى مكان منها ، وقد تعب فرسه ، استبدل به سواء ، وكذلك يفعل في المحطة الاخرى ، والتي بعدها ، حتى يصل الى المكان الذي يقصده بسرعة ...

ويرجع هذا النظام الى ايام اكسرة الفرس وقيصرية الروم ، واتخذ معاوية عن الروم فافره في الدولة العربية الناشئة . وكان البريد يستعمل ايضاً لنقل الجنود فكان ينقل من خمسين الى مائة جندي ، وفي عهد يوسف بن عمر حاكم العراق كلف البريد اربعة ملايين درهم ، وكان يصار الى نقل بعض الاشخاص بالبريد ، كما كان يصار الى نقل الرسائل الخاصة مقابل مبلغ صغير .

الدواوين

وقد انحصرت الاعمال الادارية في عهد بني امية في اربعة دواوين وهي : (ديوان الخراج) ، و (ديوان الرسائل وكان لصاحبه الاشراف على الولايات والرسائل التي ترد من الولاة) ، و (ديوان الايرادات المتنوعة) ، و (ديوان الخاتم) .

وكان بجانب هذه الدواوين الاربعة مصالح اخرى اقل اهمية من هذه ، منها ما هو خاص بصرف نفقات الشرطة ، او ما هو خاص بنفقات الجند .

واما ديوان الخاتم فقد انشاء معاوية وهو اكبر دواوين الدولة ، وكان فيه كتاب يعملون على نسخ اوامر الخليفة وايداعها في الديوان بعد ان تحزم بخطه وتحتم بالشمع ، وتحتم بخاتم صاحب الديوان نفسه ، كما هو الحال اليوم في ديوان السجلات في الحكومات المعاصرة .

ويرجع السبب في انشاء هذا الديوان الى ان معاوية انحال رجلاً على زياد عامله على العراق بمائة الف درهم ، فمضى الرجل وقرأ الكتاب ، وكان مفتوحاً لم يحتم ، فجعل المائة مائتين ، فلما رجع زياد حسابه الى معاوية انكر الخليفة ضخامة المبلغ وقال : « ما احسنه الا بمائة الف » ثم استعاد المائة الف الزائدة من الرجل ، ووضع ديوان الخاتم ، فصارت الاوامر تصدر مختومة لا يعلم احد ما تشتمل عليه ..

على ان ختم الصكوك كان موجوداً قبل ذلك ، فقد روى ان رسول الله لما كتب الى عرقل امبراطور الروم اتخذ خاتماً من فضة ونقش عليه (محمد رسول الله) ، وختم به ابو بكر وعمر وعثمان الى ان سقط من يد عثمان في بحر اربس . فصنع خاتماً آخر على مثله .

وما زال ديوان الخاتم معدوداً من الدواوين الكبرى حتى الواسط الدولة العباسية ، ثم الغي لتحول الاعمال الى الامراء والوزراء وغيرهم ، ولما اراد الرشيد ان يستوزر جعفر بن يحيى البرمكي مكان اخيه الفضل قال لابيها : « يا ابي اني اردت ان احول الخاتم من يميني الى شمالتي ، فكفى له بالخاتم عن الوزارة ، وبلغ من احمية الخاتم ان كان الوزير اذا تناوله ليختم به كتاباً ، وقف تعظيماً للخلافة واجلالاً لاسم الخليفة .

الكتاب

وفي عهد الامويين تعدد الكتاب بتعدد مصالح الدولة ، فاصبحوا خمسة ، كاتب الرسائل ، وكاتب الخراج ، وكاتب الجند ، وكاتب الشرطة ، وكاتب القاضي ، واهم هؤلاء الكتاب في المرتبة كاتب الرسائل ، وكان الخلفاء لا يولون هذا المنصب إلا اقرباءهم وخاصتهم لخطورته واهميته .

الحاجب

واول من اتخذ الحاجب من الخلفاء معاوية وذلك بعد ما حاوله الخوارج الفتك به ، وذلك خوفاً على نفسه من الغدر ، وتلافياً للازدحام على الابواب ، ورغبة من الخليفة في الاحتجاب عن الناس حين يشاء .

والحاجب موظف كبير يشبه كبير الامناء في مصر ، او رئيس التشریفات عند رؤساء الحكومات ، ومهمته ادخال الناس على الخليفة وذاقاً لافدارهم ، ومن رغب الخليفة في الاجتماع به من افراد وعيته ، ولكن الخلفاء كانوا يبيحون الدخول لثلاثة في اي وقت شاؤا ودون ما اذن سابق منهم ، صاحب البريد لخطورة ما يحمله من الرسائل ، وصاحب الطعام مخافة فسادة ، والداعي للصلاة فانه داعي الله ، وكان هذا امراً مقررأ عند بعضهم دون سواهم ...

الولاة

واذا كان بنو امية اول عهدهم خصوصاً ايام معاوية وعبد الملك بن

مروان قد احسنوا في اختيار الولاة ، فانت من جاء بعدهم لم يحسنوا في
وجه من الوجوه ، وكانوا كثيراً ما يطلقون يد عمالهم في اعمال العنف
وابتزاز الاموال ، ثم يحاولون حسابهم على ما ظنوا من اموال الامة ،
وقد يعرفون في محاسبة عمالهم حتى الموت ، بحيث يطلبون منهم اكثر
بما عندهم ، او اكثر مما استثمروه اثناء ولايتهم ، بما كان سيئاً في كثير
من الاضطرابات الداخلية التي وقعت اواخر الدولة الاموية ، لان قبيلة
العامل كانت تغضب لنكته وتعذيبه وقد تشور في بعض الاحيان على
الخليفة انتقاماً للعامل ، واخذاً بثأره ، وقد حدث هذا في اواخر
عهد امية .

ويقول السيد امير علي : (١) « ان هناك نقصاً قد تطرق الى النظام
الاداري في عهد بني امية وجرى الى اسوأ العواقب فيما بعد ، وذلك انه
كان من المفروض على ولاة الاقاليم الاقامة في حواضر ولايتهم ، واما
في اواخر عهد الامويين فقد اصبحت الولايات تسند الى بعض افراد
البيت المالك والى كبار رجال البلاط ، فكانوا يقومون في دمشق
وبعضون من قبلهم رجالا يقومون بحكم الولاية نيابة عنهم .
وكان من اهم اغراض هؤلاء الاتراء على حساب بيت المال وارضاء
هؤلاء الولاة بما كانوا يدرون عليهم من الاموال .

وقد نظورت صلاحيات الامراء والحكام بعض التطور ، فكان الامير
في عهد عمر بن الخطاب الذي يفتح القطر ويستولي عليه ، فكان عمرو
بن العاص فاتح مصر حاكماً ، ويزيد بن ابي سفيان احد القواد في حروب
الشام حاكماً على دمشق ، ثم صار تعيين اخيه معاوية مكانه بعد وفاته ،
وكان الامير طبعاً في اول الامر يقوم بكل وظائف الحكم فهو القائد

(١) تاريخ العرب : السيد امير علي الهندي ..

العسكري والاداري ، والامام في المسجد والقاضي ، ومدير الشرطة وغيرها ، ثم تبدلت الاحوال في بعض المناطق فارسل عمر بن الخطاب قاضياً الى دمشق للقضاء بين المسلمين والصلاة بهم ، وعين قضاء لمصر وفسرين والاردن ..

واما في المدينة العاصمة والخليفة نفسه كان يقضي بالناس ويصلي بالناس ، اي انه لم يكلف بهذه الواجبات شخصاً آخر .

فاذا كان عهد عثمان بن عفان وقع الاختلاف بينه وبين عمرو بن العاص حاكم مصر بسبب ما حاوله الخليفة من تقييده وتضييق صلاحياته ثم عزله وعين غيره مكانه .

ويظهر ان عمر بن الخطاب عين للعراق اميرين ، الاول للمسائل العسكرية وللنظر في امر الجماعات المحكومة ، والآخر للجماعات العربية . وسار معاوية على سياسة عثمان في التفريق بين الادارة والمسائل المالية ، وفي اضعاف نفوذ الامير او العامل ، فعين جباة خصوصيين لواردات الدولة ، يقومون بدفع المصارفات المقررة للمصر الذي يقسمون فيه ، ويرسلون الباقي الى بيت المال في دمشق ، الذي كان يتصرف فيه الخليفة كما يشاء ويريد .

واما في العراق فيقال ان معاوية كان يأخذ من اميره او عامله عليه مائة مليون درهم في السنة بعد المصارفات ... ومن المؤسف ان حساب الواردات والتفقات قد ضاعت في عهد امية فلا نعرف عنها الا القليل ، ولكن الطريقة التي اتبعها معاوية اذا صنعت ليست غريبة ولا بعيدة الاحتمال ، لان زياداً كان على العراق ، وكان معاوية يثق به ويحترمه ، فلا يبعد ان يكون قد اتفق معه على هذه النسبة ، وترك ما فوق المائة مليون درهم من الواردات ، يقوم زياد بصرفها على الموظفين

عنده، وفي مصالح الدولة والادارة في عهده، ولكن هذا يقتضي ان نكون
 وارادات العراق عظيمة جداً، ومن المعلوم ان جباية العراق بلغت في
 عهد عمر بن الخطاب سنة (٢٠ للهجرة) ١٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وفي
 عهد عبيد الله بن زياد - وهو ابن زياد وحكم العراق بعده -
 (١٣٥٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم، فاذا اعتبرنا جباية العراق في عهد زياد
 (١٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم مثلاً، فهل كانت تكفي (٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠)
 درهم لتفقات الادارة في عهد زياد، ولنفقات العطاء المفروض والمقرر
 للعرب، ام ان زياداً كان يأخذ جباية غير العراق ايضاً من المدن التي
 كانت تحت حكمه وسلطانه ؟

الوظائف

والواقع ان الوظائف في عهد امية، وفي الامصار الكبيرة
 كالكوكة والبصرة، والفسطاط اي مصر مثلاً، كان يتوك امرها احياناً
 للخليفة و احياناً للامير، وذلك وفقاً لتفوذ الامير، ومكانته عند الخليفة ..
 فكان هناك في الامصار الكبيرة صاحب خراج، وقاض، ومدير
 شرطة، وكاتب، وكان الكاتب ومدير الشرطة يختارهما الامير نفسه،
 واما القاضي، وصاحب الخراج،، فلخطورة مركزهما، كانوا يعينان
 احياناً من الخليفة في العاصمة، و احياناً من الامير نفسه، وكانت دمشق
 تتوك تعيين القاضي ايضاً للامير، واما صاحب الخراج فانها كانت تحتفظ
 به في كثير من الاحيان ... وكان يستوك للامير ايضاً تعيين العمال في
 المناطق التي تحت سلطانه .

وكان عامل الخراج اهم العمال، وكان يعمل مع الامير او العامل،
 في ادارة شؤون الولاية، الامير للشؤون السياسية والادارية، وعامل

الخراج للشؤون المالية ، وكان أحياناً بمثابة الرقيب على أعمال الأمير ، وقد أرسل كثير من هؤلاء الموظفين الماليين التقارير السياسية الى دار الخلافة في دمشق يشكون فيها الأمير وينتقدون سياسته ، وكانت السلطات في دمشق تسع لهم ، وتأخذ برأيهم ، وهذا ما أدى الى تنازع السلطة والمنافسة بين الأمير وعامل الخراج ، وهو ما جعل قصر عهد الولاة وعمال الخراج في عهد بني أمية .

وكان ديوان الخراج (المالية) يكتب بالفارسية والرومية الى عهد عبد الملك بن مروان ، فنقل عبد الملك ديوانه فارسي والشام الى العربية ، ثم نقل الوليد ابنه ديوان مصر ، وصار الاستغناء عن المسيحيين واليهود في الوظائف المالية وغيرها إلا اذا دعت الضرورة الى استخدامهم ، وكان عليهم استعمال اللغة العربية في دواوينهم لا اليونانية أو الفارسية كما كان الحال قبلاً .

وينتهي (السيد امير علي) : الى ان النظام الإداري والسياسي للولايات الإسلامية في عهد الدولة الأموية لم يكن من عمل معاوية - وهذا صحيح - وان عبد الملك هو المؤسس الحقيقي لهذا النظام ، فهو الذي صبغ الإدارة والمالية بالصيغة العربية ، وبشجوبه الدواوين الى لغة العرب تقلص نفوذ أهل الذمة والمسلمين من غير العرب ، بعد ان انتقلت مناصب هؤلاء الى أيدي المسلمين العرب ، ونفذ هذه السياسة بشدة وقوة الحجاج بن يوسف حاكم العراق .

واما الامراء الذين كانت اليهم النيابة عامة ، فكانوا يتمتعون بما يسمى اليوم بالاستقلال الإداري ، فكانوا يتصرفون في كل شيء ، ويعلمون الخليفة فقط بما يقع من الأمور العظيمة ، وظهر ما كان هذا الاستقلال في العراق في عهد زياد وابنه عبيد الله والحجاج ، وعمر بن

هيرة وخالد بن عبد الله القسري ، إلا ان الحجاج كان اكثرهم استقلالاً
لثقة التي حازها عند عبد الملك وابنه الوليد .

وكانت المشاكل فحل والمنازعات تقضى في حواضر الامارات ، إلا
انه لا مانع يمنع ذا ظلامة من ان يرفع امره الى الخليفة اذا شاء ...
وقد ضيق عمر بن عبد العزيز على الامراء لان ثقته بهم كانت قليلة ،
وحتم عليهم ان لا ينفذوا حداً من الحدود من قتل او قطع إلا اذا عرض
عليه وافره ، اما في عهد غيره فكان الامراء يفعلون ما فوق ذلك من
غير ان يعلم الخليفة بما يفعلون ، فكان احدهم يأمر بقتل الرجل على
ايسر الذنوب ، ويضربه الضرب المبرح ، لاجله شكاه الى الخليفة او
عنب عليه الناس .

والذي دعى الى تمتع الامراء بهذا الاستقلال صعوبة المواصلات بين
حاضرة الخلافة دمشق ، وبين حواضر الولايات ، فلو الزم الامير
الاستشارة في كل ما يقع في دائرة ولايته ، لطال عليه الزمن ، وبقيت
المشاكل من غير حل ، زمناً طويلاً ، وهذا مما يدعو الى اضطراب
الادارة .

ومن اعظم ما يؤخذ على بني امية في النصف الثاني من ايام خلافتهم
اذلالهم الامراء ومصادرتهم في اموالهم ، واحياناً قتلهم ، بعد عزلهم ،
وقد ابتداء هذه السنة سليمان بن عبد الملك ، قاذل آل الحجاج ومن
كانوا يلوذون به ، وفعل مثل ذلك بكثير من قواد عصره وعظماء
زمانه ، كموسى بن نصير فاتح الاندلس ، وفتيبة بن مسلم فاتح الصين ،
ومحمد بن القاسم فاتح الهند ، واستمر الامر على هذا الحال بعد عهد عمر
بن عبد العزيز ، فكان هذا من الاسباب التي دعت الى انهيار امية
وسقوطها ...

ومن اغرب ما حصل ان يوسف بن عمر الثقفي الذي ولي العراق
بعد خالد بن عبدالله القسري اشترى من الوليد بن يزيد خالداً وعماله
بخمسين الف الف ، فدفع الوليد خالداً اليه ، فتزع عنه ثيابه واليه
عباءة وحمله على جل بغير حذاء ، وعذبه عذاباً شديداً وهو لا يكلمه كلمة ،
ثم حمله الى الكوفة فعذبه وقتله ودفنه بعباءته ، وكان خالد حاكم العراق
قبله خمس عشرة سنة ، وهو بعد سيد من سادات اليمن ، فغضبت اليمن
لموته ، وثأروا على امية بعدها لاجله .

الشرطة عند العرب

والشرطة جماعة من الجند كان يعتمد عليهم الخليفة او الامير لحفظ
الامن والنظام ، والقبض على الجناة والمفسدين وما الى ذلك من الاعمال
الادارية ، التي تكفل الامن العام في الولاية والمدن المختلفة .

وارل من قام بالطواف ليلاً للمحافظة على الامن ، وتبشيع اهل
الرب عبد الله بن مسعود ، فهو اول من عسس بالليل في الاسلام ، امره
بذلك ابو بكر الخليفة الاول ليطوف بالليل في المدينة محافظة منه على
الامن ، واعتاماً بمصالح الرعية .

ويظهر ان نظام هذه الوظيفة كان كنظام البوليس والحفر ، وليس
كالبوليس السري والنحري ، فقد روى ابو داود عن الاعمش عن زيد
قال : « اتي عبدالله بن مسعود فقبل له : هذا فلان تقطر لحية خمرآ ...
فقال ابو مسعود : انا قد نهينا عن التجسس ، ولكن ان يظهر لنا شيء
نأخذه به . »

وذكر الثعلبي هذه الرواية بشكل آخر فقد روى انه قبل لابن
مسعود : هل لك في الوليد بن عقبة تقطر لحية خمرآ ؟

فقال : انا قد تهيأنا عن التجسس فان ظهر لنا شيء ، نأخذه به .
 وكان الخليفة عمر ينكف في خلافته العسس بنفسه ، ومعه مولاة
 (اسلم) ، وكان رجا استصحب معه عبد الرحمن بن عوف ، وفي عهد علي
 نظمت الشرطة واطلق علي رئيسها صاحب الشرطة ، وكان يصار الى
 اختباره من عليه القوم ومن اصحاب الشدة والبأس .
 وفي عهد معاوية استحدثت وظيفة (صاحب الشرطة) وهو المكلف
 بالمحافظة على راحة اهل المدن والسيور على الامن العام ، وكان نصير
 (والد موسى بن نصير) فانه الاندلس صاحب الشرطة في عهد معاوية .
 وكان زياد بن ابيه حاكم العراق اول من اتخذ العسس وسيوره بين
 يديه بالاسلحة والخراب ، فمشت بين يديه حامية المدن بالاعمدة وغيرها ،
 وهو اول من اخذ على اهل السوق اجراً لمصارفات العسس ، وهذا
 قرب الى نظام الحراسة اليوم .
 وكان من آداب الشرطة في ابائهم ان لا يتكلموا او يرفعوا اصواتهم
 اذا ساروا بين يديه .

قال الجاحظ : كان على شرطة زياد ، عبد الله بن الحصين والجعد بن
 قيس النمري ، وكانا يتعاقبان مجلس صاحب الشرطة ، فاذا كان يوم
 حل الحربة سارا بين يديه معاً ، فجري بينهما كلام ، وهما يسيران بين
 يديه ، فكان صوت الجعد ارفع ، وصوت عبد الله اخفض ، فقال زياد
 لصاحب حربيته :

— تناول الحربة من يد الجعد ، ومره بالانصراف الى منزله ،
 ذلك لانه سمع صوت الجعد دون صوت عبد الله ، وإلا لكان الحق
 به ... وقد توسعوا في وظيفة الشرطة ، فاضيف اليها تنفيذ احكام القضاة
 وفرض العقوبات الزاجرة ، واقامة الناديب في حق من لم ينته عن

الجريمة ، فكانت الشرطة خاضعة للقضاء ، تساعد القاضي في اثبات
الذنب على مرتكبه ، وتساعد الحكومة على تنفيذ الاحكام ، ويتولى
صاحبها ايضاً اقامة الحدود على الزنا ، وشرب المسكرات ، وعلى كثير
من الامور الشرعية .

وكانت الشرطة تابعة للقضاء اول الامر ، يقوم موظفوها على تنفيذ
الاحكام القضائية ، ويتولى صاحبها اقامة الحدود ، ولكنها لم تلبث ان
انفصلت عن القضاء ، واصبح صاحب الشرطة مستقلاً للنظر في
الجرائم ...

واما في عهد عبد الملك بن مروان فقد كان مدير شرطته في اول
الامر روح بن زنباع ، فلما كان عبد الملك في طريقه الى العراق لمحاربة
مصعب بن الزبير اوجس شراً لما رآه من انحلال عسكره ، وان الناس لا
يرحلون برحيله ولا يتزلون بنزوله فشكا ذلك الى روح فقال له :

- ان في شرطي رجلاً لو قلده امير المؤمنين امر عسكره لأرحل
الناس برحيله ، وانزلهم بنزوله يقال له الحجاج بن يوسف .
فقال عبد الملك : فانا اقلده ذلك .

واذاً فقد كان الحجاج في اول امره موظفاً في شرطة روح بن
زنباع ثم اصبح مديراً للشرطة العسكرية ثم حاكماً للعراق .

وقد ادخل هشام بن عبد الملك نظام (الاحداث) وكان يقوم
صاحبه بالاعمال العسكرية التي تعتبر وسطاً بين اعمال صاحب الشرطة
وقائد الجيش .

الطراز

وبما ادخله الامويون في الدولة الاسلامية (الطراز) وهو قديم كان

يجري استعماله عند الاكسرة والقباصرة ، والطراز ان يرسم الملوك
والخلفاء اسماءهم او اشارات تختص بهم في طراز اثوابهم المعدة لباسهم من
الحرير والديباج وغيرها ، وهي عبارة عن كتابة خطت في نسج الثوب بحيث
من الذهب ، او بما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة ، فلما استقرت
الدولة الاموية اخذوا الطراز عن الروم والفرس ، ولم يستحسنوا اتخاذ
الصور على اثوابهم كما كان يفعل الفرس والروم ، فاستعاضوا عنها
بكتابة اسمائهم وكلمات اخرى تجري مجرى الفأل والدعاء .

واول من نقل الطراز الى العربية عبد الملك بن مروان ، وكان
من قبله من الامويين يستعملون الطراز وعليه الكتابات الرومية ، وصار
الامويون يستعملون الطراز بالعربية على اثوابهم وستور منازلهم ،
وفراطينهم (والقراطين برد مصرية كانوا يحملون بها الآنية
والثياب) ثم جعلوا الطراز على ملابس جنادهم ، ورجال دولتهم ،
يكتبون عليها شارة الخلافة ، وهي اسم الخليفة او لقبه او نحو ذلك .

وبقاء هذا الطراز على شارات الدولة ، وينودها وكسائها يدل على
بقاء سلطانتها ، فاذا اراد احد الولاة الخروج من طاعة الخليفة قطع
الخطبة له ، واسقط اسمه من الطراز .

وانشأ الخلفاء للطراز دوراً في قصورهم ، لنسج اثوابهم وعليها تلك
الشارة ، وكان القائم على النظر فيها يسمى (صاحب الطراز) ينظر في
امور الصياغ والحكاكة ، ويجري عليهم اوراقهم ويشرف على اعمالهم ،
وبلغت هذه الدور اوج عظمتها في ايام الدولتين الاموية والعباسية .

التدوين في الاسلام

ومن المؤكد اليوم ان التدوين بدأ في ايام الراشدين منذ كتب

القرآن في المصاحف في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، ولو لم يكن هناك كتب مدونة وضعت في القرن الاول ، ما كان خالد بن يزيد بن معاوية حكيم الامويين يحرص على نقل بعض العاوم من السريانية واليونانية الى العربية على ما اثبت ذلك التقارب المحققون ، وذلك حوالي منتصف القرن الاول الهجري .

ونريد بالتدوين تدوين الآثار الادبية او العلمية ، لا تأليف الكتب ووضعها ، لان اول من صنف عبد الملك بن جريج البصري المتوفي سنة ١٥٥ ، او ابو النصر سعيد بن ابي عمرو ١٥٦ ، او ربيع بن صبيح سنة ١٦٠ ، وهم جميعاً من اهل القرن الثاني ، ولكن التدوين كان في القرن الاول واما التأليف فلا .

وبدا التدوين فعلاً في عهد معاوية كما يظهر ، فقد كان معاوية يحب القصص التاريخية ورواية الشعر ، وكانوا يحملون اليه رواة الاخبار والاشعار ، ليقصوا عليه اخبار الماضيات من الايام .

ولقد ثبت على ما روى صاحب الفهرست ان عبيد بن شربة الجرهمي وفد على معاوية ابن ابي سفيان في الشام ، فسأله عن اخبار الاقدمين وملوك العرب والعجم فاجابه الى ما امر ، فأمر معاوية ان يدون وينسب الى عبيد ، ولعبيد عدة كتب ذكرت في الفهرست كتاريخ ملوك اليمن ، وبقي عبيد حياً الى ايام عبد الملك بن مروان فثبت بذلك ان التدوين حدث في اوائل القرن الاول اي في عصر الامويين ، فقد ذكر بعض الحفاظ ان زيد بن ثابت الفه كتاباً في علم القرائن وذكر البخاري ان عبيد الله بن عمر كان يكتب الحديث ، وذكر مسلم في صحيحه كتاباً ألف في عهد ابن عباس في قضاء علي ، وقد ذكر المؤرخون انه وجد في خزانة الانبار عدة كتب بخطوط بعض الصحابة

والتابعين بل وأجد كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة كتب قبل الاسلام ..

وإذا فليس هناك مانع كان يمنع الكتاب في هذا العصر من تدوين الشعر الجاهلي وأخبار العرب قبل الاسلام ، خصوصاً وإن مدائن مصر والشام والعراق وفارس التي فتحت في القرن الأول كانت حافلة بالكتب والمكتبات الخاصة والعامة ، وصناعة الكتب كانت معروفة عندهم ويغلب على ظننا أن ما كتب في المائة الثانية من الهجرة إنما هو منقول عن ما دونت في المائة الأولى من الأخبار والأشعار والتاريخ وغيرها .

ولقد نشر « كرنيسكو » من علماء المشرقيات في إنكلترا أخبار عبيد بن شربة الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها وطبعتها في حيدر اباد الدكن في الهند ، وما جاء فيها يؤيد رواية ابن السديم في الفهرست ونحن ننقل عنها ما يلي :

« أن معاوية أمر كتابه أن يدونوا ما يحدث به عبيد بن شربة في كل مجلس سمر فيه مع معاوية ، وقد ذكر عبيد في حضرة الخليفة معاوية أخبار عاد وثمود وجرهم وخروجه من اليمن إلى الحرم ، وغير ذلك وكلها مشفوعة بأشعارهم ، وكان معاوية يطلب إلى رابته المرة بعد المرة أن يسعه ما قبل في كل حادثة من الأشعار وبما قاله :

« وقد علمت أن الشعر ديوان العرب ، والدليل على أحاديثها وأفعالها والحاكم بينهم في الجاهلية ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أن من الشعر لحكماً » .

وكان معاوية معجباً جداً بما سمع من عبيد بن شربة ، وقال له مرة :
— خليك يا عبيد أن يكون هكذا ، فزادك الله علماً وفهماً ، وزادنا

بك رغبة وعليك حرصاً ، فاننا لا نحصى ايامك فزادك الله فضلاً الى فضل
وهدي الى هدى ...

والواقع ان كتاب اخبار عبيد بن شربة الجرهمي في اخبار
اليمن من اوائل ما دون في الاسلام وبه ثبت ان المسلمين دونوا في زمن
اسبق بكثير مما دون المصنفون والمؤلفون ، ولذلك حفظت السنة
والاخبار والاشعار وغيرها .

وكان واثقه بن الاسقع يلى على الناس الاحاديث وهم يكتبونها بين
يديه ويتخذ مستملاً محصلاً منيظاً يبلغ عنه اكثر الجمع على عادة
الحفاظ ، خصوصاً اذا كان الجمع عظيماً ولا يصل صوت المتكلم او
المتحدث اليهم ، وروي مثل ذلك عن ابن العباس .

وكان واثقه من الصحابة ولما مات رسول الله خرج الى الشام ومات
حوالي سنة ٨٣ من الهجرة .

وفي المصادر الموثوقة ان رسول الله قال في عام الفتح : « اكتبوا
لاني شاء » وابو شاء كان من الصحابة ، وهو يزيد الاحتفاظ بخطب
الرسول وهذا دليل على كتابة العلم في عهد الرسول نفسه .

وصح عن عبيد الله بن عمر بن الخطاب انه كان يكتب حديث
رسول الله ، وكان مما كتبه صحيفة تسمى (الصادقة) وهي التي رواها
حفيدة عمرو بن شعيب عن ابيه عنه ، وهي من اصح الاحاديث .

وعن هشام بن عروة عن ابيه ، انه احترفت كتبه يوم الحرة في
عهد يزيد وكان يقول : لو ان عندي كتيبي باهلي ومالي .

ليال الخليفة في دمشق

وكما استمع معاوية الى احاديث التاريخ والادب والشعر في لبالي

دمشق استمع الى ذلك بقية الخلفاء من امية ، وفي اواخر عهد الامويين اخذ الخلفاء لا يرون كبير امر في الاستماع الى المغنين والمطربين والموسيقين ولما كان من عادة الخليفة خطبة الناس يوم الجمعة ، فان بعض خلفاء امية في اواخر ايامهم لم يأخذوا بهذه العادة ، واخذوا بكلفون غيرهم القيام بها .

وبما لا شك فيه ان استماع الخلفاء الى الغناء والموسيقى ساعد على تقدم هذين الفنون في عهد امية بحيث اصبحت دمشق في ذلك العهد مستودعاً لبعث العلوم والفنون وتنشيطها في مختلف الامصار العربية . وكانت دمشق سنة ٧١٠ ميلادية تعد مائة وعشرين ألفاً من السكان ، وكانت الامبراطورية البيزنطية تقدم اليها الكماليات من الحاجات ، ومكة المغنين والموسيقين ، والبصرة والكوفة آثار العقل .

ولما انتهزت امية سقطت دمشق عن مكانتها التاريخية ، حتى قبور خلفائها نبشت ودمرت ، ولا يعرف سكان قبر من قبور خلفائها وكبارها على وجه التحقيق ، إلا قبر عائكة بنت معاوية .

وفكر المشوكل في عهد العباسيين في سكنى دمشق ، ولكن اقليمها لم يوافق صحته فعاد الى العراق ، واصبحت دمشق بعد ذلك مقاطعة من مقاطعات الامبراطورية العباسية يرسل اليها الخليفة والياً من قبله من وقت الى آخر ...

ولما استولى الفاطميون على مصر ، دخلت دمشق تحت حكم الفاطميين ثم تحت حكم السلاجقة ، ثم تداول حكمها غيرهم من الامراء والدول الصغيرة ثم عادت الى بلاط مصر ، ثم نزلت تحت حكم بني عثمان ، وهي اليوم تعود الى استقلالها ، وتعمل لاعادة مجادها الماضية ، وتاريخها الضخم السالف ...

الهيئة الاجتماعية

وكان السكان في العهد الأموي ينقسمون الى اربعة اقسام: العرب،
الموالي، واهل الذمة، والارقاء او العبيد...

وكان العرب قبل الاسلام وفي عهد الخلفاء الراشدين طبقة واحدة،
وسبب ذلك ان العرب بنعصبها وحفظها لانسابها ظلت مستقلة بانسابها
وعاداتها وآدابها، وكانت الاقليات في الجزيرة من الضعف بحيث ان
احداً من العرب لم يفكر بها، او يختلط معها.

فلما كان عهد الخلفاء الراشدين خلقت طبقة جديدة هي طبقة الموالي
ثم اهل الذمة، ثم لما تكاثرت الفتوح ظهرت طبقة رابعة هي طبقة
الارقاء والعبيد.

وفي عهد امية والخلفاء الراشدين كان العرب لا يزالون على نعصبهم
لانسابهم وكرههم للاختلاط بسواهم، وكانت الهيئة الاجتماعية الى
ذلك في بدء انتقالها من حالتها القديمة في عصر الروم والفرس الى العصر
الاسلامي...

وكان القسم الاول وهو العرب يتألف من الخليفة واهله، واشراف
العرب الفاتحين والعرب الباقين على وجه الاجمال، وليس من المعروف
عدد العرب في هذه الفترة من الزمن، ولكننا نعلم مثلاً ان الذين كانوا
يأخذون العطاء في دمشق عهد الوليد كانوا لا يقلون عن خمسة واربعين
الفاً. وفي عهد مروان كان عدد الذين يأخذون العطاء في حمص وماحولها
٢٠ الفاً، وفي العراق كان عدد العرب لا يقل عن نصف مليون،
وكان سكانه في عهد الامويين لا يقلون عن مليونين على قول فون كرمر،
واما في مصر فليس يعرف عدد العرب، وكذلك الحال في فلسطين

وخراسان وغيرها من الامصار عدا الجزيرة العربية ، ولكن الشيء
الناثب ان العرب في هذه الفترة من الزمن لم يكونوا يفلون عن ثمانية
ملايين من الانفس ، وهذا الرقم طبعاً يتناول العرب الاصليين في اواخر
عهد امية .

مسألة الموالى

وكان العرب ينظرون الى الموالى الذين اعتنقوا الاسلام وهم من
غير العرب ، ثم نعرّبوا مع الايام ، نظرة خاصة وبعتبرونهم اقل منهم
مركزاً ومقاماً ، ولكن المؤكد ان العلماء من الموالى كان لهم مقام
عظيم ، خصوصاً والاسلام قد سوى بين الناس وقال : لا فضل لعربي
على عجمي الا بالتقوى .

واما ما ذهب اليه بعض المروخين من ان الموالى كانوا يعاملون
معاملة العبيد في عصر بني امية ، فقول مردود لا يستند الى تاريخ ولا
الى سند صحيح .

والواقع ان البلاد التي كانت عواصم الاقاليم وقواعدها في عصر
بني امية ، هي مكة والمدينة والبصرة والكوفة واليمن ومصر والشام
والجزيرة وخراسان ، وكان لكل صقع من هذه الاصقاع امام يقودهم
ويسود عليهم وهذه اسماؤهم :

كان امام مكة عطاء بن ابي رباح استاذ ابي حنيفة .

وكان اليمن طائوس

و الشام مكحول

و مصر يزيد بن ابي حبيب

و الجزيرة ميمون بن مهران

و « خوسان ضحاك بن مزاحم
و « البصرة الامام الحسن البصري
و « الكوفة ابراهيم النخعي

وكل هؤلاء إلا ابراهيم النخعي من الموالى ، وبعضهم من أبناء
الأماء ، ومع ذلك فقد كانوا سادة الناس وقادتهم ، اذ عن لهم الجميع
واقتدوا بهم ، واخذوا عنهم

فاما (عطاء بن ابي رباح) فكان شيخ الحرم واليه المرجع في
الفتوى ، وعليه المعول في المسائل ، قال ابن خلكان في ترجمته .

« قال ابراهيم بن عمرو بن كيسان ، : اذكروهم في زمان بني امية
يأمرون في الحج صائحاً بصيح « لا يفتى الناس إلا عطاء بن ابي رباح ،
وهل يمكن ان ينادى بمثل ذلك وفي الحج بتفضيل احد الموالى على
غيره من جميع الناس ، وولاة الامر في مكة كارهون ؟ »

واما (طاوس) فلما قضى نحبه بمكة ازدهم الناس في جنازته حتى
تعذرت الصلاة عليه ، وكان ابراهيم بن هشام اذ ذاك والياً على مكة
فاستعان بالشرطة ، ومشى في جنازته عبدالله بن الحسن حفيد رسول الله
فهل بعد هذا من عز ومجد ؟

وكذلك كان شأن بقية الموالى من العلماء والفقهاء ، وهذا سعيد بن
جبير وهو من الموالى اسود الوجه ، بوليه الحجاج العربي امامة الصلاة
في الكوفة ، والكوفة عربية باكثريتها ، فهل يقال بعد ذلك ان الموالى
كانوا يعاملون معاملة سيئة ؟

وكان القسم الثالث مؤلفاً من اهل الذمة ، وهم من المسيحيين واليهود
وغيرهم من اهل الكتاب الذين كانوا يدفعون الجزية ، وكانوا احراراً
في دينهم وتشريعهم الديني ، وكان لهم قضاة منهم ، وينتقدم القنوج

الاسلامية نال هذا الحق الوثنيون ايضاً من الذين كانوا يسكنون حول الحدود الهندية والصينية من عباد بوذا وكونفوشيوس ، وبعض الفرس من اتباع زروستوا .

العبيد

وكان العبيد في الدرجة الرابعة من الهيئة الاجتماعية عهد الامويين ، واذا كان الاسلام لم يقرر الغاء الرقيق الغاء تاماً فانه اخضعه كل الضعف ، وجعل تحرير الرقيق من اعظم ما يتقرب به العبيد الى ربه ، كما فرض على المسلم معاملة الرقيق بالحسن والرحمة ..

والواقع ان العامة من اهل البلاد التي فتحتها العرب كانوا بشنون تحت نير الاستعباد قبل الفتح وبعضهم كانوا ارقاء فعلاً ، ولا سيما خدمة المزارع او (الاقنان) الذين كانوا ينتقلون مع العقار من مالك الى مالك ، فهؤلاء جاءهم الاسلام رحمة لانهم تحولوا من الرق الى الحرية ، او الى العبد ، فمن اسلم صار حراً ، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ومن ظل على دينه دخل في ذمة المسلمين يدافعون عنه ما ادى الجزية إلا من حاربهم واسروه ، فهو ملك لهم يتصرفون به كيف شاؤوا ، ومن المعلوم ان الذين حاربوا المسلمين في صدر الاسلام كانوا من حامية البلاد ، وهم الجنود من الروم او الفرس ، اي من غير العامة اهل البلاد المظلومين ، بحيث ان الاسلام قلب الحياة الاجتماعية التي كانت قبل عهده رأساً على عقب ، فحرر العبيد ، واستعبد من كان يستعبدهم .

نكاثر الارقاء والاسرى

ونكاثر الاسرى في عهد الفتح حتى اصبحوا يعدون بالالوف .

وبلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١ هجرية في افريقية ٣٠٠٠٠٠ رأس من السبي ، فبعث خمسمائة الى الوليد بن عبد الملك ، ولم يسمع بسبي اعظم من هذا ، وذكروا ان موسى لما عاد من الاندلس كان معه ٣٠٠٠٠٠ بكر من بنات اشراف القوط واعيانهم ، وفس على هذا غنائم قتيبة في بلاد الترك ، وغنائم محمد بن القاسم في بلاد الهند .

فهؤلاء الاسرى كانوا يوزعون على المخاريق ويرسل الخس منهم الى الخليفة في دمشق ، واذا كان عدد الاسرى عظيماً كانت حصص المحارب المسلم عظيمة حتى لقد كان يضطر بعض المحاربين الى بيع اسراهم بدراهم معدودات للاسير الواحد ، خصوصاً اذا لم يكن عند المحارب مزرعة يرسل اليها الاسير ليعمل فيها ، واذا لم يكن عنده عمل واسع يستخدمه فيه ، اذ يصبح الاسير والحالة هذه عالة عظيمة ، ومصرفاً كبيراً ...

ولم يكن التصرف بالاسرى على الوجه الذي اشرنا اليه خاصاً بالمسلمين بل كان عادة درجت عليها الامم التي سبقت الاسلام ، وكان من يقع اسيراً من المسلمين في ايدي الاعداء يصبح رقيقاً حتى يفتديه المسلمون ، وكان للخلفاء عناية في فكك الاسرى يبذلون في سبيل ذلك المال او يبادلون باسراهم اسرى عندهم ، وقد وقع كثير من هذا في عصر الامويين ولكن العدد كان قليلاً لا عظيماً ...

اما الروم فقلما كانوا يفتدون اسراهم بالمال ، وسبب ذلك ان اسرى الروم يكونون في الغالب لفيقاً من رعاياهم او من الجنود المستأجرة ، وليس من الروم انفسهم ، اما المسلمون فهم غالباً المهاجرون فاذا ظفروا كانت غنائمهم من هذا النوع من الاسرى ، واذا اُغلبوا فن وقع في الاسر منهم كان من المخاريق الذين يستحقون الفداء ،

والرابطة القومية بين المسلمين يومئذ كانت أشد وثوقاً منها بين الروم
ورعايلهم واجنادهم .

وما زاد عدد الأسرى وكثرت الفتوحات زاد الرقيق بين المسلمين
كما قدمنا ، فكان يوجد عند الواحد العشرة ، أو المئة أو الألف ، حتى
الفقراء من عامة الناس كان أحدهم لا يخلو من عبد أو أكثر يخدمونه ،
لرخص الرقيق كما قدمنا ، واضطرار المحاربين إلى بيع ما عندهم بعدة
دراهم ، وكان الأمير في الدولة الأموية إذا سار مشى في ركابه مائة
عبد أو بضع مئات أو ألف عبد ، وبلغ عدد غلمان رافع بن هرقة والي
خراسان سنة ٢٧٩ هـ أي في عهد العباسيين أربعة آلاف عبد ولم يملك
أحد من ولادة خراسان قبله مثله ، وكان بعض المسلمين في معركة صفين
ذلك عشرة من العبيد يقومون على خدمته .

وكان الأرقاء يختلفون في أشكالهم والوانهم ، فبعضهم كانت أسود
اللون وهو من سكان أفريقيا ، وأما عبيد فرغانة والصين وتركستان
فكانوا أصفر اللون ، وكان من يؤتيهم من الشرق الأدنى أو شرقي
وجنوبي أوروبا بيضاً .

وكانوا يسمون العبيد الأسبان الصقالبة ، وكان ثمن الواحد منهم
ألف دينار ، وأما العبيد الترك فكانوا يكلفون سنائة دينار الواحد ،
وارتفعت أسعار العبيد بعد وقف الفتوحات ، وانتهت هذه الموجة الجارفة
من العبيد والأسرى ...

وكان الشرع الإسلامي يعتبر الولد المولود من عبد وعبيدة عبداً
أيضاً ، مثل أبويه ، وأما الولد من عبد أسود وأم حرة فحر ...
وكانوا إذا تكاثروا الأرقاء عند أحدهم ، وأراد استخدامهم في منزله
جعل عليهم نقيباً يتولى النظر في شؤونهم يسونه الأستاذ ، أو يستخدمهم

للحرب والمدافعة عنه ، وكان يفعل ذلك الامراء واهل اليسار ، وكانت
تجارة العبيد تجارة رابحة في هذا العهد ، وكانت في اوروبا اكثر منها في
البلاد العربية ، ولم يكن كل العبيد من الاسرى ، وانما كان بينهم من
صار شراؤه للتجارة وغيرها .

الحصان في عهد امية

والحصان ليس عادة عربية وانما هي شرقية على ما يظهر لانها كانت
شائعة فديماً بين الاشوريين والبابليين والمصريين القدماء ، واخذها
عنهم اليونانيون ثم انتقلت الى الرومان فالافرنج .
واللحصان اغراض اشهرها استخدام الحصان في دور النساء غير
عليهن ، واول من فعل ذلك يزيد بن معاوية فاتخذ منهم حاجباً لديوانه
اسمه « فنج » واقتدى به غيره ، وشاعت عادة استخدام الحصان في
اواخر عهد بني امية مع ان الاسلام يحرم الحصان تحريماً تاماً .

الخلقة والصلاة

وكانت لاختلاط العرب بالروم وغيرهم من الامم الاخرى الاثر
الاكبر في تغيير عاداتهم ، وحياتهم الاجتماعية خصوصاً في عهد الامويين .
فاتخذ معاوية الحشم والحجاب حوله ، ووضع المقصورة في الجامع بصلي
فيها منفرداً بعد الاعتداء الخارجي عليه .

وكان من عادة الخلفاء الراشدين ان يؤموا الناس في الصلاة دائماً
وابداً ، وسار على سيرتهم معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، واما
غيرهم فقد اقتصروا على الصلاة بالناس يوم الجمعة ، فكان الخلقة في
العهد الاموي يحضر الى المسجد مرتدياً ثياباً بيضاء ، وعمامة بيضاء ،

مرصعة بالجواهر ، فيخطب الناس يوم الجمعة ويده الحاتم والمصا ، وهما
شارتا الخلافة .

وكانت خطبة الجمعة في هذا العهد الاول بمثابة استعراض سياسي
 واجتماعي لأعمال المملكة واحداث السياسة ، بتوسل الخليفة فيها
 لسيط سياسته ونهيو عمله ، او حمل الناس على الاخذ برأي من
 الآراء وسياسة من السياسات ، كما توسل الخطيب فيها لتحذير
 الناس ، وانذارهم وحشهم على العمل الصالح ، والسير على سنة القرآن ،
 وقام القائد العسكري يوم الجمعة بإثارة حماس جنده ، ودعوتهم للتأهب
 للمعركة المقبلة ، ولما كانت وسائل الدعاية غير معروفة في ذلك
 العهد ، فقد قامت الخطابة في المسجد مقام الصحف والراديو في العصر
 الحاضر .

مجالس الخلفاء

وكانت مجالس الخلفاء الراشدين في المسجد او في المنزل ساذجة
 جداً على نحو الحياة التي كان يحياها اي عربي في عهدهم ، كانوا يتعدون
 على حصير او جلد ويلتفون بعباءة او نحوها ، فيدخل عليهم الناس في
 حوائجهم ويخاطبونهم باسمائهم ، لا يستنكفون من ذلك ، ولا يروون
 فيه كبير امر ، ولا ضعة ، واذا خرج احد قوادهم للفتح مشى الخليفة
 لوداعه بلا حرس ، ولا بنود ، ولا طبول ، واوصاه بالتؤدة والصبر مع
 الرفق والعدل ، وكان عمالهم في الامصار على نحو ذلك ، على ان العمال
 نظراً لاقامتهم في المدن الكبرى التي عمرها الفرس او الروم استعملوا
 في عملهم بعض مظاهر الابهة للتأثير على الرأي العام .
 ولكن طبيعة العمران ، واستقرار الناس في المدن ، غلب على

هذه السداجة فتدرج الخلفاء والامراء الى مظاهر الالوية واتخاذ الحجاب ،
وبدأ بذلك معاوية بن ابي سفيان ، وامانه عليه امراؤه في العراق
ومصر ، فعملوا مثله وساروا على اثره ، واثار عليه من كان على علم
بأحوال الملوك السابقين بضروب من الفخامة تعزيراً للملك ، وكعبداً
للعدو ، واضافاً لامره ، ونخبوا لرسله ، فدخل على الدولة الكثير مما
كان عليه الاكامرة واباطرة الروم في مجالسهم وحائز احوالهم ، واصبح
الخليفة لا يصل اليه اصحاب المصالح والناس الا بعد شيء من الغناء ،
وبعد ان يمر على حجاب وحرس مما لم يكن موجوداً مثله في عهد
الراشدين .

ولقد اختلف الخلفاء ومجالسهم باختلاف شخصياتهم ومكانتهم ،
فمعاوية بن ابي سفيان مؤسس الدولة الاموية ، وعبد الملك بن مروان
وعمر بن عبد العزيز لم يكونوا يجلسون للمنادمة والاستماع الى الغناء
والموسيقى ، وانما كانوا يعملون ويجلسون للنظر في امر الملك وتعزير
مرافق الدولة ، بخلاف غيرهم ومن اتى بعدهم في اواخر عهد بني امية ،
من كانوا يجلسون للمنادمة والاستماع الى الوان الطرب والغناء .

شكل المجلس وقربه

وفي عهد الامويين جلس الخلفاء في القصور ، بعد ان كان عمر بن
الخطاب يجلس للناس في المسجد ، وقد اخذوا قصور الدولة التي سبقتهم
وبنوا قصوراً لانفسهم خاصة ، كما فعل معاوية فانشأ قصر الحظرة في
دمشق ، ونصبوا في هذه القصور الاسرة والكراسي ، واقترشوا
الطنافس والمصليات والوسائد وعلقوا الستور واقساموا الحجاب
والحراس .

وأول من اتخذ الاسرة معاوية قلدها بطارقة الروم في الشام وكذلك الستور والطنافس . أما الكراسي فيظهر انه قلدها مراوذة الفرس ، لأن أول من استخدمها من امراء المسلمين زياد بن ابيه عاملة على العراق ، وقد يكون الروم اخذوها عن الفرس ، وفس على ذلك سائر ما ادخلوه من مظاهر الأبهة من الطراز ونقش الاشعار في صدور المجالس ، وفرش الديباج والخز واصطناع الاسرة من الابنوج والعنبد والعاج والذهب وغيرها .

وليس لدينا مصدر تاريخي ثابت عن شكل المجلس في عهد الامويين ، ولكن الذي نتصوره من المجالس التي ائتت بعدهم ، ان مجلس الخليفة كان يتعقد في قاعة او بهو كبير على جدرانها الستائر الحريرية ، يمسكو ارضه بساط او اكثر من الديباج او نحوه ، وفي اطراف البهو مناود من الذهب او الفضة توضع عليها الشموع ، ويسبل على ابواب المجلس ونوافذه ستائر من الحرير او غيره مطرز بشارة الدولة او الخليفة القائم او باشعار وآيات واحاديث ، وفي وسط القاعة حدة او سرير يجلس عليه الخليفة مصنوع من العاج او الابنوس ومزول بالذهب .

ولما كان الخلفاء يحتجبون عن الناس كانوا يعلقون في وسط القاعة ستراً يفصل بينهم وبين الجلوساء ، وطبعاً كانت تختلف هيئة المجلس في الشتاء عما كانت عليه في الصيف ، فيزاد عليه موافد النار يسجر فيها الند والعود .

الاستئذان في الدخول

وكان الاستئذان على الخليفة في عصر الراشدين ان يقف الرجل بالباب ويقول « السلام عليكم أَدْخُلْ ؟ » يكرر ذلك ثلاثاً ، فأت لم

يؤذن له لم بعدها ، وربما اقام الراشدون الحجاب لمنسج الازدحام او للاستئذان في بعض الاحوال ، فلما كان عصر امية اقيم الآذنون والحجاب بتوسطون للناس بدخولهم على الخليفة حسب طبقاتهم ، وفي اوقات معينة ، لكل طبقة من الجلوساء او الادباء او الشعراء او غيرهم ، اما في المجالس العامة فيقدمون الناس حسب مراتبهم .

واول من رتب المراتب في الدخول على الخليفة زياد في العراق اشار عليه بذلك حاجبه ، ولعله اقتبسها من الفرس ، فجعل الآذن للناس على البيوتات ثم على الاسنان ثم على الآداب ، وصار ذلك سنة في الاستئذان على الخلفاء في عصر الامويين ، فاذا استأذن جماعة في الدخول على الخليفة او الامير يؤذن اولاً لاشرفهم نسباً ، واذا تساوا في النسب قدموا اكبرهم سنناً ، فاذا تساوا في السن قدموا اكثرهم ادباً .

وكانوا في ايام امية اذا وفد الناس على الخليفة او الامير وقفوا ببابه ينتسبون الآذن ، فاما ان يؤذن لهم او يصرفهم ، فاذا صرفهم عادوا ثانية وثالثة حتى يؤذن لهم او يملوا .

والداخلون على الخليفة كانوا يجلسون في المواضع الثلاثة بهم ، ومرتباتهم وينتوي اجلاسهم الحاجب او الآذن ، وكانت الرتبة الاولى بعد الخليفة في الدولة الاموية لبني امية ، يجلسون على الامرة وبنو هاشم على الكرامى ومن يليهم بعدم ...

الآداب في المجالس

وكانت السذاجة لا تزال غالبة على المجالس في عصر الامويين ، وكان الخليفة اقرب الى ان يكون شيخ قبيلة منه الى ملك متوج ، ولذلك كان الناس يخاطبون الخليفة في هذا العهد باسمه او كنيته ، فلما ضخم

الملك عمل الامويون على التشبه بالدول التي سبقتهم ، واخذ بعض عمالهم
بمعظمون امر الخليفة ، ويفضون مركزه ، وينزهون مجلسه عن مجالس
سائر الناس ، واول من فعل ذلك زياد الذي اقتبس الكثير من امثال
هذه التقاليد عن الفوس منذ كان اميراً على بلاد فارس عهد علي وصدرأ
من ولاية معاوية ، فوضع القاعدة « ان لا يسلم على قادم بين يدي
الخليفة » ، ثم منعوا الكلام في حضرة الخلفاء على الاطلاق ، واول من
منعه عبد الملك بن مروان ثم عبد الخلفاء بعد ذلك فمنعوا ان يخاطبهم
الناس كما كانوا يخاطبون اسلافهم ، او ان يعظوهم وهم على المنابر ،
او ان يطالبوهم بما كانوا يطالبون به غيرهم من الناس ، كان يقول
انسان للخليفة « اتق الله » او « افعل هذا » و « امتنع عن هذا »
والولد اول من سن ذلك واخذ الناس به .

ثم صارت القاعدة المربعة في مجالسة الخلفاء ان لا يدعى لاحد في
حضرته . ولا ينهض لداخل الا اذا نهض الخليفة ، ومن آدابهم في
المجلس ان لا يأمر فيه احد غير الخليفة ، واذا نهض نهض سائر الحضور ،
وان يصغي المجلس الى كلامه بكليته فلا يشغل عنه بشي

واذا اراد الخليفة صرف جلسائه ابدى اشارة يعرفونها فيصرفون ،
فكان معاوية اذا اراد صرف الناس قال : اذا شئتم . او العزة لله .
وكان يزيد ابنه يصرفهم بقوله : على بركة الله .

وعبد الملك كان يحمل بيده خيزرانة فاذا القاها من يده عرف جلسائه
انه يريد انصرفهم فيصرفون .

ومن انصرف من حاضرة الخليفة مشى الفقري ووجهه نحو مجلسه
حتى يتوارى .

مواكب الخلفاء

وكانت المواكب معروفة عند ملوك العرب في الجاهلية ، فلما جاء الاسلام لم يتكلف الخلفاء الراشدون شيئاً من هذا ، فكان الخلفاء الراشدون يركبون ويعشون بين الناس كسائر الناس لا حرس امامهم ، ولا حاجب خلفهم ، واول من اتخذ المواكب العمال في الامصار تقليداً للحكام والعمال من الروم والفرس قبلهم ، وحتى لا يتغير على اهل البلد شيء ، مما تعودوه والفوه من ابهة الملك وسطوة السلطان ، وسبق الجميع معاوية فاقام حراساً يرفعون الخرابدين يديه او يقفون بالسيف عند المقصورة التي يصلي فيها خوفاً من الاغتيال . واقتدى به عماله ، فانخذ زباد في العراق وجالاً يشون بين يديه بالاعمددة او بالحربة ، ثم اصبح السير بالحربة خاصاً بولي العهد ، او يكبار العمال يحملها رجل راکب على جواد يتقدم الخليفة او الامير .

لهو الخلفاء

وكان الصيد معروفاً في الجاهلية ولكنه كان قاصراً على صيد غزال او طائر بالنبل او الفخ ، فلما قدست العرب بعد الاسلام وخالطوا الفرس والروم توسعوا في طرائق الصيد والفنص ، فانخذوا الجوارح من الطير وهي الباز والشاهين والعقاب والصقر يعلمونها صيد الطيور ، وغالوا في اقتناء الكلاب والفهود ونحوها يستعينون بها على صيد الخنازير والغزلان وحمر الوحش ، واول من اشتغل بالصيد من الخلفاء يزيد بن معاوية وكان صاحب طرب وجوارح وقرود وفهود وله كلف بالصيد ، فانخذ للهو ، وكان يلبس كلابه الاساور من الذهب ، ويحب لكل كلب

عبدًا بخدمة ، واشتغل بالصيد غيره من خلفاء امية على تفاوت في ذلك .

وكان السباق كذلك عادة شائعة عند الامم التي سبقت العرب ، وكان العرب في الجاهلية يتسابقون بخيولهم ويتفاخرون بذلك ، وكثيراً ما نشبت الخلافات والحروب بسبب السباق ، وكانوا يرسلون خيلهم الى الحلبة - وهي ميدان السباق - عشرة عشرة ، وعندهم لكل منها اسم باعتبار تقدمها في السبق بعضها على بعض .

ولما تحضروا بعد الاسلام بالغوا في اتخاذ الميادين واستكثروا من الجول ونقننوا في تصميمها ، وكان لمعاوية حلبة يخرجون اليها في ايام معينة للسباق ، فمن حاز فصب السبق اجازوه ، وقصب السبق قصبة يفرسونها في آخر الحلبة فمن سبق اليها واقتلها فهو الفائز ..

وكان هشام بن عبد الملك ولع بالسباق ، يستجيد الخيل للسباق ، ويبدل في اقتنائها الاموال ، فاجتمع عنده (٤٠٠٠) فرس ولم يسبقه احد من العرب في ذلك ، وكانت له فرس سابق اسمه (الزائد) اشتهر في ذلك العصر ، وكان يحضر حلقات السباق هو واهل بيته والامراء ، وكانت اميرات البيت الاموي المالك يتدوين على ركوب الخيل ، ويشتركن في السباق ، وكان الوليد بن يزيد مغرمًا بالسبق ايضاً ، وكان لديه من الخيل الفأ ، سبقها فرس اسمها (السندي) كان يسابق به في ايام هشام ، وكان بقصر عن فرس هشام ، وكان ميدان السباق يومئذ في الرصافة من ارض الشام ، ولهم فيها ميادين مشهورة وحوادث كثيرة ، ولمحمد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان قصيدة عامرة وصف بها خيل الحلبة العشرة باسمائها وصفاتها هي احسن ما نظم في هذا الموضوع .

محافل الأدب والشعر

واستمع الخلفاء من بني أمية في أوقات فراغهم الى اخبار الحروب وسير الفرسان العرب في الجاهلية ، وكانوا يعقدون المجالس يحضرها الادباء من اهل الاخبار والنوادر والأدب والشعر ، يحدثون الخليفة بما يلقاه من اخبار العرب ونوادرهم وأشعارهم كما كانوا يستمعون للشعراء ويمجزونهم ، ولكن اخبارهم قليلة مع الشعراء والادباء ، ولم يعظم مقام الشاعر في بلاط الخلفاء إلا عهد العباسيين ، ولم يتقرب من بني أمية كل التقرب إلا الاخطل الشاعر ، وكان تقربه لاسباب سياسية ودواع عصبية ، وأما بقية الشعراء والادباء فكان تقربهم من البلاط على قدر وفي أوقات معينة لا دائماً ولا ابداً ...

وكان أشهر من استمع من بني أمية الى الشعراء يزيد وعبد الملك والوليد بن يزيد ، وأما عمر بن عبد العزيز فلم يرخصه شعر الشعراء ، ولا عمل على تقريبيهم ولا دفع اليهم جوائزهم ، فعل عمر ذلك تورعاً ولكن بعض بني أمية فعلوا ذلك بخلا كهبشام وأما الوليد بن عبد الملك فقد شغلته العبادة عن كل شيء .

وكاف بعض خلفاء بني أمية بالغناء والمغنين ، وقربوهم واجازوهم ، ودعواهم الى دمشق وحملوهم اليهم من اطراف الامبراطورية واشهر من فعل ذلك يزيد بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد ابنه ، وارتفع شعر المغنيات في أيام هذين الخلفيتين ارتفاعاً فاحشاً حتى كانت المغنية الواحدة تباع بعدة آلاف من الدراهم .

ازدياد الثروة والترف

وتوسع الفتح ، واستقرار الامور ، زادت الثروة وعم الترف بين

الناس ، فانتقل العرب في البلاد المفتوحة من حال الى حال واخذوا يتألقون في طعامهم وشرابهم ولباسهم ، وقلدوا الفرس في اكثر اسباب القرف والحضارة .

وكان طعام العرب قبل الاسلام فاصراً على الالبان ، وما يستخرج منها كالسمن والزبدة والجبن ، ومن النسر والحبوب واللحوم يأكلونها على ابسط ما يكون من احوالها كما يفعل اهل البادية اليوم ، واكثر البائهم ولحومهم من الابل . وقد يصنعون منها اطعمة تتوكل على نسب معينة (كالثريد) فانه يصنع من اللحم واللبن والخبز ، ومنها ما يصنع من اللبن والدقيق فقط كالزغيدة او يصنع من السمن والدقيق كالبيكالة ، او من الدقيق والسمن والعسل كالوضيعة ، وكان هذا طعام اهل البسار .

واما طعام الفقراء من العرب فكان لحم الابل ، لا يأكلون الضأن إلا قليلاً جداً ، واكثر ما يأكلون من اللحوم لحم الضب والجراد والحنافس ، وما تناسب مع هذا من الماء كل البدوية الساذجة .

فلما كانت الفتوحات دهش العرب لما شاهدوه في البلاد المفتوحة من الاساليب الجديدة في الاكل ، وكانوا في صدر الاسلام يكتفون بالقليل من الطعام ، ولم يكن طعامهم يتجاوز اللون او اللونين ، وكان خبز اكلهم اللحم ، ولكنهم لم يكونوا يكثررون منه ، فابو موسى الاشعري كان يتجافى عن اكل الدجاج ، وكانوا ينجنبون الاكثار من اللحوم ، ويعتقدون فيها الضرر على نحو ما يعتقد فيها النباتيون اليوم مثلاً بما قاله عمر بن الخطاب :

— مدمن اللحم كمدمن الخمر .

ولما حكم الامويون اخذوا بنعيم الحياة ومباهجها من مأكـل ومشرب

على نحو ما كان الحال عند الفرس ، وتنعم معاوية بأكله ومشربه ،
واقتردى به خلفاؤه من بعده خصوصاً سليمان بن عبد الملك ، وتفننوا في
معالجة اللحوم واصطناع التوابل المنبهة لشهوة الطعام التماساً للمزيد من
اللذة ...

أكلوا السكباج وهو نوع من المرق كانوا يصنعونه من مرق اللحم
والحل ويضعون فيه اللحوم المطبوخة كالدراج ونحوه ... والفاوذج
وهو نوع من الحلوى ، كما استعملوا اللوز والسكر والجوز والحشاف
والجلاب ...

وكان أهل المدن من العرب في عهد أمية أكثر عناية وتفنناً من
سكان البداوي في طعامهم وشرابهم ...

وكانوا يراعون قواعد الصحة ، فلا يدخلون الطعام على الطعام ،
ولا يسرفون في الأكل ، وقد ورد في الحديث « نحن قوم لا نأكل حتى
نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » كما كانوا يغسلون أيديهم قبل الطعام
وبعده ، وبما يكون بأيديهم لئلا ينجس وجود الملاءق والشوك في عهدهم ، وكما
كانت الحالة في أوروبا إلى عهد قريب ، ومع ذلك فقد كان رسول الله
يستعمل السكين في قطع اللحم ولم يكن يقطعه بيده .

وكانوا إذا أكلوا جماعة يسطروا سجاداً على الأرض ، ثم جلسوا
صفيين حوله كما يجلس نحن اليوم حول المائدة ، وكرم العرب مشهور
لا مجال لتفصيله ووصفه .

وكان من أفضل أطعمتهم التريد - وهو الخبز يفت ويبل بالمرق
ويوضع فوقه اللحم - ومنه اللزمة وهو الخبز يكسر على السمن ، والكوتان
وهو الأرز والسبك والاطربة ، وهو طعام كالخيط من الدقيق ،
والشعيرية وهو طعام كالخيط صار فنلها في حجم الشعير ، والحشيش

وهو حنطة تطحن وتجعل في قدر ، ويلقى فيها لحم او ثمر فيطبخ ،
والعجة وهو طعام منخذ من دقيق بعجين بسمن ثم يشوى .
ويظهر ان الحضرة لم تكن مستعملة كثيراً عندهم ... وفي عهد
الامويين زادت اشكال الطعام بما عرفوه من طعام الفرس والبيزنطيين ،
وفي عهدهم ايضاً استعمل العرب الفوط والملاعق ، وكانت الملاعق
تصنع من الخشب ، كما جلبوا ملاعق الفخار من بلاد الصين ، وكانوا
يجلسون على الكراسي وامامهم مائدة الطعام ، يكسوها مفرش من
القماش .

الدخ في الالهية

وكان المسلمون في صدر الاسلام يتوخون الخشونة في العيش
والتعفف بالطعام والملبس ، فكان الخليفة في عهد الراشدين يشي في
الاسواق وعليه القديص الخلق المرفوع الى نصف ساقه ، او ثوب غليظ ،
وفي رجله نعلان من ليف وحمائل سبغه من ليف ، وفي يده درة يشوي
الجد بها ، هذا ما كان عليه عمر بن الخطاب وعكفا كانت شأن عماله في
عهده فقد كانوا اذا وفدوا عليه لبسوا جبة صرف وتعمدوا بعامة ذكاء ،
ولبسوا مثل ذلك بساطة وخشونة في ارجلهم .

فلما كان العهد الاموي وتحضر الناس ، وخالطوا اهل الشرف من
الاعاجم اضطروا بطبيعة الحال الى التبسط في العيش والتنعيم باللباس ،
واحب الامويون الوشي ، وكان اكثرهم رغبة في لبس عمام بن عبد
الملك فاجتمع عنده (١٢٠٠٠٠) قميص و (١٠٠٠٠٠) تكة حرير ،
وكانت كسوته اذا حج تحمل على ٧٠٠ حمل ، وفي ايام بني امية تسابق
الصناع الى اجادة الوشي فلما كانت العباسيون زادهم وسبقوهم .

ولما اترف بنو امية لبسوا الحرير على انواعه ، ونفقتوا بانواع
الانسجة واحبوا الوشي كما قدمنا ، واكثرنا من لبسه ، فقلدهم الناس
في ذلك ، فراجت المنسوجات الموشاة في ايامهم .

واتخذوا كثيراً من البسة الروم ، ولكنهم لرغبتهم في المحافظة على
البدانة ظنوا يلبسون العمام ويعلقون السيوف على العواتق .

وكان لباس البدو مؤلفاً من قباء طويل مشقوق من الوسط ،
ومتدل الى العقب ، ومربوط من الوسط بحزام من الجلد ، ولا يزال
البدو من الرجال والنساء يستعملون هذا الرداء الى اليوم . وكانوا
يرتدون العباءة فوق القباء ، ويصنعونها من وبر الجمل ، وكانوا يرتدون
في الحرب او عند ركوب الخيل ، اردية خاصة ، فيلبسون السروال
عادة ، ورداء قصيراً بدلاً من الثياب الفضفاضة المتدليلة .

اما لباس الرأس فهو العمامة ، وكان يختلف حجمها تبعاً للسن
والمركز العلمي وغيره ، وكانوا يلقون الطبلسان فوق العمامة ، وهو
عبادة عن منديل كبير متدل على الكتفين ليعي الرقبة حرارة الشمس .
وكانت الاردية تختلف وفقاً لتروة الناس ومركزهم الاجتماعي ،
ونوع عملهم ، فكانت تختلف كسوة الفقيه او الكاتب او ثياب الجنيد
وهكذا ، وكان رؤساء القبائل وغيرهم من عليقة القوم يرتدون قباء
يصل الى الركبتين يعلوه سروال ، ثم جلباب فضفاض يتدل الى العقبين ،
ويشده من الوسط حزام من الحرير ، وفوق كل هذا الجبة او القباء ،
وقد اخذها العرب عن الفرس والبيزنطيين .

وكان القباء على نوعين : احدهما له اكمام واسعة ، والثاني اكمامه ضيقة
وله ازرار متقاربة ، وهذا النوع الاخير هو الذي يرتديه كبار رجال
الدولة في ايران اليوم ، كما كانوا يلبسون النعال او الاحذية .

اما ثياب المرأة فكانت تتكون من سروال فضفاض وقميص مشقوق عند الرقبة عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة في البرد ، وكانت المرأة العربية اذا خرجت من بيتها ترتدي ملاء طويلة تغطي جسمها وتقي ملابسها من التراب والطين ، وكانت تلف رأسها بنديل يربط فوق الجبهة ، وكانت النساء في الجاهلية يلبسن قميصاً مشقوقاً الى الصدر .

الاثاث والرياش والمجوهرات

وجلس الخلفاء الراشدون على الارض مثل سائر الناس ، وكذلك عوامهم في اول الامر ، فكان عمرو بن العاص يصير يجلس في قصر على الارض مع العرب ، ويأتيه المقوقس ومعه سرير من الذهب محمول على الابدني لخدمته شأن الملك يومئذ فيجلس عليه .

ولما تحضر المسلمون اتخذوا الاسرة من الذهب والعاج ، وفاقوا الاكامرة والقياصرة قبلهم ، واول من اتخذ السرير في الاسلام معاوية ، ويريدون بالسرير المقعد او الكرسي الكبير ، ولم يقدم معاوية على ذلك الا بعد استئذان المسلمين والاعتذار لهم بثقل جسمه .

ولما خرج المسلمون لفتح عتروا على كثير من الاثاث الثمين والرياش الفاخرة والجواهر العظيمة في فارس وبلاد الروم ، ولكنهم لم يفتنوا بقيمتها وخطرها في اول الامر ، حتى لقد كانت العربي المقاتل يفضل الحيوانات الداجنة على الجواهر ويستبدلها بها ، فلما كان عهد امية ظهر في قصور الخلفاء وقصور الامراء والاعضاء الاثاث الثمين ، والرياش الفاخرة ، كما اخذ الخلفاء يكثرزون من استعمال الجواهر ، وكان لدي الوليد بن يزيد عدداً عظيماً من العقود الجميلة المجوهرة بغيرها في كل يوم كما تبدل الثياب ، وكان يجمع هذه الجواهر من كل وجه ويغالي بها ،

ومع ذلك فإن الآلات والرياش في عهد الأمويين ظلت ساذجة بسيطة بالنسبة لما صارت إليه الحال في عهد العباسيين وغيرهم .

النسري

والنسري اقتناء الجوارى للتمتع بهن أو استبلاذهن ، وهو من مسببات الحضارة ومتميهاها ، وقد تكاثر عند الجوارى بسبب الفتوح العظيمة ، وكانت العرب تحقر أبناء الجوارى ، ثم ضعفت هذه الكرامة لما كثر النسري بالجوارى ، وليس المسلمون أول من افتنى السراري ، فهذه العادة كانت شائعة عند الرومانيين قبلهم ، والسرية أحط منزلة من الزوجة ، ولكن علاقتها مع الرجل كانت شرعية .

وكنثرت رغبة المسلمين في النسري في أمان الحضارة ، حتى أصبح أكثر أبناء الخلفاء من أولاد الجوارى ، وتكاثر الجوارى أضعف النسل العربي ما في ذلك شك ولا ريب ، والاستكثار من الجوارى في أوائل الإسلام لم يكن يحتاج إلى نفقة كبيرة لكثرة السبايا ، فلما استقرت الفتوح ، وعظم التمدن ، صاروا يبتاعونها ويغسلون في دفع القائلين ، وكانت أسعارهن تنضاعف إذا جم من بين الجمال ورخامة الصوت وصناعة الغناء .

وكان يختلف ثمن الجارية من بضع مئات إلى بضعة آلاف أو عشرة آلاف دينار ، وقد اشترى سعيد بن عبد الملك الزلفاء الجارية الشهيرة بمليون درهم (٧٠٠٠٠٠ دينار) .

واشترى يزيد بن عبد الملك سلامة المغنية بعشرين ألف دينار ، وبيعت الجارية ضياء بخمسين ألف دينار ، وبلغت قيمة الجوارى في عهد العباسيين أكثر وأكثر .

سخاء العرب

والواقع ان العرب حملوا معهم من جاعلينهم وصحراواتهم سخاءهم
الرائع وكرمهم الجليل ، وكان الكرم صفة عارضة بهم ، يمدحهم الشاعر
فيعطونه ما لديهم ، وبأنهم المستجير فيضجون انفسهم في سبيله ، فلما
تدرجوا في الحضارة والمدنية زادت جوانزهم وعطاياهم بزيادة الثروة
واتساع الاذواق ، فكان الامويون يعطون بألاف الدراهم يلحقونها
ببعض الماشية او الكسوة او الخيل ، واذا توسعوا بالعطاء لمصلحة
سياسية او لان المديح هزهم واثار حميتهم كانت عطاياهم بعشرات
الالوف ومئات الالوف .

واقفدي بخلفاء امية امراء ذلك العهد من العرب واشتهر منهم آل
المهلب الذين جمعوا بين السيف والكرم ، ومثلهم خالد القسري والحجاج
بن يوسف ، وقد اعطى الحجاج للذي توسط بزواجه هند بنت اسماء
ثلاثين غلاماً مع كل غلام عشرة آلاف درهم ، وثلاثين جارية مع كل
جارية تحت من ثياب .

وكان سعيد بن العاصي لا يرسل الى احد عبدة مع عبد إلا كانت
العبد من جملتها .

وفحص عبد الله بن جعفر وغيره في الكرم كثيرة .

الاعترة

وكانت الخمر شائعة قبل الاسلام بين كل الامم فلما جاء الاسلام حرمها
لما فيها من الضرر ولما ينبعها من التبدل ، واقام الحدود في منعها بالجلد
والحبس وحلق الرأس او اللحية او الشوارب او قطع العطاء ، وعاقبوا

بائع الحمرة وكسروا آتيتة ولا سيما في عصر الراشدين ...
 فلما كان عصر بني أمية أخذ بعض الخلفاء يتناولون النبيذ بحجة انه
 غير محرم ، انعموا في هذا فقهاء العراق الذين كانوا يذهبون الى عدم
 تحريمه ، بخلاف اهل الحجاز الذين كانوا يحرمونه ...
 والنبيذ يصنع من اكثر انواع الفاكهة ، ولا سيما العنب والتبر ،
 والزبيب والتفاح والمشمش ومن الذرة ، ويختلف باختلاف البلاد
 وباختلاف طرق استحضاره ، وهو عصير بعض الاثمار او منقوعها - كما
 ينقع الزبيب اليوم (الحشاف) - وقد يضيقون اليه العسل او الدبس
 او يصنعونه من احدهما ثم يضعوه على النار ، وكانوا اذا اقبلوا على
 شربه صفوه ، وتناولوه بالافداح الكبيرة ، وربما صنعوا الخمر منه ، واذا
 صفي في القناني صعب تميزه من الخمر او منقوع الزبيب ، او مستنوب
 العسل ، فمن أحب الشرب استعمل تناوله على انه نبيذ ، فاذا اكثر من
 شربه فعل فعل الخمر ، وبعضهم كان يحلل قليل الخمر ، ويحرم كثيرها ،
 وآخرون يهلون شرب الخمر الا اذا ادت الى السكر ...
 والخلفاء العقلاء الذين ذكر التاريخ انهم شربوا في مجالسهم كانوا
 يستنقون شرب النبيذ وهو حلو منعش فيكثرون منه ، وبؤيد ذلك انهم
 كانوا يشربونه بالارطال ، وليس احد في العالم يشرب الحمرة بالارطال ،
 وبطل حافظاً لعقله ، ضابطاً لأعصابه . وهذا يدل على ان النبيذ
 المذكور لم يكن من الاثرية المسكرة كخمرة اليوم ...

المذاهب الإسلامية الجديدة

الشيعة

كان من اثر الاختلاف السياسي بين المسلمين حول الخلافة ظهور بعض المذاهب الجديدة التي كان لها اثرها وشأنها في سياسة الدولة الإسلامية والإسلام ...

وكان اول هذه المذاهب ظهوراً المذهب الشيعي الذي نشأ في الحجاز اولاً ، ثم انتقل منه الى العراق ففارس فمصر فغيرها من الامصار الامبراطورية .

وكان مدار هذا المذهب اول الامر حول التعصب لعلي بن ابي طالب واولاده من بعده ، ثم ذهبوا بوجوب الامامة فيه وفي اولاده ، ويقولون - خصوصاً الامامية منهم - ان خلافة علي منصوص عليها من الرسول ، ولا تكون في غير آل البيت ، وانه معصوم وآله عن الكبائر والصغائر ، ويزيدون ان الامامة في علي لا تخرج عنه وعن اولاده شرعاً ، وان خرجت فبظلم من الناس ، او بتقية من اولاده كما يجعلون الاعتقاد بالامامة جزءاً من الايمان ...

والشيعة عدة فرق ، منهم المغالي ومنهم المعتدل ، وقد تجاوز رأي الشيعة في الامامة القول الى العمل ، - بخلاف المعتزلة - فكان من اثر ذلك نورات عديدة قام بها بعض الائمة في ايام امية ، وابام العباسيين فلم يوفقوا ...

الخوارج

واما الخوارج فيجوزون ان تكون الامامة في غير ابناء علي ، بل في غير قرين ، ويرى بعضهم جواز خلو العالم من امام ، بخلاف الشيعة ، ويوجبون محاربة الامام الجائر ، وينفون العصاة عن سائر البشر ، وقد نشأ مذهبهم في عهد علي بن ابي طالب بعد معركة صفين ، واختلاف الحكمين ، وهم يكفرون بعض الصحابة ، وكل من رضي بحكم الحكمين في وقعة (صفين) ، وقد اختلفوا فرقا عديدة ، وحاربوا خصومهم وحاربهم خصومهم ومزقتهم الحروب المختلفة فلم يبق منهم اليوم الا اقلهم ...

المرجئة

وكذلك نرى ان الخلاف في الاسلام اول ما شجر حول الخلافة وحول نظام الحكم في الاسلام ، فحارب الشيعة في سبيل العقيدة الملكية الوراثية ، وحارب الخوارج في سبيل تأييد المذهب الديمقراطي الجمهوري في الاسلام ، ووقف المرجئة موقفاً محايداً من كل هذه الاختلافات ، وكانوا من الجند الذين غادروا الامصار الاسلامية للفتوح والناس صفاً واحداً لا يوجد بينهم اختلاف ولا شقاق ، فلما عادوا من فتوحاتهم الى المدينة بعد قتل عثمان بن عفان وجدوا بين الناس من يقول « قتل عثمان مظلوماً » ومن يقول : « ان علياً اولي بالحق واصحابه » فوقفوا موقفاً معتدلاً من الجاليتين وقالوا : نحن لا ننبرأ منها ولا ننكروها ، ولا نشهد عليها ، وترجع امرهما الى الله هو الذي يحكم بينهما .

فيظهر من هذا ان هذا الحزب الجديد كان يرفض ان يغمس يده في الفتن او ان يشد ازر فريق على فريق ، بل ولا ان يحكم بتخطة فريق ،

ونصوب آخر ، والسبب المباشر في تكوينه اختلاف الأحزاب في
الرأي والسبب البعيد مسألة الخلافة ، فلو لا الخلافة ما كانت الخوارج ،
ولا ظهر الشيعة ، ولا نشأ المرجئة .

ومذهب المرجئة إذاً مذهب تساهل ، وسما هذا الاسم من الأرجاء
والتأجيل ، لأنهم يرجئون الحكم على العصاة من المسلمين الى يوم البعث ،
كما يتخرجون عن أدانة أي مسلم مهما كانت الذنوب التي اقترفها ، لأنهم
يرجون المغفرة والثواب من الله لأجل المعاصي ، فلا يحكمون على أحد
بكفر أو فسق كما فعل سواهم ، ويقولون : ان الإيمان إنما هو التصديق
بالقلب واللسان فحسب ، وأنه لا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع
مع الكفر طاعة .

ويقال ان أول من قال بالأرجاء الحسن بن الحنفية ، ولكنه لم يؤخر
العمل عن الإيمان ، بل قال : وان أداء الطاعات وترك المعاصي ليسا من
الإيمان فلا يزول بزوالهما ، وظاهر من هذا انه لا يذهب مذهب المرجئة
في كل شيء ، وقبل أول من وضع الأرجاء بالبصرة حسان بن سلال
المزني وقبل غيره .

ويذهب (فان فلقن) أحد المشرقين ان تسمية « المرجئة » ترجع
الى بعض آي القرآن ، وعلى هذا تكون تسمية المرجئة مشتقة من كلمة
أرجاء بمعنى بعث الرجاء والامل .

وكانت العقيدة الأساسية عند المرجئة ، عدم تكفير أي إنسان أبداً
كان ، ما دام قد اعتنق الاسلام ونطق بالشهادتين مهما ارتكب من
المعاصي ثار كبر الفصل في أمره الله وحده .

ويذهب جهم بن صفوان أحد رؤوس المرجئة : الى انه متى آمن
الإنسان بقلبه بالاسلام ، فليس يضره اذا أعلن الكفر بلسانه ...

والاخبار عن المرجئة قليلة جداً ، وقد ضاعت جميع المصادر التاريخية عنهم ، وما ذهبنا اليه عن مذهبهم قد اتفق عليه الاجماع ، وكانوا الى ذلك يقفون من الامويين موقف التأيد السلبي لا الايجابي ، ويرون ان حكومتهم حكومة شرعية ، ومن هذا كان تأييد بني امية لهم واعتبار بعض المؤرخين المرجئة حزباً سياسياً اموياً ...

وبعد ان كان مذهب « الارزاء » مذهباً سياسياً اصبح مع الايام يبحث الامور الدينية ، واهم ما بحثوا فيه تحديد « الايمان » و « الكفر » و « المؤمن » و « الكافر » وقد دعا الى هذا البحث انهم رأوا الخوارج يكفرون من عداهم ، والشعة تنكر من خالفهم ، وغلا الخوارج فعدوا كل كبيرة كفراً ، وغلت الشيعة فعدت الاعتراف بالامام ركناً اساسياً من اركان الدين والايمان ، فكانت النتيجة الطبيعية ان يعرض على بساط البحث ما الكفر وما الايمان ، فرأى كثيرون من المرجئة ان الايمان هو المعرفة بالله ورسله ، فمن آمن بالله ورسله فهو مؤمن عند المرجئة ، ولكن الخوارج لا ترضى بذلك بل تفرض على المسلم فوق الايمان الاتيان بالفرائض والكف عن الكبائر ومن لم يفعل ذلك واكتفى بالايمان فقط فهو كافر عندهم ، مؤمن عند المرجئة .

نشأة المنة

وما بلغت النظر في دراسة الفرق الاسلامية ان اكثرها ظهر في العراق وافلها في دمشق ، ولم يظهر في دمشق منها الا (المرجئة) او المنة فقد نشأت في البصرة ، وصاحبها واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصري الذي اشرنا الى ان كثيراً من المذاهب الاسلامية نبتت اليه ، وكان الحسن من مؤيدي نظرية حرية الرأي التي كان يقول بها القدرية ،

والقدونية أول مدرسة فلسفية في الاسلام .

ويصف لنا البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق ظهور المعتزلة فيقول : حدث في أيام الحسن البصري خلاف بينه وبين واصل بن عطاء ، في القدر ، وفي المنزلة بين المنزلتين ، وانضم الى واصل عمرو بن عبيد ، فطردهما الحسن عن مجلسه ، فاعتزلا الى سارية من سواري مسجد البصرة فقبل لهما ولاتباعهما (معتزلة) لاعتزالهم قول الامة في دعواهما :
 « ان الفاسق من امة الاسلام لا مؤمن ولا كافر » .

ويقول الاساذ برارن عن نشأة المعتزلة : (١) وكل ما اتصل بنا بوجه عام عن نشأة المعتزلة ونسبتهم بهذا الاسم هو ان واصل بن عطاء الذي كان من تلاميذ الحسن البصري الفقيه المشهور قد اختلف مع استاذة في مسألة المؤمن العاصي الذي ارتكب ذنباً كبيراً ، هل لا يزال يسمى مؤمناً ام لا ؟ ويقول واصل ان مثل هذا الشخص لا يمكن ان يسمى مؤمناً او كافراً ، بل يجب ان يوضع في منزلة وسط بين المنزلتين ، وقد انتص واصل ناحية بعيدة من المسجد ، واخذ يشرح رأيه لتلاميذه الذين اتبعوه ، فكان الحسن البصري يقول للذين التفتوا حوله :
 بان واصل قد (اعتزل عنا) ، ومن ثم اطلق خصوم واصل عليه وعلى اتباعه اسم (المعتزلة) .

ويرى فون كريبير المستشرق النمساوي المشهور : ان الاعتزال قد نما وانتشر في دمشق تحت تأثير رجال الدين من البيزنطيين ، وبخاصة

(١) القدونية - هم الغالون في اثبات القدرة للانسان ، وانه لا يحتاج الى معونة اية في اعماله ، وهذا مذهب قريب من مذهب المعتزلة ، وزعيم هذا المذهب (النظم) من شيوخ المعتزلة ، وأول من قال بالقدرة بهذا المعنى (ميهب الجهن) وكان يجالس الحسن البصري ، وتبعه اهل البصرة فذهبوا الى الجهاد وصلبه سنة ٨٠ هـ بأمر عبد الملك بن مروان .

بحسب الدمشقي أو يوحنا ، وتلميذ تيودور أبو قره ، وأما ذلك الاسم الآخر الأكثر وضوحاً وهو - القدرية - الذي عرف به أهل هذه الطائفة فإنه يرجع إلى مذهبهم القائل بحرية إرادة الإنسان .

ويرى فون كريبز أيضاً : أن معبد الجبني ٨٠ هـ كان يدين بمذهب حرية الإرادة في دمشق أواخر القرن السابع الميلادي وأنه تلقاه من فارسي يسمى سلبويه ، وقد صار قتله في عهد عبد الملك بن مروان .

والواقع أن أول ما يبعث العقل البشري هو مسألة الجبر والاختيار ، هل أرادتنا حرية نعمل ما نشاء ونترك ما نشاء ، أم أننا مجبرون على عمل ما نعمل فلا نستطيع أن نعمل غيره ، ولا نستطيع أن ندفعه عنا ؟

وقد نشأت الأبحاث الدينية في هذا الموضوع لما نظر الإنسان فرأى أنه - من ناحية - يشعر بأنه حر الإرادة يعمل ما يشاء ، وأنه مسئول عن عمله ، وهذه المسؤولية تقتضي الحرية ، فلا معنى لأن يعذب ويثاب إذا كان كالريشة في مهب الريح تتحرك بحركته وتسكن بسكونه .

ورأى من ناحية أخرى : أن الله عالم بكل شيء ، أحاط علمه بما كان وما سيكون ، فعلم ما سيصدر عن كل فرد من خير أو شر ، وظن أن هذا يستلزم حتماً أن الإنسان لا يستطيع أن يعمل إلا على مشيئة ما علم الله ، فعاد في ذلك بين الجبر والاختيار ، وأخذ يفكر هل هو مجبور أم حر الاختيار ؟؟

ولما انتهى المسلمون من الفتح وهدأت الأحوال واستقرت الأمور أخذوا يفكرون بهذه المسألة التي شغلت الأمم التي سبقتهم فظهر في الإسلام قوم يقولون بحرية الإرادة ، معارضين الفكرة الشائعة بأن الإنسان مسير لا مخير ..

ويقول المؤرخون أن أول من تكلم بالقدر معبد الجبني وغيلان

الدمشقي ، وقد قتل الحجاج معبدآ كما قدمنا ، وأما غيلان فكان يسكن دمشق ، وكان رجلاً مفوهاً ، أكثر الناس من الواقعة فيه فامر هشام بن عبد الملك بقتله .

وقد روي أن غيلان وقف يوماً على ربيعة الرأسي فقال له :

- أنت الذي تزعم أن الله يجب أن يعصى ؟

فقال له ربيعة : وأنت الذي تزعم أن الله يعصى فسيراً .

وهذا يدل على أن فكرة القضاء والقدر التي نشأت في البصرة قد انتقلت إلى الشام وأن الناس أخذوا يبحثون فيها ...

الخبرية

وعلى عكس القدرية ظهرت الجبرية ، وكان من أولهم جهم بن صفوان ، وكان يقول : أن الإنسان مجبور لا اختيار له ولا قدرة ، وأنه لا يستطيع أن يعمل غير ما عمل ، وأن الله قدر عليه أعمالاً لا بد أن تصدر عنه ، والله قدر لفلان فعل كذا ، وقدر له أن يثاب ، وقدر على الآخر المعصية وقدر أن يعاقب .

وقتل جهم هذا في ثورة الحارث بن سريج في خراسان في أوائل عهد أمية ، وأيام إمارة نصر بن سيار .

وتعرض الجهم لمسألة الخطر وأهم أيضاً ، وهي القول بنفي صفات الله ، ذلك أنه وردت في القرآن آيات كثيرة تدل على أن لله صفات من سمع وبصر وكلام ، فنفي الجهم أن يكون لله صفات غير ذاته ، وقال : « أن ما ورد في القرآن مثل سمع وبصر ليس على ظاهره بل هو مؤول لأن ظاهره يدل على التشبيه بالخلق ، وهو مستحيل على الله فيجب تأويل ذلك » وقال : لا يصح وصف الله بصفة بوصف بها خلقه لأن

ذلك يقتضي التشبيه ، وقال : ان القرآن مخلوق خلقه الله ، وكان ذلك نتيجة طبيعية لنفيه الصفات ، فاذا كان الله لا يتكلم فليس القرآن كلام الله القديم الا على التأويل ، وانما خلقه الله ، وغير ذلك من الآراء التي لا مجال للتبسط فيها الآن ...

مذهب الاعتزال

واقعد ذات القدورية والجبرية في غيرهما من المذاهب الجديدة التي نشأت بعدهما ، وظهر على اثرهما مذهب الاعتزال ، وكثيراً ما يسمى المعتزلة بالقدورية ، لانهم وافقوا القدورية في قولهم « ان للانسان قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى ، ونفوا ان تصحكون الاشياء بقدر الله تعالى وقضائه . »

واخذت المعتزلة عن الجبرية او عن جهم بن صفوان احد زعمائهم مسألة القول في نفي الصفات عن الله وفي خلق القرآن ، وقولهم ان الله لا يري .

واما اسم « المعتزلة » فقد اختلف في اسبابه المؤرخون وليس فيما اوردوه من حيث اساس هذا الاسم ما يقنع ، ونعتقد انه صار اطلاق هذا الاسم على جماعة اعتزلت جماعة او جماعات اخرى لاختلافها معهم دينياً وسياسياً ، لا لاعتزال فلان خلقه فلان في المسجد او غير المسجد . والمعتزلة في الواقع جماعة معتدلة ، اعتزلت الخوارج ، واعتزلت المرجئة ، ووقفت منهما موقفاً وسطاً ...

وقد اشرنا الى موقف الخوارج الشديد وكيف اعتبروا من خالفهم في رأيهم بعيداً عن الدين والاسلام ، وكيف تساهل المرجئة تساهلاً كبيراً ، فلم يحكموا بالكفر على الامويين والشيعة والخوارج ولا على

احد من نطق بالشهادتين ، ولم يجزموها ايضاً بتكفير اهل الكتاب لان
الايمان في القلب ، وليس بطلع عليه إلا الله ، وهذا المذهب يدعو الى
مسايرة الناس ومساومتهم جميعاً ، وهذه النظرية الكثيرة التساهل ذهب
يقول فيها بعض العلماء : انها اطلعت الفساق في عفر الله ...

واما المعتزلة فقد وفقوا وسطاً بين الخوارج والمرجئة ، فقالوا وعلى
الاخص : - واصل بن عطاء وانباؤه - بالمعتزلة بين المنزلةين ، وبعبارة
اخرى قالوا : ان مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً ، لان الايمان عبارة عن
خصال من الخير ، اذا اجتمعت سمي المرء مؤمناً ، وهو اسم مدح ،
والفاسق لم يستجمع خصال الخير ولا استحق اسم المدح فلا يسمى
مؤمناً ، وليس هو بكافر مطلق ايضاً لان الشهادة وسائر اعمال الخير
موجودة فيه لا وجه لانكارها ...

وقد اضطر المعتزلة الى تطبيق نظريتهم هذه على الاعمال التي عملت
منذ نشب الخلاف بين المسلمين ، اية الفريقين كان مخطئاً ، عثمان ام
فائده ؟ وهل كان علي محقاً في دفعة الجمل ام عائشة ؟ وكيف نحكم على
كل من كان بيدهم ادارة الحرب في صفين . من هو مرتكب الكبائر
منهم ؟ ومن الذي يعد بحق فاسقاً ؟

وكان المعتزلة اجراً الفرق على تحليل اعمال الصعابة وتقديم واصدار
الحكم عندهم بصورة عامة ، بينما نحاشت المرجئة اصدار حكم من هذا
النوع ، وكانت احكام الخوارج ضيقة لا تعدو مسائل محدودة كالنحكيم
وعلي ومعاوية والخلافة ، اما المعتزلة فاصدروا الاحكام بكل صراحة ،
فواصل بن عطاء لم يجوز قبول شهادة بعض الصحابة ، وجوز ان
يكون عثمان وعلي على خطأ ، وانكر عمرو بن عبيد ابا هريرة وطعن في
روايته ...

ويظهر لنا ان الدولة الاموية وقفت موقف المنفرج من المعتزلة فلم تعرض لهم بشر ولا خير ، لان نقد المعتزلة لبعض الصحابة خصوصاً ابي كان موافقاً لسياستها واغراضها .

كما ان هناك من بني امية ومن اخلفاء من ابيد المعتزلة واعتنق فكرتهم كيزيد بن الوليد ومروان بن محمد ، وهذا مع نقد المعتزلة لمعاوية وعمر بن العاص ، ومع اتهام بعض كبارهم لمعاوية باستئثار اموال الدولة لمصلحته الخاصة ..

ولا يجب ان يغرب عن الالهام ان الذي ايد المعتزلة هم آل مروان لا آل سفيان ، وآل مروان كانوا الحكام عندئذ ، واما آل سفيان فقد انهار حكمهم بعد معاوية الثاني ..

وكان المعتزلة الى هذا يسمون انفسهم اهل العدل والوجيد ، فاما العدل فلانهم نقوا صفات الله ، وعدوا القول بها تعديداً لله .

واما العدل فلانهم تزعموا انه عما يقوله خصومهم من انه قدر على الناس المعاصي ثم عذبهم عليها ، وقالوا ان الانسان حر فيها بفعل ، ومن اجل هذا ، عذب على ما يفعل ، وهذا عدل ...

والواقع انه ليس في القرآن ايات صريحة - لا يمكن تأويلها - تدل على ان الانسان مسير لا محير ، لان الانسان بحسب على اعماله ، واذا فاعماله اساس كل شيء .

ومن المفروض طبعاً ان الله خلق الانسان ، وخلق له عقلاً ، فمن حكم عقله في اعماله فقد نجا ، ومن حكم عواطفه ففسد خلقه ، وسبحانه ونعالي قد علم من الازل طبعاً ان فلاناً الذي خلقه سيفعل كذا ، وكذا ، ومعرفة الله لما سيفعل فلان ليس معناها انه قد خلقه وقرر عليه العمل المذكور ، لان معرفة الله لما سيفعل فلان شيء مفروض واجب لضرورة

كونه الله ..

وكذلك الامر في انه لا يصدر عمل من انفس الا باذن الله ،
يفسر ايضاً على هذا النحو ، ولكن العقل الانساني هو المقرر الاساسي
لاعمال الانسان .

ولولا ذلك لما رفع الله الحساب عن المجنون وضعيف العقل ، واذاً
فالعقل وكاله اساس الحساب ، ولولا ذلك لوجب بحاسبة المجنون ايضاً
لانه مسير ، كما ان غيره من العقلاء مسير .

اما الآيات الواردة في القرآن من امثال : « ختم الله على قلوبهم وعلى
سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة فهم لا يعقلون » فيجب ان تفسر على
النحو الآتي :

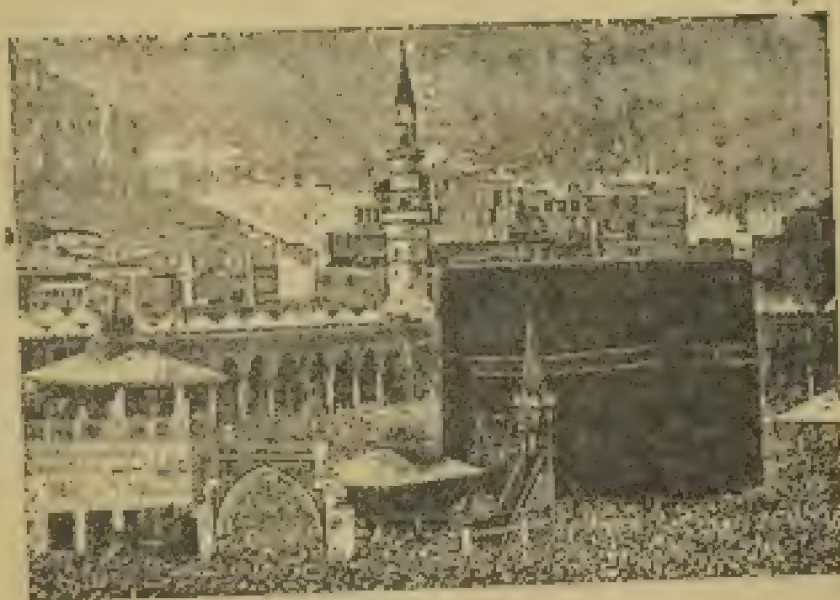
انه يتعلق بالحكمة الالهية توجهه نعمته وعذبه الى الاشخاص الذين
يربدهم في الوقت الذي يشاء ، وان يعزز الايمان في الاشخاص الذين
عندهم استعداد عقلي وقوة ارادة ليكونوا امثلة حسنة لسواهم ، ويترك
الاشخاص الذين ليس عندهم هذا الاستعداد وشأنهم ، وهذا الشر المتأصل
بهم ينقلهم من سبي الى اسوأ .

ويؤيد ذلك ان القرآن يعارض في تحميل غير المسؤول غلظة
المسؤول ، فلا يمكن والحالة هذه قبول فكرة ان الانسان مسير ، وانه
والحالة هذه يحاسب على اخطائه وهو ليس مسؤولاً عنها ...

ولم ينتشر مذهب الاعتزال إلا في العهد العباسي ، وان كان قد
نشأ في العهد الاموي ...



المدينة العاصية الأولى للدولة الإسلامية العربية



مكة حيث ولد محمد بن عبد الله

التربية والتعالم في الدولة الاموية

التربية والعلوم عند العرب قبل الاسلام

ليس في العلوم العربية التي وصلت الينا عن القبائل العربية قبل الاسلام ما يستحق الذكر فقد كان العرب يعرفون في باديتهم وصحراواتهم مثل ما هو مفروض ان يعرفه غيرهم من الامم ممن كانوا في مثل حالهم ومواطنهم مثل مواطنهم .

كانوا يعرفون شيئاً عن النجوم ومواقعها لان طبيعة الصحراء كانت تحتم عليهم الانتقال بجبايهم واتعالمهم من نجح الى نجح ، ومن صقع الى صقع ، فكان من المفروض ان يعملوا في الاعتناء الى السبل في الصحراء على النجوم ومواقعها لان العرب كانت تسافر ليلاً كما تسافر نهاراً ، واكثر ما كانت تسافر ليلاً لان الجو يكون اربط والهواء ابرد .

واحتاجوا في مطاردة اعدائهم وخصومهم الى استنباط الادلة للكشف عن مخابثهم ، فاستنبطوا قياة الاثر ، والجأهم ذلك ايضاً الى توقن حوادث الجو من المطر والاعاصير ونحوها فعنوا في التنبؤ عن حدوث الامطار وهبوب الرياح قبل حدوثها ، وهو ما يعبرون عنه بالانواء ومهاب الرياح .

ودعاهم الغزو الى العصبية بتألفون بواسطتها الاحزاب فعمدوا الى الانساب يترايطون بها ، ويرعوا في دراستها ، والارتجال والغزو ونحوه مما تفرضه حياة البادية يقتضي العناية بالخييل والسلاح ولو كانوا اهل

حضارة لانقنوا صنع السلاح ، واما الخيل فبرعوا في تربيتها وانتقاها
ومعالجة امراضها ، وكانت عنايتهم بالجمال مثل عنايتهم بالخيل .

والعلوم التي كانت شائعة عندهم قبل الاسلام كانت ضرورية لهم
باعتبار الاقليم الذي تولوا فيه ، واقاموا به ، والعرب الى ذلك لم يتعلموا
هذه العلوم في المدارس ، ولا الفوا فيها الكتب ، لانهم كانوا اميين
لا يقرأون ولا يكتبون ، وانما هي معلومات تجمعت في محفوظهم بنوادي
الاجيال بالاقبياس والاستنباط ، وتنقلت في الاعقاب .

واذا امعنا النظر في مصادر العلوم العربية القديمة رأينا بعضها خاصاً
بالعرب ، نشأ عندهم ، والبعض الآخر دخيل صار اقتباسه من الامم
الاخرى ، فالعلوم العربية هي الانساب والشعر والخطابة .

والدخيلة: النجوم والطب والانواء والخيل ومهاب الرياح والميتولوجيا
والكهانة والقبافة وغيرها .

والذي يهمنا بمحله في هذا الفصل هو ان العرب في الجاهلية لم يكونوا
ينعمون بشيء مما يسمى تربية في زماننا ، ولا تعلماً في عهدنا ، وانهم
كانوا قوماً اميين لا يعرف القراءة والكتابة الا بعض افراد منهم
كانو يسكنون المدن ويقبضون فيها ..

التربية والتعليم في الاسلام

والمدارس بالمعنى المعروف اليوم لم تكن موجودة لا قبل الاسلام
ولا بعده بقليل ، وفي عهد رسول الله نسمع ان رسول الله طلب من
الاسرى المكيين الذين رفعوا في يد المسلمين بعد معركة بدر ان يعلم
من يعرف القراءة والكتابة منهم المسلمين القراءة والكتابة .

واذاً فنحن امام اول مدرسة في الاسلام ، وهذه المدرسة كانت

في المدينة لما اخذ الاسرى المكبون من قريش يقومون بوظيفة المعلم
لجهة المسلمين ، من الذين لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة .
والظاهر ان القوم في هذا الزمن - هذه الفترة التي سبقت ظهور
النشاط العلمي والادبي في عهد امية - كانوا يعتبرون المعلم الكامل ،
الشخص الذي يقرأ ويكتب ويسمح ويستعمل السلاح ، وقد نقلنا هذه
الكلمة عن الاغاني ، وافحام السباحة في هذه الجملة يدل على تأثير اليونانيين
الذين كانت لهم مرافىء بحرية ، او العرب من جنوبي الجزيرة الذين برعوا
في ركوب البحر .

الدارس الحرة المستقلة

ولكن الشيء الذي يستلفت النظر في دراسة تاريخ التربية والتعليم
عند العرب ان الذين اُعتنوا بشؤون التربية لم يكونوا من رجال الحكم
وانما كانوا من افراد الشعب الذين تطوعوا للتعليم والدرس ونشر
المعارف .

وفي المصادر التاريخية القديمة ان رسول الله ارسل معاذ بن جبل الى
اليمن معلماً ومرشداً ...
وارسل عمر بن الخطاب عبد الله بن مسعود معلماً ومرشداً الى
الكوفة ..

وهناك ظاهرة اخرى هي علاقة النظام التربوي الذي اجراه
المسلمون الافراد انفسهم لا الحكومة ، بالدين وتأثير الدين عليه ، فقد
دعا القرآن الى طلب العلم ، وحض محمد المسلمين على العلم ولو كان في
الاماكن البعيدة القاصية ، ودرته المشاق والمتاعب ، ولتنفيذ هذه
الرغبة التي ابداها القرآن ودعا اليها محمد ، نشأت مؤسسات المدارس في

مختلف الاقطار الاسلامية القريبة والبعيدة .

ويقول الاستاذ « هل » في كتابه « الحضارة العربية » :
 « اما ان المسلمين قد اسسوا مدارس للتعليم العام في بلاد العرب ،
 وفي البلاد المفتوحة فهذا شيء ثابت ، لا تستطيع الحضارات القديمة الاولى
 ان تناهي بشيء من مثله » .
 وكانت المدارس الابتدائية مقدمة للتعليم العالي الذي كان من
 مظاهره حرية الرأي والتفكير ، ونشر العلم والبحث عن الحقيقة .

المدرسة الاولى

وكذلك نرى ان الاسلام منذ نشأته ، وفي سبيل العلم ، قدم المسجد
 ليكون المدرسة الاولى ، وليكون المكان الاول للجماعة الاسلامية ..
 ولما كان المسجد للصلاة ، وكان طلاب العلم من جملة الواجبات
 المفروضة على المسلم كالصلاة مثلاً ، فقد فتحت المساجد ابوابها للدرس
 والتعليم ...

وفي ذلك العهد الاسلامي الاول كان الداخل الى المسجد يشاهد
 منظراً عجيباً ، فهناك في طرف المسجد جماعة يصلون ، وآخرون يقرأون
 القرآن ، وفي ركن آخر ، جماعة من العلماء والادباء يفسرون قصيدة
 من قصائد الشعراء المعاصرين او الشعر الجاهلي ، كما نجد في ركن ثالث
 عالماً جالس حوله تلاميذه ، وهو يشرح لهم بعض اصول الحديث ، او
 يفسر لهم بعض آي القرآن ..

المسجد اذاً لم يكن للدين والصلاة فحسب ، وانما كان مركزاً بارعاً
 لطلب العلم والمعرفة ايضاً ، فالخريفي في مسجد البصرة القى محاضرات
 عن الشعر كانت بعيدة كل البعد عن الدين والصلاة ، وفعل مثله غيره

من العلماء في مختلف مساجد الاسلام .

طريقة التدريس

وكان العادة المتبعة عند العلماء ان يصار الى بحث الموضوع الذي يصار الى تدريسه وتقدمه في وقت الدرس نفسه ، وكان من اثر ذلك ان كان العلماء يمدون غناية خاصة بدروسهم ومحاضراتهم ، وقد حصل غير مرة ان يتوقف المحاضر في المسجد عن اتمام محاضرتة ، اذا رأى من هو اعلم منه قد اقبل عليه وجلس في حلقة ، فيترك مكانه ويجلس بسبب يديه كاحد التلامذة الطلاب .

وكان يصار الى التدريس في حلقات يجلس فيها الناس على الارض في ركن من اركان المسجد ، وبأخذ الأستاذ مكانه في اول الحلقة ، ويجلس المستمعون لمحاضرتة والتلامذة حوله .

ولما كانت العربية هي اللغة السائدة في التدريس ، فقد كانت كل فادم من أقصى البلاد العربية الى المسجد يستطيع تفهم هذه المحاضرات ، وكان هؤلاء المسافرون يحملون معهم عند عودتهم الى بلادهم البعيدة ، خلاصة المحاضرات التي سمعوها ، والدروس التي حضروها ، فكانوا والحالة هذه كالمجلات والصحف والكتب السيارة اليوم تنقل المعرفة من مكان الى آخر .

وبقرن المستشرقون الالمان وغيرهم : ان احداً في العالم - من الأمم والجماعات طبعاً - لم يظهر مثل هذه الرغبة التي اظهرها العرب في طلب العلم ، والسعي للحصول على المعرفة من الاقطار البعيدة والبلاد السحيقة ، وان حديث طلاب العلم العرب حديث طريف جذاب لا مثيل له في تاريخ امة اخرى .

ويقول فون كرمير التمسوي : « انه لا يعرف صورة قتل هذه الرغبة الملحة التي ظهرت عند المسلمين في طلب العلم ، مثل قصة « ياقوت الحموي » الذي كان رغباً عن الخطر الذي يهدد بغداد من المغول ، ويهدد في الوقت نفسه الدولة الاسلامية في ذلك العهد ، لم يمتنع عن المضي في عمله العلمي في مكاتب مرو البعيدة عن وطنه ومولده . (١) »

« ربما اضطر الى الحرب ، استطاع انقاذ اكثر اوراقه معه ، ومع الاضطراب السياسي الذي كان يعمر الامبراطورية الاسلامية العربية ، فقد راح يعمل على انهاء كتابه على الوجه الذي قوره ، قبل الاقدام على رحلة ثانية قد تكون الاخيرة .. »

وفي التاريخ العربي مئات من اسماء الاشخاص الذين كانوا يطوفون الارض في طلب المعرفة والعلم ، وكان اول ما طلبوه الحصول على احاديث رسول الله من الصحابة الذين تفرقوا في البلاد المفتوحة بعد الغزوات العربية الاولى ، ثم اقوال الشعراء الافدمين واخبارهم ، ثم العلوم الاخرى المختلفة .

وكانت العادة المتبعة ، ليكون المرء عالماً بالفرع الذي يريد التخصص فيه ان يستمع الى محاضرات العالم الثقة في الفرع المذكور ، ومتى احسن الاستماع ، ونجح في الامتحان امام اساتذه ، اجازته هذا او سمح له بتعليم الفرع الذي درسه واتقنه ..

وكان طلاب العرب عظماء جداً ، وكثير هم الاشخاص الذين كانوا يتركون بلادهم وعيالهم في طلبه ، او للاستماع الى عالم كبير طارت شهرته وفشا امره ، وليس الذولا اجمل من قصة هؤلاء العلماء الذين كانوا يتركون الارض الاشهر المعبدية في طلب حديث واحد ، من

(١) ياقوت : صاحب معجم البلدان ، ومعجم الادباء .

أحدث رسول الله .

وكما صار درس القرآن والحديث والأدب والتجويد والصرف في المسجد
صار درس الفلسفة اليونانية فيه أيضاً . .

ولكن الشعراء والأدباء الذين كانوا يرغبون في الحصول على أكبر
قسط ممكن من الفصاحة العربية ، كانوا يذهبون إلى البادية طلباً للبيان
والفصاحة وفرائد اللغة . . .

وكذلك كانت البادية مدرسة أدبية عالية لطلاب البيان والفصاحة
من الشعراء والأدباء والكتاب .

تعليم حر مجاني

وهذا العناية الذي كان يصرفه العلماء في المساجد في الدرس والتعليم ،
وهذه الجهود التي كانوا يصرفونها في نشر المعرفة ، كانت مجانية حرة لا
يطلبون من تلامذتهم عليها جزاء ولا شكوراً . .
وكان الأمر كذلك في البادية فإن التعليم فيها أو طلب الفصاحة
والبلاغة فيها لم يكن يكلف صاحبها مالا ، وإن كانت يكلفه شيئاً من
العناء والمشاق طبعاً . .

والبادية كما كانت مدرسة لطلاب الفصاحة من الشعراء والأدباء ،
كانت مدرسة أمراء أمية أيضاً ، فإن كثيراً من الأمراء الأمويين
كانوا يرسلون أولادهم إلى البادية تقرباً لالسنة ، ومنعاً لهم من الوقوع
في اللحن ، الذي كان شيئاً مكروهاً في تلك الأيام .

ظهور المدارس الخاصة

وفي عهد الأمويين ظهر المؤدب الخاص في البيوت ، وكانت العائلات

الغنية طبعاً تستطيع ذلك أكثر من سواها ، فكانت تكاف أحداً
الأساتذة القيام بتأديب أولادها في غرفة من غرف البيت لقاء أجر معين
في الشهر ، وكان على هذا الأستاذ أن يعلم الأطفال القراءة والكتابة
والقرآن والشعر والأدب .

وكانت المدارس الابتدائية موجودة في القرن الهجري الأول في كل
قرية أو بالقرب من كل جامع ..

وهذه المدارس كانت عبارة عن كتاب أو حجرة واحدة يجلس فيها
الطلاب الصغار حول أستاذ يعلمهم أصول القراءة والكتابة وقراءة
القرآن ، ويأخذ على ذلك أجراً معيناً من كل تلميذ ، يؤيد ذلك أن
أبا مسلم الحراساني تعلم بمدرسة ابتدائية بخراسان .

وأول المعلمين في الإسلام كانوا القراء حفظ القرآن ، وفي عهد عمر
بن الخطاب نراه أرسل القراء إلى الأطراف ، وأمر الناس بملازمتهم يوم
الجمعة للاستماع إلى قراءة القرآن .

وفي عهد عمر بن عبد العزيز أرسل الخليفة عمر إلى مصر قاضياً هو
يزيد بن أبي حبيب ، كان أول معلم في مصر (١)

وفي الكوفة نسمع عن شخص اسمه الضحاك بن مزاحم كانت عنده
مدرسة ابتدائية صغيرة وكان يعلم الطلاب فيها مجاناً ومات سنة ٧٢٣ م
وقد نقل هذا الخبر ابن سعد نفسه في طبقاته .

وبخبرنا ياقوت أنه في القرن الثاني الهجري جاء أعرابي إلى البصرة
وفتح مدرسة مجانية أيضاً (٢) .

وكان الأساتذة في هذا العهد لا يرون كبير أمر في استعمال

(١) السبوطي .

(٢) ياقوت .

التأديب البدوي ، فإن الاخبار عن هذا كثيرة ، وعمر بن عبد العزيز الخليفة استعمل الضرب مع اولاده لما اخطأوا في اصول الصرف والنحو . وفي القرن الثاني كانت توجد مدارس ابتدائية للاطفال في (نستر) من اعمال فارس ، وكان الاطفال يحضرون هذه المدارس دون اي ضغط من الحكومة ...

والظاهر ان الاطفال من سن السادسة من العمر كانوا ينذهبون الى المدرسة ، وكان حضور المدرسة مباحاً للجميع حتى للعبيد .

درجات التعليم

واذاً فقد كان هناك في عهد الامويين واولائل القرن الثاني الهجري مدارس ابتدائية للاطفال . وهذه كانت تقوم اما بجوار المساجد او في غرف خاصة في مختلف البلدان العربية .

وكان هناك ايضاً مدارس للتعليم العالي ، وهذا التعليم العالي كان مقره المسجد ، ويقوم به علماء احرار لا يأخذون على دروسهم اجراً . وكانت حربة التعليم مطلقه ، ولا ادل على ذلك من اختلاف الفرق الدينية في الاسلام اول القرن الاول ، وكان امراً عادياً ان نجس في المسجد الواحد عدداً من العلماء يدرسون مذاهب مختلفة ، يروج كل واحد منهم لمذهبه ورأيه ، مع وجود الاختلاف بينهم على امور كثيرة .

وهناك شيء آخر ، وهو انه وان لم يكن هناك نظام حكومي يجبر الناس على طلب العلم ، فقد كان الناس يطلبون العلم ، كما لو كان هناك حكومة تأخذهم بالقوة الى العلم اخذاً .

وكان صغار البنات يحضرن المدارس الابتدائية بجانب الاطفال ، ولكن التعليم كان محدوداً ، كان الاستاذ يدرس تلاميذه وتلميذاته

القرآن ، واصول الدين ، وهذا طبعاً بعد تعليمهم القراءة والكتابة ،
وفي بعض المدارس صار تعليم الصرف والنحو .

وكان من جملة ما ينصح به الاساذ تلاميذه ان يقول لهم : لا تهتموا
الى ملذات الحياة فانها من الشيطان ، واعملوا كل ما يرضي الله .

وكانوا يدرسون مع العلوم العالية في الدين والحديث والادب
والشعر علم القانون المستخرج من القرآن والحديث والسنة ، وكانوا
يقولون ان تعليم فن الطب ضروري جداً لحفظ الاجسام ...

ثم اصبحت العلوم العلمية تقدم في بعض المدارس مع علوم الدين .
وفي سنة متأخرة جداً عن العصر الاموي سنة ٤٣٨ هجرية نقرأ
احد العلماء يقول : فضيت الى الكتاب وتعلت القرآن ...

ومن لطيف عاداتهم ان الخلفاء كانوا يحضرون تدريس اولادهم
ويشيرون على اساتذتهم بتأديبهم حتى ولو افنض الامر الى الضرب .
وكان الشعر الجاهلي المنتخب يؤلف قسماً كبيراً من برنامج الدروس
لما حواه من المعلومات الجغرافية والحوادث التاريخية ولانه كان مدرسة
للشجاعة والوفاء ، وكانت الخطابة وتعليم ايام العرب - اي اهم حوادثهم
الحربية - تحتلان مركزاً لا يستهان به .

وبما يجب ان يشار الى ذكره في ختام هذا البحث ، هو ان اتصال
العرب بامم مختلف عنهم ثقافة ولغة وديناً وعلماً ، وتعد بسبب ذلك غريبة
عنهم يدل على ان التأثير الغربي لا يضعف الاسلام في كثير ولا قليل ،
فالاسلام يقف كالجبار امام كل العواصف ، وقد يرى بعضهم في هذا
الكلام شيئاً من الاغراق ، ولكن هذا هو الواقع ، فالتأثير الغربي ،
والاستعباد الغربي ، والاضطهاد الغربي ، لا يضعف من عزيمه العرب ،
وانما يجمعهم بعضهم الى بعض ، ويجعلهم اقرب الى الاسلام من قبل .

نشر المعارف والعلوم

الاختلاف

- ليس من شأننا بحث الخلافات الدينية التي عصفت بالامبراطورية البيزنطية قبل الاسلام ، ولا التبسط في حديث النزاع الذي قام بين مدرستي الاسكندرية ورومية يوم حارل كل منها ان يقضي على المسيحية ثوباً خاصاً ، فان لهذا الحديث مكاناً غير هذا ، يحده القاري في كثير من المؤلفات التي عرضت لهذه الابحاث ، خصوصاً في اللغات الأوروبية .. (١)

اما الذي يهمنا في هذا البحث فهو ان المصادر التاريخية تؤكد العلاقات الوثيقة بين الحضارة العربية في العهد الاموي وبعده ، وبين الثقافة الاغريقية ، التي احتفظ بها ونشرها جماعة من المسيحيين لم يتمكنوا بسبب اختلافهم في الرأي مع كنيسة القسطنطينية ، وبعد ان اعتبرهم مجمع افسس هراطقة سنة ٤٣١ م ، من البغاة في امصار الامبراطورية فغادروها الى نصيبين من اعمال العراق ، وكانت لهم مدرسة فيها قبل هذا التاريخ اقبلوها لما اخذها الفرس من البيزنطيين بعد حرب من هذه الحروب الكثيرة التي كانت تسهر بينها ، وذهبوا منها الى

(1) Arabic Thought : O' Leary.

وتاريخ جيون عن الامبراطورية الرومانية ، والمفالات التي ترجمها عبد الرحمن بدوي عن الاثر اليوناني في الثقافات الاسلامية ..

(الرها) فكانت مركزاً للكنيسة التي ينطق زعماءه باللسان السرياني حتى اغلقها الامبراطور زينو سنة ٤٣٩، فلم يجد السريان ملاذاً الا بالهجرة الى البلاد الفارسية حيث تقبلهم الفرس قبولاً حسناً بسبب الخصومة التي كانت تستعر بينهم وبين الكنيسة البيزنطية، وفي نصيبين انشأوا مدارسهم للمرة الثانية، ومنها انتقلوا الى بلاد فارس ينشرون وجهاً للمسيحية مصطبغاً بالصيغة الشرقية... مسعين على بحث تعاليمهم في الدين باقوال ومذاهب اخذوها من الفلسفة اليونانية، فاصبح كل نسطوري - نسبة الى نسطور زعيمهم - معلماً للفلسفة اليونانية.. وفي هؤلاء النسطوريين بقول ولس (١) : « وكان اتباع نسطور اوسع عقلاً، واعظم ادراكاً واذكى قلباً من جماعة اللاهوتيين في البلاط البيزنطي، وكانوا اعظم علماً من امثالهم من علماء الغرب، وكانوا في الارتفاع العامود الفكري للثقافة العالمية في العالم الفارسي، واحتفظوا بكثير من العلوم الطبيعية اليونانية وزادوا عليها، وفي العهد الاموي كان اكثر اطباء الخلفاء منهم، ومن المؤكد ان كثيراً من النسطوريين اعتنق الاسلام، ومضى في دراساته وبحوثه الفلسفية والطبية، كما انهم احتفظوا بكثير من اراء ارسطو مع ترجماتها السريانية بعد ان نقاوها عن اليونانية الى لغتهم، والى هؤلاء الاساتذة النسطوريين اقبل العقل العربي الجديد من الصحراء فنعلم منهم كثيراً، وزاد عليهم كثيراً... ومن هذا المزاج بين الثقافتين الاغريقية التي احتفظت بها مدرسة الاسكندرية في مصر، ونصيبين في العراق وجنديسابور في فارس، وبين العقل العربي نشأت الحضارة العربية، سواء منها هذه الحضارة التي نشأت في دمشق، او التي انبثقت عنها بعد ذلك في بغداد وقرطبة...

(1) Outline of History, p. 625.

بحيث استبقى العرب أوروبا في كل المعارف والعلوم المعروفة في ذلك
العهد ، وإلى مدارسهم - المدارس العربية - كان الطلاب الأوروبيون
يهرعون من كل صقع ومصر ، فكانت جامعة قرطبة أم الجامعات العالمية ،
وأم العلماء الأوروبيين الذين نقلوا معارف العرب إلى باريس واكسفورد .
ومن الحق أن نقول « أنه بواسطة العرب لا بواسطة غيرهم من الأمم
بنعم العالم الحديث بنعمة العلم والمعرفة » (١)

وكان استمداد العرب لقبول الفلسفة اليونانية عن طريق النساطرة
وغيرهم سريعاً غريباً ، فقد فُكِن العرب في مدة وجيزة بعد وفاة الرسول
من نقل خير ما جادت به قرائع الرومان واليونان إلى العربية ، واثرت
التعاليم الجديدة في فهم العرب لمعنى القضاء والقدر ، كما تعلموا مبادئ
المسيحية والنتائج ...

ولم يأت عهد المأمون حتى أثبت العرب كروية الأرض ، وشرعوا
في مسح فطرها بالرغم من تكفير أحد الفقهاء للخليفة من أجل ذلك .
وكذلك ترى أنه ما كاد القرن الثالث من الهجرة ينتهي في البلاد
الإسلامية حتى كان النضال شديداً بين معاقل الثقافة الإسلامية ، فارت
العباسيين في آسيا ، والفاطميين في مصر ، والامويين في إسبانيا ، كانوا
يتسابقون لنشر العلم وتشجيعه ، وبما نجب ملاحظته أن نقل المسلمين
للعلم لم يكن عن طريق يونان أوروبا ، وإنما كان عن طريق الإسكندرية
والنساطرة حيث نشأت الأفكار المبنية على التجارب والملاحظة لا على
الرجوع بالغيب والفلسفة .

الاسلام وانتقادات

ولما جاء الاسلام كان من اهم ما دعا اليه القرآن طاب العلم والعمل
على تحصيله ، وحث الحديث على طلب العلم ولو كان في الصين ... كما
استعان رسول الله بأسرى الحرب على تعليم المسلمين اذا ما شاوروا اخذوا
انفسهم ، كما حرص رسول الله على ان يكون حفظ المرافة مثل حفظ
الرجل في العلم فحث الرجال على تعليم اهلهم وذويهم (١) كما حث على
تعليم العبيد من النساء ثم اعناقهم والتزويج بهن ، واذا كان هذا حفظ
الامة من عنابة الرسول فما بالك بالحررة المفروض في وليها انت يعلمها
ويؤدبها على الوجه الاكمل والاحسن ...

ويعتبر الفقهاء ان من اول حقوق الامة على الخليفة ونشر العلوم
والشريعة وتعظيم العلم واهله ، ورفع مناره ومجده ، ومخالطة العلماء
الاعلام النصحاء الذين الاسلام ، ومشاورتهم في موارد الاحكام ومصادر
النقض والايام (٢)

وفد استفاد كثيرون من الصحابة من صحبتهم للرسول ، فنبغ علي
بن ابي طالب في القضاء ، ونبغ معاذ بن جبل في العلم بالحلال والحرام ،
وزيد بن ثابت في تقسيم الموارد والانصب في القنائم وما اليها ، وابي بن
كعب في قراءة القرآن .

وما بدأت الفتوح تفرق هؤلاء العلماء من الصحابة في الامصار
الاسلامية الجديدة ، فنزل بعضهم البصرة ، وبعضهم الكوفة ، وبعضهم

(١) من حديث عن ابي هريرة ...

(٢) بدر الدين بن جماعة : توير الاحكام في تدبير اهل الاسلام ، المنشور في المجلد
الرابع لسنة ١٩٣٤ من مجلة « الاسلام » الثانية س ٣٦١ .

ظل في المدينة ، وآخرون ذهبوا الى الشام ، فاجتمعوا في كل هذه البلاد
حركة علمية قوية ، والتف حولهم التلاميذ يأخذون عنهم العلم ، وينشرونه
بين الناس ...

ولم يكن جميع هؤلاء من العرب بل كان بعضهم من الموالي - اي
من الذين اسلموا من غير العرب - ولذلك كانوا بحاجة الى تعلم العربية
لغة القرآن والحديث ، ومن هنا نشأت بعض الدراسات اللغوية كالنحو
والصرف ...

وكانت عناية الجميع في اول الامر مقتصرة على العلوم الدينية ، وما
يتعلق بالقرآن وتفسيره ، والحديث وروايته ، واستنباط الاحكام الفقهية
والفتاوى الشرعية فيما يحده من مشا كل خلفها تبدل الايام وتقدم الفنون .
ولذلك كان اول ما انتشر من العلوم في عهد الامويين مرتبطاً
بالدين ودراسة الدين ، مع بعض العناية بالترجمة والعلوم الفلسفية
الآخري .

عهد معاوية وبنده

وكانت سياسة معاوية الرشيدة سبباً من اسباب انصراف المسيحيين
المتقنين في عهد الدولة الاموية الى العناية بمختلف العلوم التي نالوها عن
اليونان وغير اليونان ، قرب معاوية الطبيب المسيحي ابن اكل اليه ،
واخذ يستمع الى القصص التاريخية القديمة ، التي كان يقصها عليه عبيد بن
شريح الجرهمي (١) اما خالد بن يزيد بن معاوية فهو اول من انصرف من
امراء امية الى البحث العلمي ، وهو الذي طلب من (ستيفن)
(١) انظر كتاب القورست لابن النديم ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ، ومعجم
الادباء لياقوت ...

و « ماريانوس » ترجمة بعض الكتب الى العربية .

وكان خالد مؤلفاً ايضاً ، ويذكر لنا ابن النديم في الفهرست اسماً
بعض مؤلفاته ، ويذكره ابن ابي اصيبعة بمثل ذلك (١) ويقول الاستاذ
شيلي : ان الترجمة من السريانية الى العربية بدأت في عهد عبد الملك بن
مروان ، واما الاستاذ لكلرك فيقول : ان ذلك وقع في ايام عمر بن
عبد العزيز ...

ويقال ان عمر بن عبد العزيز الخليفة الاموي اهتم بالثقافة الاغريقية
لما كان اميراً لمصر عهد سليمان بن عبد الملك ، حيث تعرف على « ابن
الايجر » استاذ الفلسفة اليونانية في مدرسة الاسكندرية ، ولما تولى عمر
الخلافة عين ابن الايجر مديراً لدائرة الطب ...

ويحدثنا ابن ابي اصيبعة (٢) : بأنه في عهد عمر بن عبد العزيز صار
نقل العلوم اليونانية من مصر الى انطاكية وحران (٣) ومنها انتشرت
هذه العلوم في البلاد الإسلامية الاخرى .

ويعتقد الاستاذ شيلي ان سبب ذلك انسحاب ابن الايجر من مدرسة
الاسكندرية .

ومن جملة الاسباب التي ساعدت على الترجمة ظهور فئة من الناس
كانت تفهم العربية وبعض اللغات الاجنبية الاخرى ، وهذه الفئة
كانت من العرب المسيحيين الذين اسلموا اول الفتح او بعده بقليل ، او
من العرب الذين تعلموا احدى اللغات المعروفة في عهدهم كصالح بن
عبد الرحمن ، وعبد الله بن عبد الملك .

(١) اخبار الحكماء .

(٢) اخبار الحكماء .

(٣) كانت مدينة « حران » اشهر مراكز لونية والثقافة اليونانية .

ونسلم بعد عمر بن عبد العزيز ان سالماً كاتب الخليفة هشام بن عبد
الملك ترجم بعض كتب ارسطو الى العربية .
كما نقرأ ان جيله ابن سالم ورث عن ابيه كثيراً من معارفه وعلومه
فترجم بعض الآثار التاريخية الفارسية الى العربية ، وقد ذكر ابن النديم
اسماء كتبه المترجمة .

ويظهر ان هشام بن عبد الملك كان كثير الشوق للاطلاع على الآثار
الادبية الخاصة بالامم الاخرى من غير العرب ، ويذكر المؤرخون ان
من بين الآثار الفارسية التي رفعت في ايدي العرب كتاب كامل عن
تاريخ فارس يحتوي على صور الاكاسرة الذين صار ذكرهم في الكتاب ،
وان هشام الخليفة امر بت ترجمة هذا الكتاب الى العربية سنة ١١٣ هجرية
ويحدثنا المسعودي انه رأى هذا الكتاب سنة ٣٠٣ في اسطخر .

وبموت هشام ، وقيام الاضطرابات الداخلية بعده ، توقفت حركة
الترجمة كما يظهر ، فلا نعود نسمع عنها شيئاً ..
ولما تولى العباسيون الخلافة ، قاموا على اساس ثابت من الادارة
والسياسة ، والمعارف والعلوم والفتوحات التي وضع اساسها الامويون
ومكنوا لها في الارض .

مراكز الثقافة

اما البلدان اللذان سيطرا على الحركة الثقافية في عصر اموية فيها
البصرة والكوفة ، هذا اذا استثنينا دمشق التي كانت عاصمة الدولة ..
وقد صار انشاء البصرة والكوفة في عهد عمر بن الخطاب ليكونا
معيكبين للجنود العربية ، فنشأت الكوفة غير بعيد عن مواطن
الحضارة البابلية القديمة ، وكانها قامت مقام الحيرة عاصمة اللخمين من

ملوك العراق قبل الاسلام ، ونظراً لمركزها التجاري العجيب ، أصبحت
تعد بعد سنوات قليلة أكثر من مائة وخمسين ألف نسمة .

أما البصرة التي كانت تحكم خراسان ، فقد أصبحت في سنة ٥٠
للهجرة لا تقل عن ربع مليون نسمة ، وكان فيها ما يزيد عن (١٢٠)
الف قتاة . وهنا على مقربة من فارس والحضارة الفارسية القديمة بدأت
تظهر الدراسات العلمية في اللغة العربية ، وقام بذلك بعض المسلمين من
غير العرب الذين كانوا يحتاجهم الملحة الى درس القرآن بخطرهم الى
درس اصول الصرف والنحو ، او الى وضع اصول للصرف والنحو ،
تعصمهم عن الوقوع في الخطأ واللحن .

وكان ابو الاسود الدؤلي الذي مات سنة (٦٨٨ م) اول من
بحث اصول النحو والصرف ، وبما لا شك فيه ان في هذين العلمين
بعض اثار المنطق اليوناني ، ثم جاء الخليل بن احمد وهو من البصرة ايضاً
ومات (٧٩١) فوضع معجماً عربياً اسماء كتاب العين هو الاول من
نوعه في العربية . ثم ظهر تلميذه (سيبويه) (مات سنة ٧٩٣) فوضع
اول كتاب عن النحو والصرف في العربية ، وجعل للصرف والنحو
اساساً ثابتاً مقررأ ...

ظهور الحديث وهو اساس الفقه الاسلامي

ولما كان القانون في الاسلام اعلى بالدين اكثر منه باصول التشريع
على نحو ما يفهمه الاوروبيون ، فقد اخذ المسلمون يدرسون الحديث ،
ويدرسون في الوقت نفسه تاريخ الرواية من المحدثين لاهتمامهم بامر الحديث
وحرصهم على الوثوق من صحة رواية وامانة رواته ، ولذلك كانوا في
حاجة الى تعرف حال هؤلاء الرواة ودراسة تاريخهم واختبارهم ، ومعرفة

انساجهم وقبائلهم ، فكان ذلك كله نواة صالحة وثروة غزيرة لعلم التاريخ
والاخبار .

وقد اشتهر من رجال الحديث عهد الامويين الحسن البصري ، وابن
شهاب الزهري (الذي مات ٧٤٢ م او ١٢٤ هجرية) وسعيد بن
المسيب في المدينة ، وربيعة الراي وهو شيخ الامام مالك ، ومالك بن انس
الذي نشأ في اواخر عهد الدولة الاموية ومات سنة ١٧٩ هجرية ، وهو
صاحب كتاب « الموطأ » الذي جمع فيه ما يقرب من ١٢٠٠ حديث .
ومن الغريب ان اكثر الحركات الاسلامية الدينية ظهرت في البصرة
او قام بها رجال من البصرة ، كالحسن البصري مثلاً ، فان الصوفية
تدعيه ، والمعتزلة تقول انه منهم ، وكان تأثيره من القوة بحيث انه لما
مات خرجت البصرة كلها نواربه التراب تشرين الاول ٧٢٨ م وهو
حدث غريب في الاسلام على رأي ابن خلكان .

واما الكوفة فكانت بسبب تشعبها اقل تأثيراً من البصرة ، وبسبب
ذلك ايضاً حصل التنافس بين البلدين في كثير من المسائل العلمية
والدبيلة واللغوية ، وكان من اشر رجال الحديث في الكوفة عبدالله بن
مسعود وهو مسؤول عن ٨٤٨ حديثاً ، ومن رجال الكوفة عامر بن
شراحبيل الشعبي « مات سنة ٧٢٨ » وهو موضع ثقة المؤرخين في احاديثه
ومن تلامذته الامام ابو حنيفة ، وقد ارسله عبد الملك بن مروان سفيراً
عن الامبراطورية العربية الى بلاط القسطنطينية .

التاريخ والسير

وفي الوقت الذي كان يصار فيه الى جمع الحديث ، كان يصار فيه
ايضاً الى وضع التاريخ ، وكان عبيد بن شربه صاحب معاربة اول من

البس هذا النوع الذي كان يسمى قبله قصصاً ثوب التاريخ ، وقد ألف
لعمارة كما يقال كتاب « الملوك واخبار الماضين » ويقول المسعودي انه
رأى هذا الكتاب سنة ٩٥٦ م .

وقد روى ان عمرو بن الزبير المتوفى سنة ٩٤ هـ هو اقدم من ألف
في السيرة النبوية ، وكذلك ابان بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ هـ ،
وقد جمع تلميذه عبد الرحمن بن المقيرة كتابه في سيرة الرسول .
وكذلك روى ان ابن شهاب الزهري المتوفى سنة (١٢٤ هـ) جمع
كتاباً في المغازي ، ومثله موسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١ هـ ، وقد
عثرنا على قسم من كتابه طبع سنة ١٩٠٤ م .

ومن المشهورين في علم التاريخ رعب بن منبه وهو من صنعاء وتوفي
سنة ٧٢٨ م ، وهو يهودي يمني من اصل فارسي ثم أسلم واخباره غدير
موثوقة ، وله كتاب في مارك حمير مطبوع في حيدر اباد من اعمال
الهند .

وهناك كعب الاخبار وقد مات في حص ٦٥٢ او ٦٥٤ ، واخباره
التاريخية ايضاً غير موثوقة ، وهو يهودي يمني أسلم ، وكان من مستشاري
معاوية على قول بعض المؤرخين ، وبواسطة هذين الرجلين وغيرهما من
اليهود دخلت الى التاريخ الاسلامي اخبار يهودية عن الحوادث السالفة
للاسلام يغلب عليها الاغراق والضعف .

ولما ولي عبد الملك بن مروان ادخل كثيراً من ضروب الاصلاح على
العربية ، منها تحسين الحروف العربية - وكانت خالوا من الحروف
المنقوطة - ليستطيع الناس قراءة القرآن والتفسير والحديث دون ما
خطأ ولا لحن .

علم التاريخ عند العرب

واذا اردنا الرجوع الى علم التاريخ عند العرب في الجاهلية وجدنا ان معارف العرب قبل الاسلام في التاريخ كانت ساذجة جداً ، ولكنهم كانوا تغلبت الامة عليهم بهذا كرون ايامهم واحداثهم من طريق الرواية الشفهية على هيئة اشعار مقصدة او اخبار متفرقة ، وشذ عن تلك الحال من اطرح منهم البداوة ونزل حواضر الجزيرة وخاصة اهل اليمن والحيرة ، فقد نقش الاولون بالخط المستد على مباتهم لمعاً من اخبار ملوكهم وشؤونهم العامة ، وروى الآخرون بخطهم اخبار مملكتهم وارادوها اديار الحيرة وكناثسها .

فلما جاء الاسلام ، وقامت الدولة العربية ومست الحاجة الى معرفة سيرة الرسول العربي واحواله استقصاء للسنة ونوفر رجال على جمع اخبار السيرة وتدوينها ، فكان ذلك بدء اشتغال العرب في الاسلام بالتاريخ ، وان كان التاريخ لم يخرج يومئذ عن كونه نوعاً من انواع الحديث . وفي اثناء ذلك كانت قد فتحت الفتوح العربية الكبرى ووقعت الفتن العظمى ، ونابض عرق العصية القبلية ، وشاعت بين المسلمين اخبار الامم القديمة والديانات غير الاسلامية على ابدى رجال مشل كعب الاحبار ، وسواء فتوافرت اسباب شتى افتتحت جميع الاخبار المتصلة بكل ذلك وتدوينها ، فتدوين اخبار القدماء مثلاً دعت اليه رغبة العلماء في فهم اشارات الى الامم الغابرة وردت في الكتاب والسنة ، وميل بعض الخلفاء كعماوية والمنصور الى الاطلاع على سياسات الملوك ومكابدهم ، هذا فضلاً عن حرص الموالي على التنويه بجد بلادهم القديم . ثم ان تدوين الانساب وقيام العرب كان مطاوعة

لحاجة الشعراء اليها عامة في مقام الفخر والهجاء ، وحاجة الدولة للانساب خاصة للاستهانة بها في تقدير العطاء للجند ، وكان الباعث الأقوى على تدوين أخبار الفتوح رغبة ولاية الأمور في معرفة ما فتح من البلدان صلحاً ، وما فتح عنوة ، وما فتح بعهد ، لأن لكل حكمها خاصاً مسن حيث الجزية والخراج ، فلما دون ذلك كله وجد إلى جانب السيرة نوع آخر من الرواية التاريخية موضوعه أخبار الماضين ، وأحوال الجاهلية ، وحوادث الإسلام . وقد أطلقوا على ذلك كله لفظ « الأخبار » وعلى الشخص في روايته « الأخباري » كما عرف الشخص في رواية الحديث « بالحدث » ونلاحظ النقلة من الحديث إلى الأخبار في رجال خواص منهم ابن اسحق والواقدي الذي أخذ عنه ابن سعد كتابه الكبير في طبقات الصحابة ، والمدائني المتوفى عام ٢٢٥ هـ . فكل من هؤلاء كان محدثاً وأخبارياً معاً ، كما نلاحظ بداية الشخص في الأخبار في مثل محمد بن السائب الكلبي المتوفى عام ١٤٦ هـ ، وكان مقدماً في علم الانساب ، وعروانة بن الحكم المتوفى ١٤٧ وقد جمع أخبار بني أمية . وإبي مخنف المتوفى عام ١٥٧ وله كتب في الزدة ووقعة الجمل ، ووقعة صفين ، وأخبار الحوارج . وسيف بن عمر المتوفى عام ١٧٠ وله كتاب كبير في الفتوح . وهشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى ٢٠٤ وله في أخبار الأوائل وأيام العرب وانشابهم وأخبار الإسلام كتب كثيرة أحصاها ابن النديم في كتاب الفهرست ، وطبع منها كتاب الأصنام .

وقد ظهر في هذه المرحلة نوع من الشخص المحلي في رواية الأخبار فكان لبعض الأقطار الإسلامية الرئيسية أخباريون اختصوا بجمع أخباره وتدوينها قال ابن النديم :

« قالت العلماء : أبو مخنف بامر العراق وأخبارها وقروحها يزيد على

غيره ، والمدائني بامر خراسان والهند وفارس ، والواقدي بامر الحجاز
والسيرة ، وقد اشتركوا في فتوح الشام .

وكان المحدث عند جمهور هذا الزمان اشرف موضوعاً واسمى مقولة
من الاخباري ، وذلك يرجع الى شرف موضوع الحديث والى ان
الاخبار وخصوصاً قديمها كانت مظنة الاغراب والتلفيق والاختلاق ،
ولقد بلغ من شأنهم انهم كانوا يضعفون المحدث اذا مال الى الاخبار ،
فقد ضعفوا محمد بن اسحق وكان اصلاً رواية للعديت ، ثم صار ينقل عن
اهل الكتاب ويسميه اهل العلم الاول .

وجملة القول في علم التاريخ عهد بني امية ، انه ابتداء عندهم فرعاً
من علم الحديث ، فكان حرباً ان يثأر بطريقة المحدثين في جمع الرواية
التاريخية ونقد ما ، وكان اهل السيرة والمغازي والاخبار يجمعون مآثور
الروايات ويدونونها مع اسنادها الى مصادرها الاصلية ، بمعنى انهم لم
يكونوا يحاولون نقد الخبر نفسه ، وانما كانوا ينقدون ناقل الخبر ، الذي
كان وقت الحادث في المكان الذي وقع فيه الحادث ، او نقل عن
الشخص الذي شاهد الحادث ، وهذه الطريقة ضمنت للعرب صحة الاخبار
المنصلة بالقسم التاريخي من السيرة وحوادث الدولة الاسلامية ، ولكنها
عجزت عن ان تضمن لهم ذلك في اخبار القدماء ، والعرب قبل الاسلام ،
والقسم الاول من السيرة ، والحق ان هذه الموضوعات الاخيرة هي
الضعف والمحض نواحي كتب التاريخ عند العرب .

بين مراجع التاريخ

ونضرب الامثال على ذلك فنقول : « ان اهم ما يشترط في المصادر
التاريخية ان يكون ناقلها بمن شاهدها او اشترك فيها على الاقل ، وهذه

الحالة غير منوطة في الكتب التاريخية العربية التي لم تدون اخبار الفتوحات التي وقعت فيها إلا في اواخر عهدها وعهد العباسيين اي بعد ان انتهت هذه الفتوحات وهلك الذين شاهدوها واشتركوا فيها . وكان من نتائج ذلك ، ان تعرضت هذه الاخبار التي نقلت بمسند وقوعها بسنوات عديدة الى كثير من الغموض ، ثم انها في الوقت نفسه عرضت للاشخاص ولم تفتن الى الامة وحالتها الاجتماعية في كثير ولا قليل .

والميزة الوحيدة لهذه الكتب ان اصحابها كانوا يأخذون اخبارهم عن طريق الرواية الموثوقة - في نظرهم على كل حال - فلذلك كانوا يجوبون الامصار في طلبها ، واشتهر من بينهم من كان يختبر الرواية ويميز بين الصحيح منها والموضوع .

وعلى كل فان سبب هذا الاضطراب الذي رفع في الروايات التاريخية الاولى يجب ان يرد الى ان التاريخ كان في اول نشأته عند العرب ، وبعد الزمن - بين المؤلف والواقعة التي يصفها مثلاً - وعدم معرفة اصحاب المصادر المنقولة عنها الاخبار بالجغرافيا ، وتعرضهم في الوقت نفسه للنسيان والاعراق في رواية الاخبار ، ثم دخول السياسة والحزبيات الدينية ، ثم باقي دور الناسخين الذين شوهوا كثيراً في الكتب الاولى .

ومما يستلفت النظر ايضاً ان هناك في الكتب الاولى من مصادر التاريخ الاسلامي بعض اخبار دونت في بعضها ، ولم يذكرها البعض الآخر ، ككتاب العهد بين النبي وآل المدينة ، وهو اول كتاب خطه رسول الله ووصل اليها ، فقد ذكره ابن هشام منقولاً عن ابن اسحاق وذكره ابن الاثير ايضاً لم يذكره الطبري ولا ابن سعد ، مع ان

الطبري أقدم من ابن الأثير .

التفكير اليوناني

ومن الأشخاص الذين أدخلوا التفكير اليوناني والمسيحي إلى الإسلام يوحنا الدمشقي ، ومع أنه كتب في اليونانية ، فإنه لم يكن يونانياً ، وإنما كان سورياً يحسن الآرامية والعربية ، وكان جده منصور بن مرجون مدير المالية في دمشق عند الفتح ، وقد اختار مع البطريرك في تسليم المدينة إلى المسلمين ، واحتفظ بوظيفته في الدولة الإسلامية العربية الجديدة ، وخلقه ابنه في وظيفته هذه بعد وفاته .

وكان يوحنا في صغره منضلاً وملازماً ليزيد بن معاوية ، وخلف أباه في مديرية المالية في دمشق ، ولم يترك الوظيفة إلا عهد هشام بن عبد الملك حيث انصرف إلى صومعة أو دير قضى بقية حياته فيه بالتفكير والعبادة . ومات سنة ٧٤٨ م .

ومن آثار يوحنا (حوار مع أحد المسلمين حول الوهية المسيح) وهو كتاب صغير أنشأ لمساعدة المسيحيين على الجدل مع المسلمين ، وصدور مثل هذا الكتاب في عهد أمية يدل على التسامح الإسلامي العظيم . ويقال إن القدوة تأثرت من بعض تعاليمه .

ومن آثار يوحنا المذكور بعض الأناشيد الدينية التي لا تزال تستعمل في الكنائس حتى اليوم .

العلوم

وكانت العلوم عند العرب تقسم إلى قسمين في هذا العهد : ما يتعلق بالدين ، وما يتعلق بالجسم . فاما ما يتعلق بالدين فقد عرضنا له في مكان

آخر ، وأما ما يتعلق بالجسم فهو الطب ، والطب كان في طفولته عند العرب في هذا العهد ، وكان عبارة عن بعض الشعوذات ، مع بعض النصائح باستعمال العقاقير والنباتات وغيرها .
وكانوا ينصحون باستعمال العسل في بعض الامراض ، وفصد الانسان ، وسحب الدم الفاسد منه .
والطب العالمي عند العرب مأخوذ بالكثرة عن اليونان واقله عن الفرس .

والواقع الذي يجب ان يشار الى ذكره هنا ، هو ان كثيراً من العوام والمعارف القديمة العربية لا تزال ضائعة متفرقة في المكاتب الاوروبية الكبرى ، ولم ينشر منها الاقلها .

ويقول الدكتور جورج سارتون في كتابه (مقدمة لتاريخ العلم) :
« ان درس اللغة العربية والافكار العربية ضروري لفهم تركة الفسك ونظوراته في القرون الوسطى ، وسبب ذلك انه منذ منتصف القرن الثامن الى آخر القرن الحادي عشر ، كانت اللغة العربية لغة العلم والادب والمعارف في العالم كله ، بحيث ان من يريد المعرفة وطلب العلم في ذلك العهد السحيق كان مفروضاً عليه درس العربية ، كما هو حال الشرقي اليوم اذا ما اراد طلب المعرفة فان عليه درس احدي اللغات الاوروبية المعاصرة كالانكليزية والالمانية والفرنسية .

« وأما في القرن الثاني عشر ، والثالث عشر ، فقد خسرت اللغة العربية بعض قوتها ونفوذها ، ولكنها كانت ما تزال ضرورية لطلاب المعرفة . »

ولما افتتح العرب امصار الامبراطورية البيزنطية كان العلم اليوناني اسماً على مسمى ، ذلك انه كان قد انتقل الى ايدي العلماء الذين اخذوا

بعلقون او يشرحون مؤلفات ارسطو وهيبوقراط ، وغالين ،
وبطولومي ، وارشميد وغيرهم ، واما الطب اليوناني فقد وجد في
(اثيوس) من اميدا (٥٥٤) ، وبولس الاجيني (٦٢٥) الذي كان
عائشاً في الاسكندرية ، وفي اسكندر ٥٢٥-٦٠٥ الذي كان يسكن
رومية ، وفي تيوفيل الذي كان يسكن القسطنطينية (٦٤٠) اعظم
شراحه وابعدهم شأناً .

وقبل الفتح العربي شاعت الاسكندرية نهضة ضعيفة في اكاديميتها
القديمة ، ووضع فيها اساس جديد لعلم الطب استندوا فيه الى مؤلفات
(غالين) ، وكان الاسكندري (جوهان) يقف وحده تقريباً كمفسر
ومعلم لمؤلفات ارسطو ، واما مؤلفات هيبوقراط فقد صار اختصارها
بواسطة اساتذة الاسكندرية وعلمائها قبل هذا العهد ، ولكن مصر لم
تكن تصلح لتقدم المعرفة والعلوم لانها كانت مصبوعة بصيغة دينية
منطرفة ، وبمزوجة بكثير من الصوفية والطلاسم ، ولهذا السبب فشلت
مصر ، ولم توفق لتكون واسطة بين اليونان والطب والعلوم العربية ،
واخذ مكانها في هذه الناحية الجماعات التي كانت تتكلم السريانية وهم
النساطرة .

واما المركز العلمي القسطنطوري الذي كان يحنوي على مدرسة طيبة ،
فقد صار نقله من (الرها) الى (نصيبين) في العراق ، ثم في اول القرن
السادس الى (جندسابور) في جنوبي غربي بلاد الفرس ، وهناك عدا
المستشفى الكبير ، صار انشاء جامعة كبيرة ايضاً بتأييد الملوك
الساسانيين .

واما الملك الكبير كسرى انو شروان (٥٣١-٥٧٩) فقد جعل
هذه البلدة اعظم مركز ثقافي في ذلك العصر ، فالحبها اخذ علماء اليونان

الذين تركوا اثبتا بعد افعال الامبراطور جوستيفيان المدرسة الفلسفية (٥٢٩) يقدون ويحتمون بزملاتهم علماء السريان والفرس والهنود .
وفي هذه البلدة المثقفة ظهر جو علمي جديد اتخذ يعمل للتوفيق بين
المتناقضات الفلسفية ، وهذا الجو كان له اثره بعد ذلك في نشوء الفكر
الاسلامي الاول .

ولما ولي خسرو عرش الفرس ، ارسل طبيبيه الخاص الى بلاد الهند
للبحث عن الكتب الطبية فيها ، وقد صار نقل بعض ما صار الحصول
عليه من اللغة السكرتية الى الهلوية ، كما صار ترجمة كثير من الكتب
العلمية اليونانية الى الفارسية والسريانية .

واول شخصية علمية سريانية هي سرجيوس ٥٣٦ ، ولم يكن
سرجيوس نسطوريا ، وانما كان كاهنا يعقوبيا ، وكان يتزعم اطباء
العراق في عهده ، حيث ولد ونشأ ، واليه يرجع الفضل على قول كثير
من المؤرخين في ترجمة الكتب الطبية اليونانية الى السريانية ، ويذكرون
منها الكثير من مؤلفات « غالين » ومع انها كانت تنعم بكثير من
الاضطراب وعدم الترتيب ، فقد كانت كافية لاجياء الطب اليوناني مدة
مائتي سنة في غربي آسيا .

وفي هذه الاثناء اخذ بعض العلماء يضعون الكتب الطبية مستندين
الى الكتب اليونانية التي صار ترجمتها .

واشهر هذه الكتب ما صدر عن « عرون » وهو كاهن مسيحي
وطبيب عاش في الاسكندرية قبل ظهور الاسلام .

وهذا الكتاب « الذي صدر عن عرون » صار تأليفه باليونانية على
الارجح اولاً ، ثم صار نقله الى السريانية ومنها الى العربية ، ومنه
عرف العرب الطب اليوناني العلمي .

ومؤلفات « هرون » هذه قد اندثرت ، ولكنها كما يظهر عرفت
لمرض الجدري الذي لم يكن معروفاً في الطب اليوناني القديم .
ثم ظهرت بعض مؤلفات أرسطو مترجمة الى السريانية ، كما ظهر في
هذه اللغة ايضاً بعض مؤلفات يونانية عن تربية الحيوانات الداجنة ،
والزراعة ، والطب البيطري ، والافل في علم الكيمياء .

وقد وصلت اليها بعض آثار سريانية عرضت للظواهر الجوية ،
والاربع انه اثناء العهد الساساني كان مركز البحوث الكيماوية
والظواهر الجوية يقع في البلاد الكبرى الواقعة في شرقي شمال الولايات
الفارسية ، حيث كان التأثير الصيني والهندي يتزجان سوية ويتقدمان
فجر الحضارة الجديدة .

ولما استولى العرب على شمالي افريقيا وغربي آسيا تركوا النظام
البيزنطي والادارة الفارسية والمراكز العلمية في البلاد التي استولوا
عليها وشأنها . فظلت جامعة « جند شامبور » مركزاً علمياً للامبراطورية
العربية الجديدة ، ومن هذه الجامعة كان يزور دمشق عهد بني امية
٦٦١ - ٧٤٩ ، الكثير من العلماء والاطباء ، وكان اكثرهم من
المسيحيين ، الذين يحملون الاسماء العربية .

ومن اطباء العرب في القرن الاول الهجري الحارث بن كلدة وقد
مات سنة ٦٣٤ م ، وهو من الطائفة ودرس في فارس ، وكان يسمى
طبيب العرب ، وخلفه ابنه النضر .

ولما فتح العرب غربي آسيا كان الطب اليوناني يُقرأ في الكتب
اكثر مما كان يستعمل عملياً ، وكان المسيحي ابن اثال طبيب معاوية ،
وكان للحجاج بن يوسف في العراق طبيب خاص .

وهناك طبيب يهودي (١) من اصل فارس عاش في البصرة ايام

(١) « مسرجويه » .

مروان بن الحكم ، وترجم في سنة ٢٨٣ كتاب ارون او هرون الذي
اكتبنا على ذكره الى العربية ، وكان اول من ترجم الكتب العلمية الى
العربية .

وفي عهد عمر بن عبد العزيز عاز نقل مدرسة الطب التي كانت في
الاسكندرية ومديرتها ابن الايجر الى انطاكية وحران .

التجارة والسياسة

وباتساع رقعة الامبراطورية العربية الاموية زادت المواصلات
واتسعت اماكن الثقافة العالية ...

ولا استولى المسلمون على القدس موطن المسيحية الاول لم تنقطع
زيارة المسيحيين الى هذا البلد المقدس ، ففي سنة ٦٨٠ مسيحية نرى
شخصاً اسمه اركولف الفرنكي يحج الى القدس ، كما نسمع في سنة ٧٢٥
عن شخص آخر اسمه وبليالد السكسوني زار القدس ايضاً وعاد الى
بلاده مطمئناً راضياً ، وهذا دليل على ان علاقات المسيحيين في
الامبراطورية البيزنطية لم تنقطع مع زملائهم المسيحيين في مصر
وسورية والعراق .

واما مكة موطن الرسول ومقر المسجد الحرام والكعبة فقد كانت
في القرن الاول بلداً له خطورته العالمية ، من حيث فدوته على جمع
مختلف الشعوب الاسلامية في مكان واحد في ايام معدودات من كل سنة
وفي موسم الحج ..

ومن منافع الحج هذه التأليف التي ظهرت في العربية بعد العهد
الاموي ، تصف بلاد الاسلام وطرفها ، ويختلف مساجدها وعماراتها ،
ولكن هذه المؤلفات نعلنا في الوقت نفسه على ان المسلمين لم يكونوا

يعنون ببلاد غيرهم ، ولا كانوا يهتمون بذلك القائمة حولهم .

التجارة والملاحة عند العرب القدماء

وكان العرب يسافرون الى الهند بجرأ ، وكانت التجارة في ايدي المسلمين برأ وبحراً ، فاخترفت سفن العرب المسلمين البحر الابيض الى شواطئه ، والبحر الاحمر الى آخره ، والبحر المحيط الى سومطرا فزنجبار وما بعدهما ، وشرقاً كالكته وجزائر الهند ، والصين ، وجنوباً الى مداغسقر وسائر شواطئ افريقيا الشرقية ، واجتازوا بحر قزوين الى بلاد الخزر والروس ... اما برأ فاخترقوا بلاد الهند ، وتركستان والتبت حتى نزلوا بلاد الصين ، وادخلوا في افريقيا الى خط الاستواء فغربوا الابعاد بين تلك الاصقاع ، وربطوا المشرق بالغرب .

وكان التجار المسلمون حواري القرن الرابع للهجرة يجوبون الاقطار برأ وبحراً ينقلون التجارة من بلد الى بلد بين شواطئ فارس وسواحل افريقيا والحيشة واليمن وسواحل الهند والصين ، وسائر المشرق ، ويقطعون صحاري خراسان وتركستان ، وارمينية وافغانستان ، والهند والشام ومصر والسودان وافريقية والاندلس في نقل اصناف التجارة ، بحيث كانوا في الواقع وكأنهم وحدهم تجار الارض في تلك العصور الحالية .

وكان مركز تجارة الشرق (البصرة) بجرأ ، و (بغداد) برأ ، وذلك ايام عباسيين طبعاً وكان البرتغاليون وغيرهم من امم اوربا يومئذ في ظلمات الاجيال الوسطى يتنازعون على الاوهام ، وينجادلون حول الالفاظ .

والواقع ان العرب كانوا اهل ملاحة وتجارة قبل الاسلام ، واشهر

تجار العرب القدماء من اهل اليمن ، لتوسط هذه البلاد بين امم العالم القديم ، فكانت واسطة عقد التجارة من اقدم ازمة التاريخ ، وكان بينها وبين الهند علائق تجارية لا يعرف اولها ، وكان للهنود محصولات وصناعات يحتاج اليها المصريون والاشوريون والفينيقيون وغيرهم ، فكان البعثيون ينقلون هذه المتاجر الى تلك الامم في سفن البحر او فوافل البر ، وكان على شواطئ اليمن (مراكر) ترسو عندها السفن القادمة من الهند او وادي الفرات ، او وادي النيل ، كما ترسو اليوم سفن الانكايذ وغيرهم عند (عدن) في اثناء اسفارها بين أوروبا والهند .

ولهذا السبب عمرت جزيرة سومطره يومئذ لتوسطها في طريق التجارة كما عمرت مالطة في البحر المتوسط لمثل هذا السبب .

ومن (الفرض) التجارية المشهورة في اليمن في ذلك العهد (عدن) و (قانا) - حصن غراب - و (ظفار) و (مسقط) وكانت ترسو عندها السفن الصاعدة في خليج فارس الى ما يلي .

الكيمياء

وكانت الكيمياء قليلة الاثر عهد الامويين ، واول من تفرغ لها واشغل فيها خالد بن يزيد بن معاوية .

وكانت صناعة الكيمياء رائجة في مدرسة الاسكندرية ، فاستدعى خالد مريانوس الكاهن المسيحي وطلب اليه ان يعلمه الطب وصناعة الكيمياء ، ولما تعلمها امر بنقل كتب الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربية ، وكان خالد شغوفاً بعلم النجوم ايضاً ، وقد انفق المال الوفير في طلب هذا العلم واستحضار الاله ، واعلمهم ترجوا له شيئاً لم يصلنا خبره ..

الفن والحياة الاجتماعية

اصول الفن

اقتبس الفن الاسلامي كثيراً من عناصره من المدينيات التي سبقه والامم التي نشأت قبله، ولكن هذه العناصر اضاءت شخصيتها واندمجت فيه فصبحت عربية اسلامية في شكلها وروحها وارضاعها المختلفة .

والفن العربي الاسلامي يعبر عن شعور خاص بحسه المؤرخ المعاصر ويشعر بوجوده ، ومن السهل ان تلاحظ ان العبقرية الاسلامية في الفن كانت قبل بالفطرة الى تجريد الموضوعات الزخرفية والى تهذيبها وتنسيقها ، والبعد بها عن اصولها الطبيعية ، وقد نجحت في الجمع بين موضوعات زخرفية لم تكن من مستحدثاتها تجاحاً كان يتفاوت مداه باختلاف الطرز الفنية والدولة الحاكمة وبلغها من الغرغرة .

ومن المؤكد ان ظهور الاسلام كان ايداناً بتكوين فن جديد يحقق لنا ان نطلق عليه اسم الفن العربي الاسلامي ، لانه ظاهرة من ظواهر المدنية الاسلامية ، وجزء من الاساليب الصناعية والنظم الحكومية والعقائد المدنية التي اشترك فيها المسلمون في أنحاء العالم .

وقد فتح العرب مصر واستقروا فيها ، كما فتحوا سورية وبلاد فارس ، ولكنهم لم يغيروا في بداية الامر شيئاً من نظم هذه البلاد الحكومية ، وأسس الحياة الاجتماعية فيها ، وانما فعلوا ذلك مع الايام ، ومع ذلك فانهم لم يركبوا في تعديلاتهم من الشطط والاغراق ، فقد كانوا من الحكمة وبعد النظر بحيث تركوا جليل النظم الحكومية والاساليب

البيزنطية الفارسية على حافها أولاً ، ولم يفكروا في ابتكار نظم وأساليب جديدة تقطع صلاة البلاد بحكامها السابقين .

ومن المؤكد ان الفنانين العرب كانوا يستمدون الوحي ويقتبسون شئ فزون المدينيات القديمة التي ازدهرت في العالم القديم قبلهم ، فليجأ الامويون والعباسيون الى بيزانطة واوراث الاستعانة بهما والاقتباس منها فكان الفن العربي الاسلامي امتداداً للفنين البيزنطيين والفارسي مع بعض التمديل ..

واذا ذكرنا ان الاسلام سبى النزعات والميول الفنية والزخرفية في اتجاه معين لم يكن باستطاعتها ان تسلك غيره ، فقد اضطر فنانو العرب الى توجيه الفن العربي في سبيل لا يخالف التعاليم الاسلامية دون ان يؤثر هذا في عناصر الزخرفة ذاتها فيجعلها قلقة مضطربة ممة .. وكان ادخال الحروف العربية في الفن عنصراً جديداً من عناصر الزخرفة ، فكان من اثر هذا هذه الرشاقة في الفن العربي التي جمعت بين الاناقة والرشاقة والجدة ..

ولما كان الاسلام يحرم الصور والتماثيل فقد كان لهذا اثره في الفن العربي الاسلامي اذ جعل الفنان حبيب نفسه ، وفرض عليه اخراج النعجة الفنية دون ان يتلقى الوحي والالهام من الكائنات حوله .. فخرجت افاره والحالة هذه تصور العصور التي ترجع اليها ، دون ان تصور لنا نفسية الفنان وروحه ..

فن التصوير عند العرب

وفن الزخرفة (الاراباسك) عند العرب خاص بهم ، ويقوم اساسه على فن عرف العرب كيف يبرعون في تعديد اوضاعه الهندسية براعة

اثارت الاعجاب .

والطراز العربي وان لم يكن مبتكراً ، الا ان ما اخذه العرب من
البيزنطيين والفرس احسنوا استناده في فنههم المعماري ، وجعلوه عربياً
ظاهر الرشاقة والحسن والبساطة .

والذي يهنا بحثه الان هو هل زاول العرب فن التصوير ام لم يزاولوه ؟
لان هناك من يدّعي الى ان التصوير محرم في الاسلام ، حرّمه رسول
الله بعد ما رأى العادات الوثنية شائعة عند غير المسلمين بسبب هذه الصور
والرسوم التي تكثرت في معاينهم .

والعربيون ليسوا اول من خلق التصوير ، وانشأه ، وما يقولونه في
تأييد حجبتهم هذه ممن ان فن قدماء المصريين ما كانت يتجاوز مجرد
التخطيط ، على حين هم الذين اعتدوا الى فكرة الظلال بأنواعها بما
جعلهم يخرجون الصور ناطقة بأصواتها المأخوذة عنها ، دعوى تستوقف
النظر لان الفرس لم يفهم كما يظهر وضع هذه الظلال ، وقد وصف
البحري ابوان كسرى في قصيدة تدل على ذلك ، وفي كتاب كلبلة
ودعته جملة تؤكد ذلك ... كالمصور الماهر ، الذي يصور على الحيطان
صوراً كأنها خارجة وليست بخارجة ، وأخرى كأنها داخلة وليست بدخلة ،
وابن المقفع مترجم هذا الكتاب عاش في اول القرن الثاني الهجري ،
ومعنى هذا ان الفضل بابتكار الظلال يعود الى الشرق وليس الى الغرب .
واغلب الظن ان الاحاديث التي اشربنا اليها سابقاً بمنع التصوير
وتحريمه لم تقصد إلا التآويل .

التصوير

وبما لا شك فيه ان تحريم التصوير خوفاً من الاشرار في الدين وعبادة

الاضنام ، وكون الدين لا يزال طرباً عند العرب ، قد منع العرب من الناس عبقريتهم في هذا الفن ، وليس هناك اليوم صورة لانسان ، او نصب لشخص في المساجد والمراكز الاسلامية الاخرى ، وكل ما قام به المسلمون هو تصوير بعض الحيوانات للزينة ، واستعمال بعض الخطوط الهندسية للزينة ايضاً ، وقد نجح العرب في هذه الناحية نجاحاً عظيماً اطلق على فهم هذا فيما بعد كلمة (الفن العربي) اذ كان خاصاً بهم دون غيرهم ، ومن الآثار العربية المصورة ما هو موجود الآن في (قصر عمرا) فهناك صور على الجدران تمثل الخليفة الوليد ورؤسائه ملك القوط في اسبانيا عند غزو العرب لها ، وهناك رسوم اخرى تمثل (الانصار) و (الفلاسفة) و (التاريخ) و (الشعر) ..

وهناك صورة لساحة صيد تمثل اسداً يهاجم حملاً وحشياً .
وصور اخرى تمثل بعض الرافعات ، والمغنيين ، والموسيقين ،
واعمل الطرب واللهو .

قصر الحير والفن الاسلامي

وما دمتا بصدد البحث عن الفن العربي في عهد بني امية فمن الحق ان نبحث قصر الحير الذي صار اكتشافاً حديثاً ، والذي يبعد ستين كيلو متراً تقريباً من غربي تدمر ، بحيث يقع منهزلاً في الصحراء السورية ، ومنظره كان لسنوات تحت مبهذلاً ، لان في الصحراء كثيراً من الآثار التي صار اكتشافها حديثاً ، والتي ذات الحفريات الاخيرة على انها كانت حصوناً عسكرية ويروجاً صغيرة قائمة على الحدود المحصنة الفاصلة بين الامبراطورية الرومانية والصحراء العربية ، وقد ظن الباحثون عند رؤيته اول الامر انه كامثاله من هذه الحصون التي ليس فيها كبير امر .

ولكن هذا القصر كان فيه ما يستلفت النظر خلافاً لبقية الحصون ، فلم يكن منعزلاً مثلها ، وإنما قامت حواله عدة آثار أخرى ، آثار حديقة كبيرة يحيط بها سور ، يساعد على رها عدة من الأبنية لا تزال واضحة الأثر ، وآثار عدة أحواض وآثار خان لا يزال بابها - المركب من مضارب ومن عتبة حجرية ذات قطعة واحدة - منتصباً ، كما أنه كان لا يزال في الجبل آثار حاجر قوي في عرض نهر ، وخلف هذا الحاجر دورات البحيرة الاصطناعية لحفظها ، وهذه البحيرة تشكل مخزناً للماء طوله ما يقرب من كيلو مترين ..

ولم يكن هذا المكان رومانياً بكل ما في الكلمة من معنى ، وإن كان القصر نفسه بيزانطياً لا شك في ذلك ، وهو يحمل رموزاً مسيحية بينها عدة صليبان يونانية ، ولكنه كما يظهر عاش إلى ما بعد العصر البيزنطي ، ولما بدأ الحفر في هذا القصر سنة ١٩٣٨ وجد القائلون على الحفر أموراً عجيبة ، فظهرت لهم في أثناء الحفريات أروقة ذات عمدة منتحبة كعمدة الأديرة ، وفي وسط الساحة وجدوا حوضاً فيه فوارة ماء ، وكان كل ذلك مهيداً لم يبق منه إلا فواعده ، وكانت تنتشر في كل مكان بقايا زينة زاهية ، وعلى بعد خمسين متراً وجدوا بقايا مغسل رائع ، مع آثار تصاريح على الجدران ، ومغاسط مزدانة بالمرمر .

وعندئذ ثبت أن قصر الخير هذا لا يمت بصلة إلى الحدود البيزنطية ، وليس حصناً رومانياً ولا بيزانطياً ، وليس له مظاهر عسكرية رغمًا عن أبراجه وأسواره ، وإنما هو دار ملكية ، هو قصر إسلامي ، وكل ما فيه حار بناؤه بعد العصر الروماني والبيزنطي في سورية ، هو من بناء القرن الثامن ، في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك الأموي ، الذي كانت

الدولة العربية في عهده قد بلغت أوج اتساعها وامتدادها وحضارتها .
وقد اشتهر الامويون بحبهم للحياة في الصحراء ، حيث نبتوا وحيث
نشأوا ، واشتهروا بحبهم بناء القصور خارج دمشق لقضاء الصيف فيها ،
وهرباً من الامراض الوافدة التي كانت تكثر في ذلك الحين .
والخير كلمة بمعنى البستان أو الحديقة ، فمن الممكن والحالقة نسبة
هذا القصر بقصر البستان .

ومن دراسة ما في القصر يستطيع المرء ان يتصور حياة الامراء
الامويين في ذلك العهد البعيد ...

وكانوا يقسمون اوقاتهم بين القنص والوان من اللعب في قصر الخير ،
تؤكد ذلك التماثيل وهي الآن في معرض دمشق ، ففي احدى هذه
اللوحات ترى اميراً يمتطياً صهوة جواد اسود يعدو عدواً سريعاً ، يصطاد
الغزلان بالشباب ، وفي لوحة اخرى موسيقيين بلباس فخم زاه ، واقفين
تحت قناطر مخضرة مصفرة ، احدهما ينفخ في المزمار ، والاخر يعزف
الكمان ..

واكتشاف هذا القصر يدل على الحضارة التي وصل اليها بنو امية ،
وهي حضارة حاول التاريخ تشويهها في العصور التي تلت امية في بغداد
والقاهرة ، ولكن الاكتشافات الحديثة اخذت تظهرها للناس ، واضحة
جليلة رائعة ...

وهناك صورة اخرى ، هي صورة (قصير عمرا) وهو اليوم عبارة
عن بناية صغيرة مهدمة صاوا اكتشافها منذ اربعين سنة في شرقي الاردن
وسط صحراء مجردة كصحراء قصر الخير بعداً ، يرى على احد جدران
هذا الاثر رسوماً تكاد تكون مبهمة ، غزل عدة شخصيات كتبت اسماؤهم
فوق رؤوسهم باليونانية والعربية ، ومن قراءة هذه النقوش نعرف ان

هذا القصر كان حماً لآحد الخلفاء الامويين وقد رسمت على جدرانه
صور الملوك الذين انصرو عليهم .

وفي شرقي الاردن حار اكتشاف عدد من هذه الخرائب الاموية التي
تصور المصور العربية السالفة اجمل تصوير ..

ولكن قصر الخير يحل مكاناً ممتازاً بسجن الاثار الاموية التي حار
اكتشافها ، لما وجدوا فيه من بقايا هندسية بصورة رائعة بديعة ..

دمشق العاصمة

ولقد نمت دمشق منذ زمن قديم في مركز جغرافي جعلها وسطاً بين
الشرق والغرب ، ووسيطاً موقفاً في التجارة والثقافة والمركز
العسكري .

وهي في نقطة يلتقي بها الطريق الذي يخترق سورية الداخلية من
الشمال الى الجنوب بنهر بردى الذي يجري من الشرق الى الغرب ، مما
يجعل تنظيم الشوارع فيها سهلاً هيناً ، وتحيط الجبال بها من كل ناحية إلا
من جهة البادية فهي والحالة هذه تقع في مركز تجاري يجعلها رابطة عقد
التجارة بين الشرق والغرب في مختلف المصور ..

ومن سواحل فينيقيا كانت ترد الى دمشق مختلف الصناعات
والمستوجات القديمة ، ثم تذهب منها الى العراق ، وبالطريق نفسه كانت
تأتي صناعات ومنوجات بابل واشور وفارس الى سواحل البحر
المتوسط ، كما كانت هناك مدن تجارية في شمالي سورية من حلب الى حماء
الى حمص ، الى جنوبي سورية ومنها الى فلسطين او الى شمالي الجزيرة
العربية .

واذاً فقد كانت دمشق منذ القدم مركزاً تجارياً خطيراً تقصدها

القبائل البدوية حاملة ما عندها من مختلف الحيوانات والجلود
والاصواف ، يبادلون به ما في دمشق من حاصلات وصناعات
ومتوجاف ليس عندهم مثلها .

ومن المؤكد ان كثيراً من المدن التي لا اهمية لها اليوم - في سورية
طبعاً - كانت تنعم باهمية تجارية عظيمة في ماضيات الالام ككندمر
وحص ، وبصرى وغيرها من المدن التي كانت تعتمد على دمشق في
كثير من حاصلاتها وتجارها .

قبل الفتح العربي

ولما وصل العرب الى اسوار دمشق لم تكن وصيفة كبيرة كما هي
اليوم ، ويمكن تقدير مساحتها من النظر الى الاسوار التي لا تزال آثارها
قائمة حتى الآن ، فقد كانت تضم هذه الاسوار مربعاً مستطيلاً من
الشرق الى الغرب ، وزاوية هذا المربع الغربية الشمالية مجزعة نوعاً ،
اذ يرجع قيام حصن كبير في الماضي مكان البقعة التي تشغلها القلعة
اليوم ، وكان علو الاسوار عشرين قدماً وسمكها خمسة عشر ، وفي
بعض اطرافها من الحجارة الضخمة ما يدعو الى العجب والاكبار .

وقد بنيت هذه الاسوار بالحجارة المربعة وهي مبنية في بعض
الاحيان على اساس اقدم منها بكثير ، يرجع الى ما قبل العصر اليوناني ،
وكانت دمشق قبيل الفتح العربية قد استعادت شيئاً من رباطة الجأش
التي خسرتها في الحروب الفارسية الرومانية ، وكانت الامبراطور
ديوكليتيان قد اصلح الحصون القائمة حولها ، ليجعل منها حصناً رومانياً
لحدود الامبراطورية الشرقية ، وكان يحيط بالسور خندق مليء بمياه
يردى بتراوح عرضه بين العشرة اقدام والخمسة عشر ، مما كان يجعل

هجوم العدو على المدينة صعباً شاقاً ، وكان يوجد فوق ابواب المدينة - التي كانت تصل بين سكان المدينة والخارج - وفي نقط اخرى من السور بعض ابنية صغيرة وبيوت للسكن بأوي البها من كان يتوكل عليه حراسة المدينة واسوارها .
والواقع ان المدينة كانت محصنة تحصيناً حسناً قبيل الفتح العربي وكان فيها قوة رومانية كافية .

ابواب دمشق وسوارها

وفي المصادر الاسلامية انه لما افتتح العرب دمشق كان يوجد فيها سبعة ابواب اسمائها اخذت من اسماء السيارات السبع ، كما اخذت اسماء ايام الاسبوع ، وكان على الابواب المذكورة صور نشير الى السيارات المذكورة .

والذي نعلمه ان عدداً من المداخل كانت تستعمل للمواصلات بين المدينة وما دونه ، وان تلك المداخل كانت تنتهي بابواب ثقيلة مصفحة بالحديد مزودة بالانطواء لكي تصد غارات الاعداء من الخارج ، وكانت تدعى البوابة الكبرى في الجهة الشرقية من دمشق بالباب الشرقي .

وكان هنالك هيكل روماني كبير امام هذا الباب ، وبقي باب الهيكل قائماً حتى سنة ٦٠٢ للهجرة ، وقد طيست آثار الهيكل كلهما ولكن الباب الشرقي لا يزال قائماً مع قليل من التبدل والتغيير ويحتوي الباب الشرقي على بوابة كبيرة - وهي مسدودة الان - في وسطه ، وهي من البناء الروماني المتين ، احجارها رملية مصقولة مائلة الى الاحمرار ، وهي ذات قوس مستدير ، ويحيط بهذه البوابة الرئيسية المتوسطة بوابتان صغيرتان لهما اقواس ، وقد كانت تستعمل البوابة الكبيرة الوسطى الابل

والفرسان والدواب ، واما البوابتان اللتان كانتا على الجوانب ، فان واحدة كان يمر بها الداخلون ويمر بالآخرى الخارجون من المدينة .

وكان هناك عدد كبير من هذه الابواب ايان الفتح العربي ، فقد كانت البوابة التي في الجانب الشمالي من المدينة والتي تدعى الآن باب الفراديس () مبنية كلها بالحجارة ، وليست ذات قنطرة وانما مغطاة بحجارة مستطيلة ، وهذا النوع من البناء يرجع الى ابعد العصور القديمة ، ويقول فون كويمر المستشرق النمساوي الذي تأخذ عنه هذا الوصف : ان الحرائق جعلتها سوداء قاتمة ، وانها كانت تدعى ابضاً باب الكراديس من نكار الجثث بعضها فوق بعض بالقرب منها .

وفي الشمال الشرقي من المدينة باب يقال له باب توما ، والاسم يشير الى توما صهر الامبراطور هرقل الذي كان حاكماً للمدينة في عهد الفتح العربي .

واما في القسم الغربي من السور ، فكانت توجد بوابة في المحل الذي يدعى الآن (باب الجاية) وفي الجنوب مدخلان يدعى احدهما باب كبسات والآخر باب الصغير ، والآخر يستعمل الآن كما كان حاله سابقاً ، وهو مبني بحجارة مقطوعة قطعاً جميلاً تشبه حجارة الباب الشرقي ، وله قناطر عريضة ، منقوشة نقشاً بديعاً .

فلما اقبل العرب على دمشق استقبلتهم بهذا المنظر الذي وصفناه ، وكان سكان المدينة قد اجتمعوا حول اسوارها ، يشاهدون الجيش العجيب الذي لم يشاهدوه قبل اليوم ، واما داخل المدينة فقد كانت يلائم مظهرها الخارجي ، وكان الدرب المستقيم اهم شارع في دمشق ، وكان يوصل غربي دمشق بشرقيها لانه يمتد من الباب الشرقي لمسافة ربع

ميل الى الباب الغربي او باب الجايبة ، اما عرضه فخمسة عشر قدماً ، وهو الشارع الذي مر به بولس الرسول وقد ذكره الانجيل .

كنيسة سارت الى مسجد

وكان يوجد في دمشق وضواحيها حنة عشرة كنيسة ، ما عدا كنيسة يوحنا المعمدان ، وهذه الكنيسة كانت اهمها ، وكانت تقع في منتصف الطريق بين البابين الغربي والشرقي ، وقامت مكان هيكل رثني قديم ، وبُنيت جدرانها واعمدتها على اساسات القوية ، وبانيها ثيودوسيوس الامبراطور الروماني وهو الذي اطلق عليها اسم كنيسة يوحنا عام ٣٩٩ للميلاد ، وكانت افواس الابواب الفخمة المرتكزة على اعمدة كورنثية ، والواجهات المزخرفة بالنقوش الجميلة تزين مدخل الكنيسة ، ولنا من آثار هذه الابواب الفخمة التي تذكرنا بعملك في فخامتها واسلوبها فاذج محفوظة في الجانب الغربي من الجامع الاموي الحالي امام باب البريد .

وكان داخل الكنيسة اية في الجمال ، وصحن الكنيسة من عمل البيزنطيين وهو مكمل بقبة كبرى يدعوها العرب قبة النسر ، والجدران مرصعة من الداخل من كلا الجانبين بالفسيفساء الجميلة .

ومساحة هذا البناء كله من الداخل ٣١؛ قدماً في ١٢٥ ، وتند على الجانب الجنوبي من مربع مستطيل مساحته ١٦٣ يردأ في ١٠٨ .

وكانت هذه الكنيسة مركز حامية قوية ، وكان كثيرون من وجهاء البيزنطيين يسكنون الكنائس الاخرى .

وقد تفرعت حول الكنيسة ازقة وشوارع مختلفة في جميع الجهات للمارة حيث كانت تحفظ الاروقة المعينة المارة من الحر في الصيف ، ومن

المطر في الشتاء ، ومن هذه الكنيسة كان الناظر يشاهد شوارع وسبعة
عند الى اطراف المدينة وجباتها الاربع .

وكان يصار الى نقل ماء يردى الى المدينة بواسطة اقنية عظيمة ،
وقسطل عظيم بني على اروقة كبيرة من البنيان المرصوص .

وكان يوجد في دمشق عند الفتح ١٣ كنيسة بما يدل على ثروة اهل
المدينة وغناهم ، ونقواهم ايضاً ، واما العمارات العظيمة التي كانت تزين
شوارع المدينة الوسعة فلا اثر لها اليوم .

ويختلف المؤرخون حول استسلام المدينة ، والارجح ان قسماً منها
وهو النصف صار فتحه بالسيف ، والنصف الآخر بالتفاهم والاتفاق ...
ولذلك صار تقسيم الكنيسة الكبيرة - كنيسة مار يوحنا - الواقعة
في وسط دمشق الى قسمين قسم اخذه المسلمون ، وقسم ظل في يد
المسيحيين كما ينسب غيرهم الى غير ذلك ...

المسجد الاموي الجديد

وفي هذا المسجد الجديد الذي ابعدت من نصف الكنيسة القديمة
خطب معاوية امير الشام بدعو اهل دمشق الى محاربة علي بن ابي طالب
والاخذ بتار عثمان ، وفي هذا المسجد كان يعلن انتخاب الخليفة وتصار
البيعة اليه .

وقد سكن العرب اول ما سكنوا في القسم الغربي من المدينة ،
ولا يبعد ان يكون سكان هذه المنطقة من المسيحيين قد تركوها
للغرب ، او يكونوا قد غادروا سورية كلها مع من غادروها من الرومان
والبيوتات ، وسكن المسيحيون واليهود الجهة الشرقية ، ولا يزالون
فيها حتى اليوم . الاولون في شمالها ، واليهود في جنوبها .

ولما فتح العرب دمشق خسرت طابعها القديم كبلدة سورية يونانية ،
 واصبحت مع الأيام بلدة عربية ، واصبح العرب فيها يؤلفون الاكثوية
 الساحقة بعد سنوات قليلة من الفتح ، ففي عهد الوليد كان عدد الذين
 يأخذون العطاء من سكان دمشق ٤٥ ألفاً ...

ولما كان العطاء يعطى للأشخاص الذين يحاربون او يعملون
 للحرب ، ولموظفي الحكومة ، فيجب ان نعد سكان دمشق من المسلمين
 بقاربون المائتي الف نسمة على اقل تقدير ...

ولا بد ان تكون شوارع دمشق ومحازنها في عهد امية تساق
 شوارع دمشق ومحازنها في الايام التي سبقت الحرب العظمى ، ١٩١٤ -
 ١٩١٨ ، من حيث تعدد اصناف الناس واشكالهم ، واختلاف هيئاتهم ،
 ومن حيث ان ما يعرض في دمشق من حاجيات كان مزيجاً متنوعاً
 قد صار عليه من مختلف أنحاء العالم .

البلدة العربية

وظهرت البلدة العربية بعد اتصال العرب ببناء البلاد انفسهم ، وبعد
 ان اخذوا بالاستقرار والاقامة ، وليس هناك حتى اليوم ، زي خاص
 مثلاً للبلدة العربية ، فبعض المدن صار بناؤها على زي المدن الرومانية ،
 وبعضها صار بناؤها وفاقاً للزي الفارسي .

ولما نزل العرب المدن احتفظوا بعاداتهم القبلية ، وثقاليدهم اجاهلية ،
 ولذلك كان الاتحاد والوفاق اقرب واوثق بين أبناء القبيلة الواحدة منه
 بين سكان المدينة الواحدة ..

والواقع انه لما صار بناء المدن العربية ، انشأت كل قبيلة حياً خاصاً
 لها في كل بلدة ، فترى في دمشق مثلاً انه ضمن الاسوار القسائنة حول

المدينة ، كانت هناك اسوار داخل دمشق تفصل كل حي عن الآخر ، او كل قبيلة عن القبيلة الثانية ، وقد حل العرب معهم هذا التقسيم العجيب الى فارس ، فبليت مدينة (مرو) على هذا النحو من التقسيم الغريب . وكان هذه الاسوار الداخلية التي تفصل القبائل بعضها عن بعض ، ابواب تغلق ليلاً وتفتح نهاراً .. ويظهر أن هذه الابواب لم تندثر إلا منذ مدة قريبة كما يقول بعض السواح .

واما البناء فكان من الطين ، والبنائات العامة من الحجر ، ولما استولى العرب على سورية لم يكن عندهم متسع من الوقت لافراد لون جديد في البناء والعمارة ، فالتخذوا النظام البيزنطي الموجود وقلدوه . وفي أيام الوليد بن عبد الملك بدأ فن العمارة في دمشق بأخذ شكلاً جديداً ، خصوصاً وان الوليد كان من المولعين في فن العمارة ، وكانت الثروة والغنائم تندفق على دمشق ، وكان الناس قد اطمأنوا واستقروا ، فالتخذوا يفكرون في ترتيب المنازل ، واقامة القصور الجميلة .

بناء المسجد

وصرف الوليد عناية الى اقامة مسجد في دمشق يتناسب وعظمة العاصمة وكبير مركزها ، ويختلف المؤرخون في قصة هذا المسجد وكيف اخذه الوليد من النصارى ، وقد اشرنا الى ذلك سابقاً . وما اخذ الوليد المسجد واراد ببناء احتياج الى الصانع فكتب الى الامبراطور في القسطنطينية ان وجهه الى بائني حانع من صناع الروم فاني اريد بناء مسجد في دمشق .

وكان متعبه سليمان بن عبد الملك على الصانع .

وحسب المؤرخون ما اتفق على مسجد دمشق فكان اربعائة صندوق ،

في كل صندوق اربعة عشر الف دينار ، فيكون المجموع ٥٠٠٠٠٠٠٠ دينار واستغرق بناء المسجد ما يقرب من عشر سنوات .

ومسجد دمشق او المسجد الاموي آية من آيات الفن العربي والبيزنطي ، ولا يزال حافظاً لرونقه وبهائه حتى يومنا هذا ، وكانوا يحسبونه في ذلك العهد من عجائب الدنيا (١) .

وكان محراب المسجد مرسماً بالجواهر الثمينة ، عليه قناديل الذهب والفضة ، محلى بالفسيفساء والسلاسل الذهبية ، وقد انكر الناس على الوليد ما صرفه في عمارة المسجد ، وفكر عمر بن عبد العزيز بنزع الفسيفساء والسلاسل الذهبية لولا قدوم بعض رسل الروم الى دمشق وزيارتهم المسجد ، وظهور العجب والاضطراب على وجوههم ، وشيوع الذعر في نفوسهم ، لما رأوه من بأس العرب في هذا البناء ، ونقدمهم في الاحسان والاعمار ، فعدل عمر عما فكر فيه ، وترك المسجد وشأنه ، بعد ما شاهد من تأثيره على غير المسلمين من الروم .

الماء في دمشق

ومما يشار الى ذكره في هذه المناسبة ان الوليد جعل دمشق وضواحيها بالمياه العامة العديدة ، وكان الناس في عهده لا يشجرون الا بالعمارة وجمالها ، فهو والحالة هذه اول خليفة وآخر خليفة اعنى بدمشق هذه العناية العظيمة .

مدن اخرى

ولم يقم العرب في سورية ببناء مدن جديدة إلا في عهد سليمان بن عبد

(١) ياقوت : معجم البلدان .

المثلث ٧١٥ - ٧١٧ ، لما صار بناء الرملة في فلسطين ، وقد بنيت الرملة على الطريق بين القدس والبحر ، وممع احترام المسلمين للقدس فإن الرملة كانت لمدة اجيال مركز الحركة الاقتصادية في فلسطين ، ولكن تأثير الرملة كان محلياً فلم تؤثر بصورة من الصور على الثقافة العربية والعمارة العربية .

ولم يكن حب العمارة مقصوداً على الحكام فحسب بل نافهم الامراء وكبار رجال الدولة في تجميل دمشق وغيرها من المدن والامصار . فقد شيد الحر بن يوسف حفيد مروان بن الحكم - وكان رالياً على الموصل في عهد هشام - داراً انيقة من الرخام الخالص والمرمر ، عرفت بالمشقوشة لما امتازت به من النقش البديع ، كما بني الخندق في الموصل أيضاً . ولما رأى الحر ما يعانيه اهل الموصل من المشاق في الحصول على ماء الشرب ، شق لهم قناة لا تزال باقية الى اليوم ، وغرس الاشجار على ضفتيها حتى أصبحت وكأنها منتزه عام لاهل المدينة ، وفعل خلفاء امية مثل الحر في بناء القصور فلم يراعوا دمشق وبالقرب من البادية ، وكانوا يفعلون ذلك هرباً من الطاعون كما يظهر ...

وكان يوجد في سورية مراكز عسكرية للجند العربي اقل اهمية من دمشق ، كالجابية ، ودابق في شمالي حلب ، وبعض هذه المدن او المراكز العسكرية اصبح مدناً كبيرة ، كالقاهرة التي حلت محل القسطنطينية - المراكز العسكرية اولا - والفيروان في تونس ، والكوفة والبصرة في العراق ، وشيراز في فارس .

وقد ساعد العرب كثيراً على انشاء المدن في ايران وتركستان ، وكان يقوم مركز الحركة التجارية في كل هذه المدن خارج ابواب المدينة كما كان الحال عند الروم ...

واستفاد العرب من الروم كثيراً من الصناعات ، فصناعة النسيج
التي كانت رائجة في مصر صار نقلها الى سورية ومنها الى فارس
وتركستان ، وكذلك استفاد العرب من الروم الواناً مختلفة من فنون
العمارة وكان ما اخذوه من الفرس في هذا الباب قليلاً جداً .

وصف دور الاعبياء

ويقول السيد امير علي في وصف دور الاعبياء في دمشق ما يأتي :
« لم يتغير طراز البيوت وتزيينها في دمشق عما كان عليه في عهد الامويين
على الرغم من مرور مئات السنين ، فتوى البواب جالسا على مقعد
خشي امام الباب كما تراه الان في منازل الاعبياء ، وترى على باب
بيوت الفقراء قطعة من المعدن او الحديد تستخدم مظرة للباب .
وفي داخل الدار فناء مستطيل على جوانبه اروقة من الاعمدة ،
وارضه من الحجارة والرخام ، وبمشي مرصوف بالحجارة او الخشب على
اشكال هندسية منتظمة ، وفي الفناء نافورة يحيط بها حديقة صغيرة بها
الازهار الزكية ونظلمها اشجار البرنقال والليمون ، وعلى جانب الفناء
يقوم الايوان وهو عبارة عن صالة قد رصعت بالرخام والبلاط الملون ،
وتسعمل فاعة للاستقبال وقت الحر ، وفيه الباب كانت تقوم او تقام
عادة كوة مقفلة ، تزخرف بالاعمدة الرخامية ، ويوضع فوقها الطست
والابريق للوضوء .

« وكانت قصور الاعبياء مكونة من طابقين احدهما راسي وسفلي
الصالات ابواب تكسوها ستور كثيفة تؤدى الى الصالات والحجرات
الاخري .

« وفي الشتاء كانت الزخكسي ارض الايوان الرخامية ، وكذلك

الحجرات بالسجاد الثمين وتدفاً الحجرات بالموافد، أما في الصيف فكانت
النافورات والتوافذ كقبة بتلطيف حرارة الجو .
« وكانت سقوف الدار مزودة بنقوش على الطراز العربي ، ومطلبة
بالذهب ، ولم تكن هناك مقاعد ، فإذا كان صاحب الدار من اصحاب
المراكز السامية وضعت السجاجيد بعضها فوق بعض لتكون بمثابة مقعد
مرتفع له . »

العمارة في غير دمشق

وكانت المباني عند العرب اول الفتح وقبلها غابة في البساطة
والسذاجة فلم يكن في مكة إلا مبان قليلة اهمها الكعبة ، وكانت منازل
الاعضاء تبنى بالحجارة او اللبن بينما كانت معظم مباني المدينة من اللبن ،
الذي كان يتهدم وينقض بسرعة .

وكانت المنازل في الغالب طبقة واحدة ولها فناء ، وفي وسطها
بئر ، فلما اتسعت الفتوح الاسلامية في عهد عمر بن الخطاب وزادت
الثروة اقبل على المدينة عاصمة الدولة قبل دمشق اصحاب صناعة فن
العمارة من الاجانب فارثقي فن العمارة ، وشيد مشاهير العرب في مكة
والمدينة الدور الواسعة من الحجارة والرخام ، ويقال ان الدار التي
بناها عثمان كانت غابة في العظمة والبهاء ، وقد هدم مسجد الرسول
بالمدينة واعاد ببناءه بالحجارة والرخام ، كما عمر عبد الملك بن مروان
المسجد ~~الطاهر~~ ^{الطاهر} .

وجلب السوارى من البحر الى جدة ، وسقفه بالساج ، وعمره عمارة
حسنة ، ثم وسع ابنه الوليد فيه ، وحمل اليه اعمدة الحجارة والرخام ،
وفعل الوليد مثل ذلك في المسجد النبوي في المدينة .

امتياز العمارة العربية

ولما استولى العرب على الشام وفارس اتخذوا لأنفسهم طرازاً خاصاً للعمارة - بعد ان استقروا كما قدمنا - يتناسب مع طبيعتهم وذوقهم ، وقد فاق هذا الطراز طراز الفن البيزنطي والفارسي من حيث الرقي وجمال التنسيق والاتقان ، والعرب الى ذلك مقلدون من الطراز الاول ، فهم يأخذون ما عند غيرهم ويضيفون من ذوقهم عليه .

والعمارة العربية تتأثر بالاعمدة والمنحنيات والمآذن والقباب ، وهي قائل النخيل الذي هو اعز شيء عند العرب ، وكذلك توى روحهم ونفسيهم ظاهرة حتى في تخطيط المدن التي كانوا يحيطونها بأسوار منيعة للدفاع عنهم ، ولما كانوا يكرهون المركزية ، فقد خلقوا في المدينة ما القوه في البادية ، وراحوا يعيشون فيها كما كانوا يعيشون في البادية ، قبائل مستقلة ، لكل قبيلة حيا ومنازلها ومسجدها وسوقها ومقابرها ، وكان لكل حي ابواب منيعة تفصله عن الاجزاء الاخرى ، بحيث اصبحت المدينة مجموعة مدن صغيرة ، وهذا التقسيم بلائم ما درجوا عليه من حب الحرية والانفة من الخضوع لغير زعيم القبيلة . واذا ما قامت ثورة او اضطراب في المدينة كانت تطلق الابواب فتقطع المواصلات بين اجزاء المدينة المختلفة .

العمارة خارج دمشق

ومن المدن التي انشاها العرب ولا تزال قائمة حتى اليوم البصرة والكوفة في العراق وقد عرضنا لحديثها وكيف صار انشاؤها لتكونا مركزاً عسكرياً للعرب ومادة للجند ...

وكذلك صار انشاء الفسطاط في مصر بامر عمر بن الخطاب ، في المكان الذي يقوم فيه حصن بابليون ، وقد اصبح الفسطاط اليوم قسماً من مدينة القاهرة ، وكانت بيوت العرب فيها اول الامر طبقة واحدة ، ثم اخذت الدور تزداد في الاتساع والعلو شيئاً فشيئاً ، حتى صار ارتفاع اغلب الدور خمس طبقات وستاً وسبعاً وأكثر ، واصبح يسكنها المائتان من الناس بعد ان كان لا يسكنها إلا امرة قليلة العدد . وظلت مدينة الفسطاط قاعدة لمصر ومقرّاً للامارة حتى بنيت مدينة المعسكر سنة ١٢٣ هجرية فنزل فيها امراء مصر وسكنوها .

قبة الصخرة

ومن المباني التي صار انشاؤها في عهد الامويين قبة الصخرة في القدس سنة ٦٩١ ، وذلك بامر عبد الملك بن مروان نكبة بن الزبير لما استقل بالحجاز ، ثم اعاد المأمون تجديدها ٨١٣ - ٨٣٣ ووضع اسمه مكان اسم عبد الملك واسكنه نسي التاريخ قطل على حاله ، وعبد الملك ايضاً بني مسجداً بالقرب من القبة ، ويظهر انه مع الابام صار ضمه الى القبة فاصبح المسجد الاقصى .

البناء عند العرب

والواقع انه اذا كانت هناك اثر عربية يصح ان تسمى عمارة فقد وجدت طبعاً في اليمن قبل كل شيء ، لان اول حضارة عربية نشأت في هذه المنطقة من الجزيرة قبل غيرها ، والمعلومات التي عندنا منها قليلة لا تمكن المؤرخ من تقديرها ، وهذا المن المعماري الذي نشأ في جنوب الجزيرة لم يكن له في حال من الاحوال تأثير على شمالها .

فقد كانت الحُيُم أكثر استعمالاً في الشمال من البيوت القائمة من
الطين والحجارة ، وكان الغراء الطلق والرمل النقي أقرب إلى نفوس
القبائل وأشد تأثيراً عليهم .

أما سكان المدن للقليلة التي كانت موجودة في شمالي الجزيرة ، فكانت
منزلهم بسيطة جداً ، تبنى من اللبن ، وتسقف بحشب النخل أو الطين
ليس فيها شيء من الترف ولا من الرفاهية .

حتى الكعبة ، وهي المكان المقدس عندهم ، لم يكن فيها شيء ،
وإنما كانت عبارة عن بناء مربع قائم ليس له غطاء أو سقف .

وأما الآثار التي وجدت في بئرا ومدائن صالح وتدمر ، والآثار التي
نعود إلى المذنب بن الحارث الغساني ، فإنها ليست عربية ككل العربية ، وإنما
هي مزيج من آثار البوفايين والمصريين والسوريين .

وأول الآثار العربية الحقيقية توجد في المساجد كما قدمنا ، حيث نجت
فيها رغبة الأمة في اظهار اجمل ما عندها من فن في الاماكن المقدسة .
وقد حقق المسلمون لوناً جديداً من الزان الماهرة بسيطاً وجميلاً ،
اقتبسوا فكره ، من سبقهم ولكنهم جعلوا فيه الكثير من روحهم
وعبقريتهم .

وقد عني العرب قول ما عنوا بالمساجد كما قدمنا وكان المسجد مربعاً ،
ولم يقيموا حوله جداراً في اول الامر ، وإنما حفروا خندقاً ... ولم يكن
في المسجد من جديد الا (المنبر) وبعد سنوات صار انشاء المقصورة في
الجوامع ، وهي غرفة صغيرة توضع في جانب من جوانب المسجد ،
وجدرانها من الخشب ، وقد استعملها معاوية بن ابي سفيان في مسجد
دمشق للمحافظة على نفسه بعد حادث الاغتيال .

وأما المنارات التي تراها اليوم تزين المساجد الاسلامية فلم تظهر الا

في اواخر القرن الهجري الاول، ثم ظهر الحراب بقليل بعدءاء، وكذلك نرى انه بعد ثمانين سنة من بناء اول مسجد في المدينة، تمكن المسلمون من الوصول الى الكمال في بناء المساجد وزخرفتها خصوصاً بعد بناء مسجد دمشق الاموي ثم زيد الابوان على المساجد وهو عبارة عن صحن كبير تقوم فيه الاعمدة الضخمة، ترد المطر وحرارة الشمس، كما تقام فيه في الوقت نفسه اقية الماء لوضوء المصلين.

والمساجد التي ذكرناها لا تحتفظ اليوم باصولها القديمة، ولكن الفن الهندسي الذي استعمل فيها صار معروفاً، وهو الذي يهنا لدواة فن العمارة عند العرب.

وبما بلغت النظر السرعة العجيبة التي انصرف فيها المسلمون بعد وفاة رسول الله الى بناء المساجد وتزيينها والاحسان فيها خصوصاً اذا علمنا شدة كلف المسلمين في هذا العهد الاول بالحياة البسيطة البعيدة عن الزهو والكبرياء والزينة.

والمسجد ما في ذلك شك هو شيء عربي، اختص به العرب دون غيرهم، ولا ريب ان الحج كان من الاسباب التي وحده عمارة المساجد في مختلف انحاء العالم الاسلامي، بحيث جرى المسلمون في بناء مساجدهم على نحو واحد تقريباً.

بنو امية بين الحضارة والبادية

والواقع انه لم يأت القرن الاول على نهايته حتى كان العرب ينعمون بكثير من الوان الرفاهية، وبعضهم كان ينعم بها على قدر، فكانت يقدم رجلاً في المدينة، ويؤخر أخرى في الصحراء، محافظة منهم على صحتهم وعاداتهم واخلاقيهم.

وفي عهد امية نرى الخلفاء انفسهم يجمعون بين الامرين ، بين
الوفاء والنعم ، وبين الحشونة والجفاف ، كحال معاوية وعبد الملك
وهشام ، وكان الخلفاء يصرفون اكثر سني خلافتهم في البوادي طلباً
للصحة والهواء النقي وهرباً من الاوبئة والطاعون . - وكان يكثر في
المدن - فكان معاوية يقيم احياناً في غوطة دمشق ، وينصب الابنية
والاروقة ، ويشتر في الصنبرة على ثلاثة اميال من طبرية ، وكان
لكثير من بني امية قصور في الغوطة ، وكان لعبد الملك في البيرة عدة
قصور ، وابنى الابنية حول قصر (الموقر) على ساعتين من عمان قرب
قصر المشتى على مقربة من مادبا .

وسكن حصن الموقر يزيد بن عبد الملك ، واستقر الوليد بن يزيد
والعباس بن الوليد في القسطل بالبلقاء ، والوليد في الزيزاء ، وقصر
الازرق وقصر عمرا ، وهذا الاخير كان آية من آيات الصناعة التصويرية
اذ كانت جدرانه ملأى بالنقوش الجميلة البديعة ، ولا يزال بعضها قائماً
حتى الآن . وكان قصر البخراء للنعمان بن بشير وهو قرب تدمر ، وذكروا
ان الوليد بن يزيد بن عبد الملك قتل فيه .

وكان هشام ينزل في الزيتونة في بادية الشام ، فلما عمر الرصافة انتقل
اليها ، والرصافة غربي الرقة بينهما اربعة فراسخ على طريق البيرة .
وكان يزيد في معاوية يقيم في حواريين وتدمر ، وابنه خالد سكن
في البلقاء . وكانت سليمان بن عبد الملك يشتر بدابق ، وغيرها وينزل
الوليد في حوران .



وينزل عمر بن عبد العزيز (دير سمعان) وبه مات ، وهو قرب
النعمان . كما كان ينزل خناصره وهي نخاذي قنسرين .

مصادر الكتاب

ذهب بعض المؤرخين الى ذكر المصادر تحت كل فقرة او رأي من ارائهم ، وذهب البعض الاخر الى الاكتفاء بذكر مصادرهم في آخر الكتاب ، وقد ذهبنا نحن في هذا الكتاب مذهباً وسطاً فذيلنا كتابنا ببعض المصادر ، ورددنا باقيها وهو كثير الى فصل خاص بطلنا فيه كل المصادر التي اقتبسنا منها بعض مصادر كتابنا هذا ..

ومن المفروض ان تختلف المصادر باختلاف اصحابها ، فبعضها ضعيف ، اعتمد فيه اصحابها على كتب لم نجز الثقة المطلقة عند جماعة المؤرخين ، والبعض الاخر اضعفته عصبية مؤلفه ورغبته في اقرار مذهبه فيها اجري قوله فيه ، وقد اخذنا نحن بافضل هذه المصادر واثقنا ، فكانت كتب السلف من المؤرخين من اهم ما اعتمدنا عليه ، واثبت كتب المستشرقين بعدها ، كما اعتمدنا في الوقت نفسه على المصادر البيزنطية خصوصاً اذا وافقت مؤلفات السلف وابتدت ما ذهبوا اليه ...

واما مؤلفات المستشرقين فقد اعتمدنا مصادرهم فيما يتعلق بالادارة والشؤون المالية والعسكرية والسياسية بسين الدولة العربية والدول المجاورة ، كما اعتمدنا بحوثهم الخاصة ونقشاتهم الجديدة ، وارايتهم الحديثة في بعض ما يتصل بالتقسيم والتبويب وغيرهما ، ولنا الى هذا من ينكرون فضلهم وان كان بعضهم يتعدى حدود التاريخ الى اصدار احكام ليست من التاريخ واحول النقد والانصاف في كثير ولا قليل ..

ومن الحق بعد هذا ان نذكر فضل المؤلفين العرب المعاصرين الذين

سبقونا في هذه الدراسات ، وتقدمونا في بحث هذه الموضوعات ، أمثال
استاذنا وصديقنا الكبير الدكتور محمد حسين عيكل باشا في كتبه الثلاثة :
« محمد » ، « أبو بكر » ، « عمر بن الخطاب » ، فإن طرافة أبحاثه ، ودقة
دراساته ، وحسن تقسيمه قد حثت إلى الناس قراءة التاريخ العربي ،
وجعله لنا عبثاً عذياً ...

وأما استاذنا وصديقنا الاستاذ محمد كرد علي فإن فضله في « خطاط
الشام » ، « الاسلام والحضارة العربية » عظيم كبير علينا ، كما أن كتاب
فجر الاسلام للاستاذ محمد أمين قد عبأ الجهد الذي اردناه لهذا البحث
الجديد ، ومثل هذا نقوله في مؤلفات الاستاذ حسن ابراهيم حسن وغيره
من الاساتذة والاصدقاء ...

ونظن بعد هذا أننا نحسن صنفاً إذا ذكرنا في هذا الباب مؤلفاتنا
التي استيفت كتابتها هذا والتي نشرتها المكتبة الاعلى في بيروت ، ودار
احياء الكتب العربية في مصر ، ودار النشر للجامعيين (مصر) ، ولجنة النشر
العربية في بيروت ، فإن هذه الكتب التي بيعت بالآلاف والتي
نقد منها حتى الآن ما يزيد عن مائة ألف نسخة كانت خير مشجع لنا على
المضي فيما اعتزمناه من درس التاريخ العربي الاسلامي على منوال اوسع ،
وتقسيم جديد ، وتبويب لطيف ، نعتقد بحق ان القراء سيتقبلونه بمثل ما
تقبلوا به كتبنا السابقة من تقدير وتشجيع ...

المصادر العربية

دائرة المعارف الاسلامية ، (الطبعة العربية) . الكامل ، لابن
الاثير . اسد الغابة ، لابن الاثير . الامم والملوك ، للطبري .
الاغانى ، لابي الفرج الاصفهاني . الطبقات الكبرى ، لابن سعد .

معجم البلدان ، لياقوت الحموي . معجم الادباء ، لياقوت الحموي .
الاصابة في اخبار الصحابة . فنوح البلدان ، البلاذري . مروج
الذهب ، المسعودي . التنبيه والاشراف ، المسعودي . تاريخ الطبري ،
لابن جرير الطبري . اخبار الحكماء ، للقفطي . الفهرست ، لابن النديم .
خطط انقرضي . اخبار ولاية مصر وقضاها ، للكندي . تاريخ مكة ،
للزركلي . شرح نهج البلاغة ، لابن ابي الحديد . كتاب البلدان ،
للهمداني . كتاب المسالك والممالك ، لابن حوقل . العقد الفريد ،
لابن عبد ربه . تاريخ ابن خلدون ومقدمته . البخاري ومسلم ، كتاب
الام ، للشافعي . مسالك الابصار في ممالك الامصار ، لابن فضل الله
العمري . الفصل في الملل والنحل ، لابن حزم . تاريخ التمدن
الاسلامي ، جرجي زيدان . الاسلام والحضارة العربية ، محمد كرد علي .
الملل والنحل ، للشهرستاني . طبقات المعتزلة ، المرتضى . فتح
العرب مصر ، بطر (الترجمة العربية) . شذوات الذهب في اخبار
من ذهب ، ابي الفلاح الحنبلي . البداية والنهاية في التاريخ ، لابن
كثير الدمشقي . ارشاد الساري في شرح صحيح البخاري ، القسطلاني .
عيون الاخبار ، لابن قتيبة . دائرة معارف وجدي . الاستيعاب في
معرفة الاصحاب ، لابن عبد البر (طبعة الهند) . امناح الاسماع ،
للمقرئزي . المعارف ، لابن قتيبة . شرح المواقف ، اللامي . تاريخ
الحضارة الاسلامية ، لبارنولد (الترجمة العربية) . تراث الاسلام ،
ولجنة من المستشرقين . مفكرو الاسلام ، كارادي فو (الاصل
الافرنسي) . التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، (ترجمة عبد الرحمن
بدوي) . الاخبار الطوال ، للدينوري . الفخري في الاداب
السلطانية والدولة الاسلامية ، ابن طباطبا . المختصر في اخبار البشر ،

ابو الفداء . نيل من كتاب الحراج وصناعة الكتابة ، فدامه . كتاب
 الولاة وكتاب القضاة ، الكندي . الاحكام السلطانية ، الماوردي .
 احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، المقدسي . تاريخ البعقوبي ،
 البعقوبي . كتاب الوزراء ، والكتاب ، للجيشباري . السيادة العربية
 والشعبة والاسرائيليات في عهد بني امية ، فان فلوق (الترجمة العربية)
 حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابراهيم . تاريخ الاسلام السيامي ،
 حسن ابراهيم حسن . النظم الاسلامية ، حسن ابراهيم حسن ، والدكتور
 علي ابراهيم حسن . كتاب المسالك والممالك ، لابن خردادبة . وفیات
 الأعيان ، ابن خلکان .

المكتب الانكليزية والفرنسية

- History of the decline and fall of the Roman Empire : GIBBON
 History of the Arabs : HITTI — London 1943
 Arabic thought and its place in history , O'LEARY
 — London 1939
 A literary history of the Arabs : NICHOLSON — London 1941
 Encyclopedia Britanica 14th edition,
 « of Islam
 A short History of the Saracens : AMEER ALI — London 1921
 The Preaching of Islam : ARNOLD — London 1913
 Sketches from Eastern History : NOLDEKE — London 1892
 The Penetration of Arabia : HOGARTH — London 1905
 A Literary History of Persia : BROWN — London 1906
 Arabic Literature : GIBB — London 1926
 Mohammed in Medina : WELHOSEN
 Life of mohammed : MUIR
 Mohammed and the rise of Islam : MARGOLIOUTH
 Mohammed and Islam : Bevan

The origin of Islam in its christian environment : BELL

— London 1926

The Caliphate : ARNOLD — London 1924

Annals of the early Caliphate : MUIR

The Caliphate its rise decline and fall : MUIR

Contributions to the history of Islamic civilisation :

KHUDA BUKHOH

Painting in Islam : ARNOLD 1928

Moslem Architecture : RIVOIRA — Oxford 1919

The Mystics of Islam : NICHOLSON — London 1914

The Religious Attitude and Life in Islam : MACDONOLD 1909

The History of Philosophy in Islam : DE BOER

Mohammedanism : SNOUCK HURGORONGEO

Histoire des Arabes : HWART — Paris

Essai sur l'histoire de l'Islamisme : DOZY

La civilisation des Arabes : LE BON — Paris 1868

L'Islame : LAMMENS

The Renaissance of Islam : METZ



وغيرها من الكتب والمؤلفات سواء أكانت في العربية أم الإنكليزية
أم الفرنسية ، وهذا عدا المقالات التي نشرت في المجلات التاريخية
الأجنبية والتي تعد بالآلاف بحيث أصبح من الصعب حصرها وتعدادها ..
والواقع أننا لم نترك مصدراً من المصادر يمكن الاستفادة منه إلا
اعدنا فيه نظراً واجربنا فيه اختباراً ، حتى خرج كتابنا هذا وقد اتى
على كل ما يتعلق باختصار الأموية مع أفضل الآراء وأقومها وأصدقها ...

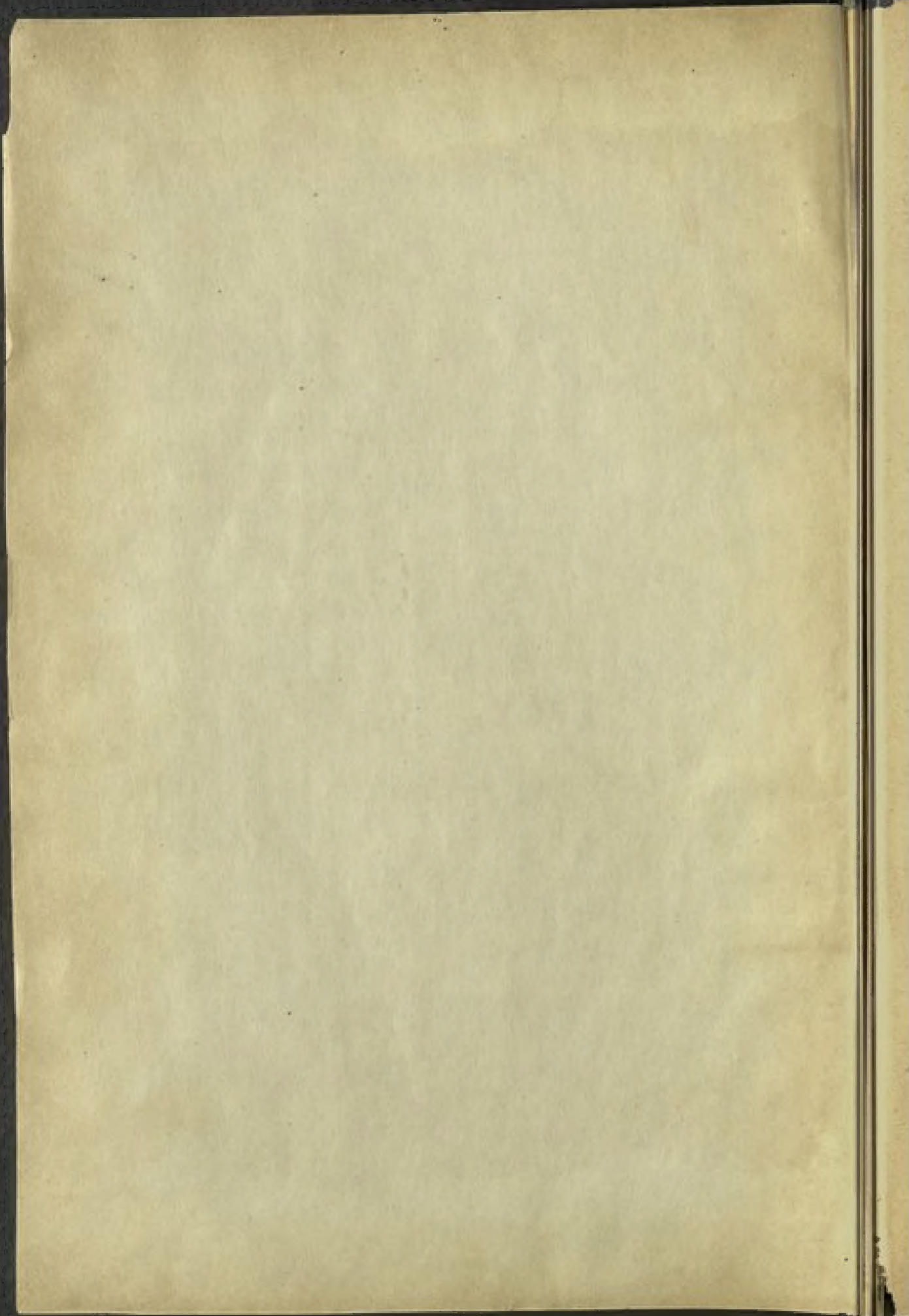
فهرس الكتاب

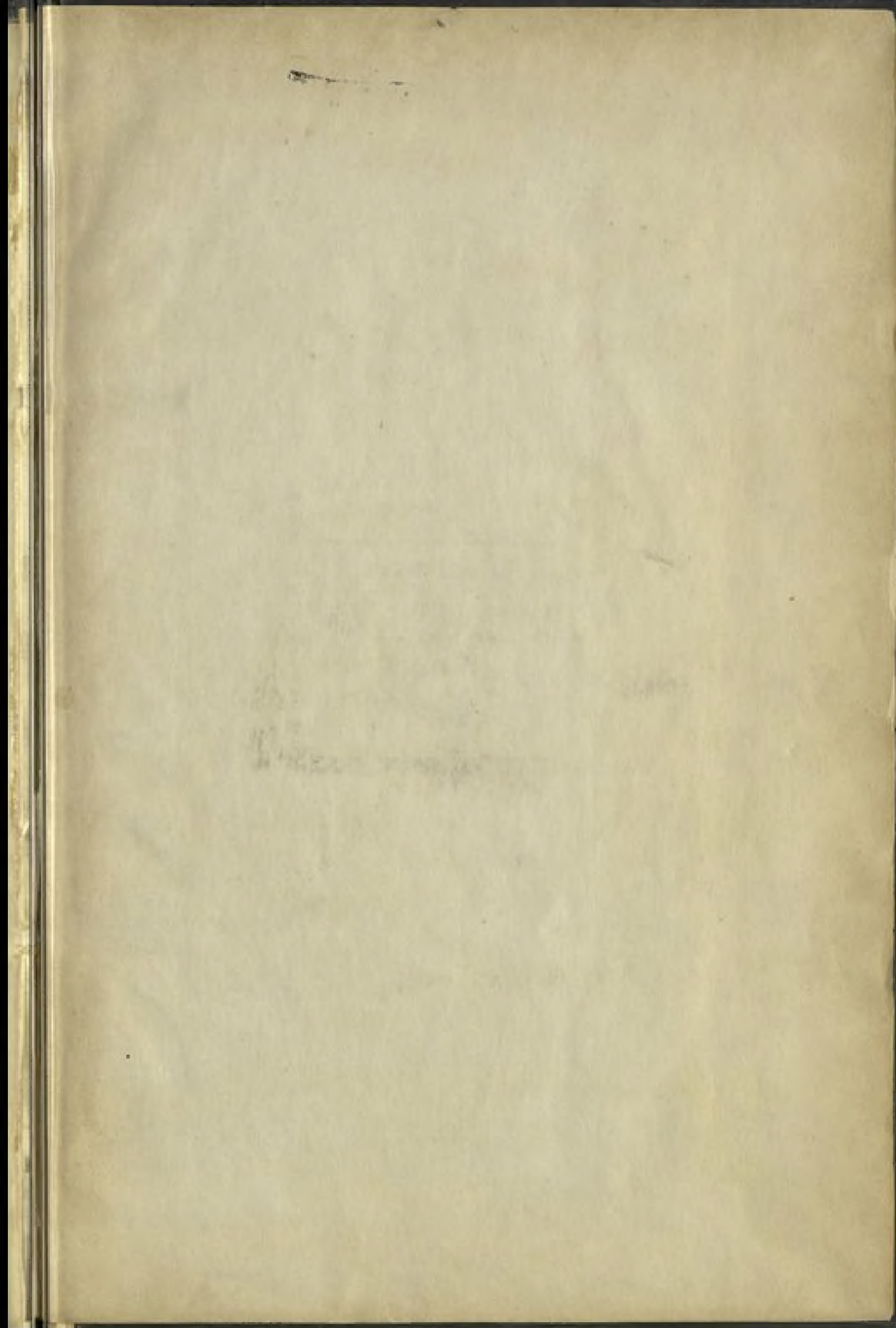
صفحة	الفصل	
٥		الاهل
٧		مقدمة الكتاب
٩	١	العرب والحضارات الاولى
٣٣	٢	الحضارة العربية الاولى
٥٧	٣	الجزيرة العربية قبل الاسلام
٧٣	٤	مكة وتاريخها قبل الاسلام
١٠٦	٥	محمد بن عبدالله
١٢٩	٦	نشوء الدولة
١٤٥	٧	النظام السياسي للدولة العربية
١٦٣	٨	السياسة الخارجية
١٧١	٩	الاسلام والديانات الاخرى
١٨٣	١٠	الحضارة العربية والحضارات الاخرى
١٩٩	١١	التنظيم الاداري في عهد الخلفاء الراشدين
٢١٧	١٢	النظام المالي في عهد الخلفاء الراشدين
٢٤٥	١٣	النظام المالي في العهد الاموي
٢٦٥	١٤	القضاء والتشريع
٢٨٣	١٥	مائة سنة من الحضارة العربية
٣٢٧	١٦	المذاهب الاسلامية الجديدة
٣٣٩	١٧	التربية والتعليم في الدولة الاموية
٣٤٩	١٨	نشر المعارف والعنوم
٣٧١	١٩	الفن والحياة الاجتماعية
٣٩١		المصادر

ماز طبع هذا الكتاب في مطابع
« روملوس » - بيروت ، وطبعت منه
مائة نسخة على ورق مصقول لن تعرض
تبيع

شوال ١٣٦٧

آب ١٩٤٨





أبو القاسم بكتري
الحضارة الأموية في دمشق

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01055912

American University of Beirut



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

